

التاريخ الإسلامى

دكتور

الحوارى عبد الرؤوف محمد اسماعيل

كلية الآداب

الطبعة الاولى

٢٠١٦م

الناشر

مكتبة الوفاء القانونية

موبايل: ٠٠٢٠١٠٠٣٧٣٨٨٢٢

تليفون ٠٠٢٠٣٥٤٠٤٤٨٠ الإسكندرية

مقدمة

كانت البشرية قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم تعيش في ظلمات كثيرة، وتتخبط في الجهل، وكثرت الوثنية، ووصل عدد الآلهة التي تُعبد من دون الله إلى عدد لم تعهده البشرية من قبل، وانتشرت المفاسد والشور والمساوئ الأخلاقية، وشمل الفساد كل بقاع الأرض، ثم شاء الله أن يرسل نوراً يزيل به ما على الأرض من ظلمة، فأشرقت شمس الإسلام، وتغيرت الموازين، ودبت الحياة في العالم. وأقام الإسلام مجتمعاً متكاملًا، فبنى الفرد المسلم الصالح، فكان أساساً لبناء المجتمع المسلم الصالح المترابط الذي يسير على منهج الله سبحانه، وكان لا بد من تكوين مجتمع مسلم؛ ليحمل عبء هذه الدعوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، والدفاع عنها بعد موته، ونشرها في كل أرجاء الدنيا.

وقد انشغل الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة في مكة بتربية الفرد المسلم؛ كأساس لبناء المجتمع المسلم، وقد تمثلت جوانب هذه التربية في عدة أمور، هي:

أولاً: تصحيح العقيدة:

أخرج الإسلام الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد القهار، وإلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وأخرجهم من عبادة المادة إلى عبادة الله، وأراد تحريرهم من التخلف العقلي والعقائدي، وترقيق مشاعرهم وأحاسيسهم، والسمو بها إلى أعلى منزلة، فوصل هذا الإيمان إلى أعماق

قلوبهم ، وحوّل هذا الإنسان من الدفاع عن قبيلته وعشيرته إلى التفاني في سبيل الدفاع عن دينه وعقيدته ، والعمل على نصر هذا الدين ، والحرص على نشره ، وتبليغه للناس ابتغاء مرضاة الله.

فهذا الصحابي الجليل ربيعي بن عامر يدخل على رستم - قائد الفرس - فلا يهتم بالزخرفة والزينة التي تحيط به ، فيقول له رستم: ما جاء بكم ؟! فيرد عليه ربيعي قائلاً: إن الله ابتعثنا لنخرج مَنْ شاء مِنْ عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ثانياً: السمو الخلقي، والتخلق بأخلاق القرآن:

كان كثير من العرب يفعلون الفواحش والمعاصي ، وعندما جاء الإسلام ألبسهم ثوب العفة والطهر ، فغضوا أبصارهم ، واستقبحوا الفواحش والمعاصي ، وذلك بفضل الضمير الحي الذي يراقب الله ويخشاه ، والذي رباه القرآن في المسلم ، فإذا غلبه الشيطان والهوى ووقع في معصية ، عاتبه ضميره ، وسرعان ما يتوب ، ويطلب أن يقام عليه الحد إن كانت المعصية مما يوجب إقامة الحد.

وكان العربي يحمل السيف ويعتدي على غيره بسبب وبغير سبب ، وكانت الحروب تستمر بين العرب وبعضهم لفترات طويلة ، فجاء الإسلام فحرمّ البغي والعدوان ، ونشر الأمن والسلام ، فصار الناس رحماء بعد أن كانوا معتدين.

ثالثاً: التحاكم إلى الله ورسوله:

كان العرب يتحاكمون فيما بينهم إلى شرائع توارثوها عن آبائهم، واحتكموا إليها بأهوائهم، فجاء الإسلام فأنهى تلك الفوضى، ورد الحكم إلى الله سبحانه، قال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) [النساء: ٦٥].

رابعاً: المسؤولية الشخصية والولاء للدين:

أكد الإسلام على المسؤولية الشخصية، واعتبرها أساس المسؤولية في الإسلام، وقد كان العربي - قبل الإسلام - يناصر قبيلته سواء كانت ظالمة أو مظلومة، فلا يهمه هل هي على حق أم على باطل، فجاء الإسلام فعلم المسلم أن أساس الحساب أمام الله هو المسؤولية الشخصية، وعلم الإسلام الإنسان أن يكون ولاؤه لدينه فقط، قال تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

خامساً: تكريم المرأة:

اعتنى الإسلام بالمرأة عناية كبيرة، ورفع مكانتها، وأعلى منزلتها، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : والله لقد كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل.

الفصل الأول

تاريخ العرب قبل الإسلام

الفصل الأول

تاريخ العرب قبل الإسلام

العرب والحبش

صلات العرب بالحبشة صلوات قديمة معروفة ترجع إلى ما قبل الميلاد. فبين السواحل الأفريقية المقابلة لجزيرة العرب وبين السواحل العربية اتصال وثيق قديم، وتبادل بين السكان. إذ هاجر العرب الجنوبيون إلى السواحل الأفريقية وكونوا لهم مستوطنات هناك، وهاجر الأفارقة إلى العربية الجنوبية، وحكموها مراراً، وقد كان آخر حكم لهم عليها قبل الإسلام بأمد قصير. ويرى بعض الباحثين إن أصل الحبش من غرب اليمن من سفوح الجبال، وفي اليمن جبل يسمى جبل "حُبَيْش"، قد يكون لاسمه صلة بالحبش الذين هاجروا إلى أفريقية وأطلقوا اسمهم على الأرض التي عرفت باسمهم، أي "حبشت" أو الحبشة.

ويرون أيضاً إن "الجعز" أو "جعيزان" كما يدعون كذلك، هم *cesani* للذين وضع "بليني" منازلهم على مقربة من "عدن". فهم من أصل عربي جنوبي. هاجر إلى الحبشة وكون مملكة هناك. وإلى هؤلاء نسبت لغة الحبش، حيث عرفت بالجعزية، أي لغة الجعز.

ويظن إن العرب الجنوبيين هم الذين مؤنوا السواحل الأفريقية المقابلة بالعناصر السامية. وكانوا قد هاجروا مراراً إليها، ومن بين تلك الهجرات القديمة، هجرة. قام بها السبئيون في القرن الخامس قبل الميلاد. وقد هاجر معهم "الحبش" في ذلك الوقت أيضاً. وقد توقف سيل الهجرات

هذه حين ندخل "البطالمة" في البحر الأحمر، وصار لهم نفوذ سياسي وعسكري على جانبي هذا البحر. غير أنها لم تقطع انقطاعاً تاماً، إذ يرى بعض الباحثين أن العرب كانوا قد دخلوا الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة فيما بعد الميلاد أيضاً، فنزحوا إليها فيما بين السنة "٢٣٢" والسنة "٢٥٠" بعد الميلاد مثلاً، حيث ركبوا البحر ونزلوا هناك.

وقد تبين أن السبثيين كانوا قد استوطنوا في القرن السادس قبل الميلاد المناطق التي عرفت باسم "تعزية Ta'izziya" من أرض "أريتريا" ونجد الحبشة، وكوّنوا لهم حكومة هناك. وأمدوا الأرضين التي استولوا عليها بالثقافة العربية الجنوبية. ولم يقطع هؤلاء السبثيون صلاتهم بوطنهم القديم، بل ظلت أنظارهم متجهة نحوه في تدخلهم وهم في هذا الوطن بشؤونهم وارسالهم حملات عليه واحتلالهم له في فترات من الزمن. ولعلّ ما جاء في أحد النصوص من "مصر" الحبشة، قصد به هؤلاء الذين كانوا قد استوطنوا تلك المنطقة من إفريقية.

وفي القرن السادس قبل الميلاد، كان الاوسانيون قد نزحوا إلى السواحل الإفريقية الشرقية، فاستوطنوا الأرضين المقابلة ل Pemba "زنزبار Zanzibar" وهي "عزانيا Azania"، وتوسعوا منها نحو الجنوب. وقد عرف هذا الساحل في كتاب "الطواف حول البحر الأريتري"، باسم Ausaniteae وهو اسم يذكرنا ب "أوسان". وقد ذكر مؤلف الكتاب، أنه كان خاضعاً في أيامه "القرن الأول بعد الميلاد"، لحكام Mapharitis. ويريد بهم حكام دولة "سبأ وذو ريدان".

وقد عثر الباحثون على حجر مكتوب في حائط كنيسة قديمة بالقرب من "أكسوم"، وإذا به كتب بالسبئية، وفيها اسم الإلهة السبئية "ذت بعسن" "ذات بعدن" "ذات البعد" وعثر على بقايا أعمدة في موضع "يحا" الواقع شمال شرقي "عدوة Adua"، تدل على وجود معبد سبئي في هذا المكان، كما عثر على مذبح سبئي خصص بالإله "سن" "سين". وعثر على كتابات وأشياء أخرى تشير كلها إلى وجود السبئيين في هذه الأرضين.

وعرف ملك الحبش ب "النجاشي" عند العرب. واللفظة لقب تطلقه العربية على كل من ملك الحبشة، فهي بمنزلة "قيصر"، اللفظة التي يطلقها العرب على ملوك الروم، و "كسرى" التي يطلقونها على من حكم الفرس، و "تبع" التي يطلقونها على من يحكم اليمن. أما في العربية الجنوبية، فقد أطلقت لفظة "ملك" على من ملك الحبشة، وقد ورد "ملك اكسمن"، أي "ملك اكسوم" وورد "ملك حبشت"، أي ملك الحبشة. فأخذ العرب اللفظة من الحبش. وهي في الحبشية بمعنى جامع الضريبة، والذي يستخرج الضريبة، فهي وظيفة من الوظائف في الأصل، ثم صارت لقباً. وورد في بعض النصوص العربية الجنوبية اذ لقب به "جدره" مثلاً.

ويظن إن مملكة "أكسوم" التي ظهرت في أوائل أيام النصرانية، قد كانت دولة أقامها العرب الجنوبيون في تلك البلاد. وقد استطاع الباحثون من العثور على عدد من الكتابات تعود إلى ملوك هذه المملكة، دون بعض منها باليونانية مما يدل على تأثر ملوك هذه

المملكة بالثقافة اليونانية وعلى وجود جاليات يونانية هناك نشرت ثقافتها في الحبشة. وقد عرفت هذه المملكة بمملكة "أكسوم" "أكسمن" نسبة إلى عاصمتها. مدينة "أكسم" "أكسوم".

وقد كان ملوك أكسوم وثيين. بقوا على وثيتهم إلى القرن الرابع أو ما بعد ذلك للميلاد. ويظن إن الملك "عزانا Ezana" وهو ابن الملك "الاعميدا Ela-Amida"، هو أول ملك تنصر من ملوك هذه المملكة وذلك لعثور الباحثين على آثار تعود إلى عصر، ترينا القديمة منها انه كان وثياً، وترينا الحديثة منها انه كان نصرانياً، مما يدل على أنه كان وثياً في أوائل أيام حكمه، ثم اعتنق النصرانية، فأدخل شعارها في مملكته، وذلك بتأثير المبشرين عليه.

وفي جملة ما يستدل به على تأثر العرب الجنوبيين في الحبش، هو الأبجدية الحبشية المشتقة من الخط العربي الجنوبي. وقرب لغة الكتابة والتدوين عندهم من اللهجات العربية الجنوبية. وبعض الخصائص اللغوية والنحوية التي تشير إلى أنها قد أخذت من تلك اللهجات. ثم عثر العلماء على أسماء الهة عربية جنوبية ومعروفة في كتابات عثر عليها في الحبشة والصومال. ووجودها في هذه الأرضين هو دليل على تأثر الافريقيين بالثقافة العربية الجنوبية، أو على وجود جاليات عربية جنوبية في تلك الجهات.

وكما تدخل العرب في شؤون السواحل الإفريقية المقابلة لهم، فقد تدخل الافريقيون في شؤون السواحل العربية المقابلة لهم. لقد تدخلوا في أمورها مراراً. وحكموا مواضع من ساحل العربية الغربية ومن

السواحل الجنوبية وتوغلوا منها إلى مسافات بعيدة في الداخل حتى بلغوا حدود نجران.

ويظهر من الكتابات الحبشية، أن الحبش كانوا في العربية الجنوبية في القرن الأول للميلاد. وقد كانوا فيها في القرن الثاني أيضاً. ويظهر أنهم كانوا قد استولوا على السواحل الغربية، وهي سواحل قريبة من الساحل الافريقي ومن الممكن للسفن الوصول اليها وانزال الجنود بها. كما استولوا على الأرضين المسماة بـ *Kinaidokopitae* في جغرافية "بطلميوس".

وورد في نص من النصوص الحبشية أن ملك "أكسوم" كان قد أخضع السواحل المقابلة لساحل مملكته، وذلك بارساله قوآت برية وبحرية تغلبت على ملوك تلك السواحل من الـ "Arrhabite" "الأرحب" "الارحبية" "أرحب" *Kinaidokolpite*، وأجبرتهم على دفع الجزية، وعلى العيش بسلام في البروف في البحر. ويرى بعض الباحثين إن المراد بـ "Arrhabite" بدو الحجاز. وأن *Kinaidokolpite* هم "كنانة". وأن السواحل التي استولى الأبحاش عليها تمتد من موضع "لويكه كومه" *Leuke Kome* "القرية البيضاء" إلى أرض السبئيين.

ويرى "فون وزمن" أن احتلال الحبش لأرض *Kinaidokoplitae* الأرض المسماة باسم قبيلة لا نعرف من أمرها شيئاً، والتي ورد اسمها في كتابة *Monumentum Adulitanum* فقط وفي جغرافية "بطلميوس"، كان قبل تدوين تلك الكتابة وربما في

حوالي السنة "١٠٠" بعد الميلاد. ويراد بها ساحل الحجاز وعسير من ينبع
lanbia في الشمال إلى السواحل الجنوبية الواقعة على البحر العربي
شمال "وادي بيش"، فشملت الأرض المذكورة والتهائم والساحل كله.
غير أننا نجد أن مؤلف كتاب "الطواف حول البحر الأريتري" يشير من
جهة أخرى إلى أن الساحل الأفريقي المسمى بـ "تجانيقا" في الوقت
الحاضر كان في أيدي الحميريين في ذلك الوقت. ومعنى ذلك إن ملك
حمير استطاع في أيام ذلك المؤلف من الاستيلاء على ذلك الساحل ومن
ضمه إلى ملكه. كما فعل أهل حضرموت وعمان فيما بعد.

ووردت جملة "أحزب حبشت" في النص الموسوم بـ "CIH"
"314+954" وهي تشير إلى وجود "أحزاب" أي جماعات من الحبش في
العربية الجنوبية. وقد يراد بها مستوطنات حبشية وقوات عسكرية
كانت قد استقرت في تلك البلاد. كما وردت في النص الموسوم بـ
"535 Ryckmans" إذ يذكي يتحدث عن حرب أعلنها "الشرح يحضب"
على "أحزب حبشت"، و "ذى سهرتن" و "شمر ذى ريدان".
وأشار "اصطيفان البيزنطي" إلى قوم دعاهم Abasynoi يظهر من قوله
إن مواطنهم كانت في شرق حضرموت. ويفهم من كلامه أن هؤلاء
كانوا حبشاً يقيمون في هذه الأرضين. وقد يكونون قد استولوا عليها
بانقوة وألحقوا ما استولوا عليه بمملكة أكسوم.

وورد في كتابات تعود إلى أيام "علهان نهقان"، بأن هذا الملك
كان قد تفاوض مع "جدرت" "جدره" ملك "أكسوم" والحبشة لعقد صلح
معه. ويظهر من جملة "واقول وقدمن واشعب ملك حبشت"، أي "واقبال

وسادات وقبائل ملك الحبشة"، الواردة فيها، أن ملك الحبشة كان يحكم جزءاً من العربية الجنوبية في ذلك الوقت، وأن الملك "علهان نهفان" تفاوض معه لتحسين العلاقات السياسية فيما بينه وبين الحبش ولضمان مساعدتهم في حروبه مع منافسيه وخصومه. ويرى "فون وزمن" أن تلك المفاوضات كانت قد جرت في حوالي السنة "١٨٠" بعد الميلاد. وقد عقد "علهان" حلفاً مع الحبش، ويظهر أنه عقده بعد انتهائه من الحرب التي أعلنها على حمير. تلك الحرب التي اشترك الحبش فيها أيضاً وكذلك أهل حضرموت. ولما عقد "علهان" الحلف مع الحبش، كان ابنه "شعر أوتر" قد اشترك معه في الحكم.

ولم يدم الحلف الذي عقد بين "علهان" وابنه "شعر أوتر" من جهة والحبش من جهة أخرى، إذ سرعان ما نقض ووقعت الحرب بين "شعر أوتر" وبين "الحبش" على نحو ما ذكرت في أثناء حديثي عن حكم "شعر أوتر". إلا أنه لم يتمكن من القضاء عليهم، ولم يزحهم عن اليمن. بل بقوا في الأرضين التي كانت خاضعة لهم والتي تقع في الجزء الغربي من اليمن.

وقد جاء اسم "جدرت" "جدرة" على هذه الصورة: "جدر نجش اكسم" في النصوص. وورد على هذه الصورة: "جدرت ملك حبشت واكسمن" في النص الذي وسم ب **Jamme** ومعنى الجملة الأولى "جدر نجاشي أكسوم".

ومعنى الجملة الثانية "جدره ملك الحبشة وأكسوم". وقد قدر بعض الباحثين زمان حكم هذا النجاشي بحوالي السنة "٢٥٠" بعد الميلاد.

ويظهر إن الحبش كانوا قد تمكنوا من دخول "ظفار" عاصمة حمير، وذلك فيما بين السنة "٩٠" و "٢٠٥" بعد الميلاد. وذلك في أيام "لعزز يهنف يهصدق". ولا ندري إلى متى بقوا فيها. والظاهر أن حكمهم فيها كان قصيراً.

وقد كان نزول الحبش في أرض اليمن في أيام حكم الملك الحبشي "عذبة" على ما يظن. وكان هذا الملك على صلوات حسنة بالرومان، ففتح بلاده للمصنوعات الرومانية النفيسة، وظل الحبش في اليمن في أيامه حتى وفاته، فلما توفى أو عزل تولى ملك آخر مكانه هو "زوسكالس Zoskales" وقد أدى هذا التغير إلى تبدل الحال، إذ اضطر الحبش إلى النزوح من الأماكن التي كانوا قد استولوا عليها. ويرى بعض الباحثين إن ثورة قامت في الحبشة على حكم "عذبة" وأحلت "زوسكالس" محله. فانتهز أهل اليمن فرصة انشغال الحكومة بالاضطرابات التي وقعت بهذه الثورة، ونهضوا على الحبش فأخرجوهم عن ديارهم، وأخرج الحبش من السواحل التي كانوا قد استولوا عليها، المعروفة بـ Kinaidokolpitae ، ويراد بها ساحل الحجاز وعسير.

ووردت في النص الموسوم بـ "Rychmans 535" ، لفظة "وذبه" "وذبه" ثم ذكرت بعدها جملة: "ملك اكسمن" ، أي "ملك الاكسومين" ، أو "ملك الأكسوميين". وهو الملك الذي استعان به "شمر ذو ريدان". وقد

قرأ بعض الباحثين لفظة "وذبه" على هذه الصورة "عذبة" أو "وزبه". وذهبوا إلى أنه ملك الحبشة الذي استعان به "شمر ذو ريدان" ٤، والذي تدخل في شؤون اليمن فيما بين السنة "٣٠٠" و "٣٢٠" بعد الميلاد، ويظهر من اللقب الطويل الذي تلقب به ملك "أكسوم"، أي الحبشة Ethiopia وهو الملك "عيزانا Ezana"، أن اليمن وما جاورها من أرضين كانت خاضعة لحكم الحبش في أيامه أيضاً. أما لقبه الذي تلقب به فهو: "ملك اكسوم وحمير وريسان وسبأ وسلحن"، ويذكر بعد هذا اللقب أسماء ثلاثة مناطق افريقية كانت تحت حكمه، ثم ختم هذا اللقب بتمته، وهي جملة: "ملك الملوك" و "سلحن" "سلحين"، هو قصر ملوك سبأ وذو ريدان بمأرب.

وكان الملك "عيزانا" "عزانا"، قد دخل في النصرانية بتأثير المبشر "فرومنتيوس"، الذي أرسله إليه الملك "قسطنطين" ملك البيزنطيين عام "٣٥٠" للميلاد أو "٣٥٦". وقد فرض هذا الملك النصرانية على شعبه وأعلنها ديانة رسمية لمملكته كما جعل الديانة الرسمية للعربية الجنوبية.

وكانت العربية الجنوبية خاضعة لحكم أبيه، ولعله هو الذي أدخلها في حكمه. إذ كان أبوه وهو "الاعميدا Ella 'Amida"، قد لقب نفسه باللقب المذكور. ويرى بعض الباحثين أن حكم "عيزانا" لم يكن فيما بين السنة "٣٣٠" و "٣٥٠" بعد الميلاد أو بعد ذلك كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، بل كان في حوالي السنة "٤٥٠" للميلاد. ويرى أن ملكاً آخر كان قد تدخل في شؤون اليمن واستولى على ساحل

Kinaidokopitae، هو الملك "سمبروتس Sembruthes" وقد

حكم على رأيهم في حوالي السنة "٤٠٥" بعد الميلاد.

ويرى بعض الباحثين أن الحبش استولوا على العربية الجنوبية بعد

وفاة "شمر يهرعش"، وأن ذلك كان في حوالي السنة "٣٣٥ م". وأن

"ثيوفيلس" نصرَّ عرب اليمن في حوالي السنة "٣٥٤ م"، إذ أنشأ كنيسة

في "ظفار". وقد صار رئيس أساقفة "ظفار" يشرف على الكنائس التي

أنشئت في اليمن وفي ضمن ذلك كنيسة "نجران" والكنائس الأخرى

التي بنيت في العربية الجنوبية إلى الخليج.

وأعرف تدخل للحبش في العربية الجنوبية، تدخلهم في شؤون

اليمن في النصف الأول للقرن السادس واحتلالهم اليمن، إذ بقوا فيها

أمداً حتى ثار أهل اليمن عليهم، فتمكنوا من انقاز بلادهم من الحبش

بمعاونة من الفرس. وتركوا بذلك اليمن أبداً.

ويظهر من بعض الكتابات أن حصن "شمر" والسهل المحيط به

كان في أيدي الحبش، وقد ورد فيها اسم موضع "مخون"، وهو "مخا".

ويرد اسم هذه المدينة لأول مرة. وتتناول هذه الكتابات حوادث وقعت

سنة "٥٢٨" بعد الميلاد. وتبدأ قصة دخول الحبش إلى اليمن على هذا

النحو: لما قتل ذو نواس من أهل نجران قريباً من عشرين ألفاً، أفلت منهم

رجل يقال له "دوس ذو ثعلبان" أو رجل آخر اسمه "جبار بن فيض" أو غير

ذلك، ففرَّ على فرس له، فأعجزهم حتى خرج فوصل الحبشة، وجاء إلى

ملكها، فأعلمه ما فعل "ذو نواس" بنصاري نجران، وأتاه بالانجيل قد

أحرق النار بعضه، فقال له: الرجال عندي كثير، وليست عندي سفن.

وأنا كاتب إلى قيصر أن يبعث إليّ بسفن أجعل فيها الرجال، فكتب إلى قيصر في ذلك وبعث إليه بالانجيل المحرق. فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة عبر فيها البحر ودخل اليمن.

وفي رواية أخرى إن "دوس ذو ثعلبان" قدم على قيصر صاحب الروم، فاستنصره على "ذي نواس" وجنوده وأخبره بما بلغ منهم، فقال له قيصر: بعدت بلادك من بلادنا ونأت عنا، فلا تقدر على إن نتناولها بالجنود. ولكني سأكتب لك إلى ملك الحبشة، فانه على هذا الدين، وهو أقرب إلى بلادك منا، فينصرك ويمنعك ويطلب لك بثارك ممن ظلمك. فكتب معه قيصر إلى ملك الحبشة يذكر له حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه، ويأمره بنصره وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه. فلما قدم دوس ذو ثعلبان بكتاب قيصر على النجاشي، بعث معه سبعين ألفاً من الحبشة، وأمر عليهم رجلاً من أهل الحبشة يقال له أرياط، وعهد إليه إن أنت ظهرت عليهم فاقتل ثلث رجالهم، وأخرب ثلث بلادهم، واسب ثلث نساءهم وأبنائهم. فخرج أرياط ومعه جنوده، وفي جنوده أبرهة الأشرم، فركب البحر ومعه دوس ذو ثعلبان حتى نزلوا بساحل اليمن. وسمع بهم ذو نواس، فجمع إليه حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فاجتمعوا إليه على اختلاف وتفرق لانقطاع المدة وحلول البلاء والنقمة، فلم تكن له حرب، غير أنه ناوش ذا نواس شيئاً من قتال، ثم انهزموا ودخلها أرياط بجموعه. فما رأى ذو نواس ما رأى مما نزل به وبقومه، وجه فرسه إلى البحر، ثم ضربه فسحل فيه، فكان

آخر العهد به. ووطىء "أرباط" اليمن بالحبشة، فقتل ثلث رجالها وأخرب
ثلث بلادها وبعث إلى النجاشي بثلاث سبائها، ثم أقام بها.

ويظهر من دراسة هذا المروي، أن الرواة كانوا على اختلاف
بينهم في حديثهم عن "أصحاب الأخدود". وقد أشار العلماء إلى هذا
الاختلاف. وقد اختلفوا في زمانهم أيضاً، واكتفى بعضهم بقولهم:
"وكانوا بنجران في الفترة بين عيسى ومحمد"، وقال بعضهم: انهم
كانوا باليمن قبل مبعث الرسول بأربعين سنة، أخذهم "يوسف بن
شراحيل بن تبع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحضر لهم أخدوداً
وأحرقهم فيه. وجعل بعضهم عدد من قتل من نصارى نجران عشرين
ألفاً، وجعله بعضهم اثني عشر ألفاً، وذكر بعض آخر إن أصحاب
الأخدود سبعون ألفاً. وقد قتلهم "ذو نواس اليهودي" واسمه "زرعة بن تبان
أسعد الحميري"، واسمه أيضاً "يوسف". وجعله بعضهم "يوسف بن ذي
نواس بن تبع الحميري". وجعلوا زعيم نصارى نجران، والذي ثبت
النصرانية فيها ونشرها بين النجرانيين رجل من أهل نجران، اسمه "عبد
الله بن ثامر". وكان قد أخذ النصرانية عن راهب، رآه فلازمه وتعلق به،
وأثر في قومه، بشفاؤه الأمراض بالدعاء لهم إلى الله لشفائهم، فدخل
كثير ممن شفوا وبرؤوا بدينه، وبذلك انتشرت النصرانية في نجران.

ولم يبين رواية الخبر المتقدم الأسباب التي دعت نجاشي الحبشة إلى
الطلب من قائده "أرباط" بأن يقتل ثلث رجال اليمن، ويخرب ثلث البلاد،
ويسبي ثلث النساء وأبناءهم وأن يتبع هذا النظام الثلاثي في العقوبة. ولم

يذكروا الموارد التي أخذوا منها خبرهم على طريقتهم في أخذ الأخبار من غير تمحيص.

وزعم "ابن الكلبي" أن السفن لما قدمت على النجاشي من عند قيصر، حمل جيشه فيها، فخرجوا في ساحل المنذب. فلما سمع بهم ذو نواس، كتب إلى المقاول يدعوهم إلى مظاهرتة، وان يكون أمرهم في محاربة الحبشة ودفعتهم عن بلادهم واحداً فأبوا، وقالوا: يقاتل كل رجل عن مقولته وناحيته. فلما رأى ذلك، صنع مفاتيح كثيرة، ثم حملها على عدة من الابل، وخرج حتى لقي بعضهم فقال: هذه مفاتيح خزائن اليمن قد جئتم بها. فلما وجه الحبشة ثقات اصحابهم في قبض الخزائن، كتب "ذو نواس" إلى كل ناحية أن اذبحوا كل من يريد اليكم منهم. ففعلوا فلما بلغ النجاشي ما كان من ذي نواس، جهز سبعين ألفاً، عليهم قائدان: أحدهما أبرهة. فلما صار الحبشة إلى صنعاء ورأى ذو نواس أن لا طاقة له بهم، ركب فرسه واعترض البحر فاقتحمه، فكان آخر العهد به.

هذا مجمل ما ورد في كتب المؤرخين الاسلاميين والأخبارين عن ذي نواس. وقد أخذ بعضه مما علق في أذهان أهل اليمن عن ذلك الحادث، وأخذ بعض آخر مما علق بأذهان أهل الكتاب عنه، ويعود الفضل في تدوينه وجمعه إلى القران الكريم، إذ إشار بايجاز إليه: (قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود.) فكانت اشارته هذه الى أصحاب الأخدود حافظاً دفع

بالمفسرين وأصحاب التأريخ والأخبار على جمع ما علق بالأذهان من هذا الحادث، فجاء على الصورة المذكورة.

ولم يرد الينا شيء من هذا القصص الذي رواه الأخباريون عن ذي نواس مكتوباً في المسند. وكل ما ورد مما له علاقة في حادث دخول الحبشة اليمن، هو ما جاء في النص المهم المعروف بنص حصن غراب والموسوم REP.EPIGR.2633 من أن الأحباش فتحوا أرض حمير وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والأرحبيين.

ولم يذكر في النص اسم هذا الملك. ويعود تأريخه إلى سنة "٦٤٥" من التقويم الحميري الموافقة لسنة "٥٢٥" للميلاد.

ويرى ونكلر مستنداً إلى نص "حصن غراب" أن "ذا نواس" كان هو البادئ بالحرب، وأن السميّع أشوع وأولاده أصحاب النص كانوا في معية الملك ذي نواس في حملته على الحبشة، غير أنه لم يكتب له التوفيق، وأصيب بهزيمة اذ سقط فهزم جمعه. وعندئذ غزا الحبش ارض اليمن واستولوا عليها. فأسرع السميّع أشوع وأولاده في الذهاب إلى حصن "ماوية" للتحصن فيه ولتقوية وسائل دفاعه، ولم تكن قلوب هؤلاء مع ذي نواس، وإنما أكرهوا على الذهاب معه. وبقوا في حصنهم هذا إلى أن دخل الحبش أرض اليمن، فتفاهم معهم.

وقد أشرت إلى ملخص ما جاء في التواريخ الاسلامية عن ذي نواس وعن حادث تعذيب نصارى نجران، وهو حادث لم يكن بعيد العهد عن الإسلام. فقد أشير إليه بايجاز في القرآن الكريم: (قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. اذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون

بالمؤمنين شهود (. فجمع المفسرون والأخباريون ما علق بالأذهان من هذا الحادث ورووا أخباراً متناقضة متباينة في أصحاب الأخدود.

أما رأي اليهود - وهم طرف من أطراف هذا النزاع - عن حادث نجران فلا علم لنا برأي رجاله المعاصرين في الحادث. إذ لم يصل إلينا شيء مدون بقلم مؤلف يهودي معاصر له. وقد أخذ الأخباريون - كما قلت - ما كان علق عن ذلك الحادث بأذهان يهود اليمن ويثرب، على لسان وهب بن منبه، وأضرابه، أخذوه عن طريق الرواية والحفظ، فهذا المدون في كتب أهل الأخبار والمنصوص على سنده هو كل ما نعرفه من رأي اليهود المتأخرين في حادث في نجران.

وأما ما رواه النصارى عنه، وهم الطرف الثاني في النزاع، فإنه أطيب جداً وأوضح مما ورد في الموارد الإسلامية وفي الرواية اليهودية الشفوية إذ اعتمدت المواد الإسلامية واليهودية على منابع شفوية، هي السماع والرواية، فجاء وصفها للحادث مزوّقاً. أما الموارد النصرانية فقد اعتمدت على السماع والمشاهدة أيضاً، ولكنها أخذت من موارد ووثائق مسجلة دون بعضها بعد وقوع الحادث بقليل، وكان لتدوينها الحادث أهمية كبيرة بالنسبة لمن يريد تأريخه والوقوف على كيفية حدوثه، وإن كانت لا تخلو أيضاً من المبالغات والتهويل، والعواطف، لأنها كتبت في ظروف عاطفية حماسية. ونقلت من محيط للمبالغة فيه مكانة كبيرة ومن أفواه أناس ليس لهم علم بمنطق المحافظة على صدق الواقع. وقد دوت لبعث حمية النصارى على انقاذ أبناء دينهم المضطهدين في اليمن.

وقد ادرك بعضها زمن الحادث وأخذ سماعاً من رجال شهوده، أو من رجال نقلوا رواياتهم من شهود العيان. فلهذه الوثائق إذن شأن عظيم، نى نظر المؤرخ. ومن هؤلاء الرحالة: "قزما"، والمؤرخ "بروكوبيوس" المتوفى في حوالي السنة "٥٦٥" للميلاد. ومن المتأخرين: المؤرخ "ملالا Johannes Malala" وقد نقل من كتابه بعض المؤرخين المتأخرين عنه، مثل "ثيوفانس "758 - 818 Theophanes" و "سدريوس Georg" "Cedrnus ، و "نيقيفورس كالستي. Nicephorus Callisti" وكان "قزما" المعروف ب Cosmas Indicopleutes أي "قزا بحار البحر الهندي"، وصاحب كتاب "الطبوغرافية النصرانية Christian " Cosmography وكتاب "البحار الهندية" "بحار البحر الهندي " Indicopleutes في مدينة "آدولس Adulis"، الواقعة على ساحل الحبشة على المحيط الهندي ينقل كتابة "بطلميوس Ptlemaeus" اليونانية بأمر النجاشي (Elesboas) (Elesboan) في العهد الذي كان فيه النجاشي يتهيأ لغزو أرض حمير. فكتب في جملة ما كتبه قصة غزو الحبشة لليمن بعد ٢٥ عاماً من وقوعه. فلروايته عن الحملة شأن كبير لأنها غير بعيدة عهد عن الحادث، ثم إن صاحبها نفسه كان قد أدركها وقد سمع أخبارها من شهود عيان. ولعله كان نفسه من جملة أولئك الشهود، شاهد السفن وهي تحمل الجنود لنقلهم إلى اليمن، واتصل بالرسميين الحبش واستفسر منهم عن الحملة.

ويفهم من رواية "قزما"، إن الحملة كانت في أوائل أيام حكم القيصر "يسطينوس 518 - 527 Justinus" م. أما "ثيوفانس "

Theophanes و "سدرينوس Cedrnus" ومن اعتمد عليهما، فقد جعلوا الحملة في السنة الخامسة من حكم هذا القيصر، وذكروا إن الذي حمل النجاشي على هذا الغزو هو تعذيب ملك حمير لنصارى نجران، وقد قتل هذا الملك.

ويحدثنا "ثيوفانس". و "سدرينوس" عن غزو ثانٍ قام به الحبش على حمير لآعتداءاتهم على تجار الروم، وذلك في السنة الخامسة عشرة من حكم "يوسطنيانوس 527 - 565 Justinus" م، وفي عهد النجاشي "أدد Adad" أما ملك حمير، فاسمه "دميانوس Damianus" وقد ذكر "ملالا" هذا الحديث محرفاً بعض التحريف، فجعل اسم النجاشي "أندس Andas" بدلاً من اد، وصيّر اسم ملك حمير "دمنوس Damnus" عوضاً عن "دميانوس" Damianus، وذكر حملة "أندس" هذه قبل جملة Elasbaas. وأشار إلى أن النصرانية كانت قد انتشرت في الحبشة قبل أيام "أندس". وذكر المؤرخان الآخران إن "أدد" تنصر على أثر احرازه النصر على الحميرين.

وتحدثنا رواية سريانية إن النجاشي المسمى "أيدوك Aidog" حارب الملك "أكسينودون Xenedon" ملك الهنود. ثم حارب "دميون Dimion" ملك حمير لآعتدائه على التجار الروم واستيلائه على أموالهم. فانتصر "أيدوك" على ملك حمير، ثم تنصر، وعين على حمير ملكاً نصرانياً. فلما مات هذا الملك، عذب خلفه نصارى نجران، فغزا "أيدوك" حمير وانتصر عليها. وأقام عليها "أبرهام" Abraham. ولا

يشك المستشرق "فيل Fell" في أن - المراد بـ "Andas" "Adad"
"Aidog" رجل واحد هو النجاشي "كالب"، وهو Elasbaas
"كالب الا أصبحه" "كالب الا أصبحه". وأما Dimion ،
Damianus, Xenedon ، يراد بها "ذو نواس". وقد تحدث "فل"
Fell باطناب عن مختلف الروايات الواردة عن النجاشي "كالب" "كالب"
الا أصبحه" و "الاعاميدة". "عيلاميده" وعن انتشار النصرانية في الحبشة،
وأمثال ذلك، فإنه يرجع من يطلب المزيد.

وفي المرويات اليونانية عن الشهداء أن الذي قام بتعذيب نصارى
نجران هو الملك "ذو نواس Dunaas" ملك حمير، وان ذلك كان في
السنة الخامسة من حكم، "يوسطينوس Justinus" ، أن الذي غزا
اليمن هو النجاشي Ela Atzbeha. فلما دخلت جيوشه أرض حمير،
فر Dunaas الى الجبال فتحصن فيها، حتى إذا سنحت له الفرصة
خرج فقتل من بقي من جيش النجاشي في اليمن واحتل مدينة "نجران"
فقام عندئذ Elesbas بحملة ثانية فانتصر بها على "Dunaas"
وعين Abraham في مكانه.

وفي جملة ما لحق بقصص الشهداء الحميريين، المناظرة التي
جرت بين أسقف "ظفار" المسمى "كريكنتيوس Gregentius" وبين
Herban اليهودي، والظاهر أنها من القصص الذي وضع في السريانية
وليس لها قيمة تاريخية بالطبع. وقد دون "يوحنا الأفسسي John of"
Ephesus المتوفى في حوالي سنة "٥٨٥" للميلاد في تأريخه الكنسي
وثيقة مهمة جداً عن حادث تعذيب نصارى نجران، هي رسالة وجهها "مار

شمعون" أسقف "بيت أرشام Simon of Beth Arsham "المعاصر لهذا الحادث إلى "رئيس دير جبلة Abt von Gabula " يصف فيها ما سمعه وما قصصه عليه شهود عيان من أهل اليمن وما لاقوه هناك من أصناف العذاب. ومنه أخذها البطريق "ديونيسيوس Patriach " Dionysius ، فأدخلها في تأريخه المؤلف بالسريانية. وقد نشرها "السمعاني" في مؤلفه "المكتبة الشرقية". وتجد هذه الرسالة أيضاً في تأريخ "زكريا Zacharias von Mitylene " المتوفي في حوالي سنة " ٥٦ 8" للميلاد، وهو بالسريانية أيضاً. وفي الرسالة اختلافات عن نسخ الرسالة الأخرى، ولكنها غير مهمة على كل حال ولا تغير من جوهرها شيئاً.

وقد ذكر "شمعون" في رسالته أنه كان قد رافق "ابراهيم" "ابراهيم Abraham " والد "نونوسوس Nonnosus " الشهير في رسالة خاصة أمر بها القيصر "يوسطينوس Justinus " الأول الى ملك الحيرة "المنذر الثالث". وكان ذلك في العشرين من كانون الثاني من سنة "٨٣٥" من التأريخ السلوقي، وتقابل هذه السنة سنة "٥٢٤" للميلاد. فلما بلغنا قصر الملك، سمعنا بأخبار استشهاد نصارى نجران. وعلم به "شمعون". من كتاب وجهه ملك حمير الى ملك الحيرة، يطلب منه أن يفعل بنصاري مملكته ما فعله هو بنصارى نجران. وقد قرىء الكتاب أمامه، فوقف على ما جاء فيه، وعلم به أيضاً من رسول أرسله في الحال إلى نجران ليأتيه بالخبر اليقين عن هذه الأعمال المحزنة التي حلت بالمؤمنين.

وقد وجّه شمعون في نهاية الرسالة نداءً إلى الأساقفة خاصة أساقفة الروم ليعلمهم بهذه الفاجعة التي نزلت باخوانهم في الدين، والى بطريق الاسكندرية ليتوسط لدى نجاشي الحبشة في مساعدة نصارى اليمن، كما وجّه نداءه الى اأخبار "طبرية" للتأثير على ملك حمير، والتوسط لديه بالوصف عن الاضطهاد والتعذيب.

وقد درس عدد من الباحثين هذه الرسالة، ونقدوها، وهي في الجملة صحيحة ووثيقة مهمة لا شك في ذلك بالنسبة إلى من يريد الوقوف على موضوع استشهاد نصارى نجران. أما ما جاء فيها على لسان ملك حمير من جمل وعبارات استخلصت على حد قول "شمعون" من الرسالة التي وجهها ملك حمير إلى المنذر، فمسألة فيها نظر، وقضية لا يمكن التسليم بها، فلا يعقل أن يكون ما قيل فيها على لسانه قد صدر منه. وما دوّن فيها من عبارات بحق الشهيد "حارثة" "الحارث Arethas" ونصارى نجران لا يعقل أن يكون قد صدر من ملك يهودي. ولكننا لا نستطيع أن ننكر أو نتجاهل أمر الرسالة التي أرسلها الملك إلى المنذر لحثه على اضطهاد نصارى مملكته مقابل مبلغ يقدمه ملك حمير إليه. ولا داعي يدعو إلى نكرانها والشك فيها. وكل ما نستطيع أن نقوله إن الرسالة صحيحة، ولكن ما دونه شمعون من جمل وعبارات على أنها من كلام ملك حمير، هو من انشائه وكلامه، لا ترجمة حرفية للكتاب. وخلاصة ما يقال في الرسالة أنها وثيقة مهمة، ولها قيمة تاريخية في الجملة بغض النظر عن التفصيلات الواردة فيها وعن عواطف كاتبها

وعن المبالغات التي وردت فيها وفي مركز صاحبها والمكانة التي كان فيها ما يسوغ صدور مثل هذه الأمور منه ووقفه عليها.

ومن الوثائق التاريخية التي تتعلق بشهداء نجران كتاب ينسب إلى "يعقوب السروجي" في السريانية في نصارى نجران، وقصيدة في رثاء الشهداء لـ "بولس Paulus Bishop of Eddessa" أسقف "الرها" Eddassa=Edessa ومدحه إياهم، ونشيد كنسي سرياني لـ "يوحنا بسالطس Johannes Psaltes" رئيس دير قنشرين المتوفى سنة "٦٠٠" للميلاد، وميمر ليعقوب الرهاوي.

ويظهر مما ورد في "كتاب الشهداء الحميريين" وفي رسالة "شمعون الأرشامي" أن "يعقوب السروجي" أسقف "سرجيوبولس" Sergiopolis أي "الرصافة" كان من رجال البعثة المذكورة التي أوفدها القيصر "يوسطين الأول" "يسطينوس Justin 1" إلى الملك "المنذر". و"الرصافة Sergiopolis" هي "متروبولية منطقة الفرات" Metoripolis of Euphratensis بالنسبة إلى نصارى العرب. ويذكر مؤلف الكتاب المذكور أنه عمد وهو في "حيرة النعمان" "حيرتا دى نعمانا Hirtha Dhe,Na, mana" أحد سادات حمير، واسمه "أفعو Afu"، وكان أحد الوثنيين الذين جاؤوا من اليمن إلى الحيرة، وقد شاهد بنفسه تعذيب نصارى "نجران". وقد كلفه ملكه، أي ملك حمير، السفارة عند ملك الحيرة. ولكنه كان رقيق القلب، فرق قلبه وهو في الحيرة على النصرانية، فتنصر على يديه.

وقد نقل مؤلف كتاب الشهداء الحميريين صورة الكتاب الذي أرسله ملك حمير، وقد دعاه "مسروقا Masruqاً"، إلى "المنذر بن الشقيقة" منذر بن شقيقة Mundhar bar Zaqiqa وهو يحرضه فيه على النصرارى.

ولا بد من الإشارة إلى الأثر المهم المنشور باليونانية ل "يوحنا بولند Johann Bolland" وجماعته في عشرات المجلدات، والى أثر آخر نشره "بويسونا Boissona" في اليونانية كذلك في خمسة مجلدات. فقد دوّنت في الكتاب الأول قصة الشهيد القديس "الحارث" Arethas وبقية شهداء نجران، وقصة الحرب التي وقعت بين النجاشي وذي نواس. ودوّنت في الأثر الثاني مضامين رسالة "مار شمعون". وقد بين "فيندفل Winand Fell" رأيه فيما جاء في مجموعة "بولند Bolland.

وللنصوص الحبشية ولا شك أهمية عظيمة عند من يريد تدوين غزو الأحباش لليمن وتاريخ شهداء نجران إذ كانوا الطرف الرئيسي في هذا الحادث، وهم الذين أغاروا على اليمن فقتلوا ملك حمير. لذا وجّه الباحثون أنظارهم نحوها وفتشوا عنها، غير أنهم لم يعثروا على نصوص فيها أمور جديدة عن الحادث تنفرد بها. وما عثر عليه ليس بكثير. ومن ذلك كتابة عليها "يوسف سابيتو J.Sapeto" أشير فيها باختصار إلى القديس الحارث "حيروت Herut" وبقية الشهداء، وجملة مخطوطات حبشية محفوظة في المتحف البريطاني وردت فيها أخبار الشهداء وغزو الحبشة لليمن، وأمر "ذو نواس" المسمى فيها ب "فنجاس"، وهي لا تختلف

في الجملة اختلافاً كبيراً عما جاء في أعمال "البولنديين" وأعمال القديس "أزقير" التي نشرها "روسيني"، وهو الذي استشهد بأمر ملك حمير "شرحيل بن ينكف" مع "٣٨" آخرين.

يتبين من بعض الموارد الإغريقية والحبشية أن الأحباش كانوا قد نزلوا بأرض حمير قبل قيام ذي نواس بتعذيب نصارى حمير بسنين، وانهم انتصروا على ذي نواس، فاضطر إلى التقهقر إلى الجبال للاحتباء بها، وانهم تركوا في اليمن جيشاً لحماية النصارى والدفاع عنهم. فلما مات قائد الجيش ونائب الملك، انتهز ذو نواس هذه الفرصة فأغار على الحبش فتمكن منهم، وعذب من وجد في بلاده من النصارى واضطهدهم، وأغار على نجران، وحاصرها مدة طويلة بلغت سبعة أشهر على زعم الرواية الحبشية. فلما طال الحصار، عمد ذو نواس إلى الخداع والغش، ففاوض النجرانيين على التسليم له، وتعهد إن فتحوا له المدينة، ألا يتعرض لهم بسوء. فلما صدقوه وفتحوا المدينة له، أعمل فيهم السيف، فحمل، ذلك الحبش على غزو اليمن.

وورد في كتاب الشهداء الحميريين، ما يفيد بأن الحبش بعد أن نزلوا أرض حمير، عارضهم رجل اسمه "مسروق" وحاربهم وقاومهم، وهاجم مدينة "ظفار" عاصمة حمير، وكان الحبش قد استولوا عليها وتحصنوا بها، ولما رأى "مسروق" أنه لا يتمكن من التغلب على الحبش الذين كانوا يحاربونه في مدينة "ظفار"، أوفد اليهم كهاناً ويهوداً من طبرية ورجلين من الحيرة كانا نصرانيين في الاسم، يحملون معهم كتاباً يعدهم فيه أنهم إن سلموا له "ظفار" فلن يؤذيهم، بل يعيدهم إلى الحبشة

سالمين. فوثقوا بكلامه وصدّقوه، وخرجوا إليه وكانوا ثلاث مئة محارب على رأسهم القائد "أبوت"، فقبض عليهم وغدر بهم، إذ سلمهم إلى اليهود فقتلوهم. ثم أرسل من حرق بيعة ظفار بمن كان فيها من الحبش، عددهم مئتان وثمانون رجلاً، وكتب إلى الحميريين أمراً بقتل النصارى قاطبة إن لم يكفروا بالمسيح ويتهودوا. وكتب إلى الحارث من أشراف مدينة نجران أن يأتيه مع من عنده من حملة السلاح لحاجته الشديدة اليهم. فلما بلغ الحارث مدينة ظفار، وسمع بما حدث، رجع إلى نجران. فحاصر مسروق المدينة، وطال الحصار، فراسل أهلها على الأمان. فلما فتحوا له مدينتهم، غدر بهم، وأحرق بيعتهم وأحرق خلقاً منهم بالنار رجالاً ونساءً وأطفالاً. وكان بعض قسيسيهم من حيرة النعمان ومن الروم والفرس والحبشة.

فلما تمادى مسروق في غيه وفي قتل النصارى في نجران وغير نجران من مدن اليمن وقراها، سار سيد من سادات القوم اسمه "أمية" إلى الحبشة فأخبر مطرانها "أوبرويوس" و"كالب" النجاشي بما حل بنصارى اليمن، فأمر "كالب" جيوشه بغزو حمير، فغزتها وقضى على "مسروق" اليهودي، وهو "ذو نواس" في كتب الإسلاميين.

هذه رواية في السبب المباشر لغزو اليمن. وفي رواية أخرى أن الملك

"دميون" Dimion "دميانوس" Dimianos "ملك حمير Homeritae، كان قد أمر بقتل التجار الروم الذين كانوا في بلاده وينهب أموالهم انتقاماً من الروم الذين أسأؤوا في بلادهم معاملة اليهود واضطهدوهم، فتجنب التجار الروم الذهاب إلى اليمن أو إلى الحبشة

والى المناطق القريبة من حمير، فتأثرت التجارة مع الحبشة، وتضرر الأحباش. فعرض النجاشي على ملك حمير عروضاً لم يوافق عليها، فوَقعت الحرب. وتزعم الرواية أن النجاشي لم يكن نصرانياً، فقيل له: إن كتب لك النصر فادخل قي دين المسيح. فوافق على ذلك. فما انتصر، تنصّر، وانتقم من حمير. ثم أرسل رجلين من ذوي قرابته الى القيصر يلتمس منه إرسال أسقف وعدد من رجال الدين. وبعد بحث واستقصاء وقع الاختيار على Johannes Paramonaris من كنيسة القديس يوحنا، فذهب مع عدد من الكهان " فعمد النجاشي وأتباعه، وأقام الكنائس، وأرشد الناس إلى الدين الصحيح.

وقد عرف ذو نواس في النصوص النصرانية باسم

Dimnus=Damian و Damnus=Dimianos و "مسروق".

ونرى تشابهاً كبيراً بين Dimnus و Damian و Damnus وكلمة "ذو نواس" العربية. فالظاهر أنها تجريف نشأ عن هذا الأصل. وأما النصوص الحبشية فقد دعتة "فنجاس Phin,has"، وهو اسم من أسماء اليهود.

أما النجاشي الذي حارب حمير وغزا أرضها ط فقد دعاه "بروكوبوس" باسم Hellestheaeus. ودعاه غيره بأسماء قريبة منه

مثل Ela- و Elesbowan=Elisbahaz

Atzbeha=Elesbaas=Elesboas. ويظهر أنها أخذت من "ايلا

اصباح Ela-Asbah "أو" ايلاصباح Ela-Sebah " في الحبشية.

ودعي أيضاً باسم اخر، هو Aidug، دعاه به "يوحنا الأفيسي"

Johannes von Ephesus و"اندس Andas "وقد دعاه "ملالا" بذلك. و Adad ودعاه به "ثيوفانس" و "سدريينوس Cedrenus. أما في الروايات الحبشية، فقد سمي "كالب Kaleb. فهو إذن "الأ أصبحت كالب Elle, Asbwha Kaleb "وتعني "الأ" Elle=Ella "ذو" أو من "أل". وأما "أصبحة"، فاسم أجداده وعشيرته التي انحدر منها. كما أن "ذا نواس"، لا يعني اسم الملك، بل لقب أسرته. فاسمه هو "يوسف". ويكون النجاشي، أي ملك الحبشة الذي جهز الجيش وفتح اليمن هو "كالب" من "أل أصبحت" أو "الأ أصبحت كالب" كما عرف بذلك.

وقد تحول اسم النجاشي Ela Sebah=Elesbass الى "أصحمة" في العربية. فقد ذكر بعض العلماء أن أبرهة ملك اليمن من قبل أصحاب النجاشي"، ف "أصحمة" إذن هو النجاشي المذكور.

والنجاشي Ela Atybeba=Elesboas ، وهو ابن النجاشي Tayena الذي كان على النصرانية. وقد خلف هذا النجاشي، النجاشي Andas الذي كان قد أقسم أنه إذا انتصر في الحرب يتنصر. فانتصر، فدخل في النصرانية. وصارت النصرانية ديانة رسمية للحبشة. وقد لقب Tayena بلقب "ملك اكسوم وحمير Homer وريدان وسبأ وسلاحين" في كتابة من كتاباته، مما يدل على أنه كان قد حكم اليمن.

وقد عثر في خرائب مدينة "مأرب" القديمة، على نص مصاب بتلف في مواضع عديدة منه، تبين من دراسة ما بقي منه انه مدون بلغة أهل الحبشة، وأنه يتحدث عن غزو بحري لميناء لم يذكر اسمه في

النص، وقد يكون ذلك بسبب التلف الذي أصاب النص، قام بذلك الغزو مدون النص، وقد كان في سفينة تبعها إحدى عشرة سفينة أخرى، فنزل بذلك الميناء وتغلب عليه ونزل المحاربون من سفنهم ودخلوا الميناء، فأخذوا غنائم وأسرى. ثم تلت هذه السفن دفعة ثانية من سفن جاءت محملة بالمحاربين، نزلوا في موضع يقع جنوب الموضع الذي نزل هو فيه. لم يذكر اسمه في النص كذلك. وقد انتصر الغزاة على الأماكن التي هاجموها، لأنهم كانوا مع الحق والشرع، فكان الله معهم، وكان أهل الميناء على الباطل وضد الشريعة الحقّة فعوقبوا بالهزيمة.

والنص المذكور - وإن كان خلواً من كل إشارة إلى "ذي نواس"، أو إلى اسم "نجاشي" الحبشة، أو إلى زمن وقوع الغزو والأماكن التي وقع عليها - يشير إلى غزو الحبش لليمن في حكم "ذي نواس"، وإلى تغلب الحبش عليه. ويظهر منه أن القافلة الأولى تركت ساحل الحبشة من موضع "ادولس" "عدولس" "عدولي Adulis" على ما يظهر وكانت بإمرة "الا اصبحة"، فعبرت باب المندب، حتى وصلت إلى ساحل اليمن. وقد اختارت ميناء "مخا" موضعاً للنزول، فنزلت به وتغلبت على أصحابه. ثم جاءت قافلة أخرى نزلت في موضع يقع جنوب هذا الميناء، وتغلبت على أصحابه كذلك. وبذلك تم النصر للحبش. ولم يشير النص إلى أسم الموانئ التي تحرك منها الجيش، أو الموانئ التي نزل بها في ساحل اليمن.

وقد عالج الباحثون هذه الأسماء، فرأى قسم منهم أنها تعني شخصاً واحداً هو ملك الحبشة الذي حارب ذا نواس. ورأى آخرون أن

المراد ب Aidug و Adad و Andas شخص واحد هو نجاشي حكم قبل هذا العهد، اي في القرن الرابع للميلاد، وهو "العاميدة" "Ela Amida"، المعاصر للقيصر قسطنطين، وكان أول من تنصر من ملوك الحبشة على بعض الروايات. وذلك لعدم انسجام هذه الرواية التي تنص على تنصر Aidug بعد انتصاره على حمير، كما أشرت إلى ذلك، مع روايات أخرى تشر إلى تنصر ملوك الحبشة قبل غزو اليمن هذا بكثير.

وترى الروايات العربية أن ذا نواس لما غلب على أمره ورأى مصيره السيء، ركب فرسه وسار إلى البحر فدخله فغرق فيه. أما الروايات الحبشية والإغريقية، فإنها ترى أنه سقط حياً في أيدي الأحباش فقتلوه. وهناك شعر نسب إلى علقمة ذي جدن زعم انه قائله، هو: أو ما سمعت بقبل حمير يوسفاً أكل الثعالب لحمه لم يقتبر؟

وقد استدل منه "فون كريمر" على أن ذا نواس لم يغرق في البحر كما في الروايات العربية الأخرى، بل قتل قتلاً كما ورد في روايات الروم.

حكم السميغ أشوع

وذكر "بروكوبيوس" إن الذي حكم حمير بعد مقتل ملكهم هو رجل اسمه Esimiphaios=Esimiphaeus اختاره النجاشي من نصارى حمير ليكون ملكاً. على أن يدفع إلى الأحباش، جزية سنوية فرضي بذلك وحكم. غير أن من تبقى من جنود الحبشة في أرض حمير ثاروا عليه وحصروه في قلعة، وعينوا مكانه عبداً نصرانياً اسمه

"ابراهام Abraham " كان مملوكاً في مدينة "أدولس" "عدول " Adulis لتاجر يوناني. فغضب النجاشي وأرسل قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل لتأديبه وتأديب من انضم إليه. فلما وصلت إلى اليمن، التحقت بالثوار، وقتلت قائدها وهو من ذوي قرابة النجاشي. فغضب Hellestheaeus عندئذ غضباً شديداً، وسيّر إليه قوة جديدة لم تتمكن من الوقوف أمام أتباع Abram فانهمزمت ولم يفكر النجاشي بعد هذه الهزيمة في إرسال قوة أخرى. فلما مات، صالح Abraham خليفته على دفع جزية سنوية، على أن يعترف به نائباً عن الملك على اليمن، فعين نائباً عنه.

وذكر "بروكوبيوس" أيضاً أن القيصر "يوسطينيانوس" أرسل رسولاً عنه إلى النجاشي Ela-Atzbeha Hellestheaeus وإلى Esimiphaeus اسمه "جوليانوس Julianus" ليرجو منهما اعلان الحرب على الفرس وقطع العلاقات التجارية معهم، لأنهما والقيصر على دين واحد، فعليهما مساعدة أبناء دينهم الروم والاشتراك معهم في قضيتهم، وهي قضية عامة مشتركة، على النصارى جميعاً الدفاع عنها. وطلب من ملك حمير Homeritae خاصة أن يوافق على تعيين "قيس" "Phylarch" Caisus=Kaisos سيداً على قبيلة معد Maddeni، وأن يجهز جيشاً كبيراً يشترك مع قبيلة معد في غزو ارض الفرس. وكان قيس كما يقول "بروكوبيوس" من أبناء سادات القبائل، وكان شجاعاً قديراً وكفوفاً جداً وحازماً، قتل بعض ذوي قرابة Esimiphaeus فانهمز إلى البادية هائماً. وقد وعد الملك خيراً،

غير أنه لم ينجز وعده، إذ كان من الصعب عليه اجتياز أرض واسعة بعيدة وطرق طويلة تمر بصحارى وقفار لمحاربة أناس أقدر من قومه في الحرب. وقد وصل رسول "جستتيان" "يوسطنيان Justinian سنة ٥٣١م" إلى ميناء "ادولس" من البحر، ثم ذهب منه إلى "اكسوم" حيث وجد النجاشي Ela Atybeba واقفاً على عربية ذات أربع عجالات، وقد ربطت بها، أربعة فيلة، وكان عارياً إلا من مئزر كتان مربوط بذهب، وقد ربط على بطنه وذراعيه حلياً من ذهب. وبعد أداء هذا الرسول رسالته، ثار "ابرام Abram" على Esimiphos، وقضى على حكمه.

وقد رجع السفير فرحاً مستبشراً بنجاح مهمته، معتمداً على الوعود التي أخذها من الملكين. غير انهما لم يفعلوا شيئاً، ولم ينفذا شيئاً مما تعهدا به للسفير. فلم يغزوا الفرس، ولم يعين "السميفع أشوع" "قيساً" فيلارخاً على قبيلة معد. وقد تحرش Abram=Abramos بالفرس، غير انه لم يستمر في تحرشه بهم، فما لبث أن كف قوانه عنهم.

ولا يعقل بالطبع توسط القيصر في هذا الموضوع لو لم يكن الرجل من أسرة مهمة وعريقة، له عند قومه مكانة ومنزلة، وعند القيصر أهمية وحظوة. ولشخصيته ولكانة أسرته، وأرسل رسوله الى "السميفع" لاقناعه بالموافقة على اقامته رئيساً على قومه، وبهذا يكتسب القيصر رئيساً قويا وحليفاً شجاعاً يفيد في خطته السياسية الرامية الى بسط سلطان الروم على العرب، ومطافحة الساسانيين.

وقد زار "ابرام Abram" والد "نونوسوس Nonnosus" الذي أرسله جستيان Justinian "إلى النجاشي وإلى اليمن وإلى معد Caisus=Kaisos قيساً" هذا مرتين، وذلك قبل سنة "٥٣٥م"، وزاره "نونوسوس" نفسه في أثناء حكمه، فأرسل "قيس" ابنه "معاوية" معه إلى القسطنطينية إلى "يوسطنيان"، ثم استقال "قيس"، وصار أخوه رئيساً على معد، وزار القسطنطينية، فعين "فيلارخاً" على فلسطين.

ويظهر من دراسة خبر المؤرخ "بروكوبيوس" أن قيصر الروم المذكور كان قد أرسل رسولاً عنه إلى "النجاشي" وإلى "السميفع"، إبان حكم السميفع لليمن، أي قبل ثورة "أبرام" "أبرهة" عليه. ولهذا كلمه الرسول في أمر "قيس"، ولكنه أخفق في اقتاعه بالعفو عنه وبالاعتراف به رئيساً على معد، فلم يعترف به إلى مقتله. فلما توفى، جاء رسول القيصر ثانية إلى النجاشي وإلى أبرهة وإلى "قيس" بمهمة تحريضهم لمعارضة الفرس، وتوحيد كلمتهم. وكان "أبرهة" على عكس "السميفع" على علاقة طيبة بـ "قيس"، وقد قرر تنصيبه رئيساً على معد.

وقد أشار المؤرخ "ملالا" إلى خبر الرسول الذي أرسله القيصر إلى النجاشي لاقتاعه بالاشتراك مع الروم في محاربة الفرس، غير أنه لم يذكر اسم الرسول الذي أوفده القيصر إلى بلاط "أكسوم". وقد ذكر أن النجاشي بعد أن تغلب على ملك حمير عين أحد ذوي قرابته ويدعى Anganes=Aggan على الحميريين. وأما "يوحنا الأفيسي"، فقد دعاه Abramios، ودعاه "ثيوفانس"، "الحارث. Arethas"

Esimiphaeus الذي نصبه النجاشي ملكاً على حمير بعد مقتل ملكهم اليهودي، هو "السميفع أشوع"، صاحب النص الموسوم ب CIH 621 بين العلماء. وقد دونه مع أولاده: "شرحيل" يكمل" و "معديكرب يعفر"، وجماعة من سادات القبائل منهم: أبناء ملحم "ملحهم"، وكبراء "كبور" قبائل محرج سيبان ذو نف. وقد كان السميفع أشوع من "بني لحيعة يرخم"، وكان هو وأولاده سادة "الهت" على: "كلعن" "كلعان" أي الكلاع و"ديزن" "ذى يزان" "ذى يزآن" و "ذى جون" و "مثلن" "مثلان" "مطلحن" "مطلحان" و "شرفن" "شرفان" "شرقان" و "حب" "حيم" و"يثن" "يثعان" و "يشر" يشرم ويزرومكرب "مكريم، و "عقته" "عقهة" و "بزاي" "بزايان" ويلجب "يلجبم" و"غيمن" "غيمان" "جيمان" و يسب وجبح وجدوى "جدويان" و "كزر" "كزران" و "رخيت" و"جردان" "الجرد" و"قبيل" "قبلان" و شرحى "شرجا".

أما أبناء ملحهم، فقد كانوا على وحظت "وحظة" و "الهان" "الهن" و "سلفن" "سلفان" "السلف"، و "ضيفن" "ضيفت" "الضيفة" و "ريان" "رثاج" و "رياح" و "ريحن" و "ركب" "ركبن" و "مطلن" "مطلان" و "مطلقن" "مطلقان" و "ساكلن" "ساكلان"، و "زكزد".

وقد دونوا النص المذكور، لمناسبة ترميمهم واصلاحهم أسوار ودروب ومنافذ وصهاريج حصن "مويت" "عرمويت"، "ماويت" "ماوية"، وتحصنهم فيه بعد أن جاء الحبش إلى أرض حمير ففتحوها، وقتلوا ملكها وأقباله الحميريين والأرحبيين، وذلك في شهر "ذو حجة" ذي الحجة" من سنة "٦٤٠" من التأريخ الحميري الموافق لسنة "٥٢٥" للميلاد.

ويظهر إن "السميفع أشوع"، كان من أهل "نصاب"، وكان قد هاجر لسبب لا نعرفه هو وأولاده إلى الحبشة. فأقام بها، ثم عاد فاستقر في "عرّ مويّت" أي في "حصن ماوية"، وأخذ يوسع من هذا الحصن أرضه ويفتح أرضين جديدة ويتقدم نحو الأرضين التي حكمها "ذو نواس". فلما جاهر "ذو نواس" بمناصبه النصرانية والحبش والروم العداء، كلفه الحبش والروم بمهاجمة "ذو نواس" وقدّموا له المساعدات المادية من عون عسكري ومالي، يستعين بها في تنفيذ مشروعه هذا. وأخذ يشتري القبائل ويفرض نفوذه عليها بالقوة وبالمال حتى انتهى الأمر بزوال ملك "ذو نواس"، فعين "السميفع" حاكماً على اليمن ونائباً عن ملك الحبشة عليها، إلا أن ثورة وقعت فيها، قضت على حكمه، فولى الأحباش شخصاً آخر في مكانه. وذلك بعد السنة "٥٣١" للميلاد.

و "شرح ال لحمى عت يرخم" شرحبيل لحيعت يرخم"، هو والد "السميفع أشوع"، ولم يكن ملكاً، غير أنه لم يكن من العامة، بل كان من "اقول" الأقبال. وذلك لعدم ذكر لقب الملك بعد اسمه، وعدم نص ابنه "السميفع" على أن والده كان ملكاً. ويجوز أن يكون للسميفع أشوع أبناء آخرون، غير الولدين: "شرح ال يكمل" شرحبيل يكسل" و "معد يكرب يعفر" المذكورين في النص.

وفي متحف استانبول نص وسم ب Osm. Mus. No:281

نشره وترجمه العالم البلجيكي "ريكمنس G.Ryckmans"، في مجلة Le Museon، وردت في مطلعها جملة: "نفس قدس سميفع أشوع ملك سبا"، وفي آخره عبارة: "بسم رحمنن وبنهو كرشتش غلبن"،

ومعناها "بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب". وفي هاتين الجملتين دلالة مريحة على أن السميعع أشوع كان ملكاً على سبأ وأنه كان على دين النصارى. وقد استعمل النص كلمة "كوشتس" بمعنى المسيح ويستعملها أهل الحبشة كذلك. وقد أخذوها، ولا شك من الروم. ويؤيد كولا "السميعع أشوع" نصرانياً، ما ذكره المؤرخ "بروكوبيوس" من أن الحبشة عينت رجلاً نصرانياً من حمير اسمه **Esimiphaeus** ملكاً على حمير، وذلك بعد قتل الملك الحميري الذي عذب النصارى في بلاده، ويقصد به ذو نواس.

ولم جيك "السميعع أشوع" ملكاً مستقلاً كل الاستقلال يتصرف بملكه كيف يشاء، بل كان في الواقع تابعاً لحكومة "أكسوم". يفهم ذلك صراحة من هذا النص الذي أتحدث عنه. جاء في السطر الثالث منه: "امراهمو نجشت اكسمن برو وهوترن"، أي "في أيام أميرهم نجاشي أكسوم بنوا وأسسوا". وجاء في السطر السادس: "املكن الابحه ملك جبشت"، أي "الملك الابحة ملك الحبشة"، ويقصد بـ "الابحة" نجاشي الحبشة "الأصبحة" **Ella ' Asbeha** "الذي كان ملك الحبشة في ذلك العهد، وعاصمته مدينة "أكسوم".

وتعني كلمة "نجشت" الواردة في النص ملكاً أو أميراً في العربية، وقد أخذها العرب من البفس، وأطلقوها على ملوك الحبش، وهي "نجاشي" و "النجاشي" في عربيتنا، كما أطلقوا كلمة "قيصر" على اباطرة الروم.

وقد ذكرت في النص أسماء "ذو يزان" "ذو يزن" و "حسن" "حسان" و "شرحبال" "شرحبيل" قيل "ذو معضرن"، أي قيل المعافر. و"أسودن" أي الأسود "وسميفع" قيل "دو بعدان" "ذ بعدن"، وزرعة قيل مرجم، أي مرحب "المراحب" و "حارث" و "مرثد" أمراء "ثعبان" و "شرحبيل يكمل". وجاء بعض هذه الأسماء في نصوص أخرى، ومنها نص " حصن غراب" المتقدم وقد اشتهر بعض هذه القبائل في الإسلام.

ولدينا نص غفل من التأريخ وسمه العلماء

بREP.EPIG.4069، وردت فيه جملة أسماء، هي: "شرحب ال يكمل" "شرحبيل يكمل" و"شرحب ال يقبل" "شرحيل يقبل"، و "مرثد علن احسن" "مرثد علن أحسن" "مرثد علان أحسن"، و "سميفع أشوع" أبناء "شرحب ال لحى عت يرخم" "شرحبيل لحيعت يرخم" أقبال "اقول" "ذو يزان" "ذو يزن" و "جدنم" "ذو جدن" و "يلجب" و "يصر". ويظن أن "السميفع أشوع" المذكور هنا هو الملك الذي نتحدث عنه. ولم يلقب في هذا النص بلقب ملك، كما لم يلقب به والده كذلك. والظاهر أنه كتب قبل عهد توليه الملك. وأنه لم يكن من الأسرة المالكة، ولكن من أبناء الذوات والأعيان. ووردت في نهاية النص جملة "الرحمن رب السماء والأرض"، وهي عبارة تختلف عن العبارات المألوفة التي نعهدها في النصوص الوثنية القديمة، تظهر منها عقيدة التوحيد والابتعاد عن الآلهة اقديمة بكل جلاء. غير أننا لا نستطيع أن نستخرج منها أن صاحبها كان يهودياً كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، أو أنه كان

نصرانيا. انما نستطيع أن نقول إن أصحاب هذا النص كانوا على دين التوحيد وكفى.

ومن الأسماء الواردة في هذا النص: "ضيفتن" "ضيفت" "ضيفة" و "ريحم" "ريح" "رياح" و "مهرت" "مهرة" و قبيلة "سيين" "سيبان". وقد تكون مهرت "مهرة"، هي مهرة التي تنسب إلى "مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قصاعة" في اصطلاح النسابين.

ويقع "عرمويت"، أي حصن "مويت" "ماوية" في جزيرة بركانية تسمى حصن الغراب" وهو الآن خراب. وقد عثر الباحثون في أنقاضه على كتابة وسمت ب **CIH 728** دونها "صيد ابرد بن مشن" "صيد ابرد بن مشان"، أحد أقبال "بدش" "باداش". وورد فيها اسم "قنا". وقد كان لهذا الحصن شأن كبير في تلك الأيام لحماية الجزيرة والميناء من الأعداء المهاجمين ومن لصوص البحر. وللدفاع عن التجار الذين كانوا يتاجرون مع افريقية والهند. ولهذا اهتم "ألسميغ أشوع" وأولاده بترميمه وبإصلاحه وتقويته.

وأما ميناء "قنا" الذي ذكرته في مواضع من هذا الكتاب، وهو في الموضع المسمى ب "بيرعلي" في الوقت الحاضر على رأي بعض الباحثين، فقد كان من الموانئ المهمة على البحر العربي. وقد كان مرفأً للتجارة الآتية من الشمال، أو من البحر لارسالها إلى "شبوّة" ومواضع أخرى في شمال هذا الميناء.

ومما يلاحظ أن المواضع الأثرية التي على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب قليلة معدودة. وتكاد تنحصر في أرض عدن وابين. وحصن

الغراب وفي مواضع من أطراف "ظفار" و"حول" و"المكلا" و"الشحر" وساحل مهرة. مع ان السواحل هي من المواضع التي يجب أن تكون في العادة عامرة بالمدن والمرافئ بسبب سهولة اتصالها بالعالم الخارجي، ووقوعها على طرق مائية تجلب اليهن السفن والناس. والظاهر ان وخامة الجو في هذه السواحل وصعوبة حماية ساحل من لصوص البحر، وتفشي الامراض، وملوحة المياه الجوفية، واسبابا اخرى، كانت في جملة ما حال بين الناس وبين بناء المدن على هذه السواحل.

وقد اشتهرت ظفار بأنها المرفأ المعد لتصدير اللبان والمر وحاصلات البلاد العربية الجنوبية الاخرى. وكان محاطا بسور. أما المواضع الاخرى، فلم تكن مسورة في الغالب. وقد اشار "كرب ايل وتر" في اخباره عن حروبه في السواحل الجنوبية انه خرب مدينة "تفض" في "ابين"، واحرق مواضع اخرى على البحر، يظهر انها لم تكن مسورة. ويظهر ان السواحل لم تكن مأهولة مثل الارضين الشمالية العالية، فلم يعثر الباحثون على كتابات كثيرة فيها حتى الآن. وصارت مدينة "عدن" ومدينة "قنا" من أهم المرافئ على الساحل الجنوبي.

هذا ولا بد لي هنا من الإشارة إلى كتابة حبشية ناقصة عشر عليها "أحمد فخري" سنة "١٩٤٧م" بمأرب، فيها إشارة إلى دخول الحبشة إلى اليمن، وإن لم ينص على ذلك نصاً. ويظن أنها تشدير إلى استيلاء "الأصبحة" النجاشي على اليمن سنة "٥٢٥" للميلاد. وانتصارة على "ذي نواس".

ويظهر من هذه الكتابة أن حملة الحبش على اليمن نقلت في قافلتين من السفن: تحركت القافلة الأولى بقيادة النجاشي الذي كان قد احتجز سفينة خاصة به، فعبرت به باب المنذب ورست عد ساحل اليمن. وكانت سفينة النجاشي أول سفينة بلغت، ثم تلتها بقية السفن. وقد سقط من الكتابة اسم الموضع الذي رست السفن فيه، ولعله "مخا". فوَقعت معارك بين الحبش، وبين الحميرين، انتصر فيها الأحباش فأخذوا أسرى وغنائم. ولما كان النصر ناقصاً وقد طُمست من الكتابة الباقية منه كلمات، فقد صار غامضاً مقتضباً، لا يفهم منه إلا إشارات.

??? أبرهة

Abraham وAbramiois هما اسمان لمسمى واحد، أريد به "أبرهة" المشهور عند أهل الأخبار الذي اغتصب الملك باليمن، ونصب نفسه حاكماً عليها، ولقب نفسه بألقاب الملوك، وإن اعترف أساساً بأنه "عزلى ملكن اجعزين"، أي "نائب ملك الأجايزة" على اليمن. وحكم اليمن أمداً، وترك في نفوس اليمانيين اثراً قويا.

ويرى بعض الباحثين أن "كالب ايلا أصبحت"، كان قد أرسل حملة سنة "٥٢٣" للميلاد على اليمن، حملتها إليها سفن بيزنطية، نزلت في البلاد وتغلبت على "ذي نواس" فهرب "ذو نواس" من "ظفار"، ثم عاد فباغت الحبش وأنزل بهم خسائر كبيرة، واضطهد النصراني وعدّ بهم. فحمل النجاشي على ارسال حملة جديدة عليه نزلت اليمن سنة ٥٢٥ " للميلاد. وصارت في أيدي الحبش حتى سنة "٥٣٠" للميلاد. اذ قامت ثورة

على الحبشة، وانتَهز "أبرهة" الفرصة، فأخذ الأمر بيديه، وبقي حاكماً على اليمن منذ هذا الوقت تقريباً حتى سنة "٥٧٥" للميلاد. وكان قد انتزع الحكم من "السميفع أشوع"، الذي نصبه الحبش ملكاً على اليمن حين دخولهم إليها وعيّنوا رجلين من الحبش يحكمان معه ويراقبان أعماله لئلا يقوم بعمل يضر مصالحهم.

ولأهل الأخبار روايات عن كيفية استئثار "أبرهة" بالحكم واغتصابه له. لهم رواية تقول: إنه جاء إلى اليمن جندياً من جنود القائد الحبش "أرباط" الذي كلفه نجاشي الحبشة بفتح اليمن، فلما أقام باليمن سنين، نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي، حتى تفرقت الحبشة، وخرج أبرهة على طاعة قائده، ثم غدر به وأخذ مكانه. ورواية أخرى، تقول إن النجاشي أرسل جيشاً قوامه سبعون ألفاً، جعل عليه قائدين، أحدهما: أبرهة الأشرم. فلما ركب ذو نواس فرسه واعترض البحر فاقتحمه وترك به، نصب أبرهة نفسه ملكاً على اليمن، ولم يرسل له شيئاً، فغضب النجاشي ووجه إليه جيشاً عليه رجل من أصحابه، يقال له أرباط، فلما حل بساحته، بعث إليه أبرهه: "إنه يجمعني وإياك البلاد والدين، والواجب عليّ وعليك أن ننظر لأهل بلادنا وديننا ممن معي ومعك، فإن شئت فبارزني، فأينا ظفر بصاحبه كان الملك له، ولم يقتل الحبشة فيما بيننا". "فرضي بذلك أرباط، وأجمع أبرهة على المكر به، فاتعدا موضعاً يلتقيان به، واکمن أبرهة لأرباط عبداً يقال له: "أرنجده" في وهدة قريب من الموضع الذي التقيا فيه، فلما التقيا سبق أرباط فزرق أبرهة بحريته، فزال الحربة عن رأسه وشرمت

أنفه، فسمي الأشرم، ونهض أرنجده من الحفرة، فزرق أرباط فأنفذه، فقتله". وأخذ أبرهة الحكم لنفسه واستأثر به.

وتذكر رواية أخرى، أن النجاشي كان قد وجه أرباط أباصحم "ضخم" في أربعة آلاف إلى اليمن، فأدأها وغلب عليها، فأعطى الملوك، واستذل الفقراء، فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبو يكسوم، فدعا إلى طاعته. فأجابوه، فقتل أرباط، وغلب على اليمن. وتذكر رواية إن "أرباط" اخرب مع ما أخرب من أرض اليمن سلحين وبينون وغمدان، حصوناً لم يكن في الناس مثلها. ونسبوا في ذلك شعراً إلى "ذي جدن"، زعموا أنه قاله في هذه المناسبة. ويظهر من روايات أخرى أن تلك الحصون بقيت إلى ما بعد أيامه. وذكر أن "أرباط" كان فوق أبرهة، أقام باليمن سنتين في سلطانه لا ينازعه أحد، ثم نازعه أبرهة الحبشي الملك.

وتجمع روايات أهل الأخبار على أن النجاشي غضب على أبرهة لما فعله باليمن ولما أقدم عليه من قتل أرباط، وأنه حلف الأيدي أبرهة حتى يطأ بلاده، ويحز ناصيته، ويهرق دمه. فلما بلغ ذلك أبرهة، كتب إلى النجاشي كتاباً فيه تودد واعتذار وتوسل واسترضاء، فرضي النجاشي عنه، وثبته على عمله بأرض اليمن.

ولما استقام الأمر لأبرهة باليمن، بعث إلى "أبي مرة بن ذي يزن"، فنزع منه امرأته "ريحانة ابنة علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان"، و"علقمة" هو ذو جدن. وكانت ولدت لأبي مرة معد يكرب بن أبي مرة،

وولدت لأبرهة بعد ابي مرة مسروق بن أبرهة، وبسباسة ابنة أبرهة.
وهرب منه أبو مرة.

ولأبرهة ذكر وشهرة. في كتب أهل الأخبار والتأريخ. وقد ورد
اسمه في الشعر الجاهلي، وضرب به المثل في القوة والصيت والسلطان،
حتى لنجد أهل الأخبار يذكرون اسماء جملة اشخاص دعوهم "أبرهة"
ذكروا أنهم حكموا اليمن.

والظاهر أن الشهرة التي بلغها في أيامه وغزوه القبائل العربية
واستعماله القسوة معها، أحاطته بهالة في أيامه تضخمت فيما بعد،
فأحيط بقصص وأساطير وصير من اسمه جملة حكام حكموا باسم
"أبرهة".

فقد ذكروا اسم "أبرهة تبع ذي المنار بن الرائش بن قيس بن
صيبي بن سبأ". وكان يقال له "الرائد". وجعلوا لأبرهة هذا ولدين، هما:
إفريقس، والعبد ذو الأذعار. وأولد إفريقس شمير يرعش. وذكروا
"أبرهة" آخر، قالوا له: "أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة". وسمى "الهمداني"
جملة رجال "أبرهة"، وأدخلهم في "الأصباح". ويظهر من دراسة اسم
"أبرهة" ونعته في الحبشية أن الأخباريين أخذوها فصيروا منها أسماء
عربية ربطوا بينها وبين تأريخ اليمن كما فعلوا مع أشخاص آخرين.

وقد ضرب "لبيد بن ربيعة العامري" المثل ب "أبي يكسوم" وهو أبرهة في
وجوب الاتعاظ بهذه الدنيا الفانية التي لا تدوم لأحد، فقال: لو كان حي
في الحياة مخلداً في الدهر ألقاه أبويكسوم

والتبعان كلاهما ومُحرَق وأبو قبيس فارس اليعموم

وقد ترك أبرهة وثيقة مهمة على جانب خطير من الأهمية، وهي النص الذي وسم بـ Glaser 618 وـ CIH 541، عند الباحثين في العرييات الجنوبية. وهي ثاني نص طويل يصل إلينا من اليمن، يتألف من "٣٦" سطراً ومن حوالي "٤٧٠" كلمة وتبحث عن ترميم سد مأرب ذي المكانة الخالدة في القصص العربي وتجديده مرتين، وذلك في أيام أبرهة. المرة الأولى في شهر "ذو المدرح" من سنة "٦٥٧" من التاريخ الحميري المقابلة لسنة "٥٤٢" للميلاد، والثانية في شهر "ذو معان" "ذ معن" من سنة "٦٥٨" من التاريخ الحميري، أي في سنة "٥٤٣" من الميلاد.

وقد افتتح النص بالعبارة الآتية: "بخيل وردا ورحمت رحمن ومسحو ورح قدس سطرو ذن مزندن. إن أبره عزلى ملكن اجعزين رمحز زبيمن ملك سبأ وذ ريدين وحضرموت ويمنت واعربهمو طودم وتهمت"، أي "بحول و قوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس سطروا هذه الكتابة. إن أبرهة نائب ملك الجعزيين رمحز زبيمان ملك سبأ وذو ريديان وحضرموت وأعرابها في النجاد وفي تهامة". ويلاحظ أن أبرهة قد لقب نفسه في هذا النص باللقب الرسمي الذي كان يتلقب به ملوك حمير قبل سقوط دولتهم، مع أنه كان "عزلى ملكن اجعزين"، أي نائب ملك الجعزيين. والواقع أنه كان قد استأثر بالحكم في اليمن، وحصر السلطة في يديه، وصار الحاكم المطلق، ولم يترك النجاشي أكسوم غير الاسم، حتى أنه دعاه في هذا النص "ملك الجعز" حسب.

وفي النص حديث عن ثورة قام بها "يزد بن كبشت" "يزيد بن كبشة" من السادات البارزين في اليمن. وكان أبرهة قد أنابه عنه،

وجعله خليفته على قبيلتي "كدت" و "دا"، غير أنه ثار عليه لسبب لم يذكر في النص، وأعلن العصيان. وانضم إليه أقيال "اقول" سبأ و "اسحرن"، وهم: "ذو سحر" و "مرة" و "ثمتت" و "ثمت" و "ثمامة" و "حنش" و "حنشم" و "مرثد" و "حنف" و "حنفم" و "حنيف" و "ذ خلل" و "ذو خليل" و "أزائن" و "الأزان" و القيل "معد يكرب بن سميفع"، و "هعن" و "هعان" و اخوته أبناء أسلم. فما بلغ نبأ هذه الثورة مسامع أبرهة، سَير إليه جيشاً بقيادة "جرح ذزينر" "جراح ذو زينور"، فلم يتمكن أن يفعل شيئاً، وهزمه "يزيد"، واستولى على حصن "كدر" "كدار"، وجميع من أطاعه من "كدت" "كدة" و من "حريب" حضرموت وهاجم "هجن اذمرين" "هجان الذماري" وهزمه واستولى على أملاكه، وحاصر موضع "عبرن" "عبران" "العبر". عندئذ قرر أبرهة معالجة الموقف بإرسال قوات كبيرة لرتق الخرق قبل اتساعه، فجهز في شهر "ذ قبيضن" "ذو القبيض" "ذو قبيضان" من سنة "٦٥٧" من التقويم الحميري أي سنة "٥٤٢" للميلاد جيشاً لجباً من الاحباش والحميريين، وجهه نحو أودية "سبأ" و "صمرواح" ثم "نبط" على مقربة من "الوادي" "عبرن" "عبران" "العبر". وفي "نبط" جعل أهل "الو" "الوى" و "لد" والحميريين في المقدمة. أما القيادة، فكانت بأيدي القائدين: "وطح" و"وطاح" و "عودة" "ذو جدن". وبينما كان الجيش في طريقه لحرب "يزيد بن كبشة" إذا به يظهر مع عدد من أتباعه أمام "أبرهة" يطلب منه العفو والصفح. أما الباقيون، فقد تحصنوا في مواضعهم، وأبو الخضوع والاستسلام.

وبينما كان أبرهة يفكر في أمر بقية الثائرين إذا به يسمع بخبر سيء جداً، هو تصدع سد "مأرب" وتهدم بعض توابعه، وذلك في شهر "ذ مذن" "ذو مذران" "ذو المذرى" من سنة "٦٥٧" من تقويم حمير، أي سنة "٥٤٢" للميلاد. فأمر مسرعاً بتحضير مواد البناء والحجارة، وحدد أجل ذلك بشهر "ذ صرين" "ذو الصرب" من السنة نفسها. وفي أثناء مدة التحضير هذه، افتتح أبرهة كنيسة في مدينة مأرب يظهر أنه هو الذي أمر ببنائها، ورتب لخدماتها جماعة من متنصرة سبأ. ولما انتهى من ذلك عاد إلى موضع السدّ لوضع أسسه وأقامته مستعيناً بحمير وبنجوده الحبش، لكنه اضطر بعد مدة إلى السماح لهم بإجازة، ليهيئوا لأنفسهم الطعام وما يحتاجون إليه، وليريحهم مدة من هذا العمل المضني الذي تبرموا منه، وليقضي بذلك على تدمر العشائر التي لم تتعود مثل هذه الأعمال الطويلة الشاقة. ورجع أبرهة في أثناءها إلى مأرب، فعقد معاهدة مع أقبال سبأ وتحسنت الأحوال، وأرسلت إليه الغلات والمواد اللازمة للبناء، ووصلت إليه جموع من الفعلية وأبناء العشائر، فعاد إلى العمل بهمة وجد، فأنجزه على نحو ما أراد، فبلغ طوله خمسة وأربعين "أمماً". أما عرضه، فكان أربع عشرة ذراعاً، بني بحجارة حمر من "البلق". وانجزت أعمال قنواته وأحواضه والمشروعات الفرعية المتعلقة به في "خبشم" "خبش" وفي "مفلم" "مفلل" "مفول". وقد دوّن أبرهة في نهاية النص ما أنفقته على بناء هذا السد من أموال، وما قدّمه إلى العمال والجيس الذي اشترك في العمل من طعام واعاشة من اليوم الذي بدئ في بالانشاء حتى

يوم الانتهاء من في شهر "ذو معن" ذو معان" من سنة "٦٥٨" الموافقة لسنة "٥٤٣" للميلاد.

ويظهر من النص أن ثورة "يزيد بن كبشت" كانت ثورة عنيفة قوية، وأنها شملت حضرموت و"حريب" و"ذو جدن" و"حباب" عند "صراواح". ولكنها فشلت وتغلبت أبرهة عليها بمساعدة قبائل يمانية ذكرها في النص.

أما "يزيد بن كبشة" فلا نعرف من أمره في الزمن الحاضر إلا شيئاً يسيراً، وهو ما كره أبرهة في نصه عنه، من أنه عيّه عاملاً ووكيلاً عنه على قبيلة "كدت" "كدة". وهي كندة على رأي أكثر العلماء.

وأما الاقيال الذين انضموا إليه وساعدوه، وهم: "ذو سحر" و"مرة" و"ثمامة" و"حنش" و"مرثد" و"حنيف" وآل ذو خليل وذو يزان "ذ يزن" "ذو يزن"، و"معديكرب بن سميفع" و"هعن" "هعان" واخوته أبناء أسلم. فهم يمثلون على الجملة الطبقات الأرستقراطية القديمة في سبأ. قال ذو خليل وذو سحر، من الأسر التي ذكرت أسماؤها في النصوص المدونة قبل الميلاد. وقد أرخ بأسرة "ذو خليل" في نصوص المسند، وذكرها في كتابات السبئيين العتيقة التي تعود الى أيام المكربين. وكان لهم في أيامهم شأن يذكر في تأريخ سبأ، إذ كان منهم المكربون. وذكر "الهمداني" اسم جماعة يقال لهم "البحريون"، قال: أنهم من ولد ذي خليل من حمير.

وليس من السهل تشخيص "مرّة" و "ثمّامة"، فهما من الأسماء المتعددة المذكورة في الكتب العربية. وقد أشير إلى "ثمّامة بن حجر" ملك "قصر الهدّاد" في "عمران". وذكر الهمداني "بني ثمّامة" وقال: إن جياً مدينة المعافر، وهي لآل الكرندي من بني ثمّامة آل حمير الأصغر، فهل يكون لهؤلاء صلة ب "ثمّامة" النص؟ وذكر بعض الأخباريين اسم ملك من ملوك اليمن سموه "مرثداً" زعموا أنه كان آخر الملوك، وزعم قسم منهم أنه حكم مدة قصيرة بعد "ذي نواس"، فهل صاحب هذا الاسم هو "مرثد" المذكور في النص؟ ولا عبرة بالطبع بما ذكر من أنه كان ملكاً، فقد كان من عادة الأقبال والأذواء التلقب بلقب ملك.

وورد "ذو مرثد بن ذو سحر"، في الموارد العربية، فجمعت بين "مرثد" و "سحر"، وورد اسم "سحر" واسم مرثد في النص، فهل هنالك صلة بين هذه الأسماء؟ ويرى "كلاسر" أن "ازان"، هم "يزن"، ومتهم "سيف بن ذى يزن" الذي ثار على الحبش، واستعان بالفرس لانقاذ بلاده من أيدي الأحباش.

وأما معديكرب بن سميفع، فيرى الباحثون أنه ابن "السميفع أشوع". وقد جاء اسمه بين أسماء الأقبال الذين ثاروا على أبرهة، وانضموا إلى ثورة "يزيد ابن كبشة". فهو من الأقبال الحاقدين على أبرهة لاغتصاب أبرهة الملك من والده. ولهذا انضم إلى "يزين بن كبشة" سيد "كدت" "كندة" وحارب معه الحبش.

وفي أثناء وجود أبرهة في مأرب قضى على عصيان الأقبال الذين انضموا إلى ثورة "يزيد"، وأبوا الخضوع لحكم أبرهة بعد استسلام يزيد

وخضوعه. وكذلك استسلمت قبيلة كدار "كيدار" "كدر"، وتحسن موقفه بذلك كثيراً، وأصبح سيد اليمن وصاحب الأمر. أما الذين ساعدوه وآزره وعاونوه والتفوا حوله، فهم: ذو معاهر و "بن ملكن" ابن الملك ومرجزف وذو ذرنح وعدل "عادل" و ذو فيش، وذو شولمان "ذو الشولم" و "ذو شعبان" "ذو الشعب" وذو رعين "ذرعن"، و "ذو همدان" و"ذو الكلاع"، و "ذمهدم" "ذومهد" و "ذثت" "ذوثت" "ذوثات" و"علسم" و "ذو يزان" "ذيزن" "ذويزن"، و "ذو ذبين" "ذو ذبيان" و "كبر حضرموت" كبير حضرموت، وذو فرنة "ذفرنة". وقد ذكر النص انهم كانوا إلى جانب الملك، وانهم كانوا على ود وصداقة معه. وهم بالطبع من أسر عريقة، ومن كبراء القوم، وقد وردت أسماء بعض أسرهم في النصوص المدونة قبل الميلاد.

ولم يذكر في هذا النص اسم "كبر حضرموت"، أي كبير حضرموت الذي كان يحكم حضرموت في أيام أبرهة، يظهر من ذكره مع الرجال الذين حضروا إلى مأرب أنه كان تابعاً لأبرهة، أو أنه كان حليفاً له.

وتدل جملة "بن ملكن"، على أن المراد بها "ابن الملك"، أي "ابن أبرهة"، ولم يشر النص إلى اسمه. فلعله قصد أكبر أولاده. ويرى البعض انه كان يحكم "وعلان" "ذو ردمان"، وانه كان يلقب ب "ذ معهر" "ذو معاهر" "ذو معهر". وقد أشار "الهمداني" إلى "ذي المعاهر". وذكر أنه قصر "وعلان" ب "ردمان".

وفي اثناء وجود أبرهة في مأرب، وفدت إليه وفود من النجاشي ومن ملك الروم "ملك رمن" ومن ملك القرس "ملك فرسن"، ورسل من "المنذر" "رسل مذر" ومن "الحارث بن جبلة" "رسل حرثم بن جبلة" ومن "أب كرب بن جبلة" "أب كرب بن جبلة" "رسل ابكرب بن جبلة" ومن رؤساء القبائل. ويلاحظ إن النص قد قدّم النجاشي على ملك الروم، كما قدّم ملك الروم على ملك الفرس، ثم ذكر من بعد ملك الفرس اسم المنذر والحارث ابن جبلة وأبي كرب بن جبلة "أب كرب بن جبلة". أما تقديم النجاشي على غيره فأمر لا بد منه، وذلك لسيادة الحبشة ولو بالاسم على اليمن، واعتراف أبرهة بسيادة مملكة اكسوم عليه. وفي ارسال مندوب عن النجاشي إلى أبرهة في مهمة سياسية، دليل ضمني على انفراد أبرهة بالحكم، واستقلاله في ادارة اليمن حتى صار في حكم ملك مستقل، يستقبل وفود الدول ورسلمهم ومن بينهم وفد من ملك قامت حكومته بغزو اليمن والاستيلاء عليها. وأما تقديم ملك الروم على ملك الفرس، فلصلة الدين والسياسة بين الحبشة والروم واليمن، فللروم الأسبقية والأفضلية اذن على الفرس.

ويلاحظ أيضاً أن النص قد استعمل كلمة "محشكت" للوفد أو الرسل الذين جاؤوا الى أبرهة من النجاشي ومن ملك الروم، فكتب "محشكت نجشين" و "محشكت ملك رمن" أي "رسل الجاشي" "سفراء النجاشي" "سفير النجاشي" و "رسل ملك الروم". وتعني كلمة "محشكت" في اللغة السبئية "الزوجة"، فعبّر في هذا النص بهذه الكلمة عن معنى "سفير" "سفراء" و "رسل حكومة صديقة مقربة"، فلها إذن هنا معنى

دبلوماسي خاص. أما بالنسبة إلى رسل "ملك الفرس"، فقد أطلق عليهم كلمة "تبلت"، فكتب "تبلت ملك فرس"، أي "وفد ملك الفرس" وذلك يشير إلى أن لهذه الكلمة معنى خاصاً في العرف السياسي يختلف عن معنى "محشكت"، وأن الوفد لم يكن في منزلة وفدي الحبشة والروم ودرجتها.

ولقد أحدث مجيء مندوب النجاشي "رمحيز زبيمن" ومندوب ملك الروم ومبعوث ملك الفرس، ورسل المنذر ملك الحيرة، والحارث بن جيلة وأبي كرب ابن جبلة، أثراً كبيراً ولا شك في نفوس العرب الجنوبيين، وفي نفوس الأقبال وقبائلهم، فمجيء هؤلاء إلى اليمن، وقطعهم المسافات الشاسعة، ليس بامر يسير، وفيه أهمية سياسية كبيرة. وفيه تقدير لأبرهة ولمكانته في هذه البقعة الخطرة المسيطرة على البحر الأحمر وفمه عند باب المندب، وعلى المحيط الهندي. كما أحدثت الأبهة التي اصطنعها أبرهة لنفسه في اليمن. والقوة التي جمعها في يديه أثراً كبيراً ولا شك أيضاً في نفوس المبعوثين الذين قطعوا تلك المسافات للوصول إلى عاصمة سبأ ذات الأثر الخالد في النفوس.

ولم يكن مجيء هؤلاء المبعوثين إلى أبرهة لمجرد التهئة أو التسلية أو المجاملة أو ما شاكل ذلك من كلمات مكتوبة في معجمات السياسة. ولكن لأمر أخرى أبعد من هذه وأهم، هي جرّ أبرهة إلى هذا المعسكر أو ذلك، وترجيح كفة على أخرى، وخنق التجارة في البحر الأحمر، أو توسيعها، ومن وراء ذلك اما نكبة تحل بمؤسسات الروم وتجاراتهم، واما ربح وافر يصيبهم بما لا يقدر. لقد كان العالم إذ ذاك

كما هو الآن، جبهتين: جبهة غربية، وجبهة أخرى شرقية: الروم والفرس. ولكل طَبَّالون ومزمررون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل يطبلون ويزمرون، ويرضون أو يغيضون، ويشبون أو يعاقبون إرضاء للجبهة التي هم فيها، وزلفى إليها وتقرباً. لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للسياسة للهيمنة على جزيرة العرب، أو إبعادها عن الفرس وعن المياليين اليهم على الأقل. وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم وعلى منع سفنهم من الدخول إلى البحر الهندي، والاتجار مع بلاد العرب. وعمل المعسكران بكل جد وحزم على نشر وسائل الدعاية واكتساب معركة الدعاية والفكر، ومن ذلك التأثير على العقول. فسعى الروم لنشر النصرانية في الجزيرة، فأرسلوا المبشرين وساعدوهم، وحرصوا الحبشة على نصرها ونشرها، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ولتأييد اليهودية أيضاً، وهي معارضة لسياسة للروم أيضاً. ولم يكن دين الفرس عكماً نعلم نصرانياً ولا يهودياً، وإنما هو دين بغيض إلى أصحاب الديانتين. ولم يكن غرض الروم "من بث النصرانية أيضاً خالصاً لوجه الله بريئاً من كل شائبة.

أما النجاشي الذي أرسل الوفد إلى أبرهة فاسمه "رمحيز زبيمن" "رمحيز زبيمان" كما ذكر ذلك أبرهة نفسه. ولا يعرف من أمر هذا النجاشي شيء كثير، ولا يعرف كذلك أكان قد خلف النجاشي "كالب ايلا أصبحت Kaleb Ela Asbaha" الذي بأمره كان الفتح، أم كان خلفاً لخليفته. وقد أشرت من قبل إلى ما ذكره

"بروكوبيوس" وأهل الأخبار عن التوتر الذي كان بين نجاشي الحبشة وأبرهة، وعن امتناع أبرهة عن دفع جزية سنوية إليه. ويظهر إن أبرهة رأى أن من الخير له مصالحة النجاشي والاعتراف بسلطانه اسماً، وفي ذلك كسب سياسي عظيم، كما هو كسب للنجاشي ولو صورياً، فدفع الجزية له وتحسنت العلاقات.

وأما "ملك رمن" ملك الروم، فلم يذكر "أبرهة" اسمه في نصه. ولكن يجب أن يكون هو القيصر "يوسطنيانوس Justinian" الذي حكم من سنة "٥٢٧" حتى سنة "٥٦٦" للميلاد، وكان حكمه بعد حكم "يسطين" الذي ولى الحكم من سنة "٥١٨" حتى سنة "٥٢٧" للميلاد. وكان "يوسطنيانوس" "يوسطنيان" قد وضع خطة للتحالف مع الحبش ومع حمير للاضرار بالفرس. وراسل "السميفع أشوع" Esimiphaeus للاتحاد معه ولمحاربة الفرس. فلما تولى "أبرهة" الحكم عاد القيصر فاتصل به، وتودد إليه لتنفيذ ما عرضه على "السميفع أشوع" من مهاجمة الفرس. فوافق أبرهة على ذلك، وأغار عليهم غير أنه ترجع بسرعة.

وأما "حرثم بن جبلت"، فهو الحارث بن جبلت ملك الغساسنة، وأما "ابكرب بن جبلت"، فإنه Abochorabus المذكور في تأريخ "بروكوبيوس". وقد ذكر هذا المؤرخ أن القيصر "يوسطنيانوس" "يوسطنيان Justinian" كان عينه عاملاً "فيلارخا Phylarch" على عرب السرسين Saracens بفلسطين، وأنه كان رجلاً صاحب قابليات وكفاية، تمكن من تأمين الحدود ومنع الأعراب من

التعرض لها ، فكان هو نفسه يحكم قسماً منهم ، كما كان شديداً على المخالفين له. وذكر أيضاً أنه كان يحكم أرض غابات النخيل جنوب فلسطين ، ويجاور عربها عرب اخرون يسمون "معدني" "معد" للأع Maddeni "هم أتباع ل "حمير. Homeritae "

أراد هذا الرئيس أن يتقرب إلى القيصر ، وأن يبالغ في تقربه إليه وفي إكرامه له ، فنزل له عن أرض ذات نخل كثير ، عرفت عند الروم بـ " Phoinikon واحة النخيل" ، أو "غابة النخيل" وهي أرض بعيدة ، لا تبلغ إلا بعد مسيرة عشرة أيام في أرض قفرة. فقبل القيصر هذه الهدية الرمزية ، إذ كان يعلم ، كما يقول المؤرخ "بروكويوس" عدم فائدتها له ، وأضافها إلى أملاكه ، وعين هذا الرئيس عاملاً "فيلارخاً" على عرب فلسطين.

وقد قام ملك هذا الرئيس على ملك رئيس آخر كانت له صلات حسية بالروم كذلك ، هو "امرؤ القيس Amorkesos" الذي سبق إن تحدثت عنه في كلامي على علاقة العرب بالبيزنطيين.

و "غابة النخيل" التي ذكرناها ، تجاور أرض قبيلة "معد MaddeZZi" ، وكانت معد كما يظهر من أقوال المؤرخ "بروكويوس" خاضعة في عهده لحكم الحميريين. وقد ذكرت كيف أن القيصر توسط لدى "السميفع أشوع" ليوافق على تعيين "قيس" رئيساً على معد. وقد تمردت هذه القبيلة على "أبرهة" ، فسير إليها قوة لتأديبها ، كما يظهر ذلك من كتابة أمر "أبرهة" بكتابتها لهذه المناسبة. أدبها بقوة سيرها إليها في شهر "ذو ثبتن" من شهور فصل الربيع ، فانهزمت

معد ، وأنزلت القوة بها خسائر فادحة. وبعد أن تأدبت وخضعت ، اعترف
"أبرهة" بحكم "عمرو بن مدثر" عليها ، وتراجعت القوة عنها.

Maddenoï ، هي قبيلة Ma,addaya التي ذكرها
"يوحنا الأفسوسي John of Ephsus" مع "طياية Taiyaye" في
كتابه الذي وجهه إلى أسقف "بيت أرشام Beth Arsham" ، ويظهر
من هذا الكتاب أن عشائر منها كانت مقيمة في فلسطين.

وفي القرآن الكريم سورة ، أشارت إلى سيل العرم ، هي سورة
سبأ ، ورد فيها : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنات عن يمين
وشمال ، كلوا من رزق ربكم. واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور.
فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنات ذواتي
أكل خمط وائلٍ و شيء من سدرٍ قليل.) ولم يحدد المفسرون الوقت الذي
تهدم فيه السد.

ول "أبرهة" نص آخر ، كتبه بعد النص المتقدم ، لمناسبة غزوه
"غزيو" "معداً" ، في شهر "ذ ثبتن" "ذى ثبت" "ذى الثبت" "ذى الثبات" من
شهور سنة "٦٦٢" من التقويم الحميري الموافقة لسنة "٥٤٧" أو "٥٣٥"
للميلاد. وهذا النص عثرت عليه بعثة "ريكمنس" مدوّنا على صخرة
بالقرب من بئر "مريغان". فوسم ب. Ryckmans 506 وقد ترجمه
"ريكمنس G. Ryckmans" إلى الفرنسية ، ثم إلى لغات أخرى.

وفي النص مواضع طمست فيها معالم بعض الحروف ، عزّ بذهابها فهم
المعنى وضبط الأعلام. كما أن فيها بعض تعابير معقدة ، عقدت على من
عالجه فهم المعنى فهماً واضحاً ، ثم هو نص قصير لا يتجاوز عشرة

اسطر، واختصر وصف الحوادث حتى صيره وكأنه برقية من برقيات "التلغراف"، ولكنه مع كل هذا ذو خطر بالغ، لأنه يتحدث عن حوادث لم نكن نعرف عنها شيئاً، ويصف الأوضاع السياسية في ذلك العهد، ويشير إلى اتصال ملوك الحيرة بالحبش والى سلطان حكام اليمن على القبائل العربية، مثل معدّ، مع أنها قبائل قوية وكثيرة العدد. وهو مما يؤيد رواية أهل الأخبار في أنه كان لليمن نفوذ على قبائل معدّ وأن تبابعة اليمن كانوا ينصبون الملوك والحكام على تلك القبائل.

تلقب "أبرهة" في هذا النص كما تلقب في نص سد مأرب بلقب الملك. الذي كان يتلقب به ملوك اليمن، وهو: "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت" اليمن" وأعرابها في النجاد "طودم" وفي المنخفضات "تهمتم"، "تهامة"، كما افتتحه بجملة: "بخيل رحمن ومسحهو"، أي "بحول الرحمن ومسيحه"، وقد سبق لـ "أبرهة" أن افتتح نصه الذي دوّنه على "سد مأرب" بجملة: "بخيل ودا ورحمت رحمن ومسحهو ورح قدس"، ومعناها: "بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه روح القدس"، والجملتان من الجمل التي ترد في نصوص اليمن لأول مرة، وذلك بسبب كون أبرهة نصرانياً، وقد صارت النصرانية في أيام احتلال الحبش لليمن ديانة رسمية للحكومة، باعتبار أنها ديانة الحاكمين. وعرف "أبرهة" في النصين بـ "أبره زييمن"، أي "أبرهة زييمان"، ولفظة "زي ب م ن" زييمن" من ألقاب الملك في لغة الأحباش.

واليك هذا النص كما دوّنه "ريكمنس" عن النص الأصيل: "بخيل رحمن ومسحهو ملكن أبره زييمن ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت

ويمنت واعربهمو طودم وتهمت سطورو ذن سطرن كغزيو معدم غزوتن
 ربعتن بورخن ذ ثبتن كقسدو كل بنيعمرم وذكى ملكن ابجر بعم
 كدت وعل وبشرم بنحصنم بعم سعدم و م.خ.ض.و وضرو قدمى جيشن
 على بنيعمرم كدت وعلى ود ، ع.ز.رن.مردم وسعدم بود بمنهج ترين
 وهرجو وازرو ومنمو ذ عسم ومخض ملكن بخلبن ودنو كطل معدم
 ورهنو وبعدهنو وزعهمو عمرم بن مذنر ورهنهمو بنهو وستخلفهو على
 معدم معدم وقفلو بن حلبن بخيل رحمن ورخهو ذلثنى وسشى وست ماتم"
 ونصه في عربييتنا: "بحول الرحمن ومسيحه. الملك أبرهة زبيمان
 ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت "اليمن" وأعرابها في الطود
 "الهضبة" وفي تهامة "المنخفضات". سطوروا هذه الأسطر لما غزت معد:
 الغزوة الربيعية بشهر ذو الثبات "ذ ثيق" "ذو الثبت". ولما غلظ "ثار" كل
 "بنو عامر". أرسل الملك "أبا جبر"، بقبيلة "كدت" كندة وقبيلة "عل" و
 "بعثر بن حصن" "بشرم بن حصنم" بقبيلة "سعد" لحرب "بني عامر"
 فتحركا بسرعة وقدمتا جيشهما نحو العدو: وحاربت "كدت" بكندة
 وقبيلة "عل" بني عامر ومراداً، وحاربت "سعد" بواد "بمنهج" ينهج "يؤدي"
 إلى "ترين" "الترب". فقتلوا من بني عامر وأسروا وكسبوا غنائم. وأما
 الملك، فحارب ب "حلبن" "حلبان"، وهزمت معد، فرهنت رهائن عنده.
 وبعده، فاوض "عمرو بن المنذر" "عمرم بن مذنر"، وقدّم رهائن من
 أبنائه. فاستخلفه "أقره" على معد. وقفل "أبرهة" راجعاً من "حلبن"
 "حلبان"، بحول الرحمن. بتأريخ اثنين وستين وست مئة.

وقد درس بعض الباحثين هذا النص، فذهب بعضهم إلى أنه يشير إلى حملة أبرهة على مكة في العام الذي عرف عند أهل الأخبار ب"عام الفيل" وأشير إليها في القرآن الكريم. وذهب بعض آخر إلى أنه يشير إلى غزو قام به أبرهة تمهيداً لحملة كان عزم القيام بها نحو أعالي جزيرة العرب، فتوقفت عند مكة وذهب آخرون إلى إن ما جاء في هذا النصبر لا علاقة له بحملة الفيل، ذلك لأن هذه الحيلة كانت في سنة "٥٤٧" للميلاد على تقديرهم، على حين كانت حملة الفيل سنة "٥٦٣" على تقديرهم أيضاً.

وذهب "بيستن" إلى أن هذا النص يتحدث عن معركتين: معركة قام بها "أبرهة" في "حلبان": ومعركة كندة وسعد - مراد بموضع "ترين" "الترب" "تربة"، وقد حاربت فيها جماعة من القبائل.

ويظهر من النص إن "أبرهة" غزا بنفسه معداً في شهر "ذي ثبتن" من ربيع سنة "٦٦٢" من التقويم السبئي، والتقى بها في موضع "حلبن" "حلبان"، فهزمها وانتصر عليها، فاضطرت عندئذ إلى الخضوع له ومهادنته، والى وضع رهائن عنده تكون ضماناً لديه بعدم خروجها مرة ثانية عليه. فوافق على ذلك. وفيما كان في "حلبان" بعد اتفاه مع معد، جاءه "عمرو بن المنذر" "عمرم ابن مذنر" وكان أبوه "المنذر" عينه أميراً على معد، ليفاوضه في أمر "معد" فقابله ب"حلبان"، وأظهر له استعداد أبيه "المنذر" على وضع رهائن عنده لئلا يتكرر ما حدث، وبحصول اعترافه على تولي عمرو حكم "معد" فوافق أبرهة على ذلك، وقفل "وقفلو" أبرهة راجعاً إلى اليمن، وسوّى بذلك خلافه مع معد. وصار

"عمرو بن المنذر" رئيساً على معد بتعيين أبيه له عليها وبتثبيت "أبرهة" هذا التعيين.

و "حلبان" موضع في اليمن في أرض "حضور"، وذكر انه موضع في اليمن على مقربة من "نجران"، وانه موضع ماء في أرض "بني قُشَيْر". وقد وعت ذاكرة أهل الأخبار على ما يظهر شيئاً عن المعركة التي نشبت في هذا الموضع إذ رووا شعراً للمخبل السعدي يفخر بنصرة قومه "أبرهة بن الصباح" ملك اليمن. وكانت "خندف" حاشيته. ذكروا أنه

قال: صرموا لأبرهة الأمور محلها حلبان فانطلقوا مع الأقوال

ومحرق والحارثان كلاهما شركاونا في الصهر والأموال

وأورد "الهمداني" أبياتاً فيها اسم موضع "حلبان" واسم "أبي يكسوم"، وهي قوله:.

ويوم ابي يكسوم والناس حضرٌ على حلبان إذ تقضي محامله

فتحنا له باب الحضير وربّه عزيز يمشي بالسيوف أراجله

وقد روى هذان البيتان وهما من شعر "المخبل السعدي" في هذا

الشكل: ويوم أبي يكسوم والناس حضر على حلبان إذ تقضي محامله

طوينا لهم باب الحصين ودونه عزيز يمشي بالحراب مقالوه

ويظهر من هذا الشعر أن "أبرهة" لما جاء بجيشه إلى موضع "حلبان"، وجد

مقاومة، ووجد أبواب الحصن مقلّفة، وقد تحصن فيه المقاومون،

ودافعوا عنه، فهجم قوم الشاعر عليه، ففتحوا باب الحصن، ودخلوه.

أما تأديب "بني عامر"، فلم يقيم ب "أبرهة" بنفسه، بل قام به قائد اسمه

"ابجبر". "أبو جبر"، قاد قبيلتي "كدت"، أي "كندة" و "عل"، وقائد آخر

اسمه "بشرم بن حصنم"، أي "بشر بن حصن"، قائد قبيلة "سعدم"، أي "سعد" "بنو سعد". وسار القائدان بجيشهما وتقدما بهما إلى "بني عامر"، وحرابا على هذا النحو: حاربت "كندة" و "عل" قبائل سقطت بعض الحروف من اسم كل واحدة منها، فبقي من احدهما "ودع" وبقي من الأخرى "زرن" "ز.رن" وقبيلة "مردم"، أي "مراد". وحرابت "سعد" بوادي يؤدي إلى "ترين" "الترب"، فقتلوا وأسروا "أزرؤا" وأصابوا غنائم. ولم يسم النصر الوادي الذي يؤدي إلى "الترب".

ويظهر أن موضع "ترين" الذي يؤدي إليه الوادي الذي جرت فيه المعركة، هو موضع "تربة"، مكان في بلاد بني عامر، ومن مخاليف مكة النجدية، على مسافة ثمانين ميلاً تقريباً إلى الجنوب الشرقي من الطائف. وذكر أنه واد بقرب مكة أي يومين منها، يصب في بستان ابن عامر، حوله جبال السراة، وقيل انه واد ضخم، مسيرته عشرون يوماً أسفله بنجد أعلاه بالسراة، وقيل: يأخذ من السراة ويفرغ في نجران، وقيل: موضع من بلاد بني عامر بن كلاب واسم موضع من بلاد عامر بن مالك.

و "عمرم بن مذنر"، هو "عمر بن المنذر" ملك الحيرة، وكان أبوه "المنذر" حليفاً للساسانيين. فيكون قد عاصر "ابراهة" اذن، ويكون "عمرو" ابنه من المعاصرين له أيضاً.

وقصد ب "بنيعمرم"، "بني عامر". وهم "بنو عامر بن صعصعة" من "هوازن".

ومراد ، هي قبيلة مراد التي منها " غطيف". وفي أيام الرسول وقد عليه "فروة بن مسيك المرادي" مفارقاً ملوك كندة. وقد كانت بين مراد وهمدان قبيل الإسلام وقعة ظفرت فيها همدان ، وكثر فيها القتلى في مراد. وعرفت تلك الوقعة بيوم الروم. ورئيس همدان الأجدع بن مالك والد مسروق.

وأما "سعدم" أي قبيلة "سعد" ، التي قادها "بشر بن حصن" في هذه المعركة ، فلم يذكر النص هويتها. غير أننا إذا ما أخذنا بشعر "المخيلّ السعدي" الذي افتخر به بنصرة قومه لأبرهة في يوم "حلبان" وبانضمامهم إليه ، ففي استطاعتنا أن نقول حينئذ: إن قومه هم "سعدم" أي "سعد" القبيلة المذكورة في النص.

و "أبجير" اسم قد يقرأ "أبو جبر" ، وقد يكون "أبو جابر" وقد يكون "أبجبر" وقد يكون "أبو جبار". وكل هذه الأسماء هي أسماء معروفة عند الجاهليين. وقد ذهب "كستر" "M.J. Kister" " إلى احتمال كونه "يزيد ابن شرحبيل الكندي" أو "أبو الجبر بن عمرو" ، وهون من كندة ايضاً. وهو من آل الجون من بطون كمندة.

وقد اشير في كتب أهل الاخبار الى امير من امراء كندة عرف ب"أبي الجبر" وقد ذكر في مقصورة "ابن دريد". وروى انه زار "كسرى" ليساعده على قومه ، فأعطاه جماعة من الاساورة اخذهم معه ليساعده ، فلما وصل الى "كاظمة" سئموا منه ، وارادوا التخلص منه فدمسوا السم له في طعامه. ولكنه لم يمت منه ، بل شعر بالسم منه ، فأكرهه الاساورة على ان يكتب كتابا لهم يحملونه الى كسرى

يذكر فيه أنه سمح لهم بالعودة، فكتب لهم كتاباً ثم سافر الى الطائف، فعالجه "الحارث بن كلدة الثقي"، حتى شفي، فوهبه جارية كانت له اسمها "سمية" أهداها له "كسرى"، ثم ذهب إلى اليمن، ولكن عاوده مرض في طريقه إليها فات. وقد رأى "كستر" أنه هو "أبو جبر" المذكور في النص.

وأما "بشرم بن حصنم"، أي "بشر بن حصن"، أو "بشر بن حصين" أو "بشار بن حصن" أو "بشار بن حصين" أو "بشير بن حصن"، فقد ذهب "لندن" Ludin"، إلى انه احد سادات "كندة".

لقد أشرت إلى رأي بعض الباحثين في هذه الحملة، وإلى ذهاب بعضهم إلى انها كانت حملة الفيل، أي حملة أبرهة المذكورة في القرآن الكريم على مكة. كما أشرت إلى رأي آخر، ذكر أن هذه الحملة كانت مقدمة لحملة الفيل، أي حملة تجريبية سبقت تلك الحملة. وحجة الفريق الأول ما ورد في بعض الروايات من أن مولد الرسول، كان بعد عام الفيل بثلاث وعشرين سنة أي في حوالي السنة "٥٤٧" للميلاد. وهو تأريخ ينطبق مع السنة المذكورة في النص، إذا أخذنا برأي من يجعل مبدأ التقويم الحميري سنة "١١٥" قبل الميلاد. ومن ورود رواية أخرى في حساب السنين عند قريش، تظهر بنتيجة حسابها وتحويلها أن عام الفيل كان في سنة "٥٥٢" بعد الميلاد، وهو تأريخ ينطبق مع تأريخ النص أيضاً إذا أخذنا برأي "ريكمنس" في مبدأ التقويم الحميري من أنه كان سنة "١٠٩" لا "١١٥" قبل الميلاد .

وأبرهة هذا هو "صاحب الفيل" الذي قصد بفيلته وجنده هدم الكعبة وإكراه الناس على الحج إلى "القليس" الكنيسة التي بناها بمدينة "صنعاء" في روايات الأخباريين. وهي كنيسة قال عنها أهل الأخبار، انها كانت عجيبة في عظمتها وضخامتها وتزويقها من الداخل والخارج، حتى إن أبرهة لما انتهى من بنائها كتب إلى النجاشي: "إني قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبين العرب ولا العجم مثله". أو "إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلاً للملك. كان قبلك". ويبالغ أهل الأخبار في وصفها فيذكر "الأزري"، انه بناها بجانب قصر غمدان، وأنه أقامها بحجارة قصر بلقيس بمأرب، نقلها العمال والفعلة والمسخرون من مأرب إلى صنعاء. فهدموا ذلك القصر وأخذوا حجره وما يصلح للبناء من مادة، ثم نقلوه إلى صنعاء لاستعماله في بناء تلك الكنيسة التي بنوها بناءً ضخماً عالياً، وجعلوا جدرانها من طبقات من حجر ذي ألوان مختلفة. لون كل طبقة يختلف عن الطبقة التي تحتها أو التي فوقها. وزينوا الجدران بأفاريز من الرخام والخشب المنقوش. وجعلوا الرخام نائتاً عن البناء، وجعلوا فوق الرخام حجارة سوداً لها بريق، وفوقها حجارة بيضاء لها بريق، فكان هذا ظاهر حائط القليس. وكان عرضه ست أذرع. وكان للقليس باب من نحاس عشر أذرع طولاً في أربع أذرع عرضاً. وكان المدخل منه إلى بيت في جوفه، طوله ثمانون ذراعاً في أربعين ذراعاً معلق العمد بالسياج المنقوش ومسامير الذهب والفضة، ثم يدخل من البيت إلى إيوان طوله أربعون ذراعاً، عن يمينه وعن يساره، وعقوده مضروبة بالفسيفساء مشجرة، بين أضعافها كواكب الذهب ظاهرة، ثم يدخل

من الإيوان إلى قبة ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، جدرها بالفسيفساء، فيها صلب منقوشة بالفسيفساء والذهب والفضة، وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق مربعة عشر أذرع في عشر أذرع، تغشي عين من ينظر إليها من بطن القبة تؤدي ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة، وكان تحت القبة منبر من خشب اللبخ، وهو عندهم الابنوس، مفصد بالعاج الأبيض. ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهباً وفضة. وكان في القبة سلاسل فضة. وفي القبة أو في البيت خشبة ساج منقوشة طولها ستون ذراعاً يقال لها كعيب، وخشبة من ساج نحوها في الطول يقال لها: امرأة كعيب كانوا يتبركون بهما في الجاهلية. وكان يقال لكعيب الأحوزي، والأحوزي بلسانهم الحر.

وكان أبرهة قد أخذ العمال بالعمل أخذاً شديداً، وأمر بالعمل في بناء الكنيسة ليل نهار. وإذا تراخى عامل أو تباطأ عن عمله أنزل وكلاؤه به عقاباً شديداً، يصل إلى قطع اليد. وبقي هذا شأنه ودأبه حتى أكمل بناؤها وسرّ من رؤيتها، فأصبحت بهجة للناظرين.

ونجد في وصف "الأزري" ومن تقدم عليه من أهل الأخبار للقليس شيئاً من المبالغة، ولكنه على الاجمال وصف يظهر أنه أخذ من موارد وعته وشاهدته وأدركته. لذلك جاء وصفاً حياً نابضاً بالحياة، ينطبق على الكنائس الضخمة التي أنشئت في تلك الأيام في القسطنطينية أو في القدس أو في دمشق، أو في المدن الأخرى. والظاهر من هذا الوصف، أن فن العمارة اليماني القديم قد أثر في شكل بناء هذه الكنيسة، التي تأثرت بالفن البيزنطي النصراني في بناء الكنائس.

ويذكر "الأزري" إن القليس بقي في صنعاء على ما كان عليه حتى ولي أبو جعفر المنصور الخلافة، فولى "العباس بن الربيع بن عبيد الله الحارثي" "العباس بن الربيع بن عبد الله العامري" اليمن، فذكر له ما في القليس من ذخائر، وقيل له أنك تصيب فيه مالاً كثيراً وكنزاً فتاقت نفسه إلى هدمه. ثم استشار أحد أبناء وهب بن منبه وأحد يهود صنعاء فألحا عليه بهدمه، وبين اليهودي له أنه إذا هدمه فإنه سيلى اليمن أربعين سنة، فأمر بهدمه، واستخرج ما فيه من أموال وذهب وفضة. وخاف الناس من لمس الخشبة المنقوشة التي كانوا يتبركون بها، ثم اشتراها رجل من أهل العراق كان تاجراً بصنعاء وقطعها لدار له. وخرّب القليس حتى عفى رسمه وانقطع خبره.

وإذا كان ما يقوله الأزري نقلاً عن رواية أدركوا تلك الكنيسة من إن أبرهه أقامها بأحجار قصر بلقيس باليمن، فإنه يكون بذلك قد قوض أثراً مهماً من آثار مدينة مأرب، وأزال عملاً من الأعمال البنائية التي أقامها السبئيون في عاصمتهم قبله وهو عمل مؤسف. وفي صنعاء اليوم موضع يعرف بـ "غرفة القليس"، يظن أنه موضع تلك الكنيسة، وهو موضع حفير صغير ترمى فيه القمامات وعليه حائط ويقع أعلى صنعاء في حارة القطيع بقرب مسجد نصير.

وذكر "الهمداني" اسم قصر دعاه "القليس" نسب بناءه إلى "القليس بن عمرو"، وهو في زعمه من أبناء "شرحبيل بن عمرو بن ذي غمدان بن إلى شرح يخضب". وقال: انه بناه بصنعاء، وهو بناء قديم.

وذكر أيضاً أن "عمرو ينار ذو غمدان ابن إلى شرح يخضب بن الصوار" هو أول من شرع في تشييد "غمدان" بعد بنائه القديم. وقد أمر "أبرهة" ببناء كنيسة في "مأرب" أشار إلى بنائها في نصه الشهير، أقامها في سنة "٥٤٢م"، ورتب لخدمتها جماعة من متصرة سباً، واحتفل هو نفسه بافتتاحها، ولعله استعان بينائها بحجارة قصور مأرب ومعبدها الكبير، ذلك لأن حجارتها منحوتة نحتاً جيداً، يجعل من السهل استعمالها في البناء على حين يتطلب الحجر الجديد وقتاً طويلاً وأموالاً باهظة. ولهذا السبب ذهب أهل الأخبار إلى أنه أمر بنقل حجارة قصر مأرب إلى صنعاء.

لقد أصيب مشروع أبرهة الرامي إلى هدم الكعبة والاستيلاء على مكة باخفاق ذريع، يذكرنا بذلك الاخفاق الذي مني "به مشروع أوليوس غالوس". لقد كان في الواقع مشروعاً خطيراً، لو تم إذن لاتصل ملك الروم بملك حلفائهم وأنصارهم الحبش في اليمن، ولتحقق حلم الإسكندر الأكبر وأغسطس ومن فكر في الإستيلاء على هذا الجزء الخطير من العالم من بعدهما، ولتغير الوضع السياسي في الجزيرة من غير شك، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، حدث أن مكة التي أريد هدمها هي التي هدمت ملك الحبشة في اليمن، وملك من جاء بعدهم لنجدة أهل اليمن، وملك البيزنطيين في بلاد الشام وملك الفرس في العراق وفي كل مكان.

وصل إلى "خمير"، ولا في أي مكان كان يحكم. وما علاقة ذلك الملك الحبشي بجزيرة العرب إن صح انه ملك الحبش حقاً. وإذا

أخذنا بقول هذا الشاعر وصدّقناه، فقد يكون ذهب ليتوسل إلى الحبش لفك أسر جماعة من قومه أو من أصحابه قد يكونون ذهبوا للتجار أو لشراء الرقيق، فقبض عليهم لسبب من الأسباب واحتجزوا، فذهب لالتماسهم فنجح في وساطته وقد يكون "خمير" هذا احد الحكّام أو الاقطاعيين، لا النجاشي ملك الأحباش.

ويظهر من كتاب "الإشتقاق" أنه كان لأبرهة حفيد اسمه "ابن شمر، إذ ذكر مؤلفه "ابن دريد" اسم رجل سماه "ابن شمر بن أبرهة بن الصباح"، قال: إنه قتل مع "علي بن أبي طالب" بصفين. ومعنى هذا أنه كان لأبرهة ولد اسمه "شمر". ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء رجال كانوا من حفدة "أبرهة".

وقد سعى الأحباش، مدة مكثهم في اليمن، في نشر النصرانية بين الناس، وبناء الكنائس،، ويحدثنا "قزما الرحالة Cosmas Indicopleutes في نحو سنة "٥٣٥م"، اي بعد اندحار "ذي نواس"، عن كثرة الكنائس في العربية السعيدة وعن كثرة الأساقفة والمبشرين الذين بشروا. بين الحميريين والنبط وبني جرم. وقد اشتهرت كنيسة "نجران"، وكذلك كنيسة صنعاء، وكنيسة "ظفار" التي بناها الحبش، وقد أشرف عليها الأسقف "جرجنسيوس" صاحب "كتاب شرائع الحميرين"، وكان مقرباً لدى النجاشي ومستشاره ومساعدته في تصير الحميريين.

وورد ان القيصر "يوسطين" "جستين" كان قد أرسل "كريكنتيوس Gregentius of Ulpana" من الاسكندرية إلى

"ظفار" ليكون "أسقفاً" على نصاراها، وقد تناظر مع "حبر" من أحبار يهود فيها، فغلبه، وقدّم قانون للشريعة إلى "أبرام" "Abram" ملك حمير. حملة أبرهة

وفي أيام عبد المطلب كانت حملة أبرهة على مكة، وهي حملة روّعت قريشاً وأفزعتهم، لما عرفوه من قساوة أبرهة ومن شدته في أهل اليمن، ومن انفراده بالحكم، واستبداده في الأمور، حتى انه لما مات وذهب مع الذاهبين لم تمت ذكراه كما ماتت ذكرى غيره من الحكام، بل تركت أثراً عميقاً في ذاكرة أهل اليمن، انتقل منهم إلى أهل الأخبار، فرووا عنه أقاصيص، ونسجوا حوله نسيجاً من أساطير وخرافات، على عاداتهم عند تحدثهم عن الشخصيات الجاهلية القوية التي تركت أثراً في أهل تلك الأيام، حتى انهم لم يكتفوا بكل ما قالوه فيه، وكأنه لم يكن كافياً، فجعلوا منه جملة رجال سموهم "أبرهة" نصبوهم ملوكاً وتبابعة على مملكة سبأ وحمير.

والرأي الغالب بين الناس إن حملة أبرهة على مكة، كانت قبل المبعث بزهاء أربعين سنة، وميلاد الرسول كان في عام هذه الحملة، وهو العام الذي عرف ب "عام الفيل". وهو يوافق سنة "٥٧٠" أو "٥٧١م". وانما عرف بعام الفيل، لأن الحبش كما يزعم أهل الأخبار جاءوا إلى مكة ومعهم فيل سموه "محموداً"، وقد جاءوا به من الحبشة. وفي بعض الروايات أن عدد الفيلة كان ثلاثة عشر فيلاً، أو اثني عشر، أو دون ذلك، أو أكثر، وأوصلوا العدد إلى ألف فيل. ولوجود الفيل أو الفيلة في

الحملة، عرفت بحملة الفيل، وعبر عن الحبش في القرآن الكريم ب
"أصحاب الفيل".

وقد ذهب بعض الرواة إلى أن عام الفيل إنما كان قبل مولد
النبي بثلاث وعشرين سنة، وذكر بعضهم أنه كان في السنة الثانية
عشرة من ملك "هرمز ابن انوشروان". ولما كان ابتداء حكم "هرمز بن
أنوشروان" سنة "٥٧٩" فعام الفيل يكون في توالي السنة "٥٨١" للميلاد لا
سنة "٥٧٠" أو "٥٧١" للميلاد كما يذهب الأكثرون إلى ذلك. وأما إذا
أخذنا برواية من قال من الرواة وأهل الأخبار من أن عام الفيل قد كان
لاشتين وأربعين سنة من ملك "أنوشروان"، فيكون هذا العام قد وقع في
حوالي السنة "٥٧٣" للميلاد وهو رقم قريب من الرقم الذي ذهب إليه
أكثر المستشرقين حين حولوا ما ذكره أهل الأخبار عن سنة ولادة
الرسول إلى التقويم الميلادي.

وقد ورد ذكر هذا الحادث في القرآن الكريم: (ألم تر كيف
فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم
طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول)
وقد خاطبت هذه الآيات أنرسول بأن قريشاً سوف تخبب وتحل بها
الهزيمة، كما حلت بأصحاب الفيل، وأصحاب الفيل اعظم منهم قوة
واشد بطشاً، وهم لا شيء تجاههم، وفيها تذكير لقريش بما حل
بالحبش، وما كان عهد الحبش عنهم ببعيد. وينسب الأخباريون حملة
أبرهة على مكة إلى تدنيس رجل من كنانة "القليس" التي بناها أبرهة
في اليمن، لتكون محجة للناس. فلما بلغ أبرهة خبر التدنيس كما

يقولون، عزم على السير إلى مكة لهدم الكعبة، فسار ومعه جيش كبير من الحبش واهل اليمن.، وهو مصمم على دكها دكاً، وصرّف الناس عن الحج اليها إلى الأبد. فلما وصل، هلك معظم جيشه، فاضطر إلى العودة إلى اليمن خائباً مدحوراً.

ويذكر اهل الأخبار إن الرجل الذي دنس القليس، هو من النسّاء أحد بني فقيم، ثم احد بني مالك من كنانة. وقد غضب لما رآه من شأن تلك الكنيسة، ومن عزم أبرهة على صرف حاج العرب اليها، ومن مبالغته في الدعاية لها، ففعل ما فعل.

وقيل ان الرجل المذكور كان من النساك، من نساك بني فقيم، غاظه ما كان من عزم ابرهة على صرف العرب عن الحج الى مكة، فأحدث في القليس للحط من شأنها في نظر العرب، ولطخ قبلتها بحدثه، فشاع خبره بين الناس، وهزئ القوم من قليس حدث به ما حدث. وغضب ابرهة من عمله المشين هذا الموجه اليه والى كل الحبش، فعزم على هدم البيت الذي يقدهسه هذا الكناني ومن يحج اليه.

ويفسر أخباريون آخرون عزم "أبرهة" على دك الكعبة وهدمها إلى عامل آخر، فهم يذكرون إن فتية من قريش دخلوا القليس فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه ريح شديدة، فاحرقت وسقطت إلى الأرض، فغضب أبرهة، وأقسم لينتقم من قريش بهدم معبدهم، كما تسببوا في هدم معبده الذي باهى النجاشي به.

وذكر أن "أبرهة" بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانياً، ثم كتب إلى النجاشي:

إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها ملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى أنجاشي، غضب رجل من النساء، فخرج حتى أتى الكنيسة، فأحدث فيها، ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة، فغضب عند ذلك، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. وبعث رجالاً كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة، فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل، فزاد أبرهة ذلك غضباً وحنقاً، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرج معه بالفيل.

وذكر "السيوطي" سبباً آخر في قرار أبرهة غزو مكة، زعم أن أبرهة الأشرم كان ملك اليمن، وان ابن ابنته أكسوم بن الصباح الحميري خرج حاجاً، فلما انصرف من مكة، نزل في كنيسة بنجران، فعدا عليها ناس من أهل مكة، فأخذوا ما فيها من الحلي وأخذوا قناع أكسوم، فانصرف إلى جده مفضباً، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له "شهر بن معقود" على عشرين ألفاً من خولان والأشعريين، فساروا حتى نزلوا بأرض خثعم فتيمنت خثعم عن طريقهم. فلما دنا من الطائف خرج إليه ناس من بني خثعم ونصر وثقيف، فقالوا: ما حاجتك إلى طائفنا، وإنما هي قرية صغيرة؟ ولكننا ندلك على بيت بمكة يعبد فيه، ثم له ملك العرب، فعليك به، ودعنا منك، فأتاه حتى إذا بلغ المغمس، وجد إبلاً لعبد المطلب مئة ناقه مقلدة، فأنهبها بين أصحابه. فلما بلغ ذلك عبدالمطلب جاءه، وكان له صديق من أهل اليمن يقال له: ذو عمرو، فسأله أن يردّ عليه ابله، فقال: إني لا أطيق ذلك، ولكن إن شئت

أدخلتك على الملك. فقال عبد المطلب: افعل. فأدخله عليه، فقال له: إن لي اليك حاجة. قال قضيت. كل حاجة تطلبها، ثم قص عليه قصة ابله التي انتهبها جيشه. فالتفت إلى ذي عمرو، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى عجباً، فقال: لو سألتني كل شيء أحوزه، أعطيته اياه، ثم أمر بإرجاع ابله عليه. وأمر بالرحيل نحو مكة لهدمها. وتوجه الف شهر وأصحاب الفيل، وقد اجمعوا ما اجمعوا نحو مكة، فلما بلغوها، خرجت عليهم طير من البحر لها خراطيم كأنها البلس، فرمتهم بحجارة مسرجة كالبنادق، فشاختهم، ونزل الهلاك بهم فانصرف شهر هارباً وحده، ولكنه ما كاد يسير، حتى تساقطت اعضاء جسده فهلك في طريقه إلى اليمن وهم ينظرون إليه.

ويتفق خبر "السيوطي" هذا في جوهره وفي شكله مع الروايات الأخرى التي وصلت إلينا عن حملة "أبرهة"، ولا يختلف عنها إلا في أمرين: في السبب الذي من أجله قرر أبرهة هدم الكعبة، وفي الشخص الذي سار على مكة. أما السبب الذي أورده السيوطي، فهو غير معقول، لسبب بسيط واضح، هو إن ابن أبرهة، وهو أكسوم بن الصباح الحمري، هو رجل نصراني، والنصارى لا تحج إلى مكة، لأنها محجة الوثنيين، وقد عزم جدّه أبرهة على صرف العرب من الحج إليها، فكيف يحج إليها ابن ابنته، وهو على دين جدّه؟ وأما ما زعمه من إن "شهر بن معقود" مقصود هو الذي سار على مكة سببها، وذلك بأمر من أبرهة، فإنه يخالف اجماع أهل الأخبار والمفسرين من إن أبرهة هو نفسه قاد تلك الحملة، وأنه هو الذي أخذ الفيل أو الفيلة معه، وسار على

رأس جيش كبير من الحبش ومن قبائل من اهل اليمن كانت تخضع له. ثم إن السيوطي يشير إلى وجود "الملك" في الجيش، ولم يكن شهر بن معقود ملكاً ولم يلقبه اهل الأخبار بلقب "ملك"، وإنما أنعموا بهذا اللقب على ابرهة وحده. أضف إلى ذلك إن ما ذكره السيوطي من حوار وقع بين عبد المطلب وبين الملك هو حوار يذكر اهل الأخبار انه جرى بين عبد المطلب وبين ابرهة. لذلك ارى إن الأمر قد التبس على السيوطي، فخلط بين ابرهة وبين شهر احد قادته من العرب، وانه قصد بالملك ابرهة لا القائد، وإن لم يشر إليه، بل جعل الفعل كل الفعل للقائد المذكور.

وأورد "القرطبي" رواية اخرى نسبها إلى مقاتل بن سليمان وابن الكلبي، **خلاصتها:** إن سبب الفيل هو ما روى إن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى ارض النجاشي، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى، تسميها النصارى: الهيكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم، وتركوها وارتحلوا، فهبت ريح عاصفة على النار فأضرمت البيعة ناراً واحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشي، فأخبره، فاستشاط غضباً، فأتاه ابرهة بن الصباح وحجر بن شرحبيل وابو يكنهوم الكنديون وضمنوا له احراق الكعبة. وكان النجاشي هو الملك، وابرهة صاحب الجيش، وابو يكسوم نديم الملك، وقيل وزيره، وحجر بن شرحبيل من قواده. فساروا معهم الفيل، وقيل ثمانية فيلة، ونزلوا بذي المجاز، واستاقوا سرح مكة. وتتفق هذه الرواية مع الروايات السابقة من حيث الجوهر، ولا تختلف عنها الا في جعل الكنيسة المحققة بيعة في ارض النجاشي، اي في ساحل الحبش، لا في

ارض اليمن، والا في جعل الأمر بالحملة النجاشي، لا ابرهة نفسه. أما المنفذون لها، فهم ابرهة ومن معه.

وهناك سبب اخر سأعرض له فيما بعد، يذكره أهل الأخبار في جملة الأسباب التي زعموا انها حملت ابرهة على السير نحو مكة لتهديمها. وهو سبب ارجحه وأقدمه على السببين المذكورين، لما فيه من مساس بالسياسة، ولأنه مشروع سياسي خطير المشروعات العالمية القديمة التي وضعها اقدم ساسة العالم للسيطرة على الطرق الموصلة إلى المياه الدافئة والى الأرينض المنتجة لأهم المواد المطلوبة في ذلك العهد.

وتذكر روايات اهل الأخبار إن أبرهة لما رتب كل شيء وجهد نفسه للسير من اليمن نحو مكة، خرج له رجل من اشراف اليمن وملوكهم، يقال له: "ذو نفر" وعرض له فقاتله، فهزم "ذو نفر" واصحابه، واخذ له ذو نفر اسراً. ثم مضى ابرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم، عرض له "نفيل بن حبيب الخثعمي" في قبيلي خثعم: شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسراً وخرج معه يدله على الطريق، حتى إذا مرّ بالطائف، خرج إليه "مسعود بن معتب" في رجال ثقيف، فقال له: أيها الملك، انما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعين، ليس لك عندنا خلاف، وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد - يعني اللات - انما تريد البيت الذي بمكة، يعنون الكعبة، ونحن نبعث معك من يدلك، فتجاوز عنهم، وبعثوا معه أبا رغال، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله

المغمس، فهلك أبو رغال به. فرجمت العرب قبره، فهو القبر الذي يرمم الناس بالمغمس.

وكان نفيل بن حبيب الخثعمي من سادات خثعم، ولما أخذه أبرهة أسيراً واحتبسه عنده، جعله دليلاً إلى مكة، وهو الذي أوصله إلى الطائف، حيث تسلم أبرهة الدليل الآخر من ثقيف، وهو أبو رغال. وذكَر بعضهم أن "نفيل ابن حبيب" كان دليل أبرهة على الكعبة، وأنه عرف بـ "ذي اليمين".

ولأهل الأخبار قصص عن "أبي رغال"، صيره أسطورة، حتى صيره بعضهم من رجال ثمود ومن رجال "صالح" النبي. فزعموا إن النبي كان قد وجهه على صدقات الأموال، فخالف أمره، وأساء السيرة، فوثب عليه "ثقيف" وهو قسي بن منبه، فقتله قتلة شنيعة. وهو خبر وضعه أناس من ثقيف ولا شك، للدفاع عن أنفسهم، إذ اتهموا بأن "أبا رغال" منهم، وقد جاموا بشعر، زعموا أن "أمية بن أبي الصلت" قاله في حقه، منه: وهم قتلوا الرئيس أبا رغال بمكة إذ يسوق بها الوضيئنا فصيروا القائل جدّ ثقيف، ونسبوا له فضل مساعدة نبي من أنبياء الله. وقد أشار "جرير بن الخطمي" في شعره قاله في الفرزدق إلى رجم الناس قبر أبي رغال، إذ قال: إذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكم لقبر أبي رغال وذكر "المسعودي"، أن العرب ترجم قبراً آخر، يعرف بينهم بقبر العبادي في طريق العراق إلى مكة. بين الثعلبية والهبير نحو البطان. ولم يذكر شيئاً عن سببه، إذ أحال القارئ على مؤلفاته الأخرى.

وذكر "الهمداني" إن قبر أبي رغال عند "الزيمة". و "الزيمة" موضع صروف حتى هذا اليوم. ولما نزل أبرهة المغمس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة: فساق إليه أموال أهل مكة من قريش وغيرهم، وأصاب منها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به. فتركوا ذلك. ثم قرروا على أن يرسلوا سيدهم "عبد المطلب" لمواجهة أبرهة والتحدث إليه، فذهب وقابله، وتذكر رواية أهل الأخبار إن أبرهة لما سأله عن حاجته وعما معه من أنباء، قال له: حاجتي إلى الملك أن يردّ علي مئتي بعير أصابها لي، فعجب أبرهة من هذا القول وقال له: اتكلمني في مئتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: اني انا رب الابل، وان للبيت رباً سيمنعه.

وتذكر هذه الرواية أن أبرهة ردّ على عبد المطلب ابله، فرجع إلى قومه، وأمرهم بالخروج من مكة وللتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرفة الجيش. فلما وصل جيش الحبش، لم يجد أحداً بمكة، وتفشى الوباء فيه، واضطر إلى التراجع بسرعة. فلما وصل أبرهة "إلى اليمن، هلك فيها بعد مدة قليلة من هذا الحادث.

ويذكر "الطبري" إن الأسود بن مقصود لما ساق أموال أهل مكة من قريش وغيرهم، وفي ضمنها ابل عبد المطلب، وأوصلها إلى أبرهة، وأن قريشاً وكنانة. وهذيل ومن كان معهم بالحرم من سائر الناس

عزمت على ترك القتال، إذ تأكدوا أنهم لا طاقة لهم به. بعث أبرهة "حناطة الحمري" إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قل له إن الملك يقول لكم: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم، فإن لم يُرد حربي فأتتني به، فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، ف قيل له: عبد المطلب، فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم،. فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا له من دافع عنه. ثم انطلق معه إلى أبرهة. فلما وصل المعسكر، سأل عن "ذي نضر"، وكان له صديقاً، فدلّ عليه، فجاءه وهو في محبسه، فكلمه، ثم توصل بوساطته إلى سائق فيل أبرهة وهو أنيس، وأوصاه خيراً. بعبد المطلب، وكلمه في إيصاله إلى أبرهة، وإن يتكلم فيه عند أبرهة بخير. ونفذ أنيس طلب "ذو نضر"، وأدخله عليه، فكان ما كان من حديث.

وذكر الطبري: أن بعض أهل الأخبار زعموا إن نضراً من سادات قريش رافقوا عبد المطلب في ذهابه مع حناطة إلى أبرهة، ذكروا منهم: يعمر "عمرو" ابن نفاثة بن عديّ بن الدُّئل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، وهو يومئذ سيد بني كنانة، وخويلد بن وائلة الهذلي، وهو يومئذ سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال أهل تهامة على إن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت، فأبى عليهم.

ويذكر أهل الأخبار إن جيوش "أبرهة" حين دنت من مكة، توسل عبد المطلب إلى ربه وناجاه بأن ينصر بيته ويذل "آل الصليب" وأنه أخذ بحلقة باب الكعبة وقال: يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماكا إن عدو البيت من عاداكا أمنعهم أن يخربوا قراكا

وقال: لاهمّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك لا يغلين صليبيهم ومحالهم عدواً محالك وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك وقد بلغ أبرهة مكة، غير أنه لم يتمكن من دكّها ومن هدمها، وخاب ظنه، إذ تفشى المرض بجيشه وفتك الوباء به، فهلك أكثره، واضطر إلى الإسراع في العودة، وكان عسكره يتساقطون موتى على الطريق، وهم في عودتهم إلى اليمن. وذكرت بعض الروايات إن أبرهة نفسه أصيب بهذا المرض. ولم يبلغ صنعاء إلا بعد جهد جهيد. فلما بلغها، مات إثر وصوله إليها.

وعلى هذه الصورة أنهى أهل الأخبار أخبار حملة أبرهة، فقالوا أنها انتهت باخفاق ذريع، انتهت باصابة أبرهة بوباء خطير، وبإصابة عسكره بذلك المرض نفسه: مرض جلدي، أصاب جلود أكثر جيشه، فمزقها، وأصابها بقروح وقيوح في الأيدي خاصة، وفي الأفخاذ. أو بمرض وبائي هو الحصبة والجدرى، فيذكر أهل الأخبار في تفسير سورة الفيل، وفي أثناء تحدثهم عن هذه الحملة وبعد شرحهم لمعنى "طير آباييل": مباشرة، هذين المرضين ويقولون: "إن أول ما رثيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام". وتفسير ذلك بعبارة أخرى إن ما أصاب

الحبش، هو وباء من تلك الأوبئة التي كانت تكتسح البشرية فيما مضى، فلا تشهب حتى تكون قد أكلت آلافاً من الرؤوس.

وكان لرجوع الأحباش إلى اليمن وهم على هذه الصورة من مرض يفتك بهم، وتعب ألم بهم، أثر كبير أثر فيهم وفي قريش، ثم ما لبث ابرهة إن مات بعد مدة غير طويلة، فازداد اعتقاد قريش ب"رب البيت" وبأصنامها، وهابت العرب مكة، فكانت نكسة الحبش نصراً لقريش ولأهل مكة قوى من معنوياتها. ويتجلى ذلك في القرآن الكرم في سورة الفيل، وهي من السور المكية القديمة: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول).

وقصة تدنيس "القليس"، قد تكون حقيقية وقعت وحدثت، وقد تكون أسطورة حيكت ووضعت، على كل حال، وفي كلتا الحالتين لا يعقل أن تكون هي السبب المباشر الذي دفع النجاشي إلى السير إلى مكة لهدم البيت ونقضه من أساسه ورفع احجاره حجراً حجراً، على نحو ما يزعمه أهل الأخبار بل يجب أن يكون السبب أهم من التدنيس وأعظم، وأن يكون فتح مكة بموجب خطة تسمو على فكرة تهديم البيت وتخريبه، خطة ترمي إلى ربط اليمن ببلاد الشام، لجعل العربية الغربية والعربية الجنوبية تحت حكم النصرانية، وبذلك يستفيد الروم والحبش وهم نصارى، وان اختلفوا ذهباً، ويحققون لهم بذلك نصراً سياسياً واقتصادياً كبيراً، فيتخلص الروم بذلك من الخضوع للأسعار للعالية التي كان يفرضها الساسانيون على السلع التجارية النادرة

المطلوبة التي احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم، إذ سترد اليهم من سيلان والهند رأساً عن طريق بلاد العرب، فتتخفف الأسعار ويكون في إمكان السفن البيزنطية السير بأمان في البحار العربية حتى سيلان والهند وما وراءهما من بحار.

وأية ذلك خبر يرويّه أهل الأخبار يقولون فيه إن "أبرهة" توج "محمد ابن خزاعي بن حزابة الذكواني"، ثم السلمي، وكان قد جاءه في نجر من قومه، مع أخ له، يقال له "قيس بن خزاعي"، يلتمسون فضله، وأمره على مضر، وأمره أن يسير في الناس، فيدعوهم في جملة ما يدعوهم إليه إلى حج "القليس"، فسار محمد بن خزاعي، حتى إذا نزل ببعض أرض بني كنانة، وقد بلغ أهل تهامة أمره، وما جاء له، بعثوا إليه رجلاً من هذيل، يقال له عروة بن حياض الملاصي فرماه بسهم فقتله. وكان مع محمد بن خزاعي أخوه قيس، فهرب حين قتل أخوه، فلحق بأبرهة، فأخبره بقتله، فغضب وحلف ليغزون بني كنانة وليهدم البيت. فمقتل "محمد بن خزاعي"، هو الذي هاج أبرهة وحمله على ركوب ذلك المركب الخشن. ولم يكن هياجه هذا بالطبع بسبب أن القتل كان صاحبه وصديقه بل لأن من قتله عاكس رأيه وخالف سياسته ومراميه التوسعية القاضية بفرض ارادته واردة الحبش وحلفائهم على أهل مكة وبقية كنانة ومضر، وبتعيين ملك أو أمير عليهم، هو الشخص المقتول، فقتلوه. ومثل هذا الحادث يؤثر في السياسة وفي الساسة، ويدفع إلى اتخاذ إجراءات قاسية شديدة، مثل ارسال جيش للقضاء على المتجاسرين حتى لا يتجاسر غيرهم، فتفلت من السياسي الأمور.

ومن يدري ؟ فلعل الروم كانوا هم المحرضين لأبرهة على فتح مكة وغير مكة حتى تكون العربية الغربية كلها تحت سلطان النصرانية ، فتتحقق لهم مأربهم في طرد سلطان الفرس من بلاد العرب. وقد حاولوا مراراً اقتناع الحبش بتنفيذ هذه الخطة والاشراك في محاربة الفرس ، وهم الذين حرضوا الحبشة وساعدوهم بسفنهم وبمساعداً مادية أخرى في فتح اليمن. وهم الذين أرسلوا رسولاً اسمه "جولييانوس" Julianus ، وذلك في أيام القيصر "يوسطنيان Justinian" لاقتناع النجاشي Hellestheaeus و "السميع أشوع Esimiphaeus" بالتحالف مع الروم ، وتكوين جبهة واحدة ضد الفرس والاشترك مع الروم في اعلان الحرب على الفرس بسبب الرابطة التي تجمع بينهم ، وهي رابطة الدين. وكان في جملة ما رجاه القيصر من "السميع أشوع" ، هو أن يوافق على تنصيب "قيس Casius" رئيساً على "Maddeni" معد.

وقد ذكر "المسكري" ، أن "محمد بن خزاعي بن علقمة بن محارب ابن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان السلمي" كان في جيش أبرهة مع الفيل ، أي انه لم يقتل كما جاء في الرواية السابقة. وقد ورد في بعض الأخبار أن عائشة أدركت قائد الفيل وسائسه ، وكانا أعميين مقعدين يستطعمان. وقد رأتهما.

وقد كان من أشرف مكة في هذا العهد غير عبد المطلب ، المطعم بن عدي. وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، ومسعود بن عمرو الثقفي ، وقد صعدوا على جراء ينظرون ما سيفعل أبرهة بمكة.

وذكر بعض أهل الأخبار، أن فلاناً من الحبش من جيش أبرهة وعفاء وبعض من ضمّه العسكر، أقاموا بمكة، فكانوا يعتملون ويرعون لأهل مكة، وليس في كتب أهل الأخبار أسماء القبائل العربية التي جاءت مع "أبرهة" للاستيلاء على مكة بتفصيل. وكل ما نعرفه انه كان قد ضم إلى جيشه قوات عربية قد يكون بينها قوم من كندة، وقد أشير إلى اشتراك خولان والأشعرين فيها، وذكر أن "خندقاً" كانوا ممن اشترك في جيش أبرهة، وكذلك "حميس بن أد "

وقد اشير إلى أبرهة الأشرم والى الفيل في شعر شعراء جاهليين ومخضرمين واسلاميين. وقد ورد في شعر "عبد الله بن الزبير" أنه كان مع "أمير الحبش" ستون ألف مقاتل. وورد في شعر "أمية بن ابي الصلت" إن الفيل ظل يحبو ب "المغمس" ولم يتحرك، وحوله من ملوك كندة أبطال ملاويث في الحروب صقور. ومعنى هذا أن سادات كندة كانوا مع الحبش في زحفهم على مكة. وذكر "عبد الله بن قيس الرقيّات": إن "الأشرم" جاء بالفيل يريد الكيد للكعبة، فولى جيشه مهزوماً، فأمطرتهم الطير بالجنديل، حتى صاروا وكأنهم مرجومون يمطرون بحصى الرجم.

وذكر إن "عمر بن الخطاب" كان في جملة. من ذكر "أبا يكسوم أبرهة" في شعره، واتخذة مثلاً على من يحاول التناول على بيت الله وعلى آل الله "سكان مكة. وذكر أهل الأخبار انه قال ذلك الشعر في هجاء "زنباع بن روح ابن سلامة بن حداد بن حديدة" وكان عشراً، أساء إلى "عمر بن الخطاب" وكان قد خرج في الجاهلية تاجراً وذلك في

اجتيازه واخذ مكسه، فهجاه عمر، فبلغ ذلك الهجاء "زنباعاً"، فجهز جيشاً لغزو مكة. فقال عمر شعراً آخر يتحداه فيه بأن ينفهذ تهديده إن كان صادقاً، لأن من يريد البيت بسوء يكون مصيره مصير أبرهة الأشرم، وقد كف زنباع عن تنفيذ ما عزم عليه ولم يقم به.

لقد تركت حملة "الفيل" أثراً كبيراً في أهل مكة، حتى اعتبرت مبدأ تقويم عندهم، فصار أهل مكة يؤرخون بعام الفيل "في كتبهم وديونهم من سنة الفيل". فلم تزل قريش والعرب بمكة جميعاً تؤرخ بعام الفيل، ثم أرخت بعام الفجار، ثم أرخت ببنيان الكعبة.

لقد كان لأهل مكة صلات باليمن متينة، إذ كانت لهم تجارة معها، تقصدها قوافلها في كل وقت، وخاصة في موسم الشتاء، حيث تجهز قريش قافلة كبيرة يساهم فيها أكثرهم، واليها أشير في القرآن الكريم في سورة قريش: (إيلف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف). ولهذا فقد كان من سياستهم مدارة حكام اليمن وارضائهم، ومنع من قد يعتدي منهم على أحد من أهل اليمن أو الحبش ممن قد يقصد مكة للتجار أو للاستراحة بها في أثناء سيره إلى بلاد الشام، خوفاً من منع تجارهم من دخول أسواق اليمن. فلما وثب أحدهم على تجار من اليمن كانوا قد دخلوا مكة، وانتهبوا ما كان معهم، مضت عدة من وجوه قريش إلى "أبي يكسوم"، أي أبرهة وصالحوه أن لا يقطع تجار أهل مكة عنهم. وضمناً لوفائهم بما اتفقوا عليه وضعوا "الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار" وغيره رهينة، فكان "أبرهة" يكرمهم ويصلهم، وكانوا يبضعون البضائع إلى مكة لأنفسهم.

وقد وضع أهل الطائف رهائن عند أبي يكسوم كذلك، ضماناً
لحسن معاملتهم للحبش ولمن قد يقصد الطائف للاتجار من الحبش أو
من أهل اليمن.

طرد الحبشة

لقد عجل الحبش في نهايتهم في اليمن، وعملوا بأيديهم في هدم
ما أقاموه بأنفسهم من حكومة، باعتمادهم على أعراض الناس
وأموالهم، وأخذهم عنوة كل ما كانوا يجدونه أمامهم، حتى ضجّ أهل
اليمن وضجروا، فهبوا يريدون تغيير الحال، وطرد الحبشة عن أرضهم،
وإن أدى الأمر بهم إلى تبديلهم بأناس أعاجم أيضاً مثل الروم أو الفرس،
إذا عجزوا هم عن طردهم، فلعل من الحكام الجدد من قد يكون
أهون شراً من الحبش، وإن كان كلاهما شراً، ولكن إذا كان لا بد
من أحد الشرين فإن أهونهما هو الخيار ولا شك.

وهبّ اليمانون على الحبش، وثار عليهم ساداتهم في مواضع
متعددة غير أن ثوراتهم لم تفهم شيئاً، إذ أخدمت، وقتل القائمون بها.
ومن أهم أسباب إخفاقها أنها لم تكن ثورة عارمة عامة مادتها كل
الجماهير والسادات، بل كانت ثورات سادات، مادة كل ثورة مؤججها
ومن وراءه من تبع. هنا ثورة وهناك ثورة، ولم تكن بقيادة واحدة، أو
بإمرة قائد خبير أو قادة متكاتفين خبراء بأمور الحرب والقتال، فصار
من السهل على الحبش، الانقضاض عليها واخمادها، أضف إلى ذلك
أنها لم تؤقت بصورة تجعلها ثورات جماعية، وكأنها نيران تلتهب في

وقت واحد، يعسر على مخمدي النيران إخمادها، او اخمادها على الأقل بسهولة.

ولتحاسد الأقبال وتنافسهم على السيادة والزعامة نصيب كبير في هذا الإخفاق، لذلك وجه بعض السادة أنظارهم نحو الخارج في أمل الحصول على معونة عسكرية أجنبية خارجية، تأتيهم من وراء الحدود، لتكره الحبش على ترك اليمن. وكان صاحب هذا الرأي والمفكر فيه "سيف بن ذي يزن"، من ابناء الأذواء ومن أسرة شهيرة. وقد نجح في مشروعه، فاكتسب صفة البطولة وانتشر اسمه بين اليمانيين، حتى صير أسطورة من الأساطير، وصارت حياته قصة من القصص أمثال قصة أبي زيد الهلالي وعنترة وغيرهما ممن تحولوا إلى أبطال تقص حياتهم على الناس في المجالس وفي المقاهي وحفلات السمر والترفيه، أو تقرأ للتسلية واللهو.

و "سيف بن ذي يزن"، هو "معديكرب بن ابي مرة"، وقد عرف ابوه أيضاً ب "ابي مرة الفياض"، وكان من أشرف حمير، ومن الأفواء. وأمه "ريحانة ابنة علقمة"، وهي من نسل "ذي جدن" على في ما ذكرت. يقال إن أبرهة لما انتزع ريحانة من بعها "ابي مرة"، فرزوها إلى العراق فالتجأ إلى ملك الحيرة "عمرو بن هند" على ما يظن، وبقي "معديكرب" مع امه في بيت "أبرهة" على ذلك مدة، حتى وقع شجار بينه وبين شقيقه من امه "مسروق" الذي ولي الملك بعد موت اخيه "يكسوم" فأثر ذلك في نفسه وحقد على "مسروق".، فلما مات يكسوم، خرج من اليمن، حتى قدم على قيصر ملك الروم، فشكا ما هم فيه، وطلب إليه إن يخرجهم

عنه ، ويليه هو ويبيعت اليهم من يشاء من الروم ، فيكون له ملك اليمن ، فلم يشكه ولم يجد عنده شيئاً مما يريد ، فخرج حتى قدم الحيرة على النعمان بن المنذر ، فأسكنه عنده ثم اوصله بكسرى ، وحدثه في شأنه وفي خاطره في قومه ، فأمدته بثماني مئة محارب ، وب "وهرز" أمره عليهم ، وبثماني سفن جعل في كل سفينة مئة رجل و يصلحهم في البحر ، فخرجوا ، حتى إذا لجوا في البحر غرقت من السفن سفينتان بما فيهما ، فخلص إلى ساحل اليمن من ارض عدن ست سفائن فيهن ستمئة رجل فيهم وهرز وسيف بن ذي يزن ، نزلوا ارض اليمن ، فلما سمع بهم مسروق بن أبرهة ، جمع إليه جنده من الحبشة ، ثم سار اليهم ، فلما التقوا رمى "وهرز" مسروقا بسهم ، فقتله ، وانهزمت الحبشة ، فقتلوا ، وهرب شريدهم ، ودخل "وهرز" مدينة صنعاء ، وملك اليمن ونفى عنها الحبشة ، وكتب بذلك إلى كسرى . فكتب إليه كسرى يأمره إن يملك سيف بن ذي يزن على اليمن وارضها وان يرجع وهرز إلى بلاده ، فرجع اليها . ورضي سيف بدفع جزية وخرج يؤديه في كل عام .

وذكر "الطبري" في رواية له اخرى عن "سيف بن ذي يزن" وعن مساعدة الفرس له ، فقال : "فخرج ابن ذي يزن قاصداً إلى ملك الروم ، وتجنب كسرى لابطائه عن نصر ابيه ، فلم يجد عند ملك الروم ما يحب ، ووجده يحامي عن الحبشة لموافقتهم اياه على الدين ، فانكفاً راجعاً إلى كسرى" ، فقابله وحياه وقال لكسرى : "انا ابن الشيخ اليماني ذي يزن ، الذي وعدته إن تنصره فما ببابك وحضرتك ، فتلك العدة حق لي وميراث يجب عليك الخروج لي منه . فرق له كسرى ، وامر له بمال .

فخرج، فجعل ينشر الدراهم، فانتهبها الناس. فأرسل إليه كسرى: ما الذي حملك على ما صنعت: قال: إني لم آتك للمال، إنما جئتك للرجال، ولتمنعني من الذل، فاعجب ذلك كسرى، فبعث إليه: إن أقم حتى انظر في امرك. ثم إن كسرى استشار وزراءه في توجيه الجند معه، فقال له الموبدان: إن لهذا الغلام حقاً بنزوعه وموت أبيه بباب الملك وحضرته، وما تقدم من عدته إياه، وفي سجون الملك رجال ذوو نجدة وبأس، فلو إن الملك وجههم معه، فإن أصابوا ظفراً كان له، وإن هلكوا كان قد استراح وأراح أهل مملكته منهم، ولم يكن ذلك ببيعيد الصواب. قال كسرى: هذا الرأي. وعمل به."

ويظهر من هذه الرواية، إن "أبا مرّة"، والد "معديكرب"، كان قد فرّ من اليمن إلى العراق، وقد حاول عبثاً حث كسرى على تقديم العون العسكري له لطرد أبرهة وقومه الحبش عن اليمن، وبقي يسعى ويحاول حتى مات بالعراق، مات بالمدائن على حد زعم هذه الرواية. ويظهر منها أيضاً، إن سيف بن ذي يزن، أي ولد أبي مرّة، كان قد أيس هو من كسرى بعد إن رأى ما رأى من موقفه مع أبيه، فذهب أولاً إلى ملك الروم، على أمل مساعدته ومعاونته في طرد الحبش عن بلاده، حتى وإن أدى الأمر إلى استيلاء الروم على اليمن، فلما خاب ظنه ذهب إلى الفرس، فساعده.

ويذكر "الطبري" أن وهرز لما انصرف إلى كسرى، ملك سيفاً على اليمن، ف "عدا على الحبشة فجعل يقتلها ويقرر النساء عما في بطونها، حتى إذا أفناها إلا بقايا ذليلة قليلة، فاتخذهم خولاً، واتخذ

منهم جمآزين يسعون بين يديه بحرابهم، حتى إذا كان في وسط منهم وجأوه بالحراب حتى قتلوه، ووثب بهم رجل من الحبشة، فقتل باليمن واوعث، فأفسد، فلما بلغ ذلك كسرى بعث اليهم "وهرز" في أربعة آلاف من الفرس، وأمره الا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من اسود الا قتله، صغيراً كان او كبيراً. فأقبل وهرز، حتى دخل اليمن ففعل ذلك. ثم كتب إلى كسرى بذلك، فأمره كسرى عليها. فكان عليها، وكان يجيها إلى كسرى حتى هلك."

لقد كان استيلاء الحبشة على اليمن بأسرها سنة "٥٢٥" للميلاد. أما القضاء على حكمهم فكان قريباً من سنة "٥٧٥" للميلاد. ولكن الحبش كانوا في اليمن قلائل هذا العهد، اذ كانوا احتلوا بعض الأرضين قبل السنة "٥٢٥" للميلاد، وكانوا يحكمونها باسم ملك الحبشة.

وجاء في تأريخ الطبري وفي موارد اخرى إن حكم الحبش لليمن دام اثنتين وسبعين سنة، توارث ذلك منهم اربعة: ارياط، ثم أبرهة، ثم يكسوم بن ابرهة، ثم مسروق ابن ابرهة. وهو رقم فيه زيادة، إذا اعتبرنا إن نهاية حكم الحبش في اليمن، كانت في حوالى السنة "٥٧٥م" . اما اخذنا برواية اهل الأخبار مثل حمزة، الذي ذكر كما سبق إن بيئت إن حكم "أرياط" دام عشرين سنة، وان حكم ابرهة ثلاثاً وعشرين سنة، وان حكم "يكسوم" سبع عشرة، وان حكم مسروق اثنتي عشرة سنة، فيكون ما ذكره "الطبري" وحمزة صحيحاً من حيث المجموع، لأن مجموعهم "٧٢" سنة. ولكنني أشكك في إن حكم "رياط" كان "٢٠"

سنة. إذ يعني هذا إن حكمه استمر إلى سنة "٥٤٥" للميلاد، والمعروف من نص "ابرهة" المدون على جدار سد مأرب، إن ابرهة رمم السد وقوى جدرانها سنة "٥٤٢" للميلاد. ومعنى هذا انه كان قد استبد بأمر اليمن قبل هذا الزمن.

وقد تعرض "حمزة" لهذا البحث، ولفت النظر إلى تفاوت الرواة في مدة لبث الحبشة باليمن وفي تأريخ اليمن كله. فقال: "وليس في جميع التواريخ تاريخ أسقم ولا أحلّ من تاريخ الأقبال ملوك حمير، لما قد ذكر فيه من كثرة عدد سني من ملك منهم، مع قلة عدد ملوكهم"، و"قد اختلف رواة الأخبار في مدة لبث الحبشة باليمن اختلافاً متفاوتاً". والواقع اننا نجد اختلافاً كبيراً بين اهل الأخبار في تأريخ اليمن، حتى في المتأخر منه القريب من الإسلام.

ويذكر "ابو حنيفة الدينوري"، إن "وهرز" كان شيخاً كبيراً، قد أناف على المائة، وكان من فرسان العجم وابطالها، ومن اهل البيوتات والشرف، وكان اخاف السبيل، فحبسه كسرى. ويقال له "وهرز بن الكاسجار"، فسار بأصحابه إلى "الأبلة" فركب منها البحر. وذكر إن "كسرى" لما رده إلى اليمن، بعد وثوب الحبش ب "سيف بن ذي يزن"، وبقي هناك إلى إن وافاه اجله، فُبر في مكان سمي "مقبرة وهرز"، وراء الكنيسة، ولم يشر إلى اسم الكنيسة، ولعله قصد موضع "القليس".

أما "المسعودي"، فصير "وهرز" موظف كبيراً بدرجة "اصبهذ"، ودعا ب "وهرز اصبهذ الديلم" أي انه كان اصبهذاً على الديلم إذ

ذاك. وذكر انه ركب ومن كان معه من أهل السجون البحر في السفن في دجلة ومعهم خيولهم وعُددهم وأموالهم حتى أتوا "الأبة"، فركبوا في سفن البحر، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت في موضع يقال له "مئوب"، فخرجوا من السفن فأمرهم "وهرز" إن يحرقوا السفن، ليعلموا انه الموت. ثم ساروا من هناك براً حتى التقوا ب "مسروق".

وذكر "المسعودي"، إن "كسرى انوشروان"، أشرت على "مديكرب" شروطاً: منها أن الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها، وخراج محمله إليه. فتوج "وهرز" مديكرب بتاج كان معه وبدنة من الفضة ألبسه اياها، ورتبه بالملك على اليمن، وكتب إلى "أنوشروان" بالفتح.

قال "المسعودي" ولما ثبت "مديكرب" في ملك اليمن، اتته الوفود من العرب تهنئه بعود الملك إليه، وفيها وفد مكة وعليهم عبد المطلب، وأمّية بن عبد شمس بن عبد مناف، وخويلد بن أسد بن عبد العزى، وابو زمعة جد أمية بن ابي الصلت، فدخلوا إليه، وهو في اعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغمدان، وهنأوه، وارتجل عبد المطلب خطاباً، ذكر المسعودي وغيره نصه، وأنشد "ابو زمعة" شعراً، فيه ثناء على الملك وحمد للفرس "بنو الأحرار". الذين ساعدوا أهل اليمن، على "سود الكلاب".

وإذا أخذنا برواية "المسعودي" عن وفد مكة، وبما يذكره اهل الأخبار عن مدة حكم الحبش على اليمن، وهي اثنتين وسبعين سنة، وجب إن يكون ذهاب الوفد الى صنعاء بعد سنة "٥٩٧" للميلاد، وهذا مستحيل.

فقد كانت وفاة "عبد المطلب" في السنة الثامنة من عام الفيل،
والرسول في الثامنة اذ ذاك فيكون وفاة "عبد المطلب" اذن في حوالي
السنة "٥٧٨" أو "٥٧٩" للميلاد، اي في ايام وجود الحبش في اليمن، وقبل
طردهم من بلاد العرب. اما لو اخذنا برواية الباحثين المحدثين التي تجعل
زمن طرد الحبش عن اليمن سنة "٥٧٥" للميلاد، او قبلها بقليل، فيكون
من الممكن القول باحتمال ذهاب "عبد المطلب" إلى اليمن، على نحو ما
يرويه "المسعودي".

لم يذكر اهل الأخبار السنة التي تولى فيها "سيف بن ذي يزن"
الحكم على اليمن بعد طرد الحبش عنها، ويرى بعض الباحثين انها
كانت في حوالي السنة "٥٧٥" للميلاد. وان حكمه لم يكن قد شمل
كل اليمن، بل جزءاً منها. ويظهر إن الفرس استأثروا بحكم اليمن
لأنفسهم، اذ نجد إن رجالاً منها تحكمها منذ حوالي السنة "٥٩٨"
للميلاد تقريباً، وكان احدهم بدرجة "ستراب" "Satrapie"
وذكر "ابن دريد" إن من ذرية "سيف بن ذي يزن"، "عفير بن زرعة بن
عفير بن الحارث بن النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف". وكان سيد
حمير بالشام في ايام عبد الملك بن مروان.

وروا إن "وهرز" كان يبعث العير إلى كسرى بالطيوب والأموال
فتمر على طريق البحرين تارة وعلى طريق الحجاز اخرى، فعدا بنو تميم
في بعض الأيام على عيره بطريق البحرين، فكتب إلى عامله بالانتقام
منهم، فسار عليهم وقتل منهم خلقاً، وذلك يوم "الصفقة". وعدا بنو

كنانة على عيره بطريق الحجاز حين مرت بهم، وكانت في جوار رجل من أشراف العرب من قيس، فكانت حرب الفجار بين قيس وكنانة. وامر كسرى بتولي ابن وهرز، وهو "المرزيان بن وهرز" منصب ابيه، لما توفي والده. فكان عليها إلى إن هلك.

ثم امر كسرى "البينجان بن المرزيان" اي حفيد "وهرز" بتولي منصب ابيه حين داهمته منيته. فأمر كسرى بعده "خُرخرة ين البينجان"، فكان عليها، ثم غضب كسرى عليه. واستدعاه إلى عاصمته، فذهب إليها، فخلعه كسرى وعين باذان "باذام" في مكانه، ولم يزل على اليمن حتى بعث الرسول. وذكر بعض اهل الأخبار إن "خذ خسرو بن السيجان بن المرزيان" هو الذي حكم بعد "المرزيان بن وهرز"، وهو الذي عزله كسرى، وولى "باذان" "باذام" بعده على اليمن.

لقد كانت السنة السادسة من الهجرة، سنة مهمة جداً في تاريخ اليمن. فيها دخل "باذان" "باذام" في الإسلام، وفيها قضى الإسلام على الوثنية واليهودية والنصرانية وعلى الحكم الأجنبي في البلاد، فلم يبق حكم حبشي ولا حكم فارسي. ويرى بعض المستشرقين إن دخول باذان في الإسلام كان بين سنة "٦٢٨" و"٦٣٠" للميلاد. ويذكر "الطبري"، إن اسلام "باذان"، كان بعد قتل "شيرويه" لأبيه "كسرى أبرويز"، وتولييه الحكم في موضع والده. فلما جاء كتاب شيرويه إليه يبلغه بالخبر، ويطلب منه الطاعة، أعلن اسلامه، وأسلم من كان معه من الفرس والأبناء. وقد ولى "شيرويه" الحكم في سنة "٦٢٨" للميلاد، ولم يدم حكمه أكثر من ثمانية اشهر. وقد عرف ب "قباد".

وقد ذكر إن "بادان" "باذام" كان من "الأبناء"، أي من الفرس الذين ولدوا في اليمن، وأن الرسول استعمل ابنه "شهر بن باذان" مكانه، أي بعد وفاة والده.

ويذكر أهل الأخبار إن الفرس الذين عاشوا في اليمن وولدوا بها واختلطوا بأهلها، عرفوا بـ "الأبناء"، وبـ "بني الأحرار".
ولما قتل "الأسود العنسي" "شهر بن باذام" "شهر بن باذان"، واستبد "العنسي" بأمر اليمن، خرج عمال الرسول عن اليمن. فلما قتل "العنسي" ورجع عمال النبي إلى اليمن، استبد بصنعاء "قيس بن عبد يغوث المرادي"، وتوفي الرسول والأمر على ذلك. ثم كانت خلافة أبي بكر، فولى على اليمن "فيروز الديلمي".

وقد تطرق "ابن قتيبة" إلى "ملوك الحبشة في اليمن"، فذكر اسم "أبرهة الأشرم"، ثم "يكسوم بن أبرهة"، ثم "سيف بن ذي يزن"، فقال عنه: انه "أتى كسرى أنوشروان بن قباذ" في آخر أيام ملكه - هكذا تقول الأعاجم في سيرها، وأنا احسبه هرمز بن أنوشروان على ما وجدت في التاريخ - "مما يدل على أنه نقل أخباره عن حملة الفرس على اليمن من كتب سير ملوك العجم، المؤلفة بلغتهم، كما نقل من موارد أخرى غير أعجمية. وقد ذكر أيضاً أن المؤرخين اختلفوا اختلافاً متفاوتاً في مكث الحبشة في اليمن.

وكون الأبناء طبقة خاصة في اليمن، ولما قدم "وبر بن يحنس"، على الأبناء باليمن، يدعوهم إلى الإسلام، نزل على بنات النعمان بن يزيد فأسلمن، وبعث إلى فيروز الديلمي فأسلم، والى "مركبود" وعطاء ابنه،

ووهب بن منبه، وكان أول من جمع القرآن بصنعاء ابنه عطاء بن مركبود ووهب بن منبه.

ونجد عهد استيلاء الحبشة الأخير على اليمن عهداً كريماً من ناحيته التاريخية، إذ دَوّن جملة نصوص، تحدثت عنها فيما سلف. أما عند استيلاء الفرس على اليمن إلى دخولها في الإسلام، فلم يترك شيئاً مدوناً ولا أثراً يمكن أن يفيدنا في الكشف عن اليمن في هذا العهد. لم يترك لنا كتابة ما، لا بالمسند ولا بقلم الساسانيين الرسمي يشرح الأوضاع السياسية أو أي وضع آخر في هذا العهد.

وحالنا في النصوص الكتابية في أول عهد دخول اليمن في الإسلام، مثل حالنا في استيلاء الفرس عليها، فنحن فيه معدمون لا نملك ولا نصاً واحداً مدوناً من ذلك العهد. وهو أمر مؤسف كثيراً، وكيف لا وهو والعهد الذي قبله المتصل به، من أهم العهود الخطيرة في تاريخ اليمن وجزيرة العرب، ونص واحد من هذين العهدين ثروة لا تقدر بثمن لمن يريد الوقوف على التطورات التاريخية التي مرّت بالعرب قبيل الإسلام وعند ظهوره.

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن حكم الفرس لليمن لم يكن حكماً فعلياً واقعياً، فلم يكن ولاتهم يحكمون اليمن كلها، وإنما كان حكمهم حكماً اسمياً سورياً، اقتصر على صنعاء وما والاها، أما المواضع الأخرى، فكان حكمها لأبناء الملوك من بقايا الأسر المالكة القديمة وللأقبال والأذواء. ذلك أن أهل كل ناحية ملكوا عليهم رجلاً من حمير، فكانوا "ملوك الطوائف" فكان على حمير عند مبعث

رسول الله سادات نعتوا أنفسهم بنعوت الملوك، من بينهم "الحارث ابن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر وزرعة ذو يزن بن مالك بن مرة الرهاوي". وقد أرسلوا إلى الرسول مبعوثاً عنهم يخبره برغبتهم في الدخول في الإسلام، وصل إليه مقفله من أرض الروم، ثم لقيه بالمدينة وأخبره باسلامهم وبمفارقتهم الشرك، فكتب اليهم رسول الله كتاباً يشرح فيه ما لهم وما عليهم من واجبات وحقوق.

همدان وصنعاء ومأرب

وكانت همدان عند مبعث الرسول، مستقلة في ادارة شؤونها، وقد أسلمت كلها في يوم واحد على يد علي بن أبي طالب، ولقد صارت "صنعاء" عاصمة لحكام اليمن منذ عهد الحبش حتى هذا اليوم، أما "مأرب" فقد صارت مدينة ثانوية، بل دون هذه الدرجة، وأقل كذلك شأن ظفار، وسائر المواضع التي كان لها شأن يذكر في عهد استقلال اليمن وفي عهد الوثنية. ويرجع بعض أهل الأخبار بناء صنعاء إلى "سام بن نوح"، وزعموا أنها أول مدينة بنيت باليمن، وأن قصر "غمدان" كان أحد البيوت السبعة التي بنيت على اسم الكواكب السبعة، بناه "الضحاك" على اسم الزهرة. وكان الناس يقصدونه إلى أيام "عثمان" فهدمه، فصار موضعه تلاً عظيماً.

وقد ورد اسم "صنعاء" لأول مرة على ما نعلم في نص يعود عهده إلى أيام الملك "الشرح يحضب" "ملك سبأ وذوي ريدان"، ودعيت فيه بـ "صنعو."

وذكر الأخباريون أنها كانت تعرف ب "أزال" وب "أوال". أخذوا ذلك على ما يظهر من "أزال" في التوراة بواسطة أهل الكتاب مثل "كعب الأبحار" ووهب بن منبّه. وذكروا أن قصر غمدان الذي هو بها قصر "سام بن نوح"، أو قصر "الشرح يحضب" "ليشرح يحضب". وذكروا أيضاً أنها أول مدينة اختطت باليمن بنتها "عاد". ورووا قصصاً عن "غمدان"، فزعم بعض أن بانيه "سليمان" أمر الشياطين، فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور: غمدان وسلحين وبينون. وزعم بعضهم أن بانيه هو: "ليشرح يحضب" أراد اتخاذ قصر بين صنعاء و "طيوة"، فانتخب موضع "غمدان". وقد وصف "الهمداني" ما تبقى منه في أيامه، وأشار إلى ما كان يرويه أهل الأخبار عنه.

نجران

وأما "نجران"، فقد كانت مستقلة بشؤونها، يديرها ساداتها وأشرفها، ولها نظام سياسي وإداري خاص تخضع له، ولم يكن للفرس عليها سلطان. وكان أهلها من "بني الحارث بن كعب"، وهم من "مذحج" و "كهلان"، وكانوا نصاري. ومن أشرفهم "بنو عبد المدان بن الديان"، أصحاب كعبة نجران وكان في فيها أساقفة معتمون، وهم الذين جاؤوا إلى النبي ودعاهم إلى المباهلة، مع وفد مؤلف من ستين أو سبعين رجلاً راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم، منهم ثلاثة نفر اليهم يؤول أمرهم. العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم

ومجتمعهم واسمه الأيهم "وهب"، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، اسقفهم وحبهم وإمامهم صاحب مداراسهم.

ويذكر الأخباريون، إن أبا حارثة كان قد شرف في أهل نجران ودرس الكتب حتى حسن علمه في دينهم، وصار مرجعهم الأكبر فيه. وكانت له حظوة عند ملك الروم، حتى أنه كان يرسل له الأموال والفعلة ليبنوا له الكنائس، لما كانت له من منزلة في الدين وفي الدنيا عند قومه. وكان له أخ اسمه "كوز بن علقمة". وقد أسلما مع من أسلم من الناس بعد السنة العاشرة من الهجرة.

ويظهر من الخبر المتقدم أن ملوك الروم كانوا على اتصال بنصارى اليمن، وانهم كانوا يساعدون أساقفتهم ويمولونهم، ويرسلون اليهم العطايا والهبات. وقد أمدوهم بالبنائين والفعلة والمواد اللازمة لبناء الكنائس في نجران وفي غيرها من مواضع اليمن. وقد كان من مصلحة الروم مساعدة النصرانية في اليمن وانتشارها، لأن في ذلك كسباً عظيماً لهم. في انتشارها يستطيعون تحقيق ما عجز عنه "أوليوس غالوس" حينما كلفه انبراطور روما اقتحام العربية السعيدة والاستيلاء عليها. وذكر أهل الأخبار أيضاً، أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم، كلما مات رئيس منهم فأضيفت الرئاسة إلى غيره، انتقلت الكتب إليه. وقد عرفت تلك الكتب ب"الوضائع". وكانوا يختمونها، فكلما تولى رئيس جديد ختم على تلك الكتب فزادت الخواتم السابقة ختماً. وذكر علماء اللغة إن الوضائع هي كتب يكتب فيها الحكمة. وفي الحديث: أنه نبي وإن اسمه وصورته في الوضائع.

ونجران أرض في نجد اليمن خصبة غنية ، وفيها مدينة نجران من المدن اليمانية القديمة المعروفة قبل الميلاد. وقد ذكرها "سترابون" في جغرافيته ، وسماها Negrana=Negrani في معرض كلامه على حملة "أوليوس غالوس" على العربية ، كما ذكرها المؤرخ "بلينبوس" في جملة المدن التي أصابها يد التخريب في هذه الحملة. كما ذكرها "بطلميوس" ، فسماها Nagera Mytropolis=Negra Metropolis.

وفي ذكر "بطلميوس" لها على أنها "مدينة" دلالة على أنها كانت معروفة أيضاً بعد الميلاد. وأن صيتها بلغ مسامع اليونان.

وبعد النص الموسوم بـ Glaser 418,419 ، من أقدم النصوص التي ورد فيها اسم مدينة نجران. إذ يرتفع زمنه إلى أيام "المكربين". وقد ذكر كما سبق في أثناء كلامي على دور المكربين ، في مناسبة تسجيل أعمال ذلك "المكرب" وتأريخ حروبه وما قام به من فتوح. وورد ذكرها في النص "Glaser 1000" ، الذي يرتقي زمنه إلى أيام المكرب والملك "كرب ايل وتر" آخر "مكربي" سبأ ، وأول من تلقب بلقب "ملك سبأ". فورود اسم "نجران" ، في النصين المذكورين يدل على أنها كانت من المدن القديمة العامرة قبل الميلاد ، وأنها كانت من المواضع النابذة في أول أيام سبأ.

وورد اسمها في نصوص أخرى. كما ذكرت في جملة المواضع التي دخلها رجال حملة "أوليوس غالوس" على اليمن. وذكرها نص "النمارة" الذي يرتقي زمنه إلى سنة "٣٢٨" بعد الميلاد. وقد كانت في

أيدي الملك "شمر يهرعش" إذ ذاك على رأي أكثر الباحثين. إذ كان قد وسع رقعة حكومة "سبأ وذي ريسان وحضرموت" وأضاف إليها ارضين جديدة منها أرض "نجران"، وأشار إلى تدمير ذلك الملك ل "نبطو"، أي النبط.

وقد ذهب "ريتر" إلى أن **Negra Mytropolis** هو الموضوع المسمى ب "القابل" على الضفة الغربية لوادي نجران. أما "هاليفي"، فذهب إلى أنها الخرائب المسماة "الأخدود". وذهب "كلاسر" إلى أنها الأخدود أو "رجلة"، أو موضع آخر في "وادي الدواسر". وقد ذكر "الهمداني" إن موضع "هجر نجران" أي مدينة نجران، هو الأخدود. ومدح خصب أرض نجران، ولم يكن "نجران" اسم مدينة في الأصل كما يتبين من النص **CIH 363** ، بل كان اسم أرض بدليل ورود أسماء مواضع ذكر أنها في "نجرن" نجران. ويرى بعض الباحثين أن مدينة "رجمت" كانت من المدن الكبرى في هذه الأرض، ثم تخصص اسم نجران فصار علماً على المدينة التي عرفت بنجران.

وذهب بعض الباحثين إلى أن "رجمت" "رجمة" هي "رعمة" المذكورة في التوراة. وقد تحدثت فيما سلف عن "رعمة" وعن اتجار أهلها وتجار "شبا **Sheba** " مع "صور. **Tyrus** "

ويذكر الأخباريون أن قوماً من "جرهم" نزلوا بنجران، ثم غلبهم عليها بنو حمير، وصاروا ولاية للتبابعة، وكان كل من ملك منهم يلقب "الأفعى". ومنهم "أفعى نجران" واسمه "القلمس بن عمرو بن همدان بن مالك بن منتاب ابن زيد بن وائل بن حمير"، وكان كاهناً. وهو الذي

حكم على حد قولهم بين أولاد نزار. وكان والياً على نجران لبلقيس، فبعثته إلى سليمان، وآمن، وبث دين اليهودية في قومه، وطال عمره، وزعموا انه ملك البحرين والمشلل. ثم استولى "بنو مذحج" على نجران. ثم "بنو الحارث بن كعب"، وانتهت رئاسة بني الحارث فيها إلى بني الديان، ثم صارت إلى بني عبد المدان، وكان منهم "يزيد". على عهد الرسول.

ويرى بعض أهل الأخبار أن "السيد" والعاقب أسقفي نجران اللذين أرادا مباهلة رسول الله هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي، الذي حكم بين بني نزار بن معد في ميراثهم، وكان منزله بنجران. وقد سميت "نجران" بنجران بن زيد بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان على رأي بعض أهل الأخبار. وقد اشتهرت بالأدم.

وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد إلى "بني الحارث بن كعب" بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، فإن استجابوا إليه قبل منهم، وإن لم يفعلوا قاتلهم. فلما دعاهم إلى الإسلام أجابوه، ورجع خالد مع وفد منهم إلى رسول الله، فأعلنوا إسلامهم أمامه، ثم رجعوا وقد عين الرسول "عمرو ابن حزم" عاملاً على نجران. فبقي بنجران حتى توفي رسول الله.

ولما عاد خالد بن الوليد من نجران إلى المدينة، أقبل معه وفد "بلحارث بن كعب"، فيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قريظ الزياتي، وشداد بن عبد الله القناني، وعمرو بن عبد الله الضبابي. فلما رأهم

الرسول، قال: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ ثم كلمهم، وأمر "قيس بن الحصين" عليهم، ورجعوا، وكان ذلك قبل وفاة الرسول بأربعة أشهر.

وقد اشتهرت نجران بثيابها، ولما توفى الرسول، كُفن في ثلاثة أثواب نجرانية.

وقد زار "قلبي" وادي نجران، وعثر على خرائب قديمة، يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام، كما تعرف على موضع "كعبة نجران". ووجد صوراً قديمة محفورة في الصخر على مقربة من "أم خرق"، وكتابات مدونة بالمسند. وعلى موضع يعرف بـ "قصر ابن ثامر"، وضريح ينسب إلى ذلك القديس الشهيد الذي يرد اسمه في قصص الأخباريين عن شهداء نجران. ويرى "قلبي" أن مدينة "رجمت" "رجمة" هي "الأخدود"، وأن الخرائب التي لا تزال تشاهد فيها اليوم تعود إلى أيام المعينيين. ويقع "قصر الأخدود" الأثري بين "القابل" و "رجلة"، وهو من المواضع الغنية بالآثار. وقد تبسط "قلبي" في وصف موضع الأخدود، ووضع مخططاً بالمواضع الأثرية التي رآها في ذلك المكان.

ويتضح من مخطط "قلبي" لمدينة "نجران" أنها كانت مدينة كبيرة مفتوحة، وعندها أبنية محصنة على هيئة مدينة مربعة الشكل، وذلك للدفاع عنها، وبها مساكن وملاجئ للاحتماء بها ولتمكين المدافعين من صدّ هجمات المهاجمين لها.

أثر الحبش في أهل اليمن

ولا بد أن يكون فتح الحبش لليمن قد ترك أثراً في لهجات أهلها، ولا سيما بين النصارى منهم، ممن دخلوا في النصرانية بتأثير الحبش من ساسة واداريين ومبشرين، فاستعملوا المصطلحات الدينية التي كان يستعملها الأحباش لعدم وجود ما يقابلها عندهم في لهجاتهم لوثيتهم، ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أقول إن تلك المصطلحات كانت كلها حبشية الأصل والأرومة؛ لأن الكثير منها لم يكن حبشياً في المنشأ والوطن، وإنما كان دخيلاً مستورداً، جاءت به النصرانية من لغة بنى إرم، أو من اللغات الأخرى المتصصة، فأدخلتها إلى الحبشة، فاستعملها الأحباش وحرفوا بعضها على وفق لسانهم، ومنهم انتقلت بالفتوح وبال اتصال إلى اليمن.

وقد عرض علماء اللغة المسلمون والمستشرقون لعدد من الألفاظ العربية، ذكروا أنها من أصل حبشي، وهي من الإلفاظ التي كانت مستعملة معروفة قبل الإسلام، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم وفي الشعر المنسوب إلى الجاهليين. ومثل هذه الألفاظ تستحق أن تكون موضع درس وتحيص لمعرفة صحة أصلها ونسبها ودرجة أرومتها في الحبشية، لمعرفة أثر الأحباش في العرب وأثر العرب في الأحباش، لأن بعض ما نسب إلى الأحباش من كالم هو من أصل عربي جنوبي، هاجر من اليمن بطرق متعددة إلى أفريقية، واستعمل هناك، ظن أنه حبشي الأصل، وإن العرب أخذوه من الأحباش.

وقد اثر فتح الحبش لليمن على سحن الناس أيضاً. فظهر السواد على ألوانهم عند غلبة الحبشة على بلادهم. وقد تأثروا بأخلاق الحبش كذلك.

الفصل الثاني والأربعون

مكة المكرمة

ومكة بلد في واد غير ذي زرع، تشرف عليها جبال جُرد، فتزيد في قسوة مناخها. ليس بها ماء، غير ماء زمزم، وهي بئر محفورة، وآبار أخرى مجة حضرها أصحاب البيوت، أما مياه جاربة وعيون غزيرة، على ما نرى في أماكن أخرى، فليس لها وجود بهذا المعنى هناك. وكل ما كان يحدث نزول سيول، قد تكون ثقيلة قوية، تهبط عليها من شعاب الهضاب والجبال، فتتزل بها أضراراً فادحة وخسائر كبيرة، وقد تصل إلى الحرم فمؤثر فيه، وقد تسقط البيوت، فتكون السيول نقمة، لا رحمة تسعف وتغيث أهل البيت الحرام.

لذلك لم تصلح أرض مكة لأن تكون أرضاً ذات نخيل وزرع وحب، فاضطر سكانها إلى استيراد ما يحتاجون إليه من الأطراف والخارج، وأن يكتفوا في حياتهم بالتعيش مما يكسبونه من الحجاج، وأن يضيفوا إلى ذلك تجارة تسعفهم وتغنيهم، وتضمن لهم معاشهم، وأماناً وسلاماً يحفظ لهم حياتهم، فلا يطمع فيهم طامع، ولا ينغص عيشهم منغص. "وإذ قال إبراهيم: ربّ اجل هذا بلداً آمناً، وارزق أهله من الثمرات..."

ويعود الفضل في بقاء مكة وبقاء أهلها بها إلى موقعها الجغرافي، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية، والتي كان لا بد من أن تستريح في هذا المكان، لينفض رجالها عن أنفسهم غبار السفر، وليتزودوا ما فيه من رزق. ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل سرّ السفر وفائدته، فسافروا أنفسهم على هيئة قوافل، تتولى نقل التجارة لأهلا مكة وللتجار الآخرين من أهل اليمن ومن أهل بلاد الشام. فلما كان القرن السادس للميلاد، احتكر تجار مكة التجارة في العربية الغربية، وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشام وبالعراق.

وللبيت فضل كبير على أهل مكة، وبفضله يقصدها الناس من كل أنحاء العالم حتى اليوم للحج إليه. وقد عرف البيت بـ"الكعبة" لأنه مكعب على خلة الكعب. ويقال له: "البیت العتيق" و"قادس" و"بادر"، وعرفت الكعبة بـ"القرية القديمة" كذلك.

وبمكة جبل يطل عليها، يقال له جبل: "أبو قبيس"، ذكر بعض أهل الأخبار أنه سمي "أبا قبيس" برجل حداد لأنه أول من بنى فيه. وكان يسمى "الأمين" لأن الركن كان مستودعاً فيه. وأمامه جبل آخر: وبين الجبلين وادٍ، فيه نمت مكة ونبتت. فصارت محصورة بين سلسلتين من مرتفعات.

وقد سكن الناس جبل "أبي قبيس" قبل سكنهم بطحاء مكة، وذلك لأنه موضع مرتفع ولا خطر على من يسكنه من اغراق السيول له.

وقد سكنته "بنو جرهم"، ويذكر أهل الأخبار انه إنما سُمِّيَ "قبيساً" بـ
"قبيس بن شالخ" رجل من جرهم. كان في أيام "عمرو بن مضاض."
ويظهر انه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين، فقد كان نُسَاك
مكة وزهادها ومن يتحنف ويتحنث ويترهب من أهلها في الجاهلية
يصعدو ويعتكف فيه. ولعله كان مقام الطبقة المترفة الغنية من أهل
مكة قبل نزوح "قريش" إلى الوادي، وسكنها المسجد الحرام المحيط
بالبيت.

ويظهر من سكوت أهل الأخبار عن الإشارة إلى وجود أطم أو
حصون في مكة للدفاع عنها، إن هذه المدينة الآمنة لم تكن ذات
حصون وبروج ولا سور يقيها من احتمال غزو الأعراب أو أي عدو لها.
ويظهر إن ذلك إنما كان بسبب إن مكة لم تكن قبل أيام "قصي" في
هذا الوادي الذي يتمركزه "البيت"، بل كانت على المرتفعات المشرفة
عليه.

أما الوادي، فكان حرماً آمناً يغطيه الشجر الذي انبثته السيول
ورعته الطبيعة بعنايتها، ولم يكن ذا سور ولا سكن ثابت متصل
بالأرض؛ بل كان سكن من يأوي إليه بيوت الخيام. وأما أهل المرتفعات
فكانوا، إذا داهمهم عدو أو جاءهم غزو، اعتصموا برؤوس المرتفعات
المشرفة على الدروب، وقاوموا العدو والغزو منها، وبذلك يصير من
الصعب على من يطمع فيهم الوصول إليهم، ويضطر عندئذ إلى التراجع
عنهم، فحمتهم الطبيعة بنفسها ورعتهم بهذه الرؤوس الجبلية التي
أقامتها على مشارف الأودية والطرق. فلما أسكن "قصي" أهل الوادي في

بيوت ثابتة مبنية ، وجاء ببعض من كان يسكن الظواهر لنزول الوادي ، بقي من فضل السكن في ظواهر مكة ، أي على المرتفعات. يقوم بمهمة حماية نفسه وحماية أهل البطحاء من تلك المرتفعات ، وهم الذين عرفوا بقريش الظواهر. فلم تعد لأهل مكة سكان الوادي ثمة حاجة إلى اتخاذ الأطم والحصون ، وبناء سور يحمي المدينة من الغزو ، لا سيما والمدينة نفسها حرم آمن وفي حماية البيت ورعايته. وقد أكد "قصي" على أهلها لزوم إقراء الضيف ورعاية الغريب والابتعاد عن القتال وحل المشكلات حلاً بالتي هي أحسن. كما نظم أمور الحج ، وجعل الحجاج يقدون إلى مكة ، للحج وللاتجار. ثم أكد من جاء بعده من سادة قريش هذه السياسة التي افادت البلد الآمن ، وأمنت له رزقه رغداً.

ولم يرد اسم "مكة" في نص الملك "نبونيد" ملك بابل ، ذلك النص الذي سرد الملك فيه أسماء المواضع التي خضعت لجيوشه ، ووصل هو إليها في الحجاز فكانت "يثرب" آخر مكان وصل إليه حكمه في العربية الغربية على ما يبدو من النص.

ولم نتمكن من الحصول على اسم "مكة" من الكتابات الجاهلية حتى الآن. اما الموارد التاريخية المكتوبة باللغات الأعجمية ، فقد جاء في كتاب منها اسم مدينة دعيت ب "مكرية" "مكربا" "Macoraba" ، واسم هذا الكتاب هو "جغرافيا" "جغرافية" للعالم اليوناني المعروف "بطلميوس" "Ptolemy" الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد. وقد ذهب الباحثون إلى إن المدينة المذكورة هي "مكة". وإذا كان هذا الرأي صحيحاً يكون "بطلميوس" أول من أشار إليها من

المؤلفين وأقدمهم بالنظر إلى يومنا هذا. ولا أستبعد مجيء يوم قد لا يكون بعيداً، ربما يعثر فيه المنقبون على اسم المدينة مطموراً تحت سطح الأرض، كما عثروا على أسماء مدن أخرى وأسماء قرى وقبائل وشعوب.

ولفظة "مكرية" *Macoraba* " ، لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني، أصلها "مكرية" أي "مقربة" من التقريب. وقد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة "سبأ" القديمة، إن حكامها كانوا كهاناً، أي رجال دين، حكموا الناس باسم آلهتهم. وقد كان الواحد منهم يلقب نفسه بلقب "مكرب" أي "مقرب" في لهجتنا. فهو أقرب الناس إلى الآلهة، وهو مقرب الناس إلى آلهتهم، وهو مقدس لنطقه باسم الآلهة، وفي هذا المعنى جاء لفظة "مكرية"، لأنها "مقربة" من الآلهة، وهي تقرب الناس إليهم، وهي أيضاً مقدسة و "حرام" ، فاللفظة ليست علماء مكة، وإنما هي نعت لها، كما في "بيت المقدس" و "القدس" إذ هما نعت لها في الأصل. ثم صار النعت عالماً للمدينة.

أما ما ذهب إليه بعض الباحثين من إن المعبد الشهير الذي ذكره "ديودوروس الصقلي" *Diodorus Siculus* " في أرض قبيلة عربية دعاها "Bizomeni" ، وقال إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب، هو مكة - فهو رأي لا يستند إلى دليل مقبول معقول. فالموضع الذي يقع المعبد فيه، هو موضع بعيد عن مكة بعداً كبيراً، وهو يقع في "حسمى" في المكان المسمى "روافة" "غوافة" على رأي "موسل". وقد كانت في هذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة

أشار إليها الكتبة اليونان والرومان، ولا تزال آثارها باقية، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأماكن.

وإذا صح رأينا في إن موضع "Macoraba" هو مكة، دلّ على إنها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد، وانها كانت مدينة مقدسة يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر ومن بادين. وبفضل هذه القدسية والمكانة بلغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد. ودلّ أيضاً على إنها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام "بطليموس" إذ لا يعقل إن يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع ذلك العالم الساكن في موضع بعيد ما لم يكن لها عهد سابق هذا العهد.

وقد عرفنا من الكتابات التمودية أسماء رجال عرفوا ب "مكي". ولم تشر تلك الكتابات إلى سبب تسمية اولئك الرجال ب "مكي". فلا ندرى اليوم إذا كان اولئك الرجال من "مكة" أو من موضع آخر، أو من عشيرة عرفت ب "مكت" "مكة". لذلك لا نستطيع إن نقول إن هذه التسمية. صلة بمكة.

ولم يشر الأخباريون ولا من كتب في تأريخ مكة إلى هذا الامم الذي ذكره "بطلميوس"، ولا إلى ام آخر قريب منه، وإنما أشار إلى اسم آخر هو "بكة". وقد ذكر هذا الاسم في القرآن. قالوا إنه الهمم مكة، أبدلت فيه الميم باءً، وقال بعض الأخباريين: إنه بطن مكة، وتشدد بعضهم وتزمت، فقال: بكة موضع البيت، ومكة ما وراءه، وقال آخرون: لا. والصحيح البيت مكة وما والاه بكة، واحتاجوا إلى ايجاد

اجوية في معنى اسم مكة وبكة، فأوجدوا للاسمين معاني وتفسيرات عديدة تجدها في كتب اللغة والبلدان وأخبار مكة.

وذكر أهل الأخبار إن مكة عرفت بأسماء أخرى، منها: صلاح، لأمنها، ورووا في ذلك شعراً لأبي سفيان بن حرب بن أمية، ومنها أم رحم، والباسة، والناسة. والحاطمة. و"كوثي". وذكرت في القرآن الكريم ب"أم القرى".

ولعلماء اللغة بعد، تفاسير عديدة لمعنى "مكة"، يظهر من غربلتها إنها من هذا النوع المألوف الوارد عنهم في تفسير الأسماء القديمة التي ليس لهم علم بها، فلجئوا من ثم إلى هذا التفسير والتأويل. ولا استبعد وجود صلة بين لفظة مكة ولفظة "مكرية" التي عرفنا معناها. ولا استبعد إن يكون سكان مكة القدامى هم من أصل يمانى في القديم، فقد أسس أهل اليمن مستوطنات على الطريق الممتد من اليمن إلى أعالي الحجاز، حيث حكموا أعالي الحجاز وذلك قبل الميلاد. وقد سبق إن تحدثت عن ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب، فلا يستبعد إن تكون مكة أحداها. ثم انضم اليهم العرب العدنانيون، ولأهل الأخبار روايات تؤيد هذا الرأي.

وقد ذهب "دوزي" إلى إن تأريخ مكة يرتقي إلى أيام "داوود" ففي أيامه- على رأيه أنشأ "الشمعونيون" "السمعونيون"، الكعبة وهم "بنو جرهم" عند أهل الأخبار. وهو يخالف بذلك رأي "كين" "GIBBON"، ورأي جماعة من المستشرقين رأيت إن مكة لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الأول قبل الميلاد، مستدلة على ذلك بما ورد في

تأريخ "ديودورس الصقلي" من وجود معبد ، ذكر عنه انه كان محجة لجميع العرب ، وان الناس كانوا يحجون إليه من أماكن مختلفة. ولم يذكر "ديودورس" اسم المعبد ، ولكن هذه الجماعة من المستشرقين رأيت إن هذا الوصف ينطبق على الكعبة كل الانطباق ، وان "ديودورس" قصدها بالذات.

وقد ذكر بعض أهل الأخبار- إن "العماليق" كانوا قد انتشروا في البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة وام الحجاز ، وعتوا عتواً كبيراً. فبعث اليهم موسى جنداً فقتلوههم بالحجاز. وجاء اليهود فاستوطنوا الحجاز بعد العماليق. ويظفر انهم أخذوا أخبارهم هذه من اليهود ، ففي التوراة إن العماليق "العمالقة" ، هم أول الشعوب التي حاربت العبرانيين ، لما هموا بدخول فلسطين ، وقد حاربهم موسى ، فوسع يهود الحجاز هذه القصة ونقلوا حرب موسى مع العمالقة إلى الحجاز ليرجعوا زمان استيطانهم في الحجاز إلى ذلك العهد.

ثم جاءت "جرهم" فنزلت على قطورا ، وكان على "قطورا" يومئذ "السميدع بن هوثر" ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم "مضاض ابن عمر بن الرقيب بن هاني بن بنت برهم" فنزلوا ب "قعيقعان". وكانت قطورا بأسفل مكة ، وكان "مضاض" يعشر من دخل مكة من أعلاها ، و "السميدع" من أسفلها. ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب "المضاض" وغلب "السميدع".

وجرهم قوم من اليمن، فهم قحطانيون إذن، جدهم هو ابن "يظن بن عاير بن شالخ": وهم بنو عم "يعرب". كانوا باليمن وتكلموا بالعربية، ثم غادروها فجاؤء مكة.

والعمالقة من الشعوب المذكورة في "التوراة"، وقد عدّهم "بعام" "أول الشعوب". وقد كانوا يقيمون بين كنعان ومصر وفي "طور سيناء"، أيام الخروج، وبقوا في أماكنهم هذه إلى أيام "شاؤول". "SAUL" وقد تحدثت عنهم في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وجرهم تزوج "إسماعيل ه بن ابراهيم" على رواية الأخباريين، وبلغتهم تكلم. وكانت "هاجر" قد جاءت، به إلى "مكة". فلما شبّ وكبر، تعلم لغة جرهم، وتكلم بها. وهم من "اليمن" في الأصل. وكانت لغتهم هي اللغة العربية. تزوج امرأة أولى قالوا إن اسمها "حرا" وهي بنت "سعد بن عوف بن هنيء بن نبت بن جرهم"، ثم طلقها بناءً على وصية أبيه ابراهيم له، فتزوج امرأة أخرى هي السيدة بنت "الحارث بن مضاظ بن عمرو بن جرهم". وعاش نسله في جرهم، والأمر على البيت لجرهم إلى إن تغلبت عليهم "بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر"، وهم خزاعة في رأي بعض أهل الأخبار.

وطبقت خزاعة على جرهم قانون الغالب، فانتزعت منها المالك، وزحزحتها عن مكة، وأقامت عمرو بن لحيّ - وهو منها - ملكاً عليها، وكان دخول خزاعة مكة على أثر خروجها من اليمن، بسبب تنبؤ الكاهن بقرب انفجار السدّ، في قصة يذكرها الأخباريون. وظلت

خزاعة صاحبة مكة، إلى إن كانت أيام عمرو بن الحارث وهو "أبو غبشان" "غبشان"، فانتزع قصي منه الملك، وأخذه من خزاعة لقريش. وكان "عمرو بن لحي" أول من نصب الأوثان وأدخل عبادة الأصنام إلى العرب، وغير دين التوحيد على زعم أهل الأخبار. ويظهر مما يرويه الأخباريون عنه انه كان كاهناً، حكم قومه ووضع لهم سنن دينهم على طريقة حكم الكهان، واستبدّ بأمر "مكة" وثبت ملك خزاعة بها. فهو مثل "قصي" الذي جاء بعده، فأقام ملك "قريش" في هذه المدينة. ويظهر من بقاء خبره في ذاكرة أهل الأخبار إن أيامه لم تكن بعيدة عن الإسلام، وان حكمه لمكة لم يكن بعيد عهد عن حكم "قصي"، وان إليه يعود فضل تحية "جرهم" عن مكة، وانتزاع الحكم منهم ونقله إلى قومه من "خزاعة"، وذلك بمساعدة "بني اسماعيل" أسلاف "قريش" من "بني كنانة".

وهو أول رجل يصل إلينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر في تكوين مكة وفي انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لمكة. حتى صير لهذه المدينة شأن عند القبائل المجاورة. وذلك باتيانها بأصنام نحتت نحتاً جيداً بأيدي فنية قديرة، على رأسها الصنم "هبل" ووضعها في البيت، فجلب بذلك أنظار أهل مكة وأنظار القبائل المجاورة نحوها، فصارت تقبل عليها، وبذلك كوّن للبيت شهرة بين الأعراب، فصاروا يقدمون عليه للتقرب إلى "هبل" والى بقية الأصنام التي جاء بها من الخارج فضعها حوله وفي جوفه.

ومن بطون خزاعة: "بنو سلول" و "بنو حُبشية بن كعب"، و "بنو حليل" و "بنو ضاطر". وكان "حُلَيْل بن كعب" سادن الكعبة، فزوج ابنته "حبي" بقصي. و "بنو قمير" ومن "بني قمير" "الحجاج بن عامر بن أقوم" شريف، و "حلحة بن عمرو بن كليب": شريف، و "قيس بن عمرو بن منقذ" الذي يقال له "ابن الحدادية" شاعر. جاهلي. و "المتحرش"، و هو "أبو غُبشان" الذي يزعمون انه باع البت من "قصي". ومن خزاعة "بديل بن ورقاء بن عبد العزى"، شريف، كتب إليه النبي يدعوا إلى الإسلام، وكان له قدر في الجاهلية بمكة.

وكنانة" التي استعان بها "عمرو بن لحي" في تثبيت حكمه بمكة، هي من القبائل العدنانية في عرف أهل النساب، ومن مجموعة "مضر". ولما استبد "عمرو بن لحي" ومن جاء بعده بأمر مكة، وأخذوا بأيديهم أمر مكة، تركوا إلى "كنانة" أموراً تحص مناسك الحج وشعائره، وهي الإجازة بالناس يوم "عرفة" والإضافة والنسي. وهي أمور سأحدث عنها في اثناء كلامي عن الحج.

ويذدر أهل الأخبار أن "الإسكندر" الأكبر دخل مكة، وذلك أنه بعد أن خرج من السودان قطع البحر فانتهى إلى السواحل "عدن"، فخرج إليه "تبع الأقرن" ملك اليمن، فأذعن له بالطاعة، وأقرّ بالإتاوة، وأدخله مدينة "صنعاء"، فأنزل له، وألطف له من الطاف اليمن، فأقام شهراً، ثم سار إلى "تهامة"، وسكان مكة يومئذ خزاعة، قد غلبوا عليها، فدخل عليه "النضر بن كنانة"، فعجب الإسكندر به وساعده، فأخرج "خزاعة" عن مكة، وأخلصها للنضر، ولبني أبيه، وحج

الإسكندر، وفرّق في ولد معد بن عدنان صلات وجوائز، ثم قطع البحر يؤم الغرب.

وإذا كان أهل الأخبار قد أدخلوا "الإسكندر" مكة، وصيروه رجلاً مؤمناً، حاجاً من حجاج البيت الحرام، فلا غرابة أذن إن جعلوا أسلاف الفرس فيمن قصد البيت وطاف به وعظمه وأهدى له. بعد أن صيروا "إبراهيم" جداً من أجدادهم وربطوا نسب الفرس بالعرب العدنانيين. فقالوا: وكان آخر من حج منهم "ساسان بن بابك"، وهو جد "أردشير". فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل، فقليل إنما سميت زمزم لزمزمته عليها، هو وغيره من فارس. واستدلوا على ذلك بشعر، قالوا عنه: إنه من الشعر القديم. وبه افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام، وقالوا: وقد كان "ساسان بن بابك" هذا، أهدى غزالين من ذهب وجوهرًا وسيوفًا وذهباً كثيراً، فقتله، فدفن في زمزم. وقد أنكروا أن يكون بنو جرهم قد دفنوا ذلك المال في بئر زمزم، لأن جرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها.

ويزعم الأخباريون أن "حسان بن عبد كلال بن مثوب ذي حرث الحميري"، أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن، ليجعل حج الناس عنده ببلاده، فأقبل حتى نزل بنخلة فأغار على سرح الناس، ومنع الطريق، وهاب أن يدخل مكة. فلما رأت ذلك قريش وقبائل كنانة وأسد وجذام ومن كان معهم من أفناء مضر، خرجوا إليه، ورئيس الناس يومئذ فهر بن مالك، فاقتلوا قتالاً شديداً، فهزمت حمير، وأسر حسان بن عبد

كلال ملك حمير، أسره الحارث بن فهر، وقتل في المعركة - فيمن قتل من الناس - ابن ابنة قيس بن غالب بن فهر، وكان حسان عندهم بمكة أسراً ثلاث سنين، حتى افتدى منهم نفسه، فخرج به، فمات بين مكة واليمن."

ويشير هذا الحادث إن صح وقوعه وصدق ما رواه أهل الأخبار عنه، إلى طمع الملك "حسان" والى خطة وضعها للاستيلاء عليها. وهو شيء مألوف، فقد كانت قبائل اليمن تتجه دوماً نحو الشمال، غير أن أهل مكة قاوموا الملك وتمكنوا من الصمود تجاهه، بل من التمكن من جيشه ومنا الحاق هزيمة به.

ويذكر أهل الأخبار حادثاً آخر مشابهاً لهذا الحادث، بل يظهر أنه الحادث نفسه وقد صيغ في صيغة أخرى، خلاصته أن "الملوك الأربعة" الذين لعنهم النبي، ولعن أختهم "أبضعة"، ولم يذكروا أسماءهم، لما هموا بنقل "الحجر الأسود" إلى صنعاء لقطعوا حج العرب عن البيت الحرام إلى صنعاء، وتوجهوا لذلك إلى مكة، فاجتمعت "كنانة" إلى "فهر بن مالك بن النضر"، فلقبهم، فقاتلهم، فقتل ابن لفهر، يسمى الحارثة، وقتل من الملوك الأربعة ثلاثة، وأسر الرابع، فلم يزل مأسوراً عند "فهر بن مالك" حتى مات.

وأما "أبضعة"، فهي التي يقال لها "العنقير"، ملكت بعد اخوتها على زعم أهل الأخبار.

ويشير الأخباريون إلى احترام التبابعة لمكة، فيذكرون مثلاً أن التابع "أسعد أبو كرب" الحميري وضع الكسوة على البيت الحرام،

وصنع له باباً، ومنذ ذلك الحين جرت العادة بكسوة البيت، ويذكرون غير ذلك من أخبار تشير إلى اهتمام التبابعة بمكة. أما نحن، فلم يصل إلى علمنا شيء من هذا الذي يرويه الأخباريون، مدوّناً بالمسند، كما أننا لا نعلم أن أصنام أهل اليمن كانت في مكة حتى يتعبد لها التبابعة. ولسنا الآن في وضع نتمكن فيه من إثبات هذا القصص الذي يرويه الأخباريون، والذي قد يكون أوجد، ليوحي أن ملوك اليمن كانوا يقدسون الكعبة، وأن الكعبة هي كعبة جميع العرب قبل الإسلام.

ولا نملك اليوم أثراً جاهلياً استتبط منه علماء الآثار شيئاً عن تأريخ مكة قبل الإسلام، ولذلك فكل ما ذكره عنها هو من أخبار أهل الأخبار، وأخبارهم عنها متناقضة متضاربة، لعبت العواطف دوراً بارزاً في ظهورها. ولا يمكن لأحد أن يكتب في هذا اليوم شيئاً موثقاً معقولاً ومقبولاً عن تأريخ هذه المدينة المقدسة، في أيام الجاهلية القديمة، لأنه لا يملك نصوصاً أثرية تعينه في التحدث عن ماضيها القديم. وأملنا الوحيد هو في المستقبل، فلعل، المستقبل يكون خيراً من الحاضر والماضي، فيجود على الباحثين بآثار تمكنهم من تدوين تأريخ تلك المدينة، تدويناً علمياً يفرح نفوس الملايين من الناس الذين يحجون إليها من مختلف أنحاء العالم، ولكنهم لا يعرفون عن تأريخها القديم، غير هذا المدوّن عنها في كتب أهل الأخبار.

وإذا كنا في جهل من أمر تأريخ مكة قبل أيام "قصي" وقبل تمرکز قريش في مكة، فإن جهلنا هذا لا يجوز لنا القول بأن تأريخها

لم يبدأ إلا بظهور قريش فيها وبتزعم قصي لها. وان ما يروى من تأريخها عن قبل هذه المدة هو قصص لا يعبأ به. لأن ما يورده أهل الأخبار من روايات تفيد عثور أهل مكة قبل أيام الرسول على قبور قديمة وعلى حليّ وكنوز مطمورة وكتابات غريبة عليهم، يدل كل ذلك على إن المدينة كانت مأهولة قبل أيام قصي بزمن طويل، وان مكة كانت موجودة قبل هذا التاريخ. وان تأريخها لذلك لم يبدأ بابتداء ظهور أمر قصي ونزول قريش مكة في عهده.

وتأريخ مكة حتى في أيام قصي وما بعدها إلى ظهور الإسلام لا يخلو مع ذلك من غموض ومن لبس وتناقض. شأنه في ذلك شأن أي تأريخ اعتمد على الروايات الشفوية، واستمد مادته من أقوال الناس ومن ذكرياتهم عن الماضي البعيد. لذلك تجد الرواة يناقضون أنفسهم تناقضاً بيناً في أمر واحد، ما كان في الإمكان الاختلاف فيه لو كانوا قد أخذوه من منبع قديم مكتوب. وسنرى في مواضع من هذا الكتاب وفي الأجزاء التي قد تتلوه عن تأريخ العرب في الإسلام نماذج وأمثلة تشير إلى تباين روايات أهل الأخبار في أخبارهم عن مكة في تلك الأيام.

قريش

و "قصي" من "قريش". و "قريش" كلها من نسل رجل اسمه "فهر بن مالك بن النضرين كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان". فهي من القبائل العدنانية. أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب. ومن "فهر" فما بعده عرف اسم "قريش" في رأي أهل الأخبار.

أما ما قبل "فهر" من آباء فلم يعرفوا بقريش. فقريش إذن هم "فهر" وأبناؤه، من سكان مكة أو من سكان ظواهرها، أي كل من انحدر من صلبه من أبناء. وما كان فوق "فهر" فليس يقال له "قرشي"، وإنما يقال له كناني.

ومعارفنا عن "قريش" لا بأس بها بالنسبة إلى معارفنا عن خزاعة وعن من تقدم عليها من قبائل ذكر أهل الأخبار أنها سكنت هذه المدينة. وتبدأ هذه المعرفة بها، ابتداء من "قُصَيِّ" زعيم قريش ومجمعها، والذي أخذ أمر مكة فوضعه في يديه، ثم في أيدي أولاده من بعده، فصارت "قريش" بذلك صاحبة مكة.

وقد اشتهرت قريش بالتجارة، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل. وتمكن رجالها بفضل ذكائهم وحنقهم بأسلوب العامل من الاتصال بالدول الكبرى في ذلك العهد: الفرس والروم والحبشة، وبحكومة الحيرة والفساسنة، وبسادات القبائل، ومن تكوين علاقات طيبة معها، مع تنافر هذه الدول وتباغضها. كما يمكنوا من عقد أحلاف مع سادات القبائل، ضمننت لهم السير طوال أيام السنة بهدوء وطمأنينة في كل أنحاء جزيرة العرب. والطمأنينة، أهم أمنية من أمانى التاجر. وبذلك أمنوا على تجارتهم، ونشروا تجارتهم في كل أنحاء جزيرة العرب. حتى عرفوا بـ "قريش التجار". جاء على لسان كاهنة من كهان اليمن قولها: "لله دَر الديار، لقريش التجار."

وليس لنا علم بتأريخ بدء اشتغال قريش بالتجارة واشتهارها بها. وروايات أهل الأخبار، متضاربة في ذلك، فبينما هي ترجع ظهور "قريش"

بمكة إلى أيام قصي، ومعنى ذلك أن تجارة قريش إنما بدأت منذ ذلك الحين، نراها ترجع تجارتها إلى أيام النبي "هود"، وتزعم أنه لما كان زمن "عمرو ذي الأذعار الحميري"، كشفت الريح عن قبر هذا النبي، فوجدوا صخرة على قبره كتب عليها بالمسند: "لمن ملك ذمار؟ لحمير الأخيـار. لمن ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار. لمن ملك ذمار؟ لفارس الأحرار. لمن ملك ذمار؟ لقريش التجار". والرواية أسطورة موضوعة، ولكنها تشر إلى أن اشتغال قريش بالتجارة يرجع إلى عهد قديم، عجز أصحاب هذه الرواية عن أدراك وقته، فوضعوه في أيام هود.

ثم نرى روايات أخرى ترجع بدء اشتغال قريش بالتجارة إلى أيام "هاشم"، وهي تزعم إن تجارة قريش كانت منحصرة في مكة، يتاجر أهلها بعضهم مع بعض، فتقدم العجم عليهم بالسلع، فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم، ويبيعونها لمن حولهم من العرب، وكانوا كذلك حتى ركب "هاشم بن عبد مناف" فنزل بقيصر، وتعاقد معه على إن يسمح له ولتجار قريش بالاتجار مع بلاد الشام، فوافق كل ذلك، وأعطاه كتاباً بذلك. فلما عاد، جعل كلما مرّ بحيّ من العرب بطريق الشام، اخذ من أشرفهم إيلاشاً، أي عقد أمان، فضمن بذلك لقومه حرية الاتجار بأمن وسلام. واشتهرت قريش بالتجارة منذ ذلك العهد.

وقد علّمت الأسفار سادة قريش أموراً كثيرة من أمور الحضارة والثقافة. فقد أرتهم بلاداً غريبة ذات تقدم وحضارة، وجعلتهم يحتكون بعرب العراق ويعرب بلاد الشام، فتعلموا من "الحيرة" أصول كتابتهم، وهذبوا لسانهم، ودوّنوا به أمورهم. وذكر أنهم كانوا من افصح العرب

لساناً، وقد شهد العرب لهم بفصاحة اللسان، حتى إن الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم، وذكر إن الشاعر "علقمة الفحل" عرض عليهم شعره، فوصفوه بـ "سمط الدهر."

وقد علّمت الطبيعة أهل مكة أنهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تأمين رزقهم في هذا الوادي الجاف، إلا إذا عاشوا هادئين مسلمين، يدفعون الإساءة بالحسنة، والشر بالصبر والحلم، والكلام السيء البذيء بالكلام الحسن المقنع المخجل. فتغلب حلمهم على جهل الجاهلية، وجاءت نجدتهم في نصرة الغريب والذب عن المظلوم والدفاع عن حق المستجير بهم، بأحسن النتائج لهم، فصار التاجر والبائع والمشتري يفد على سوق مكة، يبيع ويشترى بكل حرية، لأنه في بلد آمن، أخذ سادته على أنفسهم عهداً بالآلا يتعدى أحد منهم على غريب، لأن الإضرار به، يبعد الغرباء عنهم، وإذا ابتعد الغرباء عن مكة، خسروا جميعاً مورداً من موارد رزقهم: يعيش عليه كل واحد منهم بلا استثناء. لذلك كان الغريب إذا ظلم، نادى يا آل قريش، أو يا آل مكة أو يا آل فلان. ثم يذكر ظلامته، فيقوم سادة مكة أو من نوذي باسمه بأخذ حقه من الظالم له.

وقد اصطلحت قريش على أن تأخذ ممن ينزل عليها في الجاهلية حقاً. دعت: "حقّ قريش" وفي جملة ما كانوا يأخذونه من الغريب القادم اليهم عن هذا الحق بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر. ويأتي أهل الأخبار بمثل على ذلك، هو مثل: "ظويلم ويلقب مانع الحريم، وإنما سُمّي بذلك لأنه خرج في الجاهلية يريد الحج، فنزل على المغيرة بن عبد

اللّه المخزومي، فأراد المغيرة إن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية، وذلك سُمي: الحرّيم. وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر، فامتنع عليه ظويلم". وظويلم منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان.

وقد جعلت طبيعة هذا الوادي أهل مكة يميلون إلى السلم، ولا يركنون إلى، الحرب والغزو إلا دفاعاً عن نفس. وهو شيء منطقي محترم، فأهل مكة في وادٍ ضيق بين جبلين متقابلين، وفي استطاعة الأعداء إنزال ضربات موجعة بهم من المرتفعات المسيطرة عليه، وبسد منفذيه، يحصر أهله فتتقطع عنهم كل وسائل المعيشة من ماء وطعام. لذلك لم يجدوا أمامهم من سبيل سوى التجمّل بالحلم والصبر واتباع خطة الدفاع عن النفس، بالاعتماد على أنفسهم وعلى غيرهم من أحلافهم كالأحابيش حلفائهم وقريش الطواهر. وقد أدت هذه الخطة إلى اتهام قريش إنها لا تحسن القتال، وأنها إن حاربت خسرت، وأنها كانت تخسر في الحروب - فخسرت ثلاثة حروب من حروب الفجار الأربعة، إلى غير ذلك من تهم. ولكن ذلك لا يعني إن في طبع رجال قريش جبناً، وإن من سجية قريش الخوف. وإنما هو حاصل طبيعة مكان، وأملاء ضرورات الحياة، لتأمين الرزق. ولو إن أهل مكة عاشوا في موضع آخر، لما صاروا أقل شجاعة وأقل اقبالاً في الاندفاع نحو الحرب والغزو من القبائل الأخرى.

وقد تمكنت مكة في نهاية القرن السادس وبفضل نشاط قريش المذكور من القيام بأعمال هامة، صيرتها من أهم المراكز المرموقة في

العربية الغربية في التجارة وفي اقراض المال للمحتاج إليه. كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لان تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت أغنيائه من ترف وبذخ وخدم واسراف.

وقد ذكو "الثعالي" إن قريشاً صاروا "أدهى العرب، وأعقل البرية، وأحسن الناس بياناً" لاختلاطهم بغيرهم ولاتصالهم بكثير من القبائل فأخذوا عن كل قوم شيئاً، ثم انهم كانوا تجاراً "والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق والتدقيق"، وكانوا متشددين في دينهم حمساً، "فتركوا الغزو كراهة السبي واستحلال الأموال" إلى في ذلك من أمور جلبت لهم الشهرة والمكانة. وقد أشيد أيضاً بصحة اجسامهم وبجمالهم حتى ضرب المثل بجمالهم فقبل: "جمل قريش."

وقصيّ رئيسي قريش، هو الذي ثبت الملك في عقبه، ونظم شؤون المدينة، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله. فلما أشرق الإسلام، كانت أمور مكة في يد قريش، ولها وحدها الهيمنة على هذه المدينة، حتى عرف سكانها ب"آل قصي"، فكان أحدهم اذا استغاث أو استتجد باحد، صاح: "يا لقصي"، كناية عن انهم "آل قصي". جامع قريش.

وهو أول رئيس من رؤساء مكة. يمكن إن نقول إن حديثنا عنه، هو حديث عن شخص عاش حقاً وعمل عملاً في هذه المدينة التي صارت قبلة الملايين من البشر فيما بعد. فهو إذن من الممهدين العاملين المكونين لهذه القبلة، وهو أول رجل نتكلم عن بعض أعماله ونحن واثقون مما

نكتبه عنه ونقله. وهو أول شخص نقض البيوت المتقلبة التي لم تكن تقي أصحابها شيئاً من برد ولا حرّاً، والتي كانت على أطراف الوادي وبين أشجار الحرم، وكأنها تريد حراسة البيت، وحوّلها من خيام مهلهلة إلى بيوت مستقرة ثابتة ذات أعمدة من خشب شجرة الحرم، وذات سقوف.

ولم نعثر حتى الآن على اسم قريش أهل مكة في نص جاهلي. كذلك لم نعثر عليه أو على اسم مقارب له في كتب اليونان أو اللاتين أو قدماء السريان ممن عاشوا - قبل الإسلام. فليس في إمكاننا ذكر زمن جاهلي نقول أننا عثرنا فيه على اسم قريش، وانها كانت معروفة يومئذ فيه.

وقد وردت لفظة "قريش" اسماً لرجل عرف بـ "حبّسل قريش". وذلك في نص حضرميٍّ من أيام الملك "العز" ملك حضرموت. هذا، وان لأهل الأخبار كلاماً في سبب تسمية قريش بقريش، "فقيل: سُميت بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة، لأن عيربتي النضر كانت اذا قدمت، قالت العرب: قد جاءت عير قريش، قالوا: وكان قريش هذا دليل النضر في أسفارهم، وصاحب ميرتهم، وكان له ابن يسمى بدرًا، احتقر بدرًا، قالوا فيه سميت البئر التي تدعى بدرًا، بدرًا. وقال ابن الكلبي: إنما قريش جماع نسب، ليس بأب ولا بأم ولا حاضن ولا حاضنة، وقال آخرون: إنما سُمي بنو النضر من كنانة قريشاً، لأن النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه، فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى النضر، كأنه جمل قريش.

وقيل: إنما سميت بدابة تكون في البحر تأكل دواب البحر، تدعى القرش، فشبه بنو النضر بن كنانة بها، لأنها أعظم دواب البحر قوة.

وقيل: إن النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس، فيسدها بماله، والتقرش - فيم زعموا - التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم. "وقيل إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشا. وقيل: بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصماً بن كلاب، ف قيل لهم: قريش، من أجل إن التجمع هو التقرش، فقالت العرب: تقرش بنو النضر، أي قد تجمعوا. وقيل: إنما قيل قريش من أجل إنها تقرشت عن الغارات."

وذكر إن قريشاً كانت تدعى "النضر بن كنانة"، وكانوا متفرقين في "بني كنانة"، فجمعهم "قصي بن كلاب"، فسموا قريشاً، التقرش التجمع. وسُمي قصي مجمعاً. فال حذافة بن غانم بن عامر القرشي ثم العدوي: قُصِيُّ أبوكم كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وذكر إن قريشاً إنما قيل لهم "قريش" لتجمعهم في الحرم من حوالي الكعبة بعد تفرقهم في البلاد حين غلب عليها "قصي بن كلاب". يقال تقرش القوم إذا اجتمعوا. قالوا وبه سمي قصي مجمعاً. أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً، فقالوا تقرش، فغلب عليه اللقب، أو لأنه جاء إلى قومه يوماً، فقالوا كأنه جمل قريش أي شديد، فلُقب به، أو لأن قصياً كان يقال له القرشي، وهو الذي سماهم بهذا الاسم، أو لأنهم كانوا يفتشون

الحاج فيسدون خلتها ، فمن كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه
ومن كان معدماً كسوه ومن كان طريداً آووه ، أو سموا بقريش بن
مخلد بن غالب بن فهر ، وكان صاحب عيرهم ، فكانوا يقولون: قدمت
عير قريش وخرجت عير قريش ، فلقبوه به. أو نسبة إلى "قريش بن الحرث
بن يخلد بن النضر" ، والد "بدر" ، وكان دليلاً لبني "فهر بن مالك" في
الجاهلية ، فكانت عيرهم إذا وردت "بدرأ" ، يقال: قد جاءت عير قريش ،
يضيفونها إلى الرجل حتى مات. أو لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا
أصحاب ضرع وزرع. أو إلى قريش بن بدر بن يخلد بن النضر. وكان دليل
بني كنانة في تجارتهم ، فكان يقال: قدمت عير قريش. فسميت قريش
بذلك. وأبوه بدر بن يخلد ، صاحب بدر ، الموضع المعروف.

ونعتت قريش بـ "آل الله" و "جيران الله" و "سكان حرم الله". وبـ "أهل
الله".

إلى غير ذلك من آراء حصرها بعضهم في عشرين قولاً في تفسير
معنى لفظة "قريش" ومن أين جاء أصلها. تجدها في بطون الكتب التي
أشرت إليها في الحواشي. وفي موارد آخرن. وهي كلها تدل على إن أهل
الأخبار كانوا حيارى في أمر هذه التسمية ، ولما كان من شأنهم إيجاد
أصل وفصل ونسب وسبب لكل اسم وتسمية ، كما فعلوا مع التسميات
القديمة ، ومنها تسميات قديمة تعود إلى ما قبل الميلاد ، أوجدوا على
طريقتهم تلك التعليقات والتفسيرات لمعنى "قريش". وقد تجد هذه
التعليقات تروى وتتسبب إلى شخص واحد كابن الكلبي مثلاً ، وهو
ينسب روايتها عادة إلى رواة تقسموا عليه أو عاصروه ، وقد لا يرجعها إلى

أحد ، وربما كانت من وضعه وصنعته أو من اجتهاده الخاص في ايجاد علل للمسميات.

فهذا هو مجمل آراء أهل الأخبار في معنى اسم قريش.

أما رأيهم في أول زمن ظهرت فيه التسمية ، فقد اختلف في ذلك وتباين أيضاً. فذكر قوم "إن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير: متى سميت قريش قريشاً؟ قال: حين اجتمعت إلى الحرم من تفرقها ، فذلك التجمع التقرش. فقال عبد الملك: ما سمعت هذا ، ولكن سمعت إن قصياً كان يقال له القرشي ، ولم تسم قريش قبله". وورد: "لما نزل قصي الحرم وغلب عليه ، فعل أفعالاً جميلة ، فقبل له: القرشي ، فهو أول من سُمي به". وروود أيضاً إن "النضر بن كنانة كان يسمى القرشي".

وقد نسب إلى عليّ وابن عباس قولهما إن قريشاً حي من النبط من أهل كوثر. وإذا صح إن هذا القول هو مهما حقاً ، فإن ذلك يدل على انهما قصدا بالنبط "نبايوت" : وهو "ابن اسماعيل" في التوراة. واما "كوثر" فقصدا بذلك موطن ابراهيم ، وهو من أهل العراق على رواية التواراة أيضاً. ولعلهما أخذوا هذا الرأي من أهل الكتاب في يثرب.

ويذكر أن جذم قريش كلها "فهر بن مالك" فما دونه قريش وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغرهما من قبائل مضر. وأما قبائل قريش ، فانما تنتهي إلى فهر بن مالك لا تجاوزه. ومن جاوز "فهر" ، فليس من قريش. ومعنى هذا إن جذم قريش من أيام "فهر بن مالك" فما فوقه ، كانت متبدية تعيش عيشة أعرابية ، فلما كانت أيام "فهر" أخذت تميل

إلى الاستقرار والاستيطان، ولما استقرت وأقامت في مواضعها عرفت ب
"قريش".

وذكر إن قريشاً قبيلة، وأبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن
مدركة بن الياس بن مضر، فكل من كان من ولد "النضر"، فهو
"قرشي" دون ولد كنانة ومن فوقه. وورد كل من لم يلد "فهر" فليس
بقرشي. وهو المرجوع إليه.

وقد صيرت رابطة النسب هذه قريشاً قبيلة تامة تقيم مجتمعة في
أرض محدودة، وبصورة مستقرة في بيوت ثابتة فيها بيوت من حجر، بين
أفرادها وأسرها ووطنها عصبية، وبينهم تعاون وتضامن. كما جعلت
أهل مكة في تعاون وثيق فيما بينهم في التجارة، حتى كادوا يكونون
وكأنهم شركاء مساهمون في شركة تجارية عامة. يساهم فيها كل
من يجد عنده شيئاً من مال، وإن حصل عليه عن طريق الاقتراض والربا،
ليكون له نصيب من الأرباح التي تأتي بها شركات مكة.

ويقسم أهل الأخبار قريشاً إلى: قريش البطاح، وقريش الظواهر.
ويذكرون إن قريش البطاح بيوت، منهم: بنو عبد مناف، وبنو عبد
الدار، وبنو عبد العزى، وبنو عبد بن قصي بن كلاب، وبنو زهرة بن
كلاب، وبنو تيم بن مرة، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم، وبنو
جمح ابنا عمرو ابن هصيص بن كعب، وبنو عدي بن كعب، وبنو حسل
بن عامر بن لؤي، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر، وبنو
هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر. وبنو عتيك بن عامر بن لؤي. و
"قصي" هو الذي أدخل البطون المذكورة الأبطح، فسُمواً البطاح. ودخل

"بنو حسل ابن عامر" مكة بعد ، فصاروا مع قريش البطاح ، فأما من دخل في العر من قريش فليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء.

ويذكر أهل الأخبار إن "قريش البطاح" ، الذين ينزلون أبطاح مكة وبطحاءها. أو هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة. وأخشبا مكة جبالها: أبو قبيس والذي يقابله. ويقال لهم قريش الأبطاح وقريش البطاح ، لأنهم صباة قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاء مكة ونزلوها. وهم أشرف وأكرم من قريش الظواهر. ذكروا إن سادة قريش نزول ببطن مكة ، ومن كان دونهم ، فهم نزول بطواهر جبالها ، أي قريش الظواهر.

أما قريش الظواهر: فهم: بنو معيص بن عامر بن لؤي ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر ، والحارث ابنا فهر ، إلا بني هلال بن أهيب بن ضبة ، وبني هلال بن مالك بن ضبة. وعامة بني عامر بن لؤي ، وغيره. عرفوا جميعاً بقريش الظواهر ، لأنهم لم يهبطوا مع قصي الأبطح. إلا إن رهط "أبي عبيدة ابن الجراح" ، وهم من "بني الحارث بن فهر" ، نزلوا الأبطح فهم مع المطيبين أهل البطاح. وورد إن "بني الأدرم من أعراب قريش ليس بمكة منهم أحد."

ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح ، أنهم إنما سُموا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصي البطاح ، فأقاموا هناك. فهم مستقرون خضر ، وقد أقاموا في بيوت مهما كانت فإنها مستقرة ، وقد انصرفوا إلى التجارة وخدمة البيت. فصاروا أصحاب مال وغنى ، وملكوا الأملاك

في خارج مكة، ولا سيما الطائف، كما ملكوا الإبل، وقد تركوا
رعيتها للاعراب. وعرفوا أيضا بقريش الضبّ للزومهم الحرم.
واما قريش الظواهر، فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها،
وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً، أي انهم لم
يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر. وكانوا
يفخرون على قريش، مكة بأنهم أصحاب قتال، وانهم يقاتلون عنهم
وعن البيت. ولكنهم كانوا دون "قريش البطاح" في التحضر وفي الغنى
والسيادة والجاه، لأنهم أعراب فقراء، لم يكن لهم عمل يعتاشون منه
غير الرعي. وكانوا دونهم في مستوى المعيشة بكثير وفي الواجهة بين
القبائل. ومع اشتراكهم وقريش البطاح في النسب، ودفاعهم عنهم أيام
الشدّة والخطر، إلا انهم كانوا يحقدون على ذوي أرحامهم على ما أوتوا
من غنى ومال وما نالوه من منزلة، ويحسدونهم على ما حصلوا عليه من
مكانة دون إن يعملوا على رفع مستواهم، وترقية حألهم، والاقتداء
بذوي رحمهم أهل الوادي في اتخاذ الوسائل التي ضمنت لهم التفوق عليهم
وفي جلب الغنى والمال لهم. كان شأنهم في ذلك شأن الحساد الذين
يعيشون على حسدهم، ولا يبحثون عن وسائل ترفعهم إلى مصافّ من
يحسدونه. ولعل نظرتهم الجاهلة إلى أنفسهم من انهم أعلى وأحلّ شأناً
ممن يحسدونهم، وإن كانوا دونهم في نظر الناس في المنزلة والمكانة،
حالت دون تحسين حاسم والتفوق على المحسود بالجد والعمل، لا
بالاكتفاء بالحسد وبالتشدد بالقول والمباهاة.

ويذكر أهل الأخبار إن قسماً ثالثاً من قريش، لم ينزل - بمكة ولا بأطرافها، وإنما هبط أماكن أخرى، فاستقر بها، وتحالف مع القبائل التي نزل بينها. من هؤلاء: سامة بن لؤي، وقع إلى عمان، فولده هناك حلفاء أزد عمان. والحارث ابن لؤي وقع إلى عمان، فولده هناك حلفاء أزد عمان. والحارث بن لؤي، وقع إلى اليمامة، فهم في بني هزان من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار. والحارث، هو جُشَم. وخزيمة بن لؤي، وقعوا بالجزيرة إلى بني الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان وسعد بن لؤي، وبنو عوف بن لؤي، وقعوا إلى غطفان ولحقوا بهم، ويقال لبني سعد بن لؤي بنانة، وبنانة أمهم، فأهل البادية منهم. وأهل الحاضرة ينتمون إلى قريش. ويقال لبني خريمة بن لؤي: عائذة قريش. وكان عمان بن عفان ألحق هذه القبائل، حين استخلف بقريش.

ويلاحظ إن هذا الصنف من أصناف قريش، هو من نسل "لؤي"، أي: من نسل "لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر". وقد تباعدت مواطنهم عن قريش.

ومن قريش الظواهر: بنو الأدرم من نسل الأدرم، وهو تيم بن غالب، ومن رجالهم: عوف بن دهر بن تيم الشاعر، وهو أحد شعراء قريش. وهلال ابن عبد الله بن عبد مناف، وهو صاحب القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي، وهو ابن الخطل الذي كان يؤذي التي وارتد فأهدر النبي دمه يوم الفتح، قتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة، أو سعد بن حريث المخزومي على رواية قريش. ومن قريش الظواهر أيضاً: بنو محارب، والحارث بن فهر وبنو هصييص بن عامر بن لؤي.

ولم يكن أهل مكة كلهم من قريش، بل سأكنيهم أيضاً من كان بها قبلهم، مثل خزاعة وبنو كنانة. وقريش وإن كانت من "كنانة"، إلا إنها ميزت نفسها عنا، وفرقت بينها وبين كنانة. ولكنانة أخوة منهم: أسد وأسده، ووالدهم هو "خزيمة" وهو جد من أجداد قريش، كما إن "كنانة" هو جد من أجدادهم. وللأخباريين رأي في معنى كنانة.

وقد عرفت قريش بين أهل الحجاز بسخينة. والسخينة طعام رقيق يتخذ من سمن ودقيق. وقيل دقيق وتمر - وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء. وانما لقبت قريش بسخينة لاتخاذها اياه، أي لأفهم كانوا يكثرون من أكلها ولذا كانت تعير به.

الأحابيش

ومن أهل مكة جماعة عرفت ب "الأحابيش". ذكر أهل الأخبار انهم حلفاء قريش، وهم: بنو المصطلق، والحياء بن سعد بن عمرو، وبنو الهون ابن خزيمة. اجتمعوا بذنب حبشي - وهو جبل بأسفل مكة - فتحالفوا بالله إنا ليدٌ على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار، وما أرسى حبشي مكانه. وقيل: إنما سُمّوا بذلك لاجتماعهم. والتحابيش: هو التجمع في كلام العرب. وذكر انهم اجتمعوا عند "حبشي" فحالفوا قريشاً. وقيل: أحياء من القارة انضموا إلى "بني ليث" في الحرب التي نشبت بينهم وبين قريش قبل الإسلام، فقال إبليس لقريش: إني جارٌ لكم من بني ليث فواقعوا دماً، سُمّوا بذلك لاسودادهم، **قال** :

ليث وديل وكعب والذي ظأرت جمع الأحابيش، لما احمرت الحدق

فلما سميت تلك الأحياء "الأحاييش" من قبل تجمعها، صار التحبيش في الكلام كالتجميع.

وورد إن "عبد مناف" و "عمرو بن هلال بن معيط الكناني"، عقدا حلف الأحاييش. والأحاييش، بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، وبنو الهون بن خزيمة بن مدركة، وكانوا مع قريش. وقيل أيضاً إن الأحاييش، هم: بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وعضل، والديش من بني الهون بن خزيمة، والمصطلق، والحياء من خزاعة.

-وقد وصف "اليعقوبي" "حلف الأحاييش" بقوله: "ولما كبر عبد مناف ابن قصي جاءتة خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، يسألونه الحلف ليعزوا به. فعقد بينهم الحلف الذي يقال له: حلف الأحاييش. وكان مُدبر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الخلف عمرو بن هلال "هلال" بن معيص ابن عامر. وكان تحالف الأحاييش على الركن. يقوم رجل من قريش والآخر من الأحاييش فيضعان أيديهما على الركن، فيحلفان بالله القاتل وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً، ما بل بحر صوفة، وما قام حر أو ثبير، وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة. فسمي حلف الأحاييش."

وقد ذكر أن "المطلب بن عبد فناف بن قصي"، قاد بني عبد مناف وأحلافها من الأحاييش، وهم من ذكرت يوم ذات نكيف، لحرب

بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. كما ورد إن "الأحابيش"، الذين ذكرت اسماءهم، كانوا يحضرون مع من يحضر من طوائف العرب مثل قريش وهوازن، وغطفان، وأسلم، و "طوائف من العرب" سوق عكاظ، فيبيعون ويشترون. كما ذكر انهم كانوا مثل قريش يقدسون اسافاً ونائلة.

وورد في بعض اخبار الأخباريين، إن يوم "ذات نكيف"، وقع بين قريش وبني كنانة. فهزمت قريش بني كنانة، وعلى قريش عبد المطلب. وقد بقي "الأحابيش" بمكة، إلى أيام الأمويين. فذكر إن "عبد الله المتكبر"، وكان من اشراف قريش في أيام "معاوية" ومن اغناها مالا، لما وفد على "معاوية" وكان خليفة إذ ذاك، كلمه في "قريش" ووجوب الاعتماد عليهم ثم في "الأحابيش"، إذ قال له عنهم: "وحلفاؤك من الأحابيش" قد عرفت نصرهم ومؤازرتهم، فاخلطهم نفسك وقومك."

وقد بحث "لامانس" في موضوع الأحابيش، فرأى انهم قوة عسكرية ألفت من العبيد السود المستوردين من افريقية ومن عرب مرتزقة، كونتها مكة للدفاع عنا. وقد بحث مستشرقون آخرون في هذا الموضوع، فمنهم من ايده، ومنهم من توسط في رأيه، ومنهم من ايد الرواية العربية المتقدمة التي ذكرتها. وعندني رأي آخر، قد يفسر لنا سبب تسمية "بني الحارث بن عبد مناة" من "كنانة" ومن ايدها من "بني المصطلق" و "بني الهون" بالأحابيش. هو إن من الممكن إن تكون هذه التسمية قد وردت اليهم من اجل خضوعهم لحكم الحبش، وذلك قيل الإسلام بزمان طويل. فقد سبق إن ذكرت في الجزء الثالث من كتابي:

"تأريخ العرب قبل الإسلام"، وفي أثناء كلامي على "جغرافيا بطلميوس"، إن الساحل الذي ذكره "بطلميوس" باسم : "Cinaedocolpitaة" إنما هو ساحل "تهامة" وهو منازل "كنانة". وقد بقي الحبش به وقتاً طويلاً. واختلطوا بسكانه. فيجوز إن تكون لفضة "الأحابيش" قد لحقت بعض "كنانة "

من خضوعهم للحبش، حتى صارت اللفظة لقباً لهم، أو علماً لكنانة ومن حالفها. ويجوز إن تكون قد لحقتهم ولحقت الآخرين معهم لتميزهم عن بقية "كنانة" ومن انضم إليهم ممن سكن خارج تهامة. أو لتزوج قسم منهم من نساء حبشيات، حتى ظهرت السمرة على سحنهم. ولهذا وصفوا بالأحابيش فليس من اللازم أذن إن يكون "الأحابيش"، هم كلهم من حبش افريقية، بل كانوا عرباً وقوماً من العبيد والمرتزقة ممن امتلكهم أهل مكة. ومما يؤيد رأبي هذا هو وود "من بني كنانة" مع أهل تهامة في اخبار معارك قريش مع الرسول. ففي معركة "أحد"، نجد "الطبري" يقول: "فاجتمعت قريش لحرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ومن اطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة". ونجد مثل ذلك في اخبار معارك أخرى. مما يشير إلى إن الأحابيش، ليسوا عبيد إفريقية حسب، بل هم عرب وحبش ومرتزقة. وأن أولئك الأحابيش هم من ساحل تهامة في الغالب من كنانة، أي ممن أقام بذلك الساحل المستقر به من الحبش واندمج في العرب، فصار من المستعربة الذين نسوا اصولهم وضاعت انسابهم، واتخذوا لهم نسباً عربياً، وقد كان للأحابيش سادة يديرون امورهم، منهم "ابن

الدغنة" وهو "ربيعة بن رفيع بن حيان بن ثعلبة السلمي" الذي اجار "ابا بكر". وشهد معركة حنين.

ومن سادات الأحابيش "الحليس بن يزيد". ويظهر انه كان يتمتع بمنزلة محترمة بمكة. وقد ذكر "محمد بن حبيب" "الحليس" على هذه الصورة: "الحليس بن يزيد". وذكر انه من "بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة". وكان من رؤساء حرب الفجار من قريش. وذكره. غيره على هذه الصورة: "وحليس بن علقمة الحارثي. سيد الأحابيش ورئسهم يوم أحد. وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة."

وقد حارب الأحابيش مع قريش يوم أحد ، وقد رأسهم "أبو عامر" المعروف ب "الراهب" وقاتل بهم ، مع إن رئيسهم وسيدهم اذ ذاك هو "الحليس بن زبان" أخو "بني الحارث بن عبد مناة". وهو يومئذ "سيد الأحابيش". وقد مرّب "أبي سفیان" ، وهو يضرب في شدة "حمزة" بزج الرمح ، فلامه ، على فعله وأنبه. ولعلّ هذا الحليس هو الحليس المتقدم ، كتب اسم والده بصور. مختلفة بحذف اسم والده وإضافة جده أو غيره إليه ، فصار وكأنه انسان آخر.

وقد ورد ذكر "الحليس" في خبر "الحديبية". فقد ذكر الطبري إن قريشاً اوفدت "الحليس بن علقمة" أو "ابن زبان" ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد "بلحارث بن عبد مناة بن كنانة" ، إلى رسول الله ، فلما رآه الرسول ، قال: إن هذا من قوم يتألهون ، فلما رأى الحليس هديّ المسلمين في قلائده ، وأحس إن الرسول إنما جاء معتمراً لا يريد سوءاً لقريش ، قصّ عليهم ما رأى ، فقالوا له: اجلسي ، فإنما أنت رجل أعرابي

لا علم لك. فغضب "الحليس" عند ذلك، وقال. يا معشر قريشى، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، إن تصدّوا عن بيت الله من جاءه معظماً له، والذي نفس الحليس بيده لتخُنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد! فقالوا له: مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نوصي به.

وقد ساهم "الأحابيش" في الدفاع عن مكة عام الفتح. وكانوا قد تجمعوا مع "بني بكر" و "بني الحارث بن عبد مناة" ومن كان من الأحابيش، اسفل مكة، كما أمرتهم قريش بذلك. فأمر رسول الله خالد بن الوليد إن يسير عليهم، فقاتلهم حتى هزموا. ولم يكن بمكة قتال غير ذلك،، ولم يذكر "الطبري" اسم سيد الأحابيش في هذا اليوم. ويتبين من دراسة اخبار أهل الأخبار عن الأحابيش، ومن نقدها وغربلتها إن الأحابيش، كانوا جماعة قائمة بذاتها، مستقلة في ادارة شؤونها، يدير امورها رؤساء منهم، بعرف أحدهم ب "سيد الأحابيش". وقد ذكرت أسماء بعض منهم قبل قليل. وقد عاشوا عيشة اعرابية، خارج مكة على ما يظهر من الروايات. وذلك بدليل قول قريش للحليس: "اجلس، فإنما أنت رجل اعرابي، لا علم لك" أي أنهم كانوا اعراباً ويعيشون عيشة اعرابية. ويظهر من هذه الأخبار أيضاً إن "الحليس" سيد الأحابيش"، كان من "بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة"، وأن "ابن الدغنة"، كان من "بني سليم". ولم ينص أهل الأخبار فيما اذا كانا عربيين صريحين ام انهما كانا من "بني الحارث" ومن "بني سليم" بالولاء، فنسبهما إلى القبيلتين، هو نسب ولاء. ويظهر من خبر

"الحديبية"، ومن قول النبي لما رأى "الحليس". قادماً إليه: "إن هذا من قوم يتألهون"، إن الأحابيش لم يكونوا على دين مكة أي من عباد الاصنام بل كانوا مؤلهة، يدينون بوجود إله. وقد يشير الرسول بذلك إلى أنهم كانوا نصارى، أخذوا نصرانيتهم من الحبش. ولذلك كانوا من المؤلهة بالنسبة لقريش. وأنا لا استبعد أيضاً إن تكون تلك التسمية قد غلبت على هؤلاء لأنهم كانوا من الساحل الافريقي المقاتل لجزيرة العرب. جاؤوا إليها بالفتوح وبالنخاسة، وأقاموا في تهامة إلى مكة، وعاشوا عيشة اعرابية متبدية، وتحالفوا مع القبائل العربية المذكورة، وتخلقوا بأخلاق عربية حتى صاروا اعراباً في كل شيء. وقد لازمتهم التسمية التي تشير إلى اصلهم، وانما تحالفوا مع "بني الحارث" وبقية المذكورين، عرف حلفهم ب "حلف الأحابيش"، ثم عرف المتحالفون ب "الأحابيش". وقد نسي الأصل وهو الأحابيش، أي اسم الحبش الذين تحالفوا مع "بني الحارث" و "عضل" و "الديش" و "المصطلق" و "الحيا". لسبب لا نعرفه، قد يكون بسبب كونهم عبيداً سوداً، وأطلق الحلف على المذكورين. غير إن روايات أهل الأخبار تشير إلى كثير من الأحابيش في مثل قولها: "وخرجت قريش بأحابيشها" إلى إن الأحابيش المذكورين كانوا في حكم قريش، أي جماعة من الحبش من أهل افريقية، كانت كما ذكرت. تكوّن وحدة قائمة بذاتها، ولكنها تدين بولائها لقريش، ولها حلف مع بعض كنانة ومع قبائل اخرى. ولما كان عام الفتح امرتها قريش بالتعاون مع "بني بكر" و "بني الحارث ن عبد مناة"، للدفاع عن

مكة من جهة الجنوب. فامتثلت لأمر قريش، وأخذت مواضعها هنالك، حتى زلزلها "خالد بن الوليد".

وقد منح "لامانس" الأحابيش درجة مهمة في الدفاع عن قريش. حتى زعم إن قريشاً ركنت اليهم في دفاعهم عن مكة، وعهدت اليهم دوراً خطيراً في حروبها مع الرسول. وقد استند في رأيه هذا إلى ما رواه أهل الأخبار من اشتراكهم مع قريش في تلك لحروب. غير أننا نجد من دراسة أخبار الحروب المذكورة، إن الأحابيش وإن ساهموا فيها، إلا أنهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فيها. وأنهم لم يكنوا في تلك الحروب سوى فرقة من الفرق التي ساعدت قريشاً، مقابل مال ورزق ووعود. ولم يكن الأحباش وحدهم قد ساعدوا أهل مكة في حروبهم مع غيرهم، فقد ساعدهم أيضاً طوائف من الأعراب، أي من البدو الفقراء الذين كانوا يقاتلون ويؤدون مختلف الخدمات في سبيل الحصول على خبز يعيشون عليه.

وقريش جماعة استقرت وتحضرت، واشتغلت بالتجارة، وحصلت منها على غنائم طيبة. ومن طبع التاجر الابتعاد عن الخصومات والمعارك والحروب. لأن التجارة لا يمكن إن تزدهر وتثمر إلا في محيط هادئ مستقر. لشك، صار من سياستها استرضاء الأعراب وعقد "حبال" مع ساداتهم، لتأمين جانبهم، ليسمحوا لقوافلها بالمرور بسلام. كما صار من اللازم عليها عقد أحلاف مع المجاورين لهم من الأعراب مثل "قريش الظواهر" و "الأحابيش" وأمثالهم للاستعانة بهم في الدفاع عن مكة والاشتراك معهم في حروبهم التي قد يجبرون على خوضها مع غيرهم.

بالإضافة إلى عبيدهم "الحبش" الذين اشتروهم لتمشية أمورهم
وليكونوا حرساً وقوة أمن لهم.

ولم تكن قريش تعتمد على القوة في تمشية مصالحها التجارية،
بقدر اعتمادها على سياسة الحلم واللين والقول المعسول والكلام
المرضي الوصول إلى غايتها وأهدافها ومصالحها التجارية. وبهذه
السياسة: سياسة اللين والمفاوضة والمساملة، كانت تبدأ بحل ما يقع لها
من صعوبات مع الناس. ولم يكن من السهل عليها في الواقع إرضاء
الأعراب واسكاتهم لولا هذه السياسة الحكيمة التي اختاروها
لأنفسهم، وهي سياسة أكثر سكان القرى العامرة الواقعة في البوادي
بين أعراب جائفين، سياسة الاسترضاء بالحكمة واللسان الجميل،
وإداء المال رشوة لهم بأقل مقدار ممكن، لأن الاكثار من السخاء يثير
في الأعرابي شهوة طلب المزيد. وشهوته هذه متى ظهرت، فسوف لا تنتهي
عند حدّ. وأهل مكة بخبرتهم الطويلة في تجولهم بمختلف أنحاء جزيرة
العرب اعرف من غيرهم بنفسية الأعراب.

وكان لأشرافها أحلاف مع سادات القبائل، تحالفوا معهم
لتمشية مصالحهم ولحماية تجارتهم. فكان "زرارة" التميمي مثلاً حليفاً ل
"بني عبد الدار". وكان عامر بن هاشم بن عبد مناف، قد تزوّج "بنت
النباش بن زرارة"، وأولد منها "عكرمة بن عامر بن هاشم" الشاعر، و
"بغيش بن عامر" الذي كتب الصحيفة على "بني هاشم" في أمر مقاطعة
قريش لبني هاشم.

وقد عيرت قريش بأنها لا تحسن القتال، وانها تجاري وتساير من غلب، وانها لا تخرج إلا بخفارة خفير، وبحلف حليف، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائل. فلما سمع "النعمان بن قبيصة بن حية الطائي" ابن عم "قبيصة بن عباس بن حيلة الطائي" صاحب الحيرة، ب "سعد بن أبي وقاص"، سأل عنه، فقيل: "رجل من قريش، فقال: اما إذا كان قرشياً فليس بشيء، والله لأجاهدنه القتال. إنما قريش عبيد من غلب، والله ما يمنعون خفيراً، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير". ونجد أمثلة أخرى من هذا القبيل تشير إلى ميل قريش إلى السلم، وعدم قدرتها على القتال.

وذكر الأخباريون انه كان لكنانة جملة أولاد، ذكر ابن الكلبي منهم: النضر، والنضير، ومالكاً وملكان، وعامراً، وعمراً، و الحارث، و عروان "غزوان"، وسعداً، وعوفاً، وغنماً، ومخرمة، وجرولاً. وهم من زوجته "برة بنت مر" أخت "تميم بن مر". ولهذا رأى النسابون وجود صلة بين أبناء هؤلاء الأولاد وقبيلة "تميم". وأما "عبد مناة"، فإنه ابن كنانة من زوجته الأخرى، وهي "الذفراء بنت هانئ بن بلي" من قضاة. ولذلك عدّ أبناؤه من قضاة.

ويذكر أهل الأخبار إن من أجداد "قصي"، رجل كانت له منزلة في قومه اسمه "كعب بن لؤي"، كان يخطب للناس في الحج، وكان رئيساً في "قريش" فلما توفي، أرخت قريش بموته اعظاماً له، إلى إن كان عام الفيل فأرخوا به. وذكر بعض أهل الأخبار إن أسم "كعب" هي من "القين بن جسر" من قضاة، وان كعباً هذا أول من سمى يوم

الجمعة الجمعة، وكانت العنب تسمى يوم الجمعة: العروبة. وأول من قال: "أما بعد"، فكان يقول: "أما بعد، فاستمعوا وافهموا"، وان بين موته والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة.

وفي قول أهل الأخبار عن وقت موت كعب مبالغة شديدة بالطبع، فإن كعباً هو والد "مرّة" و "مرّة بر هو والد "كلاب" و "كلاب" هو والد "قصي". فلا يعقل إذن إن يكون بين موت "كعب" وبين الفيل هذا المقدار من السنين.

وهم يذكرون أيضاً إن والد "قصي" وهو "كلاب" كان قد تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل"، فأنجبت له "قصياً". وهي من الأزدي، من نسل "عامر الجادر". وقد عرف ب "الجادر" لانه بنى جدار الكعبة بعد إن وهَنَ من سيل أتى في أيام ولاية جرهم البيت، فسمي الجادر. وذكر أيضاً إن الحاج كانوا يتمسحون بالكعبة، ويأخذون من طيبها وحجارتها تبركاً بذلك، وان عامراً هذا كان موكباً باصلاح ما شعث من جدرها فسُمي الجادر. وذكر إن "سعد بن سيل"، كان أول من حلى السيوف بالفضة والذهب. وكان أهدي إلى "كلاب" مع ابنته "فاطمة" سيفين محليين، فجعلها في خزانة للكعبة. وذكر إن "كلاباً"، هو أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة. وجاء أيضاً أنه أول من جدر الكعبة.

و "قصي" رئيس قريش، هو الذي ثبت الملك في عقبه، ونظم شؤون المدينة، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حنن شعر بدنو أجله. فلما أشرق الإسلام، كانت أمور مكة في يد قريش، ولم تكن

لغير قريش نفوذ بذكر على مكة. فهو الذي بعث الحياة إلى قومه من قريش، وجعل لهم مكانة في هذه القرية ونفوذاً وشهرة في الحجاز. وهو الذي أوجد لمكة مكانة، وخلق لها نوعاً من التنظيم والإدارة. ومن عهده فما بعد نجد في أخبار مكة ما يمكن إن يركن ويطمأن إليه من أخبار.

وقد روى "ابن قتيبة" خبراً مفاده إن "قيصر" أعان "قصياً" على "خزاعة". وإذا صح هذا الخبر، فإن مساعدة "قيصر" له قد تكون عن طريق معاونة الغساسنة له، وهم حلفاء الروم. وقد تكون قبيلة "بنو عذرة" وهي من القبائل المتحصرة التي عاشت على مقربة من حدود بلاد الشام، هي التي توسطت فيما بين قصي والروم، وقد كانت خاضعة لنفوذهم، فأعانه أحد الحكام الروم - وقد يكون من ضباط الحدود، أو من حكام المقاطعات الجنوبية مثل "بصرى" - بأن أمده بمساعدة مالية أو بإيعاز منه إلى الأعراب المحالفين للروم بمساعدته في التغلب على خزاعة. ولا أهمية كبيرة في هذا الخبر لكلمة "قيصر". فقد جرت عادة أهل الأخبار على الإسراف في استعمالهم لهذه اللفظة. وقد ورثوا هذا الإسراف من الجاهلين، فقد كان من عاداتهم تسمية أي موظف بارز من موظفي الحدود الروم، أو من حكام المقاطعات بـ "قيصر". وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من هذا القبيل.

ويذكر إن "عثمان بن الحويرث"، وكان من الهجائين في قريش ومن العالمين بأخبار رجالها، قد توسط فيما بعد لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة. وهو من "بني أسد بن عبد العزى".

ويظهر انه أدرك المرارة التي أصيب بها البيزنطيون من خروج الحبش عن اليمن ومن دخول الفرس إليها ، وسيطرتهم بذلك على باب المنذب ، مفتاح البحر الأحمر ، فتقرب إلى الروم وتوسل إليهم لمساعدته بكل ما عندهم من وسائل لتصيب نفسه ملكاً على مكة ، علماً منه إن هذا الطلب سيجد قبولاً لديهم ، وان في امكانهم في حالة عدم رغبتهم بمساعدته مساعدة عسكرية أو مالية ، الضغط على سادات مكة ضغطاً اقتصادياً ، بعرقلة تجارتهم مع بلاد الشام ، أو بمنع الاتجار مع مكة ، أو برفع مقدار الضرائب التي تؤخذ عن تجارتهم ، وبذلك يوافقون على الاعتراف به ملكاً عليه ، على نحو ما كان عليه الملوك الفساسنة . وكما سأحدث عن هذا الموضوع فيما بعد .

والظاهر إن مشروعه هذا لم يلاق نجاحاً ، لأن سادات مكة وفي جملتهم رجال من "بني أسد بن عبد العزى" ، مثل "الأسود بن المطلب" و "أبوزمعة" ، والأثرياء من الأسرة الأخرى عارضوه ، لأنهم كانوا تجاراً يتاجرون مع الفرس والروم ، وانحيازهم إلى الروم ، معناه خروج مكة عن سياسة الحياد التي اتبعوها تجاه المعسكرين : الفرس والروم ، وسيؤدي هذا الانحياز إلى عرقلة اتجارهم مع الفرس ومع الأرضين الخاضعة لنفوذهم ، وتؤدي هذه العرقلة إلى خسارة فادحة تقع بتجارتهم ، لا سيما وان الفرس كانوا قد استولوا على اليمن ، ولأهل مكة نجارة واسعة معها . ثم إن بين أهل مكة رجال لهم شأن ومكانة في قومهم ، وكانوا أرفع منزلة من "عمان بن الحويرث" ، لذلك لم يكن من الممكن بالنسبة

لهم الانصياع له حتى وإن أرسل الروم جيشاً قوياً منظماً على مكة،
لذلك لم يتحقق حلم "عثمان" في الرياسة ولو بمساعدة قوات أجنبية.
وزعم بعض أهل الأخبار إن "الحارث بن ظالم المري"، ذكر "آل قصي" في
شعره، ودعاهم بـ "قرايين الإله"، إذ قال: وإن تعصب بهم نسبي فمنهم
قرايين الإله بنو قصي

وهو في عرف بعض النسابين: "قصي بن كلاب بن مرة بن كعب
بن لؤي بن فهر". و"قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب
ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن
مضر بن نزار بن معد بن عدنان"، في شجرة نسيبه التي توصله إلى جدّه
الأعلى "عدنان". فأبوه هو كلاب. أما أمه، فهي "فاطمة بنت سعد بن
سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعثمة ابن
يشكر" من أزد شنوءة حلفاء في "بني الدليل". توفي أبوه وهو صغير،
وتزوجت أمه بعد وفاة "كلاب" أبيه من رجل من بني عذرة، هو ربيعة بن
حرام. ولصغر سن قصي، أخذته أمه معها إلى أرض زوجها في بني عذرة،
على مقربة من تبوك، وتركت أخاه الأكبر "زهرة" في أهله بمكة. ولما
شب قصي، وترعرع، وعرف من أمه أصله وعشرفته، رجع إلى قومه،
فنزل بمكة وأقام بها: ونظم أمر قريش.

ولم يكن اسم قصي قصياً يوم سمي، بل كان "يداً"، وإنما
سُمي قصياً بعد ذلك، سمي قصياً على ما يذكر أهل الأخبار، لأنه
قصي عن قومه، فكان في بني عذرة، فسمي قصياً لبعده عن دار
قومه. وبيننا قصي بأرض قضاة لا ينتمي إلا إلى ربيعة بن حرام في زوج

أمه، وهو من أشراف قومه، إذ كان بينه وبين رجل من قضاة شيء، فأنبه القضاة بالغبية، فرجع قصي إلى أمه، وقد وجد في نفسه مما قال له القضاة، فسألها عما قال له ذلك الرجل، فقالت له: أنت، والله، يا بني أكرم منه نفساً وولداً. فأجمع قصي الخروج إلى قومه وللحوق بهم، فقالت له أمه: يا بتي، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام، فترج في حاج العرب، فإنني أخشى عليك إن يصيبك بعض البأس، فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام، خرج حاج قضاة، فخرج فيهم حتى قسم مكة فلما فرغ من الحج، أقام بها، واتخذها له مستقراً ومقاماً.

وتعرف قصي وهو بمكة على "حليل بن حبشية الخراعي"، وكان يلي الكعبة وأمر مكة، ثم خطب إليه ابنته، وهي "حبي"، فزوجه إياها، وولدت له ولده: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي. وكثر ماله، وعظم شرفه، فلما توفى "حليل" رأى قصي أنه أولى من خراة بولاية البيت، وأن قريشاً فرعة إسماعيل وإبراهيم، واستتفر رجال قريش، ودعاهم إلى إخراج خراة من مكة. وكتب إلى أخيه من أمه، وهو "رزاح بن ربيعة بن حرام العذري" يستتصره، فأجابته ومعه قومه من بني عذوة من قضاة، ووصلوا مكة ونصروه بم وغلبت قضاة وبنو النضر خراة، وزال ملكهم عن مكة، وصار الأمر إلى قصي وقريش.

وفي رواية أخرى أنه اشترى ولاية البيت من "أبي غبشان" بزق خمر وبعود. وكان "حليل" كما يقول أصحاب هذه الرواية قد جعل ولاية

البيت إلى ابنته "حبي"، فقالت: قد علمت اني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه، قال: فاني أجعل الفتح والاعلاق إلى رجل يقوم لك به، فجعله إلى "أبي غبشان"، وهو "سليم بن عمرو بن بوي بن ملكان بن أفصى"، فاشتري قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود. فلما سمعت خزاعة ذلك، تجمعت على قصي، فاستنصر أخاه، فقاتل خزاعة وأصيب خراعة بوباء العدسة، حتى كادت تفنيهم. فما رأت ذلك، جلت عن مكة. ويذكرون إن العرب لما سمعت بقصة "أبي غبشان"، قالت: "أخسر صفقة من أبي غبشان"، فذهب القول مثلاً.

وأبو غبشان، هو "المحترش". وقد ورد اسم رجل عرف بالحارث، قيل عنه انه غبشان بن عبد عمرو، وانه كان قد حجب البيت، ففعل له علاقة بأبي غبشان المذكور، كأن يكون ابنه.

وفي رواية إن القتال حينما اشتد بين قصي وخزاعة، تداعوا إلى الصلح، على إن يحكم بينهم "عمرو بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة" "يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث"، فوافق. فكان حكمه إن قصياً أولاً بالبيت ومكة من خزاعة، وإن كل دم أصابه من خزاعة موضوع، فيشده تحت قدميه، وإن كل دم أصابت خزاعةً وبنو بكر حلفاؤهم من قريش وبنو كنانة، ففي ذلك الدية مؤداةً. وبذلك انتصر قصي على خصومه. ويقولون إن "عمراً" سمي منذ ذلك الحن الشدّاخ، بما شدخ من الدماء.

ولم يشر بعض أهل الأخبار إلى إن شدخ الشدّاخ الدماء بين قريش وخزاعة، كان في عهد قصي، فأغفلوا اسم "قصي"، بل اكتفوا

بالإشارة إلى شدخه السماء وإصلاح ما بين قريش وخزاعة، وذكر بعضهم انه حكم في جملة ما حكم به على ألا يخرج خزاعة من مكة. وأكثر الرواة على إن اسمه "يعمر بن عوف، لا "عمرو بن عوف" كما جاء في الرواية المتقدمة."

ولم تشر رواية أخرى ذكرها "ابن دريد" إلى وقوع نزاع بين قصي وبين خزاعة، بل قالت: إن حليلاً سادن الكعبة، كان قد أوصى إليها أمر الكعبة واعطاها مفتاحها، فأعطته زوجها قصياً، فتحولت الحجابة من خزاعة إلى بني قصي.

وترجع بعض الروايات نزاع خزاعة مع قصي إلى عامل آخر غير ولاية البيت، فتذكر إن خزاعة كانت قد سلمت لقصي بحقه في ولاية البيت، وانها زعمت إن "حليلاً" أوصى بذلك قصياً، وبقيت على ولائها له، إلى إن اختلف "قصي" مع "صوفة". وكانت "صوفة" وهي من "جرهم" تتولى أمر الإجازة بالناس من عرفة. فتجيزهم إذا نفرأوا من "منى" تولت ذلك من عهد جرهم وخزاعة. فلما كان قصي، أتاهم مع قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة، فقالوا: نحن أولى بهذا منكم، فناكروه، فناكروهم، فقاتلوه، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، ثم انهزمت صوفة، وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك، وحال بينهم وبينه، فانحازت عند ذلك خزاعة. وبنو بكر عن قصي بن كلاب، وعرفوا انه سيمنعهم كما منع صوفة، فوقع من ثم ما وقع على نحو ما مرّ.

غير إن الرواة يذكرون في مكان آخر الي قصياً أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه، وذلك انه كان يراه ديناً في نفسه، لا ينبغي

له تغييره، وكانت صوفة على ما كانت عليه، حتى انقرضت- فصار ذلك من أمرهم إلى آل صفوان بن الحارث بن شجنة" وراثه. فهذه الرواية تتايف ما ذكرته آنفاً من قولهم بقتال قصي لهم، وغلبته عليهم. وبقي أمر "عدوان" والنساء، ومرة ابن عوف على ما كانوا عليه، حتى جاء الإسلام، فهدم به ذلك كله.

ويذكر الأخباريون إن قصياً بعد إن تمت له الغلبة، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة، فسُمي لذلك مجمّعاً، وانه حكم منذ ذلك الحين فيهم، وملك عليهم. فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً، وأطاعه قومه به، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه، فبنوا المساكن، وان قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم، فقطعها قصي بيده، وأعانوه، وانها تيمنت به، فكانت لا تعقد أمراً، ولا تفعل فعلاً إلا في داره، كما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره، يعقدما لهم بعض ولده، وما تدّرع جارية إذا بلغت إن تدّرع من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها ثم تدّرع، ثم ينطلق بها إلى أهلها، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع، لا يعمل بغيره تيمناً بأمره ومعرفة بفضله وشرفه، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها.

ويذكر الأخباريون أيضاً، إن قريشاً كانوا إذا أرادوا إرسال غيرهم، فلا تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة: ولا يقدمون إلا نزلوا

فيها تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضلته ، ولا يعذر لهم. غلام إلا في دار الندوة. وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة. وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها.

وقد وردت في الشعر لفظة "مجمع": أبونا قصي كان يدعي مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر فيظهر من هذا البيت انه جمع قبائل فهر، ووحدتها.

ويذكر الرواة إن "بني بكر بن عبد مناة"، صاروا يبغضون قريشاً لما كان من "قصي" حين أخرجهم من مكة مع من أخرج من خزاعة حين قسمها رباعاً وخططاً بين قريش. فلما كانوا على عهد "المطلب"، وهموا باخراج قريش من الحرم وان يقاتلوهم حتى يغلبوهم عليه، وعدت "بنو بكر" على نعم لبني الهون فأطردوها، ثم جمعوا جمعهم وجمعت قريش واستعدت. وعقد المطلب الحلف بين قريش والأحابيش، فلقوا بني بكر ومن انضم اليهم وعلى الناس "المطلب"، فاقتلوا ب "ذات نكيف"، فانهزم بنو بكر، وقتلوا. قتلا ذريعاً، فلم يعودوا لحرب قريش.

وقتل يومئذ "عبيد بن السفاح القاري" من القارة: قتادة بن قيس أخوا "بلعاء بن قيس". والقارة من ولد "الهون بن خزيمة".

ويظهر من هذه الروايات إن أرض حرم مكة كانت مشجرة، وان تلك الأشجار كانت مقدسة، وان بعض بيوت مكة كانت ذات أشجار، ويظهر إنها انتزعت من أرض الحرم، ولذلك كانوا يهابون قطعها ولا يتجاسرون على إلحاق سوء بها. فلما جاء قصي، خالف عقيدة

القوم فيها، فقطعها. ولما وجد أهل مكة إن قطعها لم يلحق أي سوء بقصي، وانه بقي سالماً معافى، تجاسروا هم وفعلوا فعله في قطع الشجر.

وذكر العلماء: إن "الحرم"، أي حرم مكة، ما أطاف بمكة من جوانبها، وحد ه من طريق المدينة دون "التنعيم" عند بيوت "بني نزار" على ثلاثة أميال، ومن طريق العراق على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال، ومن طريق الجعيرانة بشيْب "آل عبد الله بن خالد" على تسعة أميال، ومن طريق الطائف على عرفة من بطن "نمرة" على سبعة أميال، ومن طريق "جدة" منقطع العشائر على عشرة أميال.

والحرم المذكور، هو الأرض الحرام التي كانت مقدسة عند الجاهليين أيضاً، وهي مكة وأطرافها إلى حدودها التي اصطلح عليها. وأما الحرم الذي أحاط بالكعبة فقد عرف ب"المسجد" و"بالمسجد الحرام" و"ب"الحرم". ولا نعرف حدوده في الجاهلية على وجه واضح معلوم. وقد كان الجاهليون قد وضعوا أنصافاً على الحدود ليعلم الناس مكان الحرم، ولم يكن له جدار يحيط به. وذكر انه كان في عهد الرسول وأبي بكر فناء حول الكعبة للطائفتين، ولم يكن له على عهدهما جدار يحيط به. فلما استخلف "عمر" وكثر الناس، وسعّ المسجد، واشترى دوراً هدمها وزادها فيه، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة، وكانت المصاييح توضع عليه. فكان عمر أول من اتخذ جداراً للمسجد. ثم وسعّ المسجد "عمان" ومن جاء بعده، ثم صار كل من

ولي من الخلفاء والسلاطين يزيد في اتساع الحي، حتى صار على ما هو عليه الآن.

ودار الندوة اذن هي دار مشورة في أمور السلم والحرب، ومجلس المدينة التي عرف رؤساؤها كيف يحصلون على الثروة وكيف يستعيضون عن فقر أرضهم بتجارة تدر عليهم أرباحاً عظيمة وبخدمة يقدمونها إلى عابدي الأصنام، جاءت اليهم بأموال وافرة من الحجيج. في هذه الدار يجتمع الرؤساء وأعيان البلاد للتشاور في الأمور واليت فيها. وفي هذه الدار أيضاً تجري عقود الزواج، وت عقد المعاملات، فهي دار مشورة ودار حكومة في آن واحد، يديرها "الملا"، وهم مثل اعضاء مجلس شيوخ "اثينا" الذين كانوا يجتمعون في "المجلس" "Ekkiesa" للنظر في الأمور. يمثلون زعماء الأسر، ورؤساء الأحياء، وأصحاب الرأي والمشورة للبت فيما يعرض عليهم من مشكلات.

وقد ذكر بعض أهل الأخبار إن دار الندوة لم يكن يدخلها إلا ابن أربعين أو ما زاد، فدلها أبو جهل، وهو ابن ثلاثين لجودة رأيه، ودخلها غيره للسبب نفسه. فيظهر من ذلك إن المراد من دخول الدار، هو حضورها للاسهام في ابداء رأي وتقديم مشورة.

ولما كانت سن الأربعين في نظر العرب هي سن النضج والكمال، اخذوا بمبدأ تحديده باعتباره الحد الأصغر لسن من يسمح له بالاشتراك في الاجتماعات وابداء الرأي، الا اذا وجدوا في رجل اصغر سناً جودة في الرأي، وحدة في الذكاء، فيسمح له عندئذ بالاشتراك وبابداء الرأي بصورة خاصة.

وذكر أيضاً، انه لم يكن يدخل دار الندوة احد من قريش لمشورة حتى يبلغ أربعين سنة، إلاّ حكيم بن حزام، فانه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة. وكان ولد في الكعبة، وذلك إن أمه دخلت الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل به، فضربها المخاض في الكعبة، وأعجلها عن الخروج، فوضعت به بها. وجاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم، فباعها بعد من معاوية بمائة ألف درهم.

فدار الندوة اذن، هي دار "ملاً" مكة. وهم سادتها ووجوهها وأشرفها وأولو الأمر فيها. ولم تكن "برلماناً" أو "مجلس شيوخ" على النحو المفهوم من اللفظتين في المصطلح السياسي. وإنما كانت دار "أولي الشورة" و "الرأي". تتخذ رأياً عند ظهور حاجة أو اخذ "الرأي" وعند وجوب حصول زعماء الملاً على قرار في امر هام. ولم تكن قراراتها ملزمة، بل قد يخالفها سيد ذو رأي ومكانة، فيتفرد برأيه. ولا يحصل الإجماع إلاّ باتفاق. والغالب ألاّ يحصل هذا الاتفاق ويتوقف تنفيذ رأي "الملاً" على شخصية المقررين وعلى كفاءتهم وعلى ما يتخذونه من اجراء بحق المخالفين المعاندين من مقاطعة ومن مساومة ومن اقتناع. والغالب إن الملاً لا يتخذون رأياً الا بعد دراسة وتفكير، ومفاوضات يراعى فيها جانب المروءة والحلم والمرونة، حتى لا يقع في البلد انشقاق قد يعرض الأمن إلى الاهتزاز.

وربما قام وجوه "الشعب"، وهم سادة الأسر، بدور هو اكثر فعالية من دور "دار الندوة" في فض الخصومات. والعادة عندهم إن الخصومات الداخلية للأسر، تقض داخل الأسرة، لأن "آل" الأسرة أقدر

على حل خلافاتهم من تدخل غيرهم في شؤونهم، ثم انهم لا يقبلون بتدخل غريب عن الأسرة في شأن من شؤون تلك الأسرة.. لذلك كان، "الملا" لا ينظرون إلا في الأمور التي هي فوق مستوى الأسر و "الشعاب"، والتي تخص أمور المدينة كلها، والتي قد تعرض أمنها إلى الخطر، أو التي يتوقف على قراراتهم بصددها مستقبل المدينة.

والإنسان بمكة بأسرته وبمقدرته وقابلياته وكفاءته. وقد يرفع الأشخاص من مستوى أسرهم، وقد يهبط مستوى الأسر ومكانتها بسبب هبوط مستوى رجالها وعدم ظهور رجال أغنياء أقوياء فيها. ولما كانت مكة مدينة عمل وتجارة ومال، والمال يتنقل بين الناس حسب اجتهاد الأفراد وجدهم في السعي وراءه، لذلك تجد من بين رجالها من يخمل ذكره بسبب خمول أولاده وتبذيرهم لما ورثوه من مال، وعدم سعيهم لإضافة مال جديد إليه. ويستتبع ذلك تنقل النفوذ من بيت إلى بيت.

فالحكم في مكة أذن حكم لا مركزي، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة تطاع فيها الأحكام، وتنفيذ الأوامر، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على أهل مكة، بل لأن الأحكام والأوامر هي إحكام ذوي الوجه والسن والرئاسة والشرف، وإحكام هؤلاء مطاعة في عرف أهل مكة وفي عرف غيرهم من أهل جزيرة العرب. حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف، ولا مخالفة للعرف والعادة. فالعرف قانون أهل جزيرة العرب حتى اليوم. وانتهاك إحكامها معناه انتهاك سيادة القانون، وتمرد على الهيئة والنظام،

وتحقير الحاكمين وإهانة لهم ولاتباعهم، وليس لأحد الخروج على أوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل.

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة، فلم يكن فيها ملك له تاج وعرش، ولا رئيس واحد يحكمها على أنه رئيس جمهورية أو رئيس مدينة، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً أو حكماً بالتناوب، ولا حاكم مدني عام أو حاكم عسكري. ولم يتحدث أهل الأخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الامن. أو مدير له سجن يزوج فيه الخارجين عن الأنظمة والقوانين أو ما شابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات. وكل أمرها إنها قرية تتألف من شعاب. كل شعب لعشيرة. وأمر كل، شعب لرؤسائه، هم وحدهم أصحاب الحلّ والعقد والنهي والتأديب فيه. وليس في استطاعة متمرد مخالفة إحكام. وإلا أدبه حيّه، وملؤه أي أشرافه. هؤلاء الرؤساء هم الحكام الناصحون وهم عقلاء الشعب.

وقد أشير إلى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية: (وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فرؤساء مكة هم علماءها وساداتها، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها. و"عظماء" مكة أو "عظماء الطائف" هم الطبقة "المختارة" والصفوة المتزعمة في الناس. واليها وحدها تكون الزعامة والرئاسة والرجاحة في الرأي.

وقانون القوم ودستورهم: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على، آثارهم مقتدون). فهم محافظون حريصون على كل ما وصل إليهم، لا

يريدون له تغييراً ولا تبديلاً. مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق. "قال (أو لو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم. قالوا أنا بما أرسلتم به كافرون) وفي القرآن الكريم آيات أخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال المأ بحقوقهم وبما ورثوه من عرف مكنهم من المأ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى مصالحهم وعلى زعامتهم في الناس.

فمأ مكة أناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً، سنتهم التعلق بالماضي، وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة مهما كانت. فالعرف جرى الناس عليه، فلا خروج على العادة والعرف. أما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والأجداد، فيعاقب حتى يعود إلى رشد وصوابه. وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيف كان، وبتطرفهم في المحافظة على العرف، إنما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الإجماعية ومصالحهم الاقتصادية، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد، المحافظة على مصالحها، استناداً إلى العادات. هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل، وعلى الناس الطاعة والانقياد. (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله. قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) وقد توارث بنو عبد الدار الندوة، حتى باعها "عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار" من معاوية، فجعلها دار الأمانة بمكة، ثم أدخلت في الحرم. وورد في رواية أخرى إن "حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الاسلمى" وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد، كان هو الذي

باعها من معاوية وكانت بيده. باعها بمئة ألف درهم. وكان قد اشتراها من "منصور بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار. ودار الندوة، هي أول دار بنيت بمكة على حدّ قول الرواة. وكانت أشهر دار بمكة وانشرها في الناس خبراً. ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه. ويذكر أهل الأخبار: إن مكة لم تكن ذات منازل، وكانت قريش بعدُ جرهم. والعمالقة ينجعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً إلى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصّصاً بالحرم لحلولهم فيه. ولما كان "كعب بن لؤي بن غالب"، جمع قريشاً صار يخطب فيها في كل "جمعة"، وكان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية "عروبة" فسماه كعب "الجمعة". وبذلك ألف بين قريش حتى جاء "قصي" ففعل ما فعل.

ولدينا خبر آخر، يذكر انه قد كان حول الحرم شجر ذو شوك، نبت من قديم الزمن وكوّن غُوطَة، فقطعها "عبد مناف بن قصي"، وهو أول من بني داراً بمكة، ولم تُبن دار، قبلها، بل كان بها مضارب للعرب من الشعر الأسود.

وزعم بعض أهل الأخبار إن أهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مُدوّرة تعظيماً للكعبة، وأول من بنى بيتاً مربعاً "حميد بن زهر"، فقالت قريش: "رَبَعَ حُمَيْدُ بْنُ زَهْرٍ بَيْتاً"، إمّا حياةً وإمّا موتاً. و"الربع": المنزل ودار الإقامة والمحلة. وهو أحد "بني أسد بن عبد العزى". وإن العرب تسمي كل بيت مربع كعبة، ومنه كعبة نجران. وُذكر أيضاً إن "حميد بن زبير ابن الحارث بن أسد بن عبد العزى"، هو أول من خالف سنة قريش

وخرج على عرف أهل مكة فبنى بيتاً مربعاً وجعل له سقفاً. وفي عمله هذا قال الراجز: اليوم بيني لحميد بيته أما حياته وأما موته
وورد في رواية أخرى، إن ثاني دار بنيت بمكة بعد دار الندوة، هي "دار العجلة"، وهي دار، سعيد بن سعد بن سهم. وزعم "بنو سهم" إنها بنيت قبل "دار الندوة".

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن بيوت مكة إن بيوتها، وهي بيوت أثريائها وساداتها، بيوت كانت مقامة بالحجر، وبها عدد من الغرف، ولها بابان متقابلان باب يدخل منها الداخل وباب تقابلها يخرج منها الخارج، ولعلها بنيت على هذا الوضع ليتمكن النساء من الخروج من الباب الأخرى عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابلة. ومعنى هذا إن أمثال هذه الدور كانت واسعة تشرت على زقاقين. ولبعض الدور "حجر" عند باب البيت، يجلس تحته ليستظل به من أشعة الشمس، وكان منزل "خديجة" ذو حجر من هذا الطراز.

ولو أخذنا بالرواية المتقدمة عن التغيير الذي طرأ على طراز العمارة في مكة، فإن ذلك يحملنا على القول: إنه يجب إن يكون قد حدث، في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد. في وقت ليس ببعيد عهد عن أيام النبي. لأننا نجد إن أحد أبنا "حميد"، وهو عبد الله، كان قد حارب في معركة "أحد".

ويتبن من غريلة روايات الأخباريين المتقدمة عن مدى سعة الحرم وعن زمان بناء الدور بمكة، إن بطن مكة لم يعمر ولم تبني البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام "قصي". أما ما قبل ذلك، فقد كان الناس

يسكنون "الظواهر": ظواهر مكة، أي أطرافها وهي مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة. أما باطن مكة، وهو الوادي الذي فيه البيت، فقد كان حرماً آمناً، لا بيوت فيه، أو إن بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبرت كانت له علاقة بخدمته. لذلك نبت فيه الشجر حتى غطى سطح الوادي، من السيول التي كانت تسيل إليه من الجبال. ولم يكن في وسع أحد التناول على ذلك الشجر، لأنه شجر حرم آمن، وبقي هذا شأنه يغطي الوادي ويكسو وجهه بغوطة، حتى جاء "قصي". فتجاسر عليه بقطعه كما ذكرنا. وخاف الناس من فعله، خشية غضب رب البيت، ونزول الأذى بهم إن قطعوه. فلما وجدوا إن الله لم يغضب عليهم، وأنه لم ينزل سوءاً بهم، اقتنوا أثره، فقطعوا الشجر، واستحذوا على الأرض الحرام، وظهرت البيوت فيه، وأخذت تتجه نحو البيت حتى أحاطت به، وصغرت مسجده، ولم يكن له يومئذ جدار. وظلت البيوت تتقرب إليه حتى ضايقته وصغرت فناءه، مما اضطر الخليفة "عمر" ومن جاء بعده إلى هدم البيوت التي لاصقته لتوسيع مسجد، ثم إلى بناء جدار ليحيط به حتى صار على نحو ما هو عليه في هذا اليوم.

ويتبين من خطبة الرسول عام الفتح ويوم دخوله البيت الحرام وقوله: "لا يُختلى خلا مكة ولا يعضد شجرها"، إن حرم مكة كان لا يزال ذا شجر. ولم يكن قد قطع تماماً منه في أيام الرسول. وتذكر بعض الموارد إن قصياً أول من بنى الكعبة بعد بناء تبع، وكان سمكها قصيراً، فنقضه ورفعها. وإذا صحت الرواية، يكون

قصي من بناء الكعبة ومن مجدديها. وذكر انه كان أول من جدد بناء الكعبة من قريش، وانه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل. وقد أشير إلى هذا البناء في شعر ينسب إلى الأعشى. وهذه الرواية تناقض بالطبع ما يرويه الأخباريون من إن الكعبة لم تكن مسقفة، وإنها سقفت لأول مرة عندما جدد بناؤها في أيام شباب الرسول. وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة.

والظاهر من روايات الأخباريين، إن البيت كان في الأصل بيتاً مسقوفاً، غير انه أصيب بكوارث عديدة، فتساقط وتساقط سقفه مراراً بسبب السيول، وبسبب حريق أصيب به، فصار من غير سقف في أيام شباب الرسول. حتى إذا ما نقضت. قريش البيت وأعدت بناء سقفته، وزوّقت جدره الداخلية والخارجية بالأصنام والصور. وأعدت إليه خزائنه حتى كان يوم الفتح، إذ أمر الرسول بتحطيم الأصنام وبطمس الصور على نحو ما سأحدث عنه في تأريخ الكعبة وذلك في القسم الخاص بأديان الجاهليين.

وفي روايات أهل الأخبار عن البيت - كما ستري فيما بعد حين أتكلم عنه في هذا القسم الخاص بأديان أهل الجاهلية - غموض وتناقض، يجعل من الصعب تكوين رأي واضح عنه. فبينما هم يقولون إنه كان من غير سقف وان الطيور كانت تقف عليه، وان الأتربة المحملة بالأهوية كانت تتساقط في أرض البيت، نراهم يذكرون انه كان مسقفاً، وانه سقف بالخشب في أيام قصي وانه احترق، ثم يقولون إنه كان في داخله أصنام قريش، مع إن الوصف الذي يقدمونه لنا عن

الكعبة من إنها "كانت ضمة فوق للقامة فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك إن نقرأ من قریش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة"، لا يمكن إن يجعل البيت سوى غرفة بسيطة ساذجة من أحجار رصت بعضها فوق بعض.

وفي رواية: إن قصياً هو أول من أظهر "الحجر الأسود"، وكانت "إياد" دفنته في جبال مكة، فرأته امرأة حين دفنوه، فلم يزل "قصي" يتلطف بتلك المرأة حتى دلته على مكانه، فأخرجه من الجبل، واستمر عند جماعة من قریش يتوارثون حتى بنت قریش الكعبة فوضعه بركن البيت، بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي.

ويذكر إن قصياً بعد إن تمكن من مكة، حفر بها بئراً سماها "العجول" وهي أول بئر حفرتها قریش. وكانت قریش قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة تدعى "اليسيرة" ومن حياض ومصانع على رؤوس الجبال. ومن بئر حفرها "مرّة بن كعب" مما يلي عرفة، تدعى "الروى"، ومن آبار حفرها "كلاب بن مرة"، هي "خم" و "رم" و "الجفر" بطاهر مكة. فكانت "بئر العجول" أول بئر حفرتها قریش في مكة.

وازدادت حاجة أهل مكة، بعد قصي وقد تزايد عددهم إلى الماء، ولم تعد "العجول" تعفي لتموينهم به، فاقتفى، أولاده أثره في حفر الآبار، واعتبروا حفرها منقبة ومحمدة، لما للماء من أهمية لأهل هذا الوادي الجاف. وقد حازت بئر زمزم على المقام الأول بين آبار مكة فهي بئر البيت وبئر الحجاج تمونهم مما يحتاجون إليه من ماء، وذكر أهل

الأخبار إن في جملة ما أحدث قصي في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية، انه أحدث وقود النار بالمزدلفة: حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفه، فلم تزل توقد تلك النار ثلث الليلة في الجاهلية. ويظهر إن قريشاً حافظت على هذه السنّة أمدأ في الإسلام. وكانت تلك النار توقد على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان.

ويذكرون أيضاً إن في جملة ما أحدثه: "الرفادة"، وهي إطعام الحجاج في أيام موسم الحج حتى يرجعوا إلى بلادهم. وقد فرضها على قريش إذ قال لهم: "يا معشر قريش أنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق بالضيافة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج، حتى يصدروا عنكم". ففعلت قريش ذلك، فكانوا يخرجون في كل عام من أموالهم خرجاً، فيفيدفونه إلى قصي، لكي يصنعه طعاماً للناس أيام منى وبمكة وقد بقيت هذه السنة في الإسلام. وذكر إن "الرفادة شيء كانت تتراقد به قريش في الجاهلية، فيستخرج فيما بينها كل إنسان مالاً بقدر طاقته وتشتري به للحاج طعاماً وزبيياً للتبيذ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج.

وكانت إلى قصي أيضاً: الحجابة، والسقاية واللواء. فحاز شرف قريش كله. وصار رئيسها الوحيد المطاع، الناطق باسمها الأمر وللناهي، إذ. لأ أحد أحكم وأعقل وأحسن إدارة للملك منه.

وذكر إن قيصاً أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد إسماعيل، وذلك في أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة، وملك الفرس

الساسانيين "بهرام جور". وقد كان حكم "بهرام جور" من سنة "٤٢٠ م" حتى سنة "٤٣٨ م"، أي في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد، وإذا أخذنا برواية من جعل قصياً من المعاصرين لهذا الملك، يكون حكم قصي إذن في النصف الأول من للقرن الخامس للميلاد.



الفصل الثانى
مصطلح التاريخ الإسلامى

الفصل الثاني مصطلح التاريخ الإسلامي

مصطلح التاريخ

وردت لفظة تاريخ في كتب اللغة بمعنى الوقت .

ففي الجمهرة لابن دريد : ورَّخت الكتاب وأرَّخته ، ومتى أرَّخ كتابك وورَّخ أي متى كتب وفي لسان العرب لابن منظور : التأريخ والتورخ : تعريف الوقت ، أرخ الكتاب ليوم كذا : وقته .
ويقال : أنَّ اللفظة ليست عربية محضة وأنَّ المسلمين أخذوها من أهل الكتاب وقيل أنَّها عربية .

أقول : بل هي أكديّة وبابلية ووردت بصيغة (أراخ) (arah) (أرخا) (Arha) (أرخو) (Arhu) و(ورخو) (warhu) وتعني (القمر) (الهلال) (الشهر) (أول الشهر) .

وفي السبئية (ورخ) وكان العرب الجنوبيون إذا أرادوا التأريخ قالوا (ورخ كذا ...) أي شهر كذا .
وفي العبرية (ياريحا) () تعني (القمر) و(يرح) () تعني شهر ، وفي السريانية كذلك .

ومن الجدير ذكره أنَّ اللغة الأكديّة أقدم من اللغة العبرية وهذه أقدم من اللغة السريانية ، بل أنَّ العلاقات التاريخية والخصائص المشتركة بينها تفرض القول أنَّ السريانية متفرعة عن العبرية وهذه متفرعة عن الأكديّة .

"استعملت كلمة تاريخ في العصر الإسلامي الأول بمعنى التقويم

والتوقيت على أساس القمر ، ثم كسبت معنى آخر هو تسجيل الاحداث على أساس الزمن ، وكان يقوم مقامها في معنى هذه العملية التاريخية كلمة خبر وأخبار وأخباري ، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل بالتدريج محل كلمة خبر وأخذت تطلق على عملية التدوين التاريخي وعلى حفظ الأخبار بشكل متسلسل ، متصل الزمن ، والموضوع للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور في الخبر والعملية الاخبارية وكان ذلك على ما يبدو منذ أواسط القرن الثاني الهجري فما أطلَّ القرن الثالث حتَّى صارت كلمة التاريخ تطلق على العلم بأحداث التاريخ وأخبار الرجال وعلى الكتب التي تحوي ذلك وحلت نهائياً محل كلمة الخبر والاخباري .

وأقدم المؤلفات التي حملت اسم التاريخ هو كتاب التاريخ لعوانة بن الحكم الاخباري الكوفي (ت ٤٧هـ) ، تناول فيه أحداث التاريخ الاسلامي في القرن الأول الهجري .

ثم كتب هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ) ، كتاب التاريخ على السنين وكتاب تاريخ الأشراف الكبير .

واستقرت من بعد ذلك التسمية وانتشرت واحتلَّت عناوين العشرات من الكتب في القرن الثالث الهجري .

وقد حملت بعض كتب التراجم بدورها عنوان التاريخ في تلك الفترة مع أنَّ بعضها كان يُدعى من قبلُ بالطبقات . ككتاب التاريخ الكبير والتاريخ الاوسط والتاريخ الصغير للبخاري (ت ٢٥٦هـ) . وكلها

في تراجم رجال الحديث " .

مصطلح التاريخ الإسلامي

يراد ب (التاريخ الاسلامي) في ضوء كون الإسلام اسماً خاصاً للدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله : تاريخ النبي الخاتم وتاريخ المسلمين .

أمّا في ضوء كون الإسلام اسماً للدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً فيراد به : مضافاً إلى ما سبق تاريخ الأنبياء وأمهم .

الإسلام اسم لدين الله

إنّ لفظة الاسلام في القرآن الكريم أُطلقت اسماً لدين الله الذي جاء به الأنبياء من عند الله ، قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/ ١٩ كما أُطلقت لفظة المسلمين على الأنبياء والذين إتبعوهم منذ نوح عليه السلام .

قال الله تعالى : (وَائْتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٧٢))يونس/ ٧١- ٧٢ .

وقال الله تعالى : (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ) البقرة/ ١٣٢ .

وقال الله تعالى : (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)يونس/ ٨٤ .

وقال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام : (... وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) النمل/ ٤٢ .

وقال الله تعالى : (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ) آل عمران/ ٥٢ .

وفي الحديث عن الامام الصادق عليه السلام : (دين الله اسمه الإسلام وهو دين الله قبل أن تكونوا حيث كنتم وبعد أن تكونوا ، فمن أقرَّ بدين الله فهو مسلم ومن عمل بما أمر الله عزَّ وجلَّ به فهو مؤمن) .

ويبدو أنَّ هذا الإستعمال كان موجوداً ومتداولاً إلى القرن الثالث الهجري .

روى الطبري بسنده إلى ابن إسحاق : إنَّ عاداً لما أصابهم من القحط ما أصابهم قالوا : جهزوا منكم وفداً إلى مكة فيستقوا لكم ، فبعثوا قيل : بن عتر ونعيم بن هزال إلى مرثد بن سعد وكان مسلماً يكتن إسلامه ، إلى أن قال : فقال مرثد إنَّكم والله لا تستقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سُقيتم ، فأظهر إسلامه عند ذلك .

وقد جرت عادة المؤرخين القدامى من المسلمين ، أمثال اليعقوبي (ت٢٧٨هـ) وأبي حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ) والطبري (ت٣١٠هـ) والمسعودي (ت٣٤٦هـ) . ومسكويه (ت٤٢١هـ) أن يبدأوا تواريخهم بقصص الأنبياء منذ آدم عليه السلام .

وحذا حذو هؤلاء أيضاً من جاء بعدهم من المؤرخين المتأخرين
أمثال ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) وسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) وأبي الفداء
(ت ٧٣٢هـ) وابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وابن خلدون
(ت ٨٠٨هـ) .

وعلى الرغم من كثرة الموسوعات التاريخية التي كتبها
المؤرخون المسلمون بالنهج الشامل الأنف الذكر ومن عرض القرآن قبل
ذلك لقصص الأنبياء على أنها تاريخ الإسلام والمسلمين ، إقتصرت لفظة
(التاريخ الإسلامي) في العصور المتأخرة في الدلالة على الحوادث
التاريخية المبتدئة بسيرة الرسول الأكرم محمد **صلى الله عليه وآله**
والمسلمين معه ومن جاء بعدهم .

مصطلح السيرة

تتكون حياة كل إنسان وسيرته من نوعين من الوقائع :

الأول : وقائع يتشكل بها (تاريخ حياته) بدءاً بولادته وظروف نشأته
وانتهاءً بوفاته وظروف موته ، وطبيعة هذا النوع من الوقائع غير قابل
للتكرار والإعادة .

الثاني : وقائع تتشكل بها (طريقته في الحياة) ونهجه ومذهبه العملي
فيها وتتألف من عاداته اليومية وسلوكاته المختلفة إزاء الحوادث
والأشياء المحيطة به ، وطبيعة هذا النوع من الوقائع متكرر ومعاد ومن
هنا سمي (عادة) و(طريقة) .

والأنبياء كبشر ، لا تشذ حياتهم وسيرتهم عن التقسيم الأنف الذكر .



الوقائع التاريخية من السيرة النبوية

الوقائع التاريخية من السيرة النبوية : هي الوقائع التي يتشكل

بها تاريخ حياة النبي المباركة .

من قبيل ولادة موسى وظروفها ، ونشأته في قصر فرعون ، ثم قتله للمصري ، وهربه من مصر ، ثم إستقراره في مدين وزواجه هناك ، ثم رجوعه إلى مصر ، ووحى الله له في الطريق وتكليفه بالرسالة ، إلى آخر الحوادث التي يتشكل بها تاريخ حياته عليه السلام .

أو من قبيل ولادة محمد صلى الله عليه وآله وظروفها ، ثم نشأته في كنف جده عبد المطلب وعمه أبي طالب ، ثم زواجه بخديجة ، ثم اشتراكه بحلف الفضول ووضع الحجر الأسود بيده في مكانه لما بنت قريش الكعبة ، ثم تعبه في غار حراء ، ثم نزول الوحي عليه وسماع علي عليه السلام حيث كان معه انذاك رنة الشيطان ، إلى آخر الحوادث التي يتشكل بها تاريخ حياته الشريفة .

وهذا النوع من الوقائع والحوادث يسميه القرآن الكريم بـ (القصص) أو (الأنباء) أو (الأحاديث) ثم أطلق عليه من قبل المسلمين في القرن الأوّل والثاني الهجريين بـ (السيرة) وفيما بعد سميت بـ (الأخبار) ثم بـ (التاريخ) .

(والسيرة النبوية) حين نجدها عنواناً لعشرات أو مئات من الكتب ككتاب السيرة النبوية لابن إسحاق مثلاً يراد بها أساساً (تاريخ النبي صلى الله عليه وآله) أي (قصص) حياته من الولادة حتّى الوفاة .

الوقائع السلوكية من السيرة

الوقائع السلوكية من السيرة : هي الوقائع والأفعال التي تتشكل بها (طريقة) حياة النبي المباركة ونهجه العملي في الحياة . وتتألف من عاداته اليومية وسلوكاته المتنوعة إزاء الحوادث والأشياء المحيطة به ، وتتحدد بالكتاب الإلهي الذي نزل عليه ، وبيانه الذي أوحى إليه ، وما شرَّعه النبي صلى الله عليه وآله إستناداً إلى إذن الله تعالى له

كتب السيرة والسنة النبوية

عنيت كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ الإسلامي والتراجم بـ (تاريخ النبي وقصص حياته) ولكنها مع ذلك لم تخلُ من أخبار عن طريقة النبي صلى الله عليه وآله في الحياة ولا من أحاديثه حيث أورد المؤلفون طرفاً في ذلك مبعوثاً ومفرقاً على الوقائع والمناسبات .
أمّا كتب السنة النبوية فقد عنيت بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأفعاله وتقريراته ومع ذلك فقد ضُمَّتَ قدرأ من تاريخ النبي صلى الله عليه وآله وغزواته صلى الله عليه وآله ولكن لا على سبيل الإستقصاء .

أهداف دراسة السيرة النبوية

توجد ثلاث زوايا لدراسة السيرة النبوية المطهرة وهي :

الأول : الزاوية التشريعية وحقلها الواقعة السلوكية .

الثاني : الزاوية العقائدية وحقلها الواقعة التاريخية .

الثالث : الزاوية التربوية وحقلها السيرة بكلها قسميها السلوكي والتاريخي .

وفيما يلي بيان مختصر عن كل زاوية : الزاوية التشريعية

إنّ دراستنا للسيرة النبوية او سيرة أهل بيته المعصومين من هذه الزاوية تهدف إلى معرفة الحكم الشرعي من خلال الواقعة السلوكية سواء كانت هذه الواقعة فعلاً مباشراً صدر من النبي صلى الله عليه وآله ، أو كان إقراراً منه لسلوك أحد المسلمين صدر أمامه ، وسواء كانت الواقعة السلوكية ضمن وقائع الحياة اليومية المتكررة للنبي كالصلاة مثلاً ، أو كانت ضمن واقعة تاريخية واحدة كقسمته صلى الله عليه وآله لغنائم الحرب في معركة بدر .

وتقوم هذه الزاوية من الدراسة على أساس العقيدة بعصمة النبي صلى الله عليه وآله وعصمة أهل بيته وكونهم قد جعلوا للناس أئمة يقتدى بهم احياءً وامواتاً .

الزاوية العقائدية

إنّ دراستنا للسيرة بهذه الزاوية تهدف إلى معرفة ما تتطوي عليه حوادث التاريخ النبوي من دلالات عقائدية .

وتقوم هذه الزاوية من الدراسة على أساس أنّ النبي صلى الله عليه وآله شخص صنّع على عين الله تعالى فجاءت حياته منذ ولادته ، بل قبل ولادته حقلاً تظهر فيه رعاية الله تعالى الخاصة بشكل ملحوظ ، وتشتدّ هذه الظاهرة عند البعثة وحتى إلحاق النبي بالرفيق الأعلى ،

ومن هنا تكون قصص حياة النبي والوصي تجسيدا للعقيدة الإسلامية بالله وبالنبي والوصي ، وبسبب ذلك سمى القرآن الكريم هذه القصص والحوادث بـ (الآيات) ودعا الإنسان إلى التفكير فيها لأخذ العبرة منها وجعلها نظيراً للظواهر الكونية حيث سماها (آيات) أيضاً ودعا الإنسان إلى التفكير فيها وأخذ العبرة منها أيضاً .

قال الله تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ، إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ، قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) يوسف/٢- ٧ .

وقال الله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) العنكبوت/١٤- ١٥ .

وقال الله تعالى : (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الأعراف/ ١٧٦ .
وقال الله تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي) الأنعام/ ١٣٠ .

وقال الله تعالى : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ، اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ،

وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ، فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ، ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى ، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ
الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (النازعات/ ١٥ - ٢٦ .

وقال الله تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، حَتَّى إِذَا
اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا
يُرَدُّ بِأَسْنَانَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ، لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى
الْأَلْبَابِ) يوسف/ ١٠٩ - ١١١ .

وقال الله تعالى : (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم
مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ، وَمِن
ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ
الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ
ذُلًّا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى
أَرْذَلِ الْعُمَرِ لِكَى لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ، وَاللَّهُ فَضَّلَ
بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ، وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ

اللَّهُ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ،
فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ، ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ
سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (النحل/٦٥-

. ٧٥

والعبرة: هي نتيجة الإعتبار الذي هو الإستدلال على الشئ بالشئ ، أو
معرفة ما ليس مشاهد من خلال ما هو مشاهد ، وأصل العبرة من (عَبَرَ
النهر) أي تجاوزه من جانب إلى آخر سباحة أو بسفينة أو قنطرة .

والآية: إصطلاحاً هي ما تتألف منه السور من وحدات كلامية قد
تطول وقد تقصر وهي تقابل البيت الذي تتألف منه القصيدة العربية .
أمّا في اللغة فالآية تعني : العلامة وهي التي يفضى منها إلى غيرها
كأعلام الطريق المنصوبة للهداية .

إنَّ (الواقعة الكونية) كالمطر مثلاً ، آية من آيات الله لأنها
علامة تهدي إلى الله من يفكر بها تفكيراً صحيحاً ، وحين يهتدي
الإنسان بالآية يكون قد عبر بها إلى الله تعالى ، أي عرف ربوبية الله
تعالى بواسطتها وهذا هو معنى أخذ العبرة منها ، وتتسع الوقائع الكونية
بحكم تنوعها وترابطها لكل عقيدة التوحيد بإعتبار إن هذه الوقائع
آيات لله تعالى وعلامات على وجود الله تعالى وأسمائه الحسنی وصفاته
العليا .

وكذلك الأمر في (الواقعة التاريخية النبوية) كواقعة نزول
القرآن على محمد صلى الله عليه وآله أو مجيء موسى بالآيات المفصلات

إلى فرعون ، أو واقعة الغدير ، أو واقعة بدر ، أو خروج موسى بقومه
ولحاق فرعون وجنوده لهم وإنفراق البحر لموسى وقومه وغرق فرعون
وقومه ، أو بيعة الرضوان في واقعة الحديبية ، وغيرها من وقائع النبوة ،
هي أيضاً آيات لله تعالى تهدي إلى الله وإلى أصفياه وتعرف بالمهتدين
والضالين من عباده وبسنته مع المكذبين ، ومعرفة ذلك كله والإستفادة
منه هو المراد بأخذ العبرة منها .

الآية التاريخية أعظم عبرة :

إنَّ الموقف القرآني من الظواهر الكونية وقصص الأنبياء الأنف
الذكر ناشى من كونها حقلاً يعكس قدرة الله وعلمه وإرادته
وحكمته وكونها فعلاً إلهياً مباشراً مع ملاحظة جدية بالذكر ،
وهي : أنَّ الظاهرة الكونية لا تتقوم بإرادة وإختيار وقدرة خارج إرادة الله
تعالى وإختياره وقدرته وإنَّ الواقعة التاريخية النبوية تتقوم بإرادة وإختيار
وقدرة وعلم الإنسان لأنها من ناحية فعل يجري على يد الإنسان بل هي في
ظاهرها فعل بشري يدعي صاحبه المؤمن أنَّ يد الله وقدرته وإرادته
وراءه .

وفي ضوء ذلك فإنَّ من الطبيعي أن تكون قصص الأنبياء ،
أعظم عظةً وعبرةً من الظاهرة الكونية بحكم تعقيد الظاهرة الإنسانية
في قبال الظاهرة الكونية ، ولناخذ مثلاً يوضح الفكرة مما قصه الله
تعالى علينا من قصة موسى وفرعون .

قال الله تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ
طَائِفَةً مِّنْهُمْ يذَّبِحْ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ،

وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
الْوَارِثِينَ ، وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم
مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ، وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي
وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا
لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَتِ لَأُخْتِيهِ قُصِيهِ فَبَصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (القصص/٤-١٣)

. ١٣

إنَّ هذا المقطع من القرآن يتحدث عن واقعة تاريخية من وقائع نبي الله
موسى ترتبط بولادته وظروفها ، **والعبرة فيه ذات بعدين :**
البعد الأول : الدلالة على الله تعالى بصفته مؤثراً مباشراً في الواقعة ،
مع المحافظة على أطراف الواقعة بوصفهم عناصر تمتلك حرية وإرادة
الاختيار .

البعد الثاني : الدلالة على موسى عليه السلام ، وأنه مصطفى من الله
تعالى وأنه كان برعاية الله منذ ولادته .
وهذا جارٍ في كل قصص الأنبياء .

الوقائع السلوكية لسيرة النبي صلى الله عليه وآله بمجموعها آية :

ومن هذا المنطلق يكون جانب القدوة من حياة الرسول وسيرته بمجموعه أعظم آيات الله عظمة وعبرة ، ذلك لأنَّ وصول إنسان إلى موقع القدوة والأسوة في مجتمع من المجتمعات أو جماعة من الجماعات ليس غريباً وخارجاً عن سنّة الله في الإنسان والمجتمع ، بل الغريب والملفت للنظر والخارق للقانون هو أن تكون هذه القدوة على نسق واحد وحالة واحدة في كل مجالاتها ، فلا يشدُّ سلوك منها عن صفة القدوة مهما كان صغيراً وفي كل حقل من حقول الحياة الانسانية .

فما لم يكن له تعالى وجود حقيقي فاعل وما لم يكن هناك إنفتاح واقعي تعليمي وتربوي بين الله تعالى وعبده المرسل ورعاية خاصة له (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) طه/٣٩ يستحيل أن يصل إنسان إلى هذا الموقع . وفي ضوء مامرّ نستنتج أنَّ سيرة الأنبياء هي أعظم رافد يمدُّ السائر إلى الله تعالى بالعظة والعبرة ولا يضاهاها رافد آخر بذلك .

الزاوية التربوية

إنَّ دراستنا لسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسيرة أهل بيته عليهم السلام من هذه الزاوية تهدف لمعرفة ما تتطوي عليه السيرة النبوية بقسميها من قدرة على التأثير في الإنسان المؤمن وتحريكه إلى الله تعالى وإنضباطه بمنهجه .

ومما لا شك فيه ، أنَّ التربية عن طريق عرض الواقعة التاريخية والقدوة هو أفضل أسلوب في التربية وتجمع عليه المذاهب والفرق على

إختلافها قديماً وحديثاً ، وهو الأسلوب الذي إتبعه خالق الإنسان مع الإنسان نفسه ، وهو واضح من خلال الكتب السماوية المعروفة وقد تميّز القرآن الكريم بهذا الصدد بما لا يضاويه كتاب آخر ، حين ضمّ بين دفتيه أنواع القصص .

أهداف السيرة النبوية في القرآن

عني القرآن الكريم بقصص أنبياء الله تعالى أساساً لأجل الهدف العقائدي والتربوي دون الهدف التشريعي ، أمّا عنايته بوقائع سيرة خاتم الأنبياء فقد أستهدفت الأهداف الثلاثة مع ملاحظة أنّ الثقل الأكبر في الجانب التشريعي تركه القرآن الكريم لسنة النبي التي دعا للأخذ بها كما في قوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الحشر/ ٧

عجز الإنسان أمام ظاهرة النبوة

ليس من شك أنّ الإنسان عاجزٌ عن خلق الظاهرة الكونية بغير أسبابها ، فالمطر مثلاً يتكوّن من بخار الماء المتكاثف الذي يشكّل الغيم وبنخفاض درجة الحرارة يتحوّل الغيم إلى قطرات المطر . فلو أراد الإنسان تحويل بخار الماء إلى قطرات الماء مرّة ثانية بغير تعريض بخار الماء إلى درجة حرارة منخفضة لما أمكنه ذلك .

وهكذا يعجز الإنسان عن تحريف الظاهرة الكونية عن سيرها الطبيعي كما لو أراد أن يغيّر من تعاقب الليل والنهار أو أراد أن يغيّر من حركة الشمس والقمر .

نعم ، بإمكانه أن يشوّه بعض الظواهر الكونية أو يحسّن

صفات البعض الآخر من خلال التحكم بأسبابها ، فبإمكانه أن يتسبب في أن يكون الجيل الثالث أو الرابع من جرثومة ما غير قادر على إنتاج الحالة المرضية التي ينتجها الجيل الأول مثلاً وذلك من خلال التحكم بالأسباب الطبيعية التي تحيط بتلك الجرثومة .

وكذلك يستحيل أن تكون ظاهرة نبوية بغير أسبابها ، وأسبابها ليست بيد الإنسان من ثم يدعي انسان ما النبوة كذباً ولكنّه سرعان ما ينكشف زيفه ويفتضح كذبه .

وكذلك ليس بإمكان الإنسان أيضاً أن يحرف الظاهرة النبوية الصادقة ، بأن يجعل النبي المرسل وهو حي يعبد صنماً أو يغير شيئاً مما بيّنه الله في كتابه ، بل كل نبي يمضي لما بعثه الله له ويحقق رسالته كما أخبره الله تعالى .

قدرة الإنسان على تحريف أخبار السيرة

نعم ، بإمكان الإنسان أن يحرف أخبار السيرة النبوية سواء كانت تاريخية أو سلوكية ، لأن الواقعة التاريخية أو السلوكية بعد وقوعها تكون خبراً وقصةً وحديثاً يتناقله الرواة واحداً بعد الآخر ، والإنسان بمقدوره أن يزيد وينقص من تفاصيل القصة والحديث وبإستطاعته أيضاً أن يخلق القصة بكل أحداثها أو السلوكيات والطريقة بكل تفاصيلها .

وهكذا حين يكون الإنسان عاجزاً عن دعوى النبوة دون أن يفتضح يكون من طرف آخر قادراً تماماً على تشويه وتحريف أخبار النبي المبعوث حقيقةً كقدوة أو كواقعة تاريخية بل يستطيع أن يخلق

الواقعة أساساً وبذلك تكون الواقعة المروية سلوكاً أو قصةً غير الواقعة التي جاء بها النبي ، وعلى هذا فبإمكان الرواة لو أرادوا وتعمدوا أن يرووا تاريخاً لموسى عليه السلام مثلاً لم يقع أصلاً ، وطريقة حياة أو سنة له لم يسلكها في حياته ، كما بإمكانهم أن يرووا تاريخاً مشوهاً وسنةً محرفة ويعطوها للناس على أنها هي التاريخ الصحيح والسنة الصحيحة .

إن إمكانية ذلك الأمر من الناحية النظرية امر واضح لا غبار عليه ، أمّا من الناحية الواقعية فهل تعرضت سيرة الأنبياء السابقين للتحريف ؟ وإذا كان ذلك قد وقع فما هي حدوده ؟ ومن القائم به ؟ وماذا كان هدفه ؟ ثم ما أثر هذا التحريف على مسيرة الإنسان إلى الله تعالى ؟ هذا ما نحاول الإجابة عليه فيما يأتي

هل حرّفت سير الأنبياء السابقين ؟

يجيب القرآن على هذا السؤال بالإيجاب ويظهر ذلك واضحاً عند مقارنة أوصاف الأنبياء وقصصهم التي وردت في القرآن مع نظائرها التي وردت في العهد القديم ، وفيما يلي نماذج ثلاثة :

النموذج الأول :

جاء في سفر الخروج الإصحاح ٣٢ الفقرة ٢١-٢٥

قال موسى لهارون : ماذا صنع بك هذا الشعب حتّى جلبت عليه خطيئة عظيمة ؟ فقال هارون : لا يحم غضب سيدي ، انت تعرف الشعب انه في شر فقالوا لي : اصنع لنا آلهة تسير امامنا لأن هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه ، فقلت لهم : من له ذهب

فلينزعه ويعطني فطرحته في النار فخرج هذا العجل".

ومن الواضح إن هذا النص يجعل صانع العجل هو نبي الله هارون والقصة في القرآن الكريم بخلاف ذلك تماما إذ يجعل صانع العجل شخصا آخر هو السامري ويضيف إلى ذلك نصيحة هارون لقومه أن يتركوا عبادة العجل وكادوا يقتلوه لأجل ذلك .

قال تعالى : (وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ، قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَتْرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ، قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ، فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ، قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَقَى السَّامِرِيُّ ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) طه/ ٨٣-

. ٩١

(قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الأعراف/ ١٥٠

النموذج الثاني :

وفي سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١١ الفقرات ٢٦-١ قصة داود مع أحد قواد جيشه أوريا كما يلي :

" وأما داود فأقام في أورشليم . وكان في وقت المساء ، قام داود عن سريريه وتمشّى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا . فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه بتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي ؟ فأرسل داود رسلا واخذها ، فدخلت إليه ، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها . ثم رجعت إلى بيتها . وحبلت المرأة ، فأرسلت واخبرت داود وقالت : اني حبلت .

فأرسل داود إلى يوأب يقول : أرسل الى أوريا الحثي . فأرسل يوأب أوريا إلى داود فأتى أوريا إليه ، فسأل داود عن سلامة يوأب وسلامة الشعب ونجاح الحرب .

وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك واغسل رجلك ، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك .

ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته : فآخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريا إلى بيته .

فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر ، فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟

فقال أوريا لداود : التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوأب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي

لأكل وأشرب وأضطجع مع امرأتىوحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر .

فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضاً وغدا أطلقك .

فاقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده . ودعاه داود امامه وشرب واسكره . وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده . وإلى بيته لم ينزل .

وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وارسله بيد أوريا . وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديد وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت . وكان في حاصرة يوآب المدينة انه جعل أوريا في الموضع الذي علم ان رجال البأس فيه . فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضاً ..

فلما سمعت امرأة أوريا انه قد مات أوريا رجلها نذبت بعلمها . ولما مضت المناحة أرسل داود وضماها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً .

**واما الامر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب " .
اقول :**

إن هذا النص التوراتي ينسب إلى نبي الله داود ما يندى له الجبين ويستحق عليه فاعله الرجم وقد نزه القرآن أنبياء الله عن فعل الصغائر فضلا عن فعل الكبائر ، قال تعالى : (اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) ص / ١٧ **والأواب** : صيغة مبالغة من الأوب وهو الإستقامة ، فالقرآن يصف نبي الله داود بأنه شديد الإستقامة على

خط الله .

ان اصل القصة كما تروى عن الإمام الرضا عليه السلام هو :
"ان المرأة في ايام داود عليه السلام كانت إذا مات بعلمها أو قتل لا تتزوج
بعده ابدأً وأول من اباح الله له ان يتزوج بامرأة قتل بعلمها كان داود عليه
السلام فتزوج بامرأة أوريا لما قتل وانقضت عدتها منه " .

النموذج الثالث :

وفي سفر التكوين الاصحاح التاسع عشر الفقرة ٣٠-٣٧ :

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لانه
خاف ان يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه- وقالت
البكر للصغيرة : ابونا قد شاخ وليس في الارض رجل ليدخل علينا
كعادة كل أرض ، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحیی من
ابينا نسلأ ، فسقتا اباهما خمراً في تلك الليلة ، ودخلت البكر
واضطجعت مع ابیها ولم يعلم باضطجاعها ولابقيامها ، ... (وفي الليلة
الاخرى) قامت الصغيرة واضطجعت معه ... فحبلت ابنتا لوط من ابیها " .
هذا غيض من فيض مما يوجد في التوراة واسفار العهد القديم من روايات
محرفة لسيرة الأنبياء الله سواء في الواقعة التاريخية أو الواقعة
السلوكية .

الهدف من تحريف سير الأنبياء ؟

ليس كل من يستجيب للنبي ويتبعه يكون صادقاً في ذلك . وقد
يبدأ الإنسان المستجيب للنبي أحياناً بداية صادقة ، ولكنها ليست
راسخة ، فإذا ما توفرت عوامل الإغراء زال الصدق ، وهذا النوع من

المستجيبين للرسول يسميهم القرآن بالمنافقين ، كعنوان عام تندرج تحته مستويات مختلفة من النفاق ومرض القلب .

ويشترك رؤوس الكفر مع رؤوس النفاق في طبيعة الموقف من آيات الله وهو موقف الإعراض الواقعي والتكذيب الداخلي ، غير أن الكافر يعلن ذلك ويتصدى لمواجهة الرسول من موقع الكفر صراحةً ، أما رؤوس النفاق وأذنباهم فيكتمون ذلك ومن هنا يتحركون لمواجهة الرسالة باسمها ومن داخلها وحين يتسلم هؤلاء مقادير الأمور بعد النبي تبدأ حركة الرواية الكاذبة عن تاريخ الرسول وطريقته في الحياة من أجل أن تتحول إلى سند يدعم موقعهم في الحكم وخلافة الرسول في قبال خليفة النبي صلى الله عليه وآله واقعاً .

ويتضح من ذلك ، أن الذي يقوم بتحريف السيرة النبوية هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض من أتباع النبي ، حين ينجحون في الوصول إلى السلطة ويحكمون الأمة باسم النبي والرسالة ، وهنا يحتاجون إلى تحريف السيرة النبوية ليتيسر لهم الإستمرار في الحكم وتحقيق أهوائهم وطموحاتهم ، فيستجيب لهم من كانت الدنيا أكبر همهم من الرواة ، فيضعون لهم من الأخبار أو يكتمون منها أو يحرفون ما ترغبه السلطة من أمور ، لتقوية موقفها أو لتوهين خصومها من الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من المؤمنين الصادقين .

قال الله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَسُّ مَا يَشْتَرُونَ) آل عمران/ ١٨٧ .

وقال الله تعالى : (اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ)
التوبة/ ٣١ .

إن هؤلاء الرهبان غيَّروا طريقة النبي ، وبدلوا سنَّته وأحلُّوا لهم حرام الله
وحرمَّوا لهم حلال الله ، فأصبحوا بذلك أرباباً ، وإتَّبَعهم الناس ، وقبلوا
منهم ذلك ، فتلك عبادتهم إياهم .

وفي التوراة بقايا نصوص تؤيد ذلك :

منها : ماجاء في سفر حزقيال الإصحاح الثاني والعشرين
قوله : " ... كهنتها خالفوا شريعتي ونجسوا مقداسي " .

ومنها : ما جاء في سفر إرميا الإصحاح الثامن : " كيف تقولون
نحن حكماء وشريعة الرب معنا حقاً ، أأنه إلى الكذب حوَّلها قلم
الكتابة الكاذب ... أمأ وحي الرب فلا تذكروه بعد لأنَّ كلمة كلِّ
إنسان تكون وحيه إذ قد حرَّفتم كلام الإله الحي ربَّ الجنود " .

ما هو أثر التحريف على سير الإنسان إلى الله تعالى ؟

تتغيَّر العظة والعبرة عن وجهتها الصحيحة حين تُحرَّف الواقعة
التاريخية من حياة النبي ، فالتوراة حين نسبت صنع العجل إلى هارون ،
تكون قد سحبت الإنطباع السيء عن السامري وأتباعه وحوَّلته إلى
هارون وزير موسى وشريكه في الرسالة .

وهكذا حين تُحرَّف واقعة سلوكية من سيرته بأن يُنسب للنبي
شرب الخمر مثلاً ، تكون الطريقة النبوية قد تغيَّرت تماماً لصالح
المنحرفين الذين لا يجدون بُدّاً من شرب الخمر ، ولكنهم يريدون أن
يشربوها بغطاء مشروع من سيرة النبي نفسه .

إنَّ تحريف سيرة النبي بقسميها التاريخي والسلوكي أخطر من قتل النبي وإيدائه حينما يكون على قيد الحياة ، ذلك لأن قتل النبي بعد إكماله التبليغ لا يؤدي الى بطلان حجّته بخلاف رواية الأخبار الكاذبة عن سيرته فإنّها تؤدّي إلى بطلانها ، وذلك في حالة إختلاط الروايات الكاذبة بالروايات الصحيحة وتعذرُ فرز الصحيح من الكذب .

إنَّ تحريف سيرة النبي التاريخية يؤدي إلى النظر إلى أعداء الرسالة على أنّهم أهلها وحملتها ، وعلى أنّهم الإمتداد الطبيعي للرسول وينظر إلى طريقتهم في الحياة على أنّها إمتداد لطريقة الرسول ، فيخضعون لهم كخضوعهم للرسول ويتّخذون منهم قدوةً كما اتّخذوا من الرسول قدوةً ، كما يؤدّي أيضا إلى صرف النظر عن أولياء الله الحقيقيين وحملة الرسالة حقاً وإلى الجرأة عليهم وقتلهم حين يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إنَّ الإنسان في ظلّ الرواية الصحيحة لحياة النبي يجد نفسه أمام أعظم آيات الله عظةً وعبرةً ، أمام طريقة حياة تفيض بالنبيل والكرامة والعدل والتوحيد في كلّ مجالاتها وحقولها أمّا في ظل الرواية الموضوعة المحرّفة فيجد نفسه أمام إنسان مثله لا يختلف عنه في هفواته ، بل قد يجد في سيرة النبي ما يترفّع عنه شخصياً ، أو يجد في أصحاب ذلك النبي من هو أرجح منه موقفاً وسلوكاً ، ومن الطبيعي جداً أن لا تحرّكه هذه السيرة المحرّفة ، إذ لا فرق بينه وبين صاحبها إلا في ناحية نزول كتاب الله عليه ، غير أنّه لم يؤثّر فيه الأثر البالغ ، بخلاف السيرة الصحيحة حيث تعمل دائماً على تحريكه نحو الله تعالى وبأعلى

الدرجات .

تحريف أخبار سيرة النبي صلى الله عليه وآله

تعرّض تاريخ خاتم الأنبياء وسنّته من بعده للتحريف وهي حقيقة لا يشك فيها أحد ذلك لأننا لو رجعنا إلى المصادر المعتبرة لدى المسلمين حول تاريخ النبي صلى الله عليه وآله وسنّته لوجدنا الروايات مختلفة ومتناقضة في وصف كثير من الوقائع التاريخية أو السلوكية للرسول صلى الله عليه وآله وهذا التناقض والاختلاف واسع وكبير إلى درجة أننا نستطيع أن نكون من مجموع هذه الأخبار صورتين متناقضتين للنبي صلى الله عليه وآله سواء في جانب تاريخه أو في جانب طريقته في الحياة وسنّته .

الصورة الأولى :

تظهره صلى الله عليه وآله شخصاً أقلّ من مستوى الإنسان الإعتيادي في مختلف مجالات الحياة ، فهو يلعن الآخرين من غير إستحقاق ، ولا يصبر عن النساء ، الأمر الذي يفرض عليه أن يسطحبه معه في كل غزوة واحدة من نسائه ، ويوجد في صحابته من هو أشدّ حياءً منهويبول واقفاً ، إلى غير ذلك من السلوكات المشينة ، مضافاً إلى ذلك تجعل منه شخصاً متردداً في تلقّي الوحي ، يشك في نفسه أنه قد جنّ أو أنّ الشياطين قد عبثت به ، وتجعل من زوجته ذات رأي أرجح منه في هذه القضية الخطيرة ، فهي التي تطمئنّه وتثبّته على النبوة وتأخذه إلى ورقة بن نوفل النصراني ليزيد من فتاعته بذلك ، ثم يكون أوّل المؤمنين به أبو بكر ويسميه الصديق لشدة تصديقه له ويؤمن بواسطة

أبي بكر الصحابة المعروفون ويبقى النبي صلى الله عليه وآله ثلاث سنوات يدعو سراً ، ويجتمع مع أصحابه في دار الأرقم حتى يسلم عمر بن الخطاب فينصر الله به الإسلام ويعلن المسلمون عن أنفسهم ، وهكذا تترى الحوادث ويبرز أبو بكر وعمر وعثمان بصفاتهم الوجوه البارزة في حركة النبوة ومن هنا يكون من الطبيعي أن يأخذ هؤلاء موقعهم في خلافة النبي ونشر دينه من بعده .

الصورة الثانية :

تظهره مثلاً أعلى في كل ميادين الحياة في الخلق والحياء وحسن التعليم والمعاملة وعدم الانتقام لنفسه وغير ذلك من السلوكات العالية ، مضافاً إلى ذلك تجعل منه شخصاً واثقاً في أن الذي خاطبه أول مرة في حراء هو ملك مرسل من الله تعالى ، وأن علياً كان وزيره على أمر الرسالة بأمر الله ثم بدأ دعوته سراً بأهل بيته ثلاث سنوات ثم ختم ذلك بحادثه يوم الدار حيث أعلن فيها عن علي عليه السلام وصياً وخليفة من بعده ثم صدع بأمر الله تعالى وتحملت أسرة النبي صلى الله عليه وآله (بنو هاشم) الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وعن المسلمين وحين هاجر وحين أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا كان النبي يقذف بأهل بيته في لهوات الحروب ليدافعوا عن المسلمين ويتشخص في مجمل تاريخ النبي صلى الله عليه وآله وسيرته أهل بيته عليهم السلام بدءاً بعلی إمتداداً رسالياً له صلى الله عليه وآله .

وفيما يلي جدول تفصيلي مقارن لهاتين الصورتين :

نماذج من الوقائع التاريخية

العهد المكي :

١ . روى الطبري : " أنَّ النبي صلى الله عليه وآله حين أقرأه جبرئيل الآيات الأولى من سورة العلق رجع إلى بيته وقال لخديجة : إنَّ الأبعد (ويعني نفسه) لشاعر أو مجنون ! لا تحدِّث بها عني قريش أبداً ، لأعمدَنَّ إلى حالق من الجبل فلأطرحنَّ نفسي منه فلاقتلنَّها لأستريحنَّ . فخرج يريد ذلك ، حتَّى إذا كان في وسط الجبل سمع صوتاً من السماء يقول له : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل .

ثم رجع إلى خديجة وأخبرها بالذي رأى ، فقالت له : ابشريا بن العم واثبت ، ثم طلبت منه أن يخبرها حين يأتيه الملك ففعل ، فأمرته أن يجلس إلى شقِّها الأيمن ففعل ، فلم يذهب الملك ، فأجلسته في حجرها فلم يذهب ، فتحسَّرت ، فشالت خمارها ورسول الله في حجرها فذهب الملك ، فقالت : ما هذا بشيطان إنَّ هذا الملك يا بن العم فابشر واثبت " .

وفي قبال ذلك :

ما رواه علي عليه السلام الذي كان مع النبي عند نزول الوحي وتعطينا صورة أخرى ، قال علي عليه السلام : " ولقد كان رسول الله يجاور في كل سنة بحراء ، فأراه ولا يراه غيري . ولقد سمعت رئة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت : يا رسول الله ماهذه الرئة ؟ فقال : هذا الشيطان قد آيس من عبادته إنَّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاَّ أنَّك لست بنبي ولكنَّك وزير ، وإنَّك على خير " .

٢٠٢. **رووا** : أن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، وأن الرسول صلى الله عليه وآله لقبه بالصدِّيق ، وإنه أسلم على يده كبار الصحابة أمثال طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان بن عفان والأرقم بن أبي الأرقم وغيرهم وأن ذلك كان سرّاً في السنوات الثلاث الأولى وكانوا يجتمعون خفية في دار الأرقم حتى أسلم عمر فأعلنوا عن أمرهم .

وفي قبال ذلك :

ما جاء عن الحسن بن علي عليه السلام أنه قال : " فلمّا بعث الله محمداً للنبوّة وإختره للرسالة وأنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء إلى الله فكان أبي أول من إستجاب لله وللرسول وأول من آمن وصدّق الله ورسوله ، وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيّه المرسل (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) فجدي الذي كان على بيّنة من ربّه وأبي الذي يتلوه وهو شاهدٌ منه " .

وإنّ علياً كان يقول : " أنا الصدِّيق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر " .

وفي رواية محمد بن سعد بن أبي وقاص قال : إنّ أبا بكر أسلم بعد إسلام خمسين رجلاً .

وفي رواية : إنّ النبي في السنوات الثلاث الأولى لم يدع أحداً من غير بني هاشم وإنّ هذا الدور ختم بإنذار عشيرته الأقربين والإعلان عن موقع علي عليه السلام من الرسول وإنّه وصيه ووزيره .

وقال علي عليه السلام في كتابه إلى معاوية : " أنّ محمداً لما

دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كُتبا أهل البيت أوّل من آمن به وصدّق بما جاء به فلبثنا أحوالاً مجرّمة (أي كاملة) وما يعبد الله في ربيع ساكن من العرب غيرنا " وإنهم كانوا في شعب أبي طالب لما قاطعتهم قريش أربع سنوات ، وأنّ عمر أسلم قبل الهجرة بقليل .

• **رووا :** أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعد أن هاجر المسلمون إلى الحبشة جلس مع المشركين ، فأنزل الله تعالى عليه سورة النجم ، فقرأها حتّى إذا بلغ قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) وسوس إليه الشيطان الكلمتين فتكلّم بهما ظاناً أنّهما من جملة الوحي وهما (تلك الغرائق العلى وأنّ شفاعتُهُنّ ترجى) ثمّ مضى في السورة حتّى إذا بلغ السجدة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون وفرح المشركون .

ويقال : أنّهم حملوا الرسول وطاروا به في مكة من أسفلها إلى أعلاها . ولما أمسى ، جاءه جبرئيل ، فعرض عليه السورة وذكر الكلمتين فيها ، فأنكرهما جبرئيل ، فقال صلى الله عليه وآله : قلتُ على الله ما لم يقل ؟ فأوحى الله إليه (وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً ولولا أن تبنتك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثمّ لا تجد لك علينا نصيراً) الإسراء/٧٣ - ٧٥ .

وأنّه بهذه المناسبة نزل قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ) الحج/٥٢ - ٥٣ .

العهد المدني :

٥ . من الثابت : إنَّ النبي صلى الله عليه وآله كَتَى عَلِيًّا بِأَبِي تَرَابٍ . وقالوا في سبب ذلك إنَّ عَلِيًّا غَاضِبٌ فَاطِمَةَ ، وخرج إلى المسجد ونام على التراب ، فعرف النبي صلى الله عليه وآله فبحث عنه فوجده ، فقال له : قم أبا تراب ، وذكر بعضهم سبباً آخر وهو إنَّ النبي صلى الله عليه وآله لم يؤاخ بين علي وبين أحد فاشتدَّ عليه ذلك وخرج إلى المسجد ونام على التراب فلحقه صلى الله عليه وآله ، فلما وجده قال له : قم يا أبا تراب .

وفي قبال ذلك :

ما رواه عمَّار بن ياسر من أنَّ النبي صلى الله عليه وآله كَتَى عَلِيًّا بهذه الكنية في غزوة العشيرة ، وكانت أحبَّ كناه إليه ، وملخَّص القضية : إنَّهم كانوا مع الرسول صلى الله عليه وآله في غزوة ولم يكن فيها قتال ، فذهب عمَّار وعلي لينظرا إلى عمل بعض بني مدلج كانوا يعملون في عين لهم ونخل ، فغشيتهما النوم ، فإنطلقا حتَّى إضطجعا على صور من النخل ، وفي دقعاء من التراب قال عمَّار : فوالله ما أهبنا إلاَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يحرِّكنا برجليه ، وقد تربنا من تلك الدقعاء التي نمنا عليها ، فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام : ما لك يا أبا تراب لما يُرى عليه من التراب ثم قال : ألا أُحدِّثكما بأشقى الناس رجلين ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذه ووضع يده على قرنه حتَّى يبُلَّ منها هذه وأخذ بلحيته .

٦ . قالوا : إنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : لَمَّا إِحْمَرَ الْبَأْسُ يَوْمَ بَدْرٍ

إتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وكان من أشد الناس ، ما كان أحدٌ منَّا أقرب إلى المشركين منه وفي رواية أخرى "كُنَّا إذا إحمَّر البأس إتقينا برسول الله فلم يكن أحدٌ منَّا أقرب إلى العدوِّ منه" قال الشريف الرضي : " معنى ذلك إنَّه إذا عَظُمَ الخوف من العدوِّ وإشْتَدَّ عضاض الحرب فزع المسلمون إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه فينزل الله تعالى النصر عليهم . قال ابن أبي الحديد وفي الكلام حذف مضاف تقديره : إذا إحمَّرَ موضع البأس وهو الأرض التي عليها معركة القوم وإحمرارها لما يسيل عليها من الدم " .

وفي قبال ذلك :

ما قاله علي عليه السلام في كتابه إلى معاوية : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا إحمَّرَ البأس وأحجم الناس قدَّم صلى الله عليه وآله أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرَّ السيف والأسنة ، فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر ، وقتل حمزة يوم أحد وقتل جعفر يوم مؤتة ، وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة ولكن آجالهم عجلت ومنيته أحرَّت .

ويذكر المؤرِّخون أنَّ قتلى بدر من المشركين سبعون ، قتل على عليه السلام نصفهم ، **وإنهم كانوا يسمون علياً يوم بدر :** (الموت الأحمر) **وإنهم بعدها كانوا يحرضون على قتل علي بقولهم :**

هذا ابن فاطمة الذي أفناكُم ذبحاً وقتلاً قعصةً لم يُدبَح
أعطوه خرجاً وإتقوا تضريبه فعل الذليل وبيعةً لم تَرَبِح

أين الكهولُ وأين كلُّ دعامةٍ في المعضلاتِ وأين زينُ الأبطحِ
أفناهُمُ قَعَصاً وضرباً يفترى بالسيفِ يعملُ حدُّهُ لم يَصْفَحِ

٧. **قالوا** : إنَّ أبا بكرٍ بعث رسالةً إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيها
(ولقد شاورني برسول الله في الصهر فذكر فتياناً من قريش ، فقلت
له : أين أنت من علي ؟ فقال : (إني لأكره ميعة شبابيه وحادثة سنّه . وإنَّ
النبي صلى الله عليه وآله لما استشار فاطمة عليها السلام بكت **وقالت** :
كأنك يا أبتى إنما ادخرتني لفقير قريش ؟

وفي قبال ذلك :

ما رواه المؤرخون إنَّ أشراف قريش خطبوا فاطمة فردَّهم
النبي صلى الله عليه وآله وخطبها علي فزوَّجه رسول الله صلى الله عليه
وآله . وعاتب الخاطبون النبي صلى الله عليه وآله على منعهم وتزويج
علي عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله : والله ما أنا منعتكم وزوجته
بل الله منعتكم وزوَّجه .

٨. **روي عن عائشة أنها قالت** : (وما مات الرسول إلا بين سحري
ونحري) .

وفي قبال ذلك :

ما روي عن ابن عباس وعلي بن الحسين عليهما السلام أنهما
قالا :

"قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ورأسه في حجر علي عليه السلام" .

٩. **قالوا** : أنكرت عائشة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى
علي من بعده قالت : (لقد كان رأسه في حجري فدعا بالطست فبال فيه

فلقد إنخث في حجري وما شعرت به ، فمتى أوصى إلى علي عليه السلام .

وفي قبال ذلك :

روت كتب التاريخ والحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى علي عليه السلام بأمر الله تعالى في مناسبات عديدة بدءاً بواقعة الدار وإنهاءً بواقعة الغدير

نماذج من الوقائع السلوكية

١ . روى أصحاب الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر فأئماً مؤمن أذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقربةً تقرّب به إليك يوم القيامة .

وفي قبال ذلك :

يوجد قول الله تعالى عن رسوله الكريم : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم/ ٤ وقوله : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) التوبة/ ١٢٨ .

وما رواه أنس أنه قال : " لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي السيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح " .

وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله : " لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء " (٣) .

وقوله صلى الله عليه وآله : " لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعاناً " .

٢. **روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت** : كان رسول الله صلى الله عليه وآله مضطجعا في بيتي كاشفاً عن فخذه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، **فقال** : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة .

وفي قبال ذلك :

ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : كان النبي صلى الله عليه وآله أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها .

٣. **قالوا** : **إن المغيرة بن شعبه قال** : رأيتني أنا ورسول الله نتماشى ، فأتى سباطة قوم خلف حائط ، فقام كما يقوم أحدكم فبال فانبتت منه فأشار إلىَّ فجئت فقممت عند عقبه حتى فرغ .

وفي قبال ذلك :

عن جابر قال (نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبول قائماً) . **وفي روايته** : (كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد الحاجة أبعد) .

٤. **قالوا** : **إن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت** : جاء النبي صلى الله عليه وآله فدخل حين بنى عليّ فجلس على فراشي كمجلسك مني فجعلت جويريات لنا يضرين بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر إذ

قالت إحداهن : (وفينا نبيٌ يعلم ما في غدٍ) فقال : (دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين) .

وعن عائشة إنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان جالساً فسمع ضوضاء الناس والصبيان فإذا حبشية تزفن والناس حولها فقال : يا عائشة تعالي فانظري ، فوضعت خدي على منكبيه ، فجعلت انظر ما بين المنكبين إلى رأسه ، فجعل يقول يا عائشة ما شبعت ؟ فأقول : لا لأنظر منزلتي عنده ، فلقد رأيتَه يراوح بين قدميه ، فطلع عمر فتفرَّق الناس والصبيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : رأيت شياطين الإنس والجنَّ فرؤوا من عمر .

وعن عائشة : قالت دخل رسول الله وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعات (بالعين المهملة) ، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه فدخل أبو بكر فانتهرني وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : (دعهما) .

وفي قبال ذلك :

ما رواه أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : (بعثني الله رحمة للعالمين وبعثني بمحق المعازف والمزامير) .

يختلف اثنان من الباحثين الإسلاميين في تفسير ظاهرة التعارض والإختلاف في روايات السيرة والتاريخ ، بأن مرجع ذلك بشكل أساسي إلى الكذب من الرواة المعروفين بذلك أو إلى الإشتباه ممن لا يتعمد الكذب منهم .

ويمكننا إجمال دوافع الوضع والكذب عند رواة السيرة والتاريخ حسب أهميتها إلى ما يلي :

الدافع الأول : رغبة السلطات في الوضع ، وقد يلتقي معها غالباً الدافع الثاني أو الثالث الآتيان .

الدافع الثاني : رغبة الزنادقة في التحريف .

الدافع الثالث : رغبة بعض الرواة في نصرة معتقده أو الإنتقاص من أحد بغضاً وحسداً له .

وقد أثبتت أخبار السيرة والتاريخ أيضاً بعامل آخر هو الكتمان في قليل أو كثير خوفاً من السلطة ، وأحياناً حسداً وبغضاً وأحياناً خوفاً من العامة وغوغاء الناس ، وأحياناً كراهةً وإستبشاعاً لكونه خلاف المعتقد أو المذهب وأحياناً خوفاً من إستفادة الخصم منها .

وفيما يلي طرف من وثائق هذه العوامل أو الدوافع :

الدافع الأول : رغبة السلطات في الوضع أو الكتمان

إنَّ أبرز مثل على هذا الدافع لتحريف الإخبار هو ما جرى على عهد بني أمية وفيما يلي أربع روايات تحدثنا عن ذلك :

١ . **رواية المدائني في كتابه الأحداث :**

روى ابن أبي الحديد عن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني (ت٢٢٥هـ) في كتابه (الأحداث) قال :

كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة .

(أن برئت الذمّة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته) .

فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليّاً عليه السلام

ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته .

وكان أشدَّ الناس بلاءً حينئذ أهلُ الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فإستعمل عليهم زياد بن سمية وضمَّ إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وأخافهم وقطَّع الأيدي والأرجل وسَمَّلَ العيون وصلَّبهم على جذوع النخل وطردهم وشرَّدهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم .

وكتب معاويةً إلى عماله في جميع الآفاق :

(ألاً يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة) .

وكتب إليهم :

(أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكلِّ ما يروي كلُّ رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته) .
ففعّلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلّات والكساء والحباء والقطائع ، ويفيضه في العرب منهم والموالي ، فكثرت ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا ، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقربيه وشفَّعه فلبثوا بذلك حيناً .

ثم كتب إلى عماله :

(إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فأدعوا الناس إلى الرواية في

فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة فإن هذا أحبُّ إليَّ وأقرُّ لعيني وأدحضُ لِحُجَّةِ أبي تراب وشيعته وأشدُّ عليهم من مناقب عثمان وفضله) .

فقرئت كتبه على الناس فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها .

وجدتُ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابروا لقيَّ إلى معلِّمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلَّمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلَّموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علَّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان :

(انظروا من قامت عليه البينة أنه يحبُّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه وورزقه) .

وشفع ذلك بنسخة أخرى :

(من إتهمتوه بموالاته هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره) .

فلم يكن البلاء أشدُّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سيَّما بالكوفة ، حتى إنَّ الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكُتْمَنَّ عليه .

فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر .

ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة .

وكان أعظم الناس في ذلك بليَّةَ القُرَّاء المُرَّاعون ، والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولااتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل .

حتى إنتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديَّانين الذين لا يستحلُّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنَّها حق ولو علموا أنَّها باطلة لما رووها ولا تديَّنوا بها .

قال ابن أبي الحديد : وقد روي أنَّ أبا جعفر محمد بن علي

الباقر عليه السلام قال لبعض أصحابه : يا فلان ما لقينا من ظلم قريش إيَّانا وتظاهرهم علينا وما لقيَ شيعتنا ومحبونا من الناس ...

وكان عظمُ ذلك وكبرُهُ زمنَ معاوية بعد موت الحسن عليه السلام .

فقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة .

وكان من يُذكر بحبِّنا والإنقطاع إلينا سُجِنَ أو نُهب ماله ، أو

هُدِمَت دارُهُ ، ثمَّ لم يزل البلاء يشتدُّ ويزداد إلى زمان عبيد الله قاتل

الحسين عليه السلام .

ثم جاء الحجَّاج فقتلهم كلَّ قتلة وأخذهم بكلَّ ظنَّة وثهمة ،

حتَّى إنَّ الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحبُّ إليه من أن يقال له شيعة

علي .

وحتَّى صار الرجل الذي يذكر بالخير ولعلَّه يكون ورعاً صدوقاً

يحدِّث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من سلف من الولاة ولم

يخلق الله تعالى شيئاً منها ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنَّها حقُّ

لكثرة من قد رواها ممَّن لم يُعرَف بكذب ولا بقلَّة ورع .

أقول : ومن الغريب أن ابن أبي الحديد بعد أن يورد ذلك كله يعقب عليه بقوله :

(واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة . فإبَّهَّم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ، **نحو :**

حديث (السطل) . وحديث (الرمانة) . وحديث (غزوة البئر) التي كان فيها الشياطينوتعرف كما زعموا بـ (ذات العلم) . وحديث (غسل سلمان الفارسي وطي الأرض) . وحديث (الجمجمة) ، ونحو ذلك . فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث في **مقابلة هذه الأحاديث :**

نحو (لو كنت متخذاً خليلاً) ، فإبَّهَّم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء .

ونحو (سد الأبواب) فإنه كان لعلي عليه السلام فنقلته البكرية إلى أبي بكر .

ونحو (آئتوني بدواة وبياض أكتب فيه لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان) . ثم قال : (ياأبي الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر) ، فإبَّهَّم وضعوه في مقابلة الحديث المروي عنه في مرضه : (آئتوني بدواة وبياض أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً) ، فاختلفوا عنده . وقال قوم منهم ، لقد غلبه الوجد ، حسبنا كتاب الله .

ونحو حديث : (أنا راض عنك فهل أنت عنِّي راض !) . ونحو

ذلك ...

فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث ،
فوضعوا :

حديث (الطوق) ، الحديث الذي زعموا أنه جعله في عنق خالد .

وحديث (اللوح) ، الذي زعموا أنه كان في غدائر الحنيفة أم محمد .

وحديث (لا يفعلن خالد ما أمر به) .

وحديث (الصحيقتي) ، التي علقت عام الفتح بالكعبة .

وحديث (الشیط) ، الذي صعد المنبر يوم بويج أبو بكر ، فسبق
الناس إلى بيعته .

وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة
والتابعين الأولين وكفرهم .

فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في **علي عليه السلام** وفي
ولديه .

ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة
إلى حب الدنيا والحرص عليها .

ولقد كان الفريقان في غنية عما اكتسباه واجترحاه .

ولقد كان في فضائل **علي عليه السلام** الثابتة الصحيحة ،
وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصبية لهما ،
فإن العصبية لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر
الردائل ، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساوي والمقابح . ونسأل الله
تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبية ، وأن يجرينا على ما
عوّدتنا من حب الحق أين وجد وحيث كان ، سخط ذلك من سخط ،

ورضى به من رضى بمنه ولطفه (٤) .

أقول : ليس من شك أن قول ابن أبي الحديد هذا مجانب للصواب ، إذ أن البادى بوضع الحديث وتشجيع الناس عليه هو معاوية كما مرّت الأخبار التي رويناها عن ابن أبي الحديد نفسه . وذلك لما انتشر عند أهل الشام في السنوات العشر من صلح الحسن عليه السلام من حديث الغدير ، وحديث الثقلين ، والمباهلة ، والدار ، والكساء ، والمنزلة ، والمؤاخاة ، وخيبر ، وأحد ، وحديث بريدة بن الحصيب لما جاء برسالة خالد بن الوليد من اليمن ، يقع فيها في علي عليه السلام ، وغيرها وأيضاً ما ورد في حقه من القرآن .

قال ابن أبي الحديد : قد روى ابن عرفة المعروف بابن (نفظويه) ، وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم في تاريخه ، قال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة أفتعلت في أيام بني أمية ، تقريباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم .

وقال أبو جعفر الإسكافي (ت ٢٢٠هـ) :

إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جعلاً يُرغب في مثله فاختلفوا ما أَرْضاه ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير (٨) .

نموذجان من حديث عروة في ذم علي عليه السلام :

روى الزهري أن عروة بن الزبير حدثه قال : حدثتني عائشة قالت : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ أقبل

العباس وعلي فقال : يا عائشة إن هذين يموتان على غير ملتي أو قال ديني .

وروى عبد الرزاق عن معمر قال : كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي عليه السلام فسألته عنهما يوماً ، فقال : ما تصنع بهما وبحديثهما الله أعلم بهما إنني لأتتهما في بني هاشم .
قال ابن أبي الحديد : فأما الحديث الأول فقد ذكرناه .

وأما الحديث الثاني فهو : أن عروة زعم أن عائشة حدثته ، قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وأقبل العباس وعلي ، فقال صلى الله عليه وآله : يا عائشة إن سرّك أن تتظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا ، فنظرت فإذا العباس وعلي بن أبي طالب .

نموذج من حديث عمرو بن العاص في علي عليه السلام :

وأما عمرو بن العاص فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : (إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين)

نموذج من حديث أبي هريرة في ذم علي عليه السلام :

وأما أبو هريرة فروى عنه الحديث الذي معناه أن علياً عليه السلام خطب ابنة أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسخطه ، فخطب على المنبر وقال : لاها الله لا تجتمع ابنة ولي الله وابنة عدو الله أبي جهل ، إن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها فإن كان علي يريد ابنة أبي جهل فليفارق ابنتي وليفعل ما يريد أو كلاماً هذا معناه .

قال ابن أبي الحديد : هذا الحديث مخرَّج في صحيحي مسلم والبخاري
عن المسور بن مخزومة الزهري (١١) .

ولشياع هذا الخبر وإنتشاره ذكره مروان بن أبي حفصة في قصيدة
يمدح بها الرشيد ويذكر فيها ولد فاطمة عليها السلام وينحى عليهم
ويذمهم وقد بالغ حين ذم علياً عليه السلام ونال منه وأولها :

سلام على جَمَلٍ وهيهات من جَمَلٍ ويا حبذا جَمَلٌ وإنَّ صُرْمَتُ حَبَلِي

ويقول فيها :

علىُّ أبوكم كان أفضلَ منكم أباه ذوو الشورى وكانوا ذوي الفضل
وساء رسولَ الله إذ ساء بنتُه بخطبته بنتَ اللعين أبي جهل
فذمَّ رسولَ الله صهرَ أبيكم على منبر بالناطق الصادع الفضل
وحكَّم فيها حاكمين أبوكم هما خلعاها خلع ذي النعل للنعل
وقد باعها من بعده الحسن ابنه فقد أبطلت دعواكمُ الرثة الحبلِ
وخليتموها وهي في غير أهلها وطالبتموها حين صارت إلى أهل

٢ . مارواه سليم بن قيس في كتابه :

قال سليم بن قيس :

إنَّ معاوية مرَّ بحلقة من قريش ، فلمَّا رأوه قاموا إليه غير عبد
الله بن عباس فقال له : يا ابن عباس ما منعك من القيام كما قام
أصحابك إلا لموجدة علىَّ بقتالي إياكم يوم صفين ، يا ابن عباس إنَّ ابن
عمِّي عثمان قُتل مظلوماً .

قال ابن عباس : فعمر بن الخطاب قد قتل مظلوماً فسَلِّمُ الأمر إلى ولده ،
وهذا أبنه ؟ ! .

قال : أنَّ عمر قتله مشرك .

قال ابن عباس : فمن قتل عثمان ؟

قال : قتله المسلمون !

قال : فذلك أدهس لحُجَّتِكَ ، إنَّ كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلاَّ
بحق .

قال : فإِنَّا قد كتبنا إلى الأفاق نهي عن ذكر مناقب عليٍّ وأهل بيته ،
فكفَّ لسانك يا ابن عباس واربع على نفسك .

قال : أفتنهانا عن قراءة القرآن ؟ قال : لا .

قال : أفتنهانا عن تأويله ؟ قال : نعم .

قال : فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به ؟ قال : نعم .

قال : فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟ قال : العمل به .

قال : فكيف نعمل به حتَّى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ؟

قال سل عن ذلك من يتأوَّله على غير ما تتأوَّله أنت وأهل بيتك .

قال : إنَّما أنزل القرآن على أهل بيتي فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي
معيط ؟ ! ...

قال : فاقرأوا القرآن ولا ترووا شيئاً ممَّا أنزل الله فيكم وممَّا قال رسول
الله فيكم وارووا ما سوى ذلك !

قال ابن عباس : قال الله في قرآنه : (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) التوبة/ ٣٢ .

قال معاوية : يا ابن عباس إكفني نفسك وكُفَّ عني لسانك ، وإن كنت لا بدَّ فاعلاً فليكن ذلك سرّاً ولا يسمعه أحدٌ منك علانية !
أقول :

إنَّ هذه المحاورة قد جرت في المدينة سنة (٥٥ هـ) بعد رجوع معاوية من الحج الذي أقامه لتلك السنة ؟

وقد جرت قبل ذلك في مكة محاورة أخرى بينه وبين سعد بن أبي وقاص رواها النسائي (ت ٣٠٢ هـ) **صاحب السنن قال :**

أخبرنا محمد بن المثني قال : أخبرنا أبو بكر الحنفي قال : حدثنا بكر بن مسمار قال : سمعت عامر بن سعد يقول :

قال معاوية لسعد بن أبي وقاص : ما يمنحك أن تسب ابن أبي طالب ؟ قال : لا أسبُّه ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله صلى الله عليه وآله لأن يكون لي واحدة منهن أحبُّ إليَّ من حمر النعم .

ما أسبُّه : ما ذكرتُ حين نزلت (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وإبنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال : رب هؤلاء أهل بيتي وأهلي .

ولا أسبُّه : ما ذكرت حين خلفه في غزوة غزاهما قال علي : خلفتني مع الصبيان والنساء ؟ قال : أولاً ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي .

وما أسبُّه : ما ذكرت يوم خيبر حين قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ، ويفتح الله بيده ، فتناولنا ، فقال : أين علي ؟ فقالوا : هو أرمد ، قال : إدعوه ، فبصق في عينيه ثم

أعطاه الراية ، ففتح الله عليه .

فوالله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة .

أقول : وقد كانت هذه المحاورة قبل صدور قرار معاوية إلى ولاته بسبب علي على المناير ، وكان هدفه من هذا الحوار جس نبض سعد ولما عرف موقفه دس له السم كما دس السم للحسن عليه السلام .

قال أبو الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦هـ) : حدثني أحمد بن عبيد الله قال حدثني عيسى بن مهران قال حدثنا يحيى بن أبي بكر قال حدثنا شعبة عن أبي بكر بن حفص قال : توفي الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص في أيام بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين .
وقال أبو الفرج : كانوا يرون أنه سقاها سماً .

٣ . ما رواه الزبير بن بكار في كتابه الموفقيات :

قال الزبير بن بكار : حدثنا أحمد بن سعيد قال : حدثني الزبير قال : حدثني عمي مصعب بن عبد الله عن الواقدي قال :
حدثني ابن أبي سبرة عن عبد الرحمن بن زيد قال :

وفد علينا سليمان بن عبد الملك حاجاً سنة اثنتين وثمانين ، وهو ولي عهد ، فمر بالمدينة ، فدخل عليه الناس ، فسلموا عليه ، وركب إلى مشاهد النبي صلى الله عليه وآله التي صلى فيها وحيث أصيب أصحابه في أحد ، ومعه أبان بن عثمان ، وعمرو بن عثمان ، وأبو بكر بن عبد الله بن أبي أحمد ، فأتوا به قباء ، ومسجد الفضيخ ، ومشربة أم إبراهيم ، وأحد ، وكل ذلك يسألهم ، ويخبرونه عما كان .

ثم أمر أبان بن عثمان أن يكتب له سير النبي صلى الله عليه وآله

ومغازيه .

فقال أبان : هي عندي قد أخذتها مصححة ممن أثق به ، فأمر بنسخها ، وألقى فيها إلى عشرة من الكتّاب ، فكتبوها في رق . فلما صارت إليه ، نظر فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبين وذكر الأنصار في بدر ، فقال : ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل فإمّا أن يكون أهل بيتي غمصوا عليهم وإمّا أن يكونوا ليس هكذا .

فقال أبان بن عثمان : أيها الأمير لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه من القول بالحق : هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا ، قال : ما حاجتي إلى أن أنسخ ذلك حتّى أذكره لأمير المؤمنين لعله يخالفه ، فأمر بذلك الكتاب فخرق ، وقال : أسأل أمير المؤمنين إذا رجعت ، فإن يوافقه فما أيسر نسخه .

فرجع سليمان بن عبد الملك فأخبر أباه بالذي كان من قول أبان . فقال عبد الملك : وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل ، تُعرف أهل الشام أموراً لا نريد أن يعرفوها ! !

قال سليمان : فلذلك يا أمير المؤمنين أمرت بتخريق ما كنتُ نسخته حتّى أستطلع رأي أمير المؤمنين ، فصوّب رأيه ، وكان عبد الملك يثقل عليه ذلك .

ثم إنَّ سليمان جلس مع قبيصة بن ذؤيب ، فأخبره خبر أبان بن عثمان وما نسخ من تلك الكتب وما خالف أمير المؤمنين فيها . فقال قبيصة : لولا ما كرهه أمير المؤمنين لكان من الحظّ أن تُعلّمها وتُعلّمها ولدك وأعقابهم ، إنَّ حظّ أمير المؤمنين فيها لوافر ، إنَّ أهل بيت

أمير المؤمنين لأكثر من شهد بدماء فشهدا من بني عبد شمس ستة عشر رجلاً من أنفسهم وحلفائهم ومواليهم وحليف القوم منهم ومولى القوم منهم . وتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وعمّاله من بني أمية أربعة : عتاب بن أسيد على مكة ، وأبان بن سعيد على البحرين ، وخالد بن سعيد على اليمن ، وأبو سفيان بن حرب على نجران ، عاملاً لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكنّي رأيت أمير المؤمنين كره من ذلك شيئاً فما كره فلا تخالفه .

ثم قال قبيصة : لقد رأيتني وأنا وهو - يعني عبد الملك - وعدة من أبناء المهاجرين ما لنا علم غير ذلك حتى أحكمناه ، ثم نظرنا بعد في الحلال والحرام ، فقال سليمان : يا أبا إسحاق ألا تخبرني عن هذا البغض من أمير المؤمنين وأهل بيته لهذا الحي من الأنصار وحرمانهم إيّاهم لم كان ؟ فقال : يا ابن أخي أول من أحدث ذلك معاوية بن أبي سفيان ، ثم أحدثه أبو عبد الملك (يريد مروان) ثم أحدثه أبوك .

فقال : علام ذلك ؟

قال : فوالله ما أريد به إلا لأعلمه وأعرفه .

فقال : لأنهم قتلوا قوماً من قومهم ، وما كان من خذلانهم عثمان فحقدوه عليهم ، وحنقوه وتوارثوه ، وكنت أحب لأمير المؤمنين أن يكون على غير ذلك لهم وأن أخرج من مالي فكلمه .

فقال سليمان : أفعل والله . فكلمه وقبيصة حاضر ، فأخبره قبيصة بما كان من محاورتهم .

فقال عبد الملك : والله ما أقدر على غير ذلك فدعونا من ذكرهم

فأسكت القوم ^(١٧) .

وحكى الزهري ^(١٨) : (أن عبد الملك رأى عند بعض ولده حديث المغازي فأمر به فأحرق ، وقال : عليك بكتاب الله فاقراءه والسنة فاعرفها واعمل بها) .

قال الدكتور حسين عطوان : (ولم يزل الخلفاء الأمويون يحظرون رواية المغازي والسير إلى نهاية القرن الأول فلما استخلف عمر بن عبد العزيز ، أقر بأن من سبقه من الخلفاء الأمويين حاربوا رواية المغازي والسير ، ومنعوا أهل الشام من معرفتها ، ودفعوهم عن الإطلاع عليها ، وردعوهم عن الإشتغال بها وأنكر صنيعهم ، وشهر به تشهيراً قوياً) ^(١٩) .

قال ابن عساكر في ترجمة عاصم بن عمر بن قتادة : ووفد عاصم على عمر بن عبد العزيز في خلافته في دين لزمه فقضاه عنه عمر وأمر له بعد ذلك بمعونة وأمره أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بمغازي رسول الله صلى الله عليه وآله ومناقب أصحابه وقال إن بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه فاجلس فحدث الناس بذلك ففعل .

اقول : ومن الجدير ذكره ، ان عمر بن عبد العزيز حين رفع الحظر عن رواية المغازي والحديث لم يكن قد رفعه بشكل كامل ، لذلك فإن من عُرف بروايته لفضائل علي وسيرته وأمر بلزوم الإقامة الجبرية في بلده كعامر بن واثلة ، لم يرفع الحظر عنه ، وقد روى ابن عساكر في ترجمة عامر بن واثلة أبي الطفيل أنه أدركته إمرة عمر بن عبد العزيز

فكتب يستأذنه في القدوم عليه ، فقال عمر : ألم تؤمر بلزوم البلد ؟
ومن الثابت أن أبا الطفيل كان صحابياً من شيعة علي وقد ترك البخاري
حديثه لأنه كان (بزعمه) يفرط في التشيع .

٤ . ما رواه أبو الفرج في كتابه الأغاني :

روى أبو الفرج بسنده عن ابن شهاب قال : قال لي خالد بن عبد
الله القسري : اكتب لي النسب فبدأت بنسب مضر فمضيت فيه أياماً
ثم أتيت ، فقال لي ما صنعت ؟ فقلت بدأت بنسب مضر وما أتممته ،
فقال : اقطعه قطعه الله مع أصولهم ، واكتب لي السيرة ، فقلت له :
فإنه يمر بي الشيء من سيرة علي بن أبي طالب أفأذكره ؟
فقال : لا إلا أن تراه في قعر الجحيم .

وهذا الحديث يفسّر لنا بوضوح لماذا جاءت روايات الزهري
للسيرة التي رواها عنه عبد الرزاق الصنعاني بواسطة معمر خالية من
ذكر علي عليه السلام وفيما يلي نماذج من روايات الزهري برواية عبد
الرزاق الصنعاني في كتابه المصنّف :

١ . روى عبد الرزاق في المصنّف عن معمر قال سألت الزهري : (عن أول
من أسلم) ؟ قال : ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة .

٢ . وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في حديثه عن عروة قال :
كانت وقعة أحد في شوال ، على رأس ستة أشهر من وقعة بني النضير .
قال الزهري عن عروة في قوله (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) :
إنّ النبي صلى الله عليه وآله قال يوم أحد حين غزا أبو سفيان وكفّار
قريش : إني رأيت كأني لبست درعاً حصينة ، فأولتها المدينة ،

فاجلسوا في ضيعتكم وقاتلوا من ورائها ، وكانت المدينة قد شبكت
بالبنيان ، فهي كالحصن ، فقال رجلٌ مسنٌ لم يشهد بدرًا : يا رسول
الله ، اخرج بنا إليهم فلنقاتلهم ، وقال عبد الله بن أبي سلول : نعم ،
والله ، يا نبي الله ، ما رأيت إنا والله ما نزل بنا عدو قط فخرجنا إليه ،
إلا أصاب فينا ، ولا يأتينا في المدينة ، وقاتلنا من ورائها إلا هزَمنا
عدوُّنا .

فكلَّمه أناس من المسلمين ، فقالوا : بلى ، يا رسول الله ، أخرج
بنا إليهم ، فدعا بلأمته فلبسها ، ثم قال : ما أظنُّ الصرعى إلا ستكثر
منكم ومنهم ، إني أرى في النوم منحورة ، فأقول بقر ، والله بخير فقال
رجل : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي فاجلس بنا ، فقال : إنَّه لا ينبغي
لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتَّى يلقى الناس ، فهل من رجل يدلنا
الطريق على القوم من كذب ؟ فانطلقت به الأدلاء بين يديه ، حتَّى اذا
كان بالشوط من الجبانة انخذل عبد الله بن أبي بثلث الجيش ، او
قريب من ثلث الجيش ، فانطلق النبي صلى الله عليه وآله حتَّى لقوهم
بأحد ، وصافوهم ، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله عهد إلى
أصحابه أنَّهم هزموهم ، أن لا يدخلوا لهم عسكرياً ، ولا يتَّبعوهم ، فلمَّا
التقوا هزموا ، وعصوا النبي صلى الله عليه وآله ، وتنازعوا ،
واختلفوا ، ثم صرفهم الله عنهم ليبتليهم ، كما قال الله هوأقبل
المشركون ، وعلى خيلهم خالد بن الوليد بن المغيرة ، فقتل من المسلمين
سبعين رجلاً وأصابهم جراح شديدة ، وكسرت رباعية رسول الله صلى
الله عليه وآله ، ودمي وجهه ، حتَّى صاح الشيطان بأعلى صوته : قتل

قال ابن إسحاق حدَّثني ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك أخو بني سلمة قال : قال كعب : عرفت عينيه تزهرا من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ابشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأشار إليّ أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وآله نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، معه : أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، والحارث بن الصمة ، في رهط من المسلمين ، فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وآله في الشعب ، أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين يا محمد أين يا محمد لا نجوت إن نجوت ، فقال القوم : أيعطف عليه يا رسول الله رجل منا ؟ فقال : دعوه فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وآله الحربة من الحارث بن الصمة ، يقول بعض القوم فيما ذكر لي ، فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وآله إنتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر من ظهر البعير إذا أنتفض بها ، ثم إستقبله فطعنه بها طعنة تردى بها عن فرسه مراراً ^(٢٧) .

قال عبد الرزاق قال معمر حدَّثني الزهري : فنادى أبو سفيان بعدما مُتِّل ببعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجُدِعوا ، ومنهم من بُقِرَ بطنُهُ .

فقال أبو سفيان : إنَّكم ستجدون في قتلاكم بعض المثل ، فإنَّ ذلك لم يكن عن ذوي رأينا ولا سادتنا ^(٢٨) . ثم قال أبو سفيان : أعلُّ

هُبَل . فقال عمر بن الخطاب : الله أعلى وأجل .

فقال : أنعمت علينا ^(٢٩) ، قتلى بقتلى بدر .

فقال عمر : لا يستوي القتلى ، قتلانا في الجنة ، وقتلاككم في النار .

فقال أبو سفيان : لقد خبنا إذا ، ثم انصرفوا راجعين .

وندى النبي صلى الله عليه وآله أصحابه في طلبهم ، حتى إذا

بلغوا قريباً من حمراء الأسد ، وكان فيمن طلبهم يومئذ عبد الله بن

مسعود ، وذلك حين قال الله (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا

لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) آل

عمران / ١٧٣ .

٣ . قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري في حديثه عن المسيب : وذكر

قصة نعيم بن مسعود الأشجعي وسعيه في الوقعة بين أبي سفيان وبني

قريضة وما أرسل الله تعالى من الريح على المشركين وإنهزامهم بغير

قتال ، ثم قال : فذلك حين يقول (وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله

عزيزاً) الأحزاب / ٢٥ .

٤ . عبد الرزاق عن معمر عن الزهري ، قال : لما إنصرف رسول

الله صلى الله عليه وآله حتى أتى المدينة ، فغزا خيبر من الحديبية فأنزل

الله عليه (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه) الى

(ويهديكم صراطاً مستقيماً) فلماً فتحت خيبر جعلها لمن غزا معه

الحديبية ، وباع تحت الشجرة ، ممن كان غائباً أو شاهداً ، من أجل

أن الله كان وعدهم إيها ، وخمس رسول الله صلى الله عليه وآله

خيبر ، ثم قسم سائرها مغانم بين من شهدها من المسلمين ، ومن غاب

عنها من أهل الحديبية .

٥ . عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : أخبرني كثير بن العباس بن عبد المطلب عن أبيه العباس قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين ، قال : فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله وما معه إلا أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فلزمنا رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يفارقه ، وهو على بغلة شهباء وربما قال معمر : بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي .

قال : فلما إنتقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين ، وطفق رسول الله صلى الله عليه وآله يهركض بغلته نحو الكفار قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله ألقفها ، وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بغرر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا عباس ، ناد أصحاب السمرة ، قال : وكنت رجلاً صيتاً ، فناديت بأعلى صوتي : أي أصحاب السمرة ؟ قال : فو الله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، يقولون : يا لبيك ، يا لبيك ، يا لبيك .

وأقبل المسلمون ، فإقتتلوا هم والكفار .

فنادت الأنصار ، يقولون : يا معشر الأنصار ، ثم قصر الداعون على بني الحارث بن الخزرج ، فنادوا : يا بني الحارث بن الخزرج .

قال : فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وهو على بغلته كالمطاول عليها الى قتالهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : هذا حين حمي الوطيس .

قال ثم اخذ رسول الله صلى الله عليه وآله حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : إنهمزوا ورب الكعبة .

قال : فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى .

قال : فو الله ما هو إلا أن رماهم رسول الله صلى الله عليه وآله بحصياته ، فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً حتى هزمهم الله تعالى ، قال : وكأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وآله يركض خلفهم على بغلة له .

الدافع الثاني : الكتمان كراهية وخوفاً من العامة

أ . ما حذفه ابن هشام من سيرة ابن إسحاق :

قال ابن خلكان في ترجمة عبد الملك بن هشام الحميري : (جمع

سيرة رسول الله من المغازي والسير لابن إسحاق وهذبها ...) .

و قال السيوطي في بغية الوعاة / ٣١٥ في ترجمته أيضاً : (مهذب

السيرة النبوية سمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق ونقحها ...) .

وقد وضَّح ابن هشام منهجه في التهذيب في مقدمة الكتاب قائلاً :

(وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب ... وأشياء يشنع

الحديث به بعض يسوء الناس ذكره ...) .

وكان ممَّا حذفه ابن هشام من سيرة ابن إسحاق (ممَّا يسوء

الناس ذكره) خبر دعوة الرسول بني عبد المطلب عندما أوحى الله إليه :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) فقد روى الطبري في تأريخه قال حدثنا ابن

حميد قال حدثنا سلمة قال حدثني محمد بن إسحاق عن عبد الغفار بن

القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله ابن الحارث بن نوفل بن الحارث

بن عبد المطلب عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله : (وأندر عشيرتك الأقربين) دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي : يا علي إن الله أمرني أن أندر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أنني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصممت عليه حتى جاءني جبرئيل فقال : يا محمد إنك إلا تفعل ما تؤمر به يعدّ بك ربك فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملاً لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلهم وأبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به . ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه : أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعت تناول رسول الله صلى الله عليه وآله من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة . ثم قال : خذوا بسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشى حاجة وما أرى إلا موضع أيديهم وأيم الله الذي نفس علي بيده وإن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم . ثم قال : إسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا منه جميعاً وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكلمهم بده أبو لهب إلى الكلام فقال : لشد ما سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال الغد : يا علي إن هذا الرجل سبقني إلى ما قد سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت ، ثم أجمعهم إلى .

قال : ففعلت ، ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته لهم ، ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا حتى ما لهم بشى حاجة . ثم قال : أسقهم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا منه جميعاً ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتم به إنني قد جئتم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأئكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت : وإنني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه . فأخذ برقبتي ، ثم قال : إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا . قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع

حذف ابن هشام هذا الخبر وأخباراً كثيرةً أخرى كان يرى أنّ ذكرها يسوء الناس ولهذا السبب إشتهرت سيرة ابن هشام وأصبحت أوثق سيرة عند الناس وأهملت سيرة ابن إسحاق لأنّ فيها أخباراً لا يرغبون في نشرها حتى فقدت نسختها .

أقول : وقد عثر أخيراً على قطعتين من سيرة ابن إسحاق ترتبطان ببعض حوادث الفترة المكية ومعركة بدر وأحد حققهما أحد الباحثين (٧) ومن حسن الحظ أنّ إحدى القطعتين احتفظت بحديث الدار وبالسند نفسه غير أنّ يد التحريف إمتدت إلى القسم المهم والخطير من الرواية وهو قوله صلى الله عليه وآله : أئكم يؤازرنى الخ ... فحذفته .

قال يونس عن ابن إسحاق قال حدثني من سمع من عبد الله بن الحارث بن نوفل واستكتمني اسمه عن ابن عباس عن علي قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (وانذر عشيرتك الأقربين) ... وذكر نص الرواية إلى قوله قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ^(٤) ثم حذف الباقي .

أقول : الراوي الذي سمع من عبد الله بن الحارث (ت ٨٤هـ) هو المنهال بن عمرو ^(٥) ولعله حدثه به على عهد هشام بن عبد الملك (ت ٢٥هـ) ثم حدثه به عبد الغفار بن القاسم (وهو من أقران ابن إسحاق) عن المنهال الذي يحتمل فيه إنه سمعه من المنهال ولم يستكتمه اسمه لإنهاء الظرف الذي يخاف منه .

أمّا يونس بن بكير فهو صاحب ابن إسحاق وقد وثقوه وأثنوا عليه ، ^(٧) ومن هنا فإننا نحتمل أن الحذف من صنع النساخ ويؤيد ذلك ما ذكره ابن أبي الحديد لما روى عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغوي غلام ثعلب ، ومحمد بن حبيب في أماليه أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فرَّ معظم أصحابه عنه يوم أحد كثرت عليه كتائب المشركين وقصدته كتيبة من بنى كنانة ثم من بنى عبد مناة بن كنانة فيها بنو سفيان بن عوف وهم خالد بن سفيان وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان وغراب بن سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا علي أكفني هذه الكتيبة ، فحمل عليها وإنها لتقارب خمسين فارساً وهو عليه السلام راجل ، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه ثم تجتمع عليه هكذا مراراً حتى قتل بنى سفيان بن عوف الأربعة وتمام العشرة منها ممن لا يعرف باسمائهم ، فقال جبرئيل لرسول

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يا محمد إنَّ هذه المواساة لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وما يمنعه وهو منِّي وأنا منه ، فقال جبرائيل عليه السلام : وأنا منكما ، قال : وسمع ذلك اليوم صوت من قبل السماء لا يرى شخص الصارخ به ينادي مراراً :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

فسئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عنه ، فقال : هذا جبرائيل .

قال ابن أبي الحديد : وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين وهو من الأخبار المشهورة ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق ورأيت بعضها خالياً عنه .

ب . ما حذفه القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) :

ومثل هذا الحذف أو الكتمان وعدم الذكر قام به أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال ص ١٧٤ - ١٧٥ قال : حدثني سعيد بن عفير قال : حدثني علوان بن داود - مولى أبي زرعة بن عمرو بن جرير - عن حميد بن عبد الرحمن بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عبد الرحمن قال :

(دخلت على أبي بكر أعوده في مرضه الذي توفي فيه ، فسلمت عليه وقلت . ما أرى بك بأساً ، والحمد لله ، ولا تأس على الدنيا . فوالله إن علمناك إلا كنت صالحاً مصلحاً . فقال : أما إنني لا آسى على شيء إلا على ثلاث فعلتهم ، وددت أني لم أفعلهم ، وثلاث لم أفعلهم وددت أني

فعلتهم وثلاث وودت إنِّي سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم .
فأمَّا التي فعلتها ووددت أنِّي لم أفعلها ، فوددت أنِّي لم أكن فعلت كذا
وكذا - لخلعة ذكرها ، قال أبو عبيد : لا أريد ذكرها- .
ووددت أنِّي يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق
أحد الرجلين : عمر ، أو أبي عبيدة . فكان أميراً وكنت وزيراً .
ووددت أنِّي حيث كنت وجَّهت خالداً إلى أهل الرِّدة أقمت بذي القصة ،
فإن ظفر المسلمون ظفروا وإلا كنت بصدد لقاء ، أو مدد .
وأمَّا الثلاث التي تركتها ووددت أنِّي فعلتها : فوددت إنِّي يوم
أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه ، فإنه يخيل إلى أنه لا
يرى شراً إلا أعان عليه) .
ووددت إنِّي يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقته ، وكنت قتلته
سريحاً ، أو أطلقته نجيحاً ووددت أنِّي حيث وجَّهت خالداً إلى أهل الشام
كنت وجَّهت عمر إلى العراق ، فأكون قد بسطت يدي ، يميني
وشمالي في سبيل الله .
وأمَّا الثلاث التي ووددت إنِّي كنت سألت عنها رسول الله صلى
الله عليه وآله : فوددت إنِّي سألته فيمن هذا الأمر ، فلا ينازعه أهله ؟
ووددت إنِّي كنت سألته . هل للأنصار من هذا الأمر من نصيب ؟ ووددت
إنِّي كنت سألته عن ميراث العمَّة وإبنة الأخ ، فإن في نفسي منها حاجة .
وقد أثبت الطبري الخلعة التي كره ذكرها ابن سلام ، قال في تاريخه
قال : فوددت إنِّي لم أكن كشفت عن بيت فاطمة وتركته ولو أغلق
على حرب) .

أقول : وقد ذكرها الذهبي أيضا في كتابه ميزان الاعتدال (ج ٣/١٠٨)
بترجمة علوان بن داود العجلي .

ج . ما حذفه عمر بن شبة :

ومثله ما حذفه عمر بن شبة أو الرواة عنه ، قال : (خطب ابن
عديس وعثمان محصور وقال في خطبته : إن ابن مسعود حدثني أنه سمع
من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إن عثمان قال ابن شبة : وتكلم
بكلمة أكره ذكرها) (١٠) .

د . ما حذفه الطبري :

قال الطبري في حوادث سنة ٣٠ هـ : "وفي هذه السنة - أعني سنة
(٣٠ هـ) - كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية وإشخاص معاوية إياه
منها (أي المدينة) أمور كثيرة كرهت ذكرها ، أمّا العاذرون معاوية في
ذلك فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلي السري يذكر : إن شعيباً
حدثه سيف ، عن عطية ، عن يزيد الفقعسي ، قال : لما ورد ابن السوداء
الشام لقي أبا ذر ... الخ" .

ويقول في حوادث سنة (٣٥ هـ) : "وذكرت أمور كثيرة في سبب مسير
المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خشب ، منها ما تقدم ذكره ، ومنها ما
أعرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته" ، ثم يذكر رواية سيف بن
عمر في ذلك تفصيلاً .

ويقول في حوادث السنة نفسها أيضاً : " ... إن محمد بن أبي بكر كتب
إلى معاوية بن أبي سفيان لما ولي ، فذكر - أي هشام عن أبي مخنف -

مكاتبات جرت بينهما ، كرهت ذكرها لما فيها مما لا يحتمل سماعها

العامّة" .

أقول: وقد روى هذه المكاتبات المسعودي في مروج الذهب ج ٣ ص ١١ -
١٣ ، ورواها أيضاً نصر بن مزاحم في كتابه وقعة صفين ونحن نقلها
من هذا الأخير .

قال نصر :

وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية :

من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر : سلام على
أهل طاعة الله ممّن هو مُسلّمٌ لأهل ولاية الله ، أمّا بعد فإنّ الله بجلاله
وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقاً بلا عنت ولا ضعف في قوته ولا حاجة
به إلى خلقهم ، ولكنه خلقهم عبيداً وجعل منهم شقيماً وسعيداً وغويّاً
ورشيدياً ، ثمّ اختارهم على علمه فاصطفى وأنتخب منهم محمداً
فاختصّه برسالته واختاره لوجيه وأثمنه على أمره وبعثه رسولاً مصدّقاً لما
بين يديه من الكتب ودليلاً على الشرائع ، فدعا إلى سبيل ربّه
بالحكمة والموعظة الحسنة فكان أوّل من أجاب وأناب وصدّق ووافق
وأسلم وسلم أخوه وابن عمه عليّ بن أبي طالب **عليه السلام** ، فصدّقه
بالغيب المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه كل هول وواساه بنفسه
في كل خوف ، فحارب حربه ، وسالم سلمه ، فلم يبرح مبتدلاً لنفسه
في ساعات الأزل ومقامات الروع حتّى برز سابقاً لا نظير له في جهاده ولا
مقارب له في فعله ، وقد رأيتك تساميه وأنت أنت وهو هو ، السابق المبرز
في كلّ خير ، أوّل الناس إسلاماً ، وأصدق الناس نية ، وأطيب الناس
ذرية ، وأفضل الناس زوجة ، وخير الناس ابن عم .

وأنت اللعين ابن اللعين ، ثمَّ لم تنزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل وتجتهدان على إطفاء نور الله وتجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال وتحالفان في ذلك القبائل ، على ذلك مات أبوك ، وعلى ذلك خلفته ، والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك من بقية الاحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ، والشاهد لعلي مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن ، ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار فهم معه كتائب وعصائب يجالدون حوله بأسياهم ويهريقون دماءهم دونه ، يرون الفضل في إتباعه ، والشقاء والعصيان في خلافه ، فكيف يا لك الويل تعدل نفسك بعلي ، وهو وارث رسول الله ووصيه وأبو ولده وأول الناس له إتباعاً وآخرهم به عهداً ؟ يخبره بسرّه ، ويشركه في أمره ، وأنت عدوّه وابن عدوّه ، فتمتع ما استطعت بباطلك ، وليمدد لك ابن العاص في غوايتك فكأنَّ أجلك قد انقضى وكيدك قد وهى ، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا ، واعلم إنَّك إنَّما تكايد ربَّك الذي قد آمنت كيده ، وأيست من روحه ، وهو لك بالمرصاد ، وأنت منه في غرور وباللَّه وبأهل بيت رسوله عنك الغناء ، والسلام على من إتبع الهدى .

فكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر سلام على أهل طاعه الله ، أمَّا بعد ، فقد أتاني كتابك ، تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه وما اصفى به نبيه ، مع كلام ألفته ووضعت له رأيك ، فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف ، ذكرت حق ابن

أبي طالب ، وقديم سابت وقرايته من نبي الله ، ونصرتة له ، ومواساته
إياه في كل خوف وهول ، واحتجاجك على ، وفخرك بفضل غيرك لا
بفضلك ، فأحمد إلهها صرف ذلك الفضل عنك ، وجعله لغيرك .

فقد كنا وأبوك معنا في حياة نبينا ، نرى حق ابن أبي طالب
لأزماً لنا وفضله مبرزاً علينا ، فلماً اختار الله لنبيه ما عنده ، وأتم له ما
وعده ، وأظهر دعوته وأفلج حجته ، قبضه الله إليه ، فكان أبوك
وفاروقه أول من ابتزه وخالفه على ذلك اتفقا واتسقا ، ثم دعواه إلى
أنفسهما ، فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما ، فهماً به الهموم وأرادا به
العظيم ، فبايعهما وسلّم لهما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على
سِرِّهما ، حتى قبضا وانقضى أمرهما .

ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان ، يهتدي بهديهما ويسير
بسيرتهما ، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأفاصي من أهل
المعاصي ، وأبطنتما وأظهرتما وكشفتما له عداوتكما وغلّكما حتى
بلغتما منه مُناكما ، فخذ جذرك يا بن أبي بكر ، فستري وبال
أمرك ، وقس شبرك بفترك تقصر عن أن تساوي أو توازي من يزن
الجبال حلمه ، ولا تلين على قسر قنائه ، ولا يُدرك ذو مدى أناته أبوك
مهّد له مهاده ، وبنى ملكه وشاده ، فإن يكن ما نحن فيه صواباً
فأبوك أوله ، وإن يكن جوراً فأبوك أسسه ، ونحن شركاؤه ، فبهديه
أخذنا ، وبفعله اقتدينا ، رأينا أباك فعل ما فعل ، فاحتدنا مثاله ،
واقتدينا بفعاله ، فعب أباك بما بدا لك ، أو دع ، والسلام على من
أناب .

هـ . ما حذفه ابن عبد البر :

ومثله ما ذكره ابن عبد البر في ترجمة أبي موسى الأشعري ، قال : وكان منحرفاً عن علي لأنه عزله ولم يستعمله . وكان لحذيفة قبل ذلك (أي قبل مسألة العزل وعدم التولية) فيه كلام وكرهت ذكره ، والله يفضر له

أقول : قال ابن أبي الحديد : الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البر ولم يذكر قوله فيه ، وقد ذكر عنده (أبو موسى) بالدين هو قوله : (أمّا أنتم فتقولون ذلك وأمّا أنا فأشهد أنّه عدو لله ولرسوله وحرب لهما في الحياة الدنيا ويوم القيامة يوم يقول الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم سوء الدار) .

قال ابن أبي الحديد : وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين ، أسراً إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم وأعلمه أسماءهم .

وقال ابن أبي الحديد أيضاً : وروي أنّ عماراً سئل عن أبي موسى ، فقال : لقد سمعت فيه من حذيفة قولاً عظيماً ، سمعته يقول : صاحب البرنس الأسود ، ثمّ كلح كلوحاً ، علمت منه أنّه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط .

الدافع الثالث : رغبة الزنادقة في التحريف

أطلقت الزندقة ابتداءً على جماعة ماني ، القائلين بأنّ للعالم أصلين أزليين هما النور والظلمة ، ثم أطلقت على الدهرية منكري وجود الله والنبوات والكتب المنزلة والقائلين بقدم العالم وإنكار الحياة الآخرة ... ثم أطلقت على كل من يحيى حياة المجون من الشعراء

والكتاب ومن شاكلهم .

وكان أقدم نص رسمي إسلامي في تعريف الزندقة هو وصية الخليفة المهدي لابنه موسى ولي عهده ، قال : يا بني إن صار لك هذا الأمر يعني الخلافة فتجرّد لهذه العصابة ، يعني أصحاب ماني فإنّها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، ثمّ تخرجها إلى تحريم اللمس ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرّجاً وتحويّاً ثمّ تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ... فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السيف .

وفيما يلي ترجمة لبعض من اتهم بالزندقة :

الزنديق عبد الكريم بن أبي العوجاء :

وممن رُمي بالزندقة عبد الكريم بن أبي العوجاء خال معن بن زائدة الشيباني قال قبل قتله : "أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرمّ فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتمكم يوم فطركم" ^(١٢) .

وكان قتله في خلافة المهدي بعد الستين ومائة .

أقول : ومن أجل أن تتضح مدى واقعية كلام ابن أبي العوجاء الأنف الذكر لا بدّ من ذكر ترجمة حماد بن سلمة كافل ابن أبي العوجاء ومربيه .

ترجمة حماد بن ابي سلمة :

قال ابن حجر في ترجمة حماد بن سلمة بن دينار البصري : "قال الدولابي

حدثنا محمد بن شجاع البلخي (الظاهر هو الثلجي) قال : سمعت عباد بن صهيب (ت ٢١٢هـ) يقول : إنَّ حماداً كان لا يحفظ ، وكانوا يقولون : إنَّها (أي روايات التشبيه) دُسَّت في كتبه ، وقد قيل إنَّ ابن أبي العوجاء كان ربيبه فكان يدس في كتبه" .

قال ابن عدي : "حماد إمام جليل وهو مفتي أهل البصرة مع سعيد بن أبي عروبة" .

وقال أحمد ويحيى : "هو ثقة الناس" .

وقال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء : "الإمام القدوة شيخ الاسلام وكان مع إمامته في الحديث إماماً كبيراً في العربية فقيهاً فصيحاً رأساً في السنة صاحب تصانيف" .

قال المزي : "روى عنه إبراهيم بن الحجاج السامي ، وإبراهيم بن أبي سويد الدُّرَاعُو أحمد بن إسحاق الحضرمي ، وآدم بن أبي أياس (سي) ، وإسحاق بن عمر بن سليط (م) ، وإسحاق بن منصور السلولي (د) ، وأسد بن موسى **صلى الله عليه وآله** ، وأسود بن عامر بن شاذان (م س ق) وبشر بن السري (م ت) ، وبشر بن عمر الزهراني (ق) ، وبهز بن اسد (م د س ق) ، وحبان بن هلال (م ت س) ، وحجَّاج بن منهال (خت م ٤) ، والحسن بن بلال (سي) ، والحسن بن موسى الأشيب (م ت س ق) ، والحسين بن عروة (ق) ، وأبو عمر حفص بن عمر الضرير (د) ، وخليفة بن خياط ، وداود بن شبيب (د) ، وروح بن أسلم (ت) ، وروح بن عبادة (م) ، وزيد بن الحباب (ق) ، وزيد بن أبي الزرقاء (د) ، وشريح بن النعمان (تم س) ، وسعيد بن عبد الجبار البصري (م) وسعيد بن يحيى

اللخمي (ق) ، وسفيان الثوري وهو من اقرانه ، وسليمان بن حرب ، وأبو
 داود سليمان بن داود الطيالسي (ت س) ، وسويد بن عمرو الكلبي (م ت
 س ق) ، وشعبة بن الحجاج وهو اكبر منه ، وشهاب بن عباد العبدي
 (بخ) ، وشهاب بن معمر البلخي (بخ) ، وشيبان بن فروخ (م) ، وطالوت
 بن عباد ، والعباس بن بكار الضبي ، والعباس بن الوليد النرسي ،
 وعبد الله بن صالح العجلي ، وعبد الله بن المبارك (ت س) ، وعبد الله
 بن مسلمة القعني (م س) ، وعبد الله بن معاوية الجمحي (ت ق) ، وعبد
 الاعلى بن حماد النرسي (م د س) ، وعبد الرحمان بن سلام الجمحي ،
 وعبد الرحمان بن مهدي (م ت س ق) ، وعبد الصمد بن حسان ، وعبد
 الصمد بن عبد الوارث (م ت ق) ، وأبو صالح عبد الغفار بن داود
 الحراني **صلى الله عليه وآله** وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وهو من
 شيوخه ، وعبد الملك بن عبد العزيز أبو نصر التمار (م س) ، وعبد
 الواحد بن غياث (د) ، وعبيد الله بن محمد العيشي (د ت س) وعفان بن
 مسلم (م ٤) ، وعمرو بن خالد الحراني (عج) ، وعمرو بن عاصم
 الكلابي (ت س ق) ، وعمرو بن مرزوق ، والعلاء بن عبد الجبار
 (سي) ، وغسان بن الربيع ، وأبو نعيم الفضل بن دكين ، والفضل بن
 عنبسة الواسطي ، وأبو كامل فضيل بن حسين الجحدري ، وقبيصة بن
 عقبة (ت) ، وقريش بن انس (قد) ، وكامل بن طلحة الجحدري ،
 ومالك بن انس وهو من اقرانه ، ومحمد بن اسحاق بن يسار وهو من
 شيوخه ، ومحمد بن بكر البرساني (ت س ق) ومحمد بن عبد الله
 الخزاعي (دق) ، وأبو النعمان محمد بن الفضل عارم (دتم س ق) ،

ومحمد بن كثير المصيبي ، ومحمد بن محبوب البناني (د) ومسلم بن ابراهيم (دس) ، ومسلم بن أبي عاصم النبيل ، وأبو كامل مظفر بن مدرك (ت س) ، ومعاذ بن خالد بن شقيق ، ومعاذ بن معاذ (ت) ، ومُهَيَّى بن عبد الحميد (دعس) ، وأبو سلمة موسى بن إسماعيل التبوذكي (خت دس ق) ، وموسى بن داود الضبي **صلى الله عليه وآله** ، ومؤمل بن إسماعيل (ت) ، والنظر بن شميل (م س ق) ، والنضر بن محمد الجرشي ، والنعمان بن عبد السلام ، وهديبة بن خالد (م) ، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي (خت ٤) ، والهيثم بن جميل (ق) ووكيع بن الجراح (م ق) ، ويحيى بن إسحاق السيلحيني (دت) ، ويحيى بن حسان التتيسي (مس) ، ويحيى بن حماد الشيباني (سي) ، ويحيى بن سعيد القطان (م) ، ويحيى بن الضريس الرازي ، ويزيد بن هارون (م د ت س) ، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي (ق) ، ويونس بن محمد المؤدب (م س) ، وأبو سعيد مولى بني هاشم (ق) ، وأبو عامر العقدي (ت) ^(٧) .

وقال عمرو بن عاصم : "كتبت عن حماد بن سلمة بضعة عشر ألفاً" .
وقال جعفر بن عاصم : "سمعت عفان يقول كتبت عن حماد بن سلمة بضعة عشر ألفاً" .

وقال علي بن المديني : "كان عند يحيى بن ضريس الرازي عن حماد بن سلمة عشرة آلاف حديث" .

وقال أبو سلمة التبوذكي : "مات حماد بن سلمة وقد أتى عليه ست وسبعون سنة وقال المدائني مات سنة سبع وستين ومائة" .

أقول : ومعنى ذلك أن ولادة حماد كانت سنة (٨٩ هـ) وكانت مرجعيته

في الفتوى في العهد العباسي وكانت قمتها في أخريات عهد المنصور إلى زمن ابنه المهدي ، وهو عهد ظهور الزنادقة وملاحقتهم وقتلهم من قبل المهدي العباسي ومنهم عبد الكريم بن أبي العوجاء المقتول بعد سنة ١٦٠ ربيب حماد بن سلمة .

ومن ذلك يتضح أن قول ابن أبي العوجاء (أنه وضع أربعة آلاف حديث يحرم فيه الحلال ويحل فيه الحرام ...) له واقعية فهو ربيب مرجع ديني يستطيع أن يدخل عليه في أي وقت شاء ويطالع كتبه في أي وقت يشاء فيضع فيها ما يشاء .

ولا يبعد أن بعضاً من هذه الأحاديث التي تحل الحرام ما رواه ابن عدي بأسانيد عن حماد بن سلمة عن أبي العشراء عن أبيه : "أن النبي صلى الله عليه وآله سئل أما تكون الزكاة إلا في الحلق أو اللبنة ؟ فقال : لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك" .

قال ابن عدي : "وأبو العشراء هذا لم يحدث عنه على ما تبين لنا غير حماد بن سلمة ويقال أن اسمه أسامة بن مالك بن قهطم وهذا الحديث معروف بحمد بن أبي العشراء وقد رواه عنه الثوري وابن جريج وأورده ابن عدي أيضاً عن غيرهما عن حماد" .

قال أحمد : "إذا رأيت من يغمزه /أي حماد بن سلمة / ، فإتبه ، فإنه كان شديداً على أهل البدع إلا أنه لما طعن في السن ساء حفظه ، لذلك لم يحتج به البخاري وأما مسلم فاجتهد فيه ، وأخرج من حديثه عن ثابت بما سمع منه قبل تغييره .. فالأحتماء أن لا يحتج به فيما يخالف الثقات" .

أقول : الذي يظهر أنّ البخاري إنّما ترك حديث حماد لما تكلموا فيه أنّ بعض الكذبة أدخل في حديثه ما ليس منه .

قال ابن حجر : "وقد عرّض ابن حبان بالبخاري لمجانبته حديث حماد حيث يقول : لم ينصف من عدلٍ عن الاحتجاج به إلى الاحتجاج بفليح وعبد الرحمن بن عبد الله بن دينار

واعتذر أبو الفضل بن طاهر عن ذلك لما ذكر أنّ مسلماً خرّج أحاديث أقوام ترك البخاري حديثهم قال : "وكذلك حماد بن سلمة إمام كبير مدحه الأئمة وأطنبوا لما تكلم بعض منتحلي المعرفة أنّ بعض الكذبة أدخل في حديثه ما ليس منه ، لم يخرج عنه البخاري معتمداً عليه بل إستشهد به في مواضع ليبين أنّه ثقة ...".

الزنديق مطيع بن إياس :

وممن اتهم بالزندقة مطيع ابن إياس من شعراء الدولة الأموية والعباسية ، كان شاعراً طريفاً خليعاً ماجناً ، انقطع في دولة بني العباس إلى جعفر بن المنصور ، إشتراك في أخذ البيعة للمهدي بن المنصور وروى حديثاً للمنصور قال : "يا أمير المؤمنين حدثنا فلان عن فلان أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال : المهدي محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا . ثمّ أقبل على العباس ، فقال : أنشدك الله هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم مخافةً من المنصور ، فلمّا إنقضى المجلس ، قال العباس : رأيتم هذا الزنديق إذ كذب على الله وعلى رسوله ولم يكتف حتّى إستشهدني على كذبه فشهدت له خوفاً

الزنديق سيف بن عمر التميمي :

وممن أُتِّهَمَ بالزندقة سيف بن عمر التميمي الذي وضع مئات الاحاديث أبرز فيها أفاضل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله سخفاء جناة ، والمغموصين في دينهم ذوي حجي وورع ودين إستطاع أن يدخل أساطير خرافية في التاريخ الاسلامي شوّه بها الحقائق الاسلامية وستأتي ترجمته مفصلةً مع أنموذج من رواياته في الباب الرابع من هذا الكتاب .

قصة الغرائق الموضوعت ضد النبي صلى الله عليه وآله

تكوّنت بفعل الروايات الموضوعة رؤية خاطئة لنبي الاسلام وصحابته وأوصيائه وبخاصة علي والحسن والحسين وشيعتهم ، ولازالت هذه الرؤية تتحرّك هنا وهناك عفواً بسبب حركة الأخبار الموضوعة ، ووصولها إلى من يجهل أمر كذبها ووضعها ، أو يعلمه ولكنه يراها أنجح وسيلة يضرب بها خصمه ، كما يحاول المستشرقون والمبشرون الاستفادة من ذلك للطعن في الاسلام وتاريخه ، أو كما حاول بعض خصوم الشيعة ضرب الشيعة وتطويق حركتهم من خلالها .

قصة الغرائق الموضوعت ضد النبي صلى الله عليه وآله

إن من أبرز الأمثلة على إستفادة بعض المستشرقين من الروايات الموضوعة هو إستفادتهم مما رواه الطبري في تفسيره وابن سعد في طبقاته **وغيرهما من :**

أنَّ النبي صلى الله عليه وآله لما تلا قوله : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى)النجم/١٩ - ٢٠ ألقى الشيطان كلمتين على لسانه وهما (تلك الغرائق العلى منها الشفاعة ترتجى) .

وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سَجَدَ ، وَسَجَدَتْ قَرِيشٌ مَعَهُ
ورضوا بما تكلم به وقالوا : قد عرفنا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي وَيَمِيتُ وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ
ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده وأماً إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك .
فلما أمسى أتاه جبرئيل فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين
اللتين ألقى الشيطان عليه قال : ما جئتك بهاتين ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وآله : أفتريت على الله ، وقلت على الله ما لم يقل ، فأوحى
الله إليه : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَاتُخَذُوكَ خَلِيلاً ، وَلَوْلَا أَنْ تَبَتُّنَا لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً
قَلِيلاً ، إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا
نَصِيراً) الإسراء/٧٣- ٧٥ . فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت (وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ
فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ) الحج/٥٢ .

وتعليقاً على هذه الروايات قال المستشرق الدنماركي ف . بوهل
الأستاذ في جامعة (لايبزك) : " كان النبي مستعداً لتفهم الكلمات التي
كانت تلقى إليه من ايحاءاته اللاشعورية ، وكان عليه أن يحارب
همسات الشيطان كما تشير إليه الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف . والآية
٩٧ من سورة المؤمنون . ولكنه بين حين وآخر يحاول أن يمزج بين الوحي
وهذه النداءات الشيطانية الخفية ، وإن هذا ملحوظ تماماً في الآية ٩٨ من
سورة النحل ، ولكي يصون نفسه من هذه النداءات كان يدعو الله
ليصونه من ذلك .

لكن تشير الروايات الموثوقة المعتمد عليها أن النبي سمح لنفسه أن تُغوى بواسطة الشيطان لمُدح اللات والعزى ومناة إلى حدّ ما ، لكنّه اكتشف زلّته فيما بعد ثمّ أوحيت إليه الآية ١٩ من سورة النجم " (٣) ..

وقال المستشرق (شاخت) : "إنّ أوّل مصادر الشرع في الإسلام وأكثرها قيمة هو الكتاب ، وليس هناك من شك في قطعية ثبوته وتزهره عن الخطأ ، على الرغم من إمكان سعي الشيطان لتخليطه" (سورة الحج الآية ٥١ : انظر نولدكه ص ١٠٠) .

وقال المستشرق مونت غمري وات : "وإذا قارنا مختلف الروايات وحاولنا أن نميّز بين الوقائع الخارجية التي تتفق معها والوقائع التي يستخدمها المؤرخ لتفسير الواقع ، نلاحظ واقعتين نستطيع أن نعتبرهما أكيدتين ، أوّلاً رثّل محمد في وقت من الأوقات الآيات التي أوحى بها الشيطان على أنّها جزء من القرآن ، لأنّه لا يمكن أن تكون القصة قد اخترعها مسلمون فيما بعد أو دسّها غير المسلمين . ثمّ أعلن محمد فيما بعد أنّ هذه الآيات لا يجب أن تعتبر جزءاً من القرآن ويجب استبدالها بآيات تختلف عنها كثيراً في مضمونها . والروايات الأولى لا تحدد الوقت الذي حدث فيه ذلك . والأقرب أن يكون ذلك قد وقع بعد بضعة أسابيع أو أشهر .

وهناك واقعة ثالثة أو مجموعة وقائع نستطيع أن نكون واثقين منها . وهي أنّه كان يجب على محمد ومعاصريه المكيين أن يشير في القرآن للآلهة اللات التي كانت معبودة في الطائف والعزى المعبودة في نخلة بالقرب من مكة ، ومناة التي كان معبدها بين مكة والمدينة .

ما تعنيه إذن الآيات الإبليسية أنّ الإحتفالات مقبولة في المعابد الثلاثة حول مكة وأما معنى الآيات التي تقول بأنّ العبادة في هذه المعابد غير مقبولة فهي لا تحرّم العبادة في الكعبة .

ويجب أن نعترف بأنّ الآيات التي صححت سورة النجم تمجد الكعبة على حساب المعابد الأخرى .

إعتبر الفقهاء المسلمون ، الذين ظلّوا بعيدين عن المفهوم الغربي الحديث للنمو التدريجي ، محمداً على أنّه قد أخبر منذ البدء بالمضمون الكامل لعقيدة الإسلام ، فكان من الصعب عليهم أن لم ير محمد خروج الآيات الإبليسية على عقيدة الإسلام .

والحقيقة هي أنّ توحيدّه كان في الأصل كما كان توحيد معاصريه المثقفين ، غامضاً ولم ير بعد أنّ قبول هذه المخلوقات الإلهية كان يتعارض مع هذا التوحيد ، لا شك أنّه يعتبر اللات والعزى ومناة على أنّها كائنات سماوية أقلّ من الله ، كما اعترفت اليهودية والمسيحية بوجود الملائكة . ويتحدث القرآن عنها في الفترة المكية باسم الجن . وإنّ كان يتحدّث عنها في الفترة المدنية على أنّها مجرد أسماء ، إذا كان ذلك فليس من الضروري اكتشاف سبب خاص للآيات الإبليسية ، فهي لا تدلّ على أي تقهقروا للتوحيد بل هي تعبير عن النظريات التي دافع عنها دائماً محمد .

وهكذا فإنّ قيمة الآيات السياسية مهمة ، فهل إعترف محمد بصحتها لأنّه كان يهيمه كسب الأنصار في المدينة والطائف وبين القبائل

المجاورة ؟

هل كان يحاول التخفيف من تأثير الزعماء القرشيين المعارضين له
باكتساب عدد كبير من الأتباع ؟

ذكر هذه المعابد دليل على أن نظرتَه أخذت في الاتساع" .

ثم يقول : "فلا شك أن محمداً قد نال نجاحاً أمام زعماء قريش
ليهتموا بأمره ، فظهرت المحاولات لحمله على الإعراف بصورة أو
بأخرى بالعبادة في المعابد المجاورة ، وكان في أول الأمر مستعداً لذلك
لسبب المنافع المادية ولأنه كان يشعر أن ذلك يساعده على تحقيق مهمته
بسهولة ، ثم أدرك شيئاً فشيئاً عن طريق النصح الالهي أن ذلك كان
تسوية مميتة فأعدب مشروعاً لتحسين وسائله بالمحافظة على الحقيقة
كما كانت تظهر له ، فأعلن رفض الشرك بألفاظ شديدة تغلق الباب
في وجه كل تسوية .

قال العلامة العسكري : "أنتجت الروايات السابقة ما قاله
الاستاذ روجيه جارودي مرشح الحزب الشيوعي - سابقاً - لمنصب
رئيس الجمهورية الفرنسية بعد أن أسلم في حوار له مع الاستاذ سعد
الدين كالأتي :

(قرأت القرآن الكريم ، وأعدت قراءته مرّات كثيرة ، ولا أدري
إن كنت قد فهمته جيداً بالطريقة التي يجب على الإنسان أن يفهمه بها
أم لا ، فقد بدا لي أن الرسول صلى الله عليه وآله جاء بدين عظيم هو
أساس الأديان ، لم ينكر فيه الأنبياء السابقين ، بل جاءت رسالته
متمة ومكملة للرسالات السابقة ، ثم شرعت في قراءة الأحاديث
النبويّة ، وعندما أتيح لي السفر إلى المدينة المنورة قمت بشراء وإقتناء

مجموعة الاحاديث في كتب البخاري ومسلم فرأيت شيئاً آخر أعبّر عنه بهذه العبارة الصريحة رأيتني وكأني أمام دين آخر ونشأ في نفسي إنطباع من قراءتي للحديث الشريف أنني أمام دين تقليدي . فكل ما وجدته في كتب الاحاديث وكل ما رأيت للرسول صلى الله عليه وآله يتحدث عنه أو يشير إلى فعله يتعلق بلبس الثياب أو كيفية الدخول للمكان والخروج منه وأشياء أخرى من هذا القبيل . لا كما رأيت في القرآن الكريم عن الأساسيات التي تدلُّ على كمال الدين الاسلامي " .

الإمام الحسن عليه السلام في كتابات المستشرقين

إستفاد المستشرقون من الروايات الكاذبة التي تتحدث عن سيرة الحسن عليه السلام ليكوّنوا رؤية مشوّهة ونظرة سيئة عن الإمام الحسن عليه السلام انتشرت في موسوعاتهم وفيما يلي جملة من هذه الروايات الموضوعية ⁽¹⁾ ، وبعض كلمات المستشرقين :

روى ابن سعد في طبقاته : "أنّ علياً مرّ على قوم قد اجتمعوا على رجل ، فقال : من هذا ؟ قالوا : الحسن قال : طحن إبل لم تعود طحناً ، إنّ لكل قوم صدّاداً وإنّ صدادنا الحسن"

وروى أيضاً عن المسيّب بن نجبة قال : "سمعت علياً يقول : ألا أحدثكم عنّي وعن أهل بيتي ، أمّا عبد الله بن جعفر فصاحب لهو ، وأمّا الحسن بن علي فصاحب جفنة وخوان فتى من فتیان قريش ، لو قد التقمت حلقتا البطان لم يفن في الحرب عنكم شيئاً وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منّا" .

وروى أيضاً عن علي عليه السلام أنه قال : "ما زال الحسن يتزوج ويطلق حتى خشيت أن يكون يورثنا عداوة في القبائل" .

وروى أبو الفرج في الأغاني : "إن علياً عليه السلام أوعز إلى ابنه (الحسن) أن يقوم بجلد الوليد ، فرفض الحسن وقال له : مالك ولهذا ؟ يكفيك غيرك ، فردّ عليه والده : بل ضعفت ووهنت وعجزت" .
وروى ابن عساكر : "أنه عليه السلام تزوج سبعين امرأة" ، وفي رواية أنه أحسن تسعين امرأة .

وفي المقدسي في البدء والتاريخ : "أنه عليه السلام كان أرخى ستره على مأتي حرة" .

وروى ابن عساكر أيضاً عن هشام عن محمد بن سيرين قال : "تزوج الحسن بن علي امرأة فبعث إليها بمائة جارية مع كل جارية ألف درهم" .

وروى ابن عساكر أيضاً وغيره : "أن الحسين قال للحسن : اعيدك أن تكذب عليا في قبره وتصدق معاوية ، فقال : الحسن والله ما اردت أمراً قط الا خالفتني الى غيره" ^(٩) .

وفي ضوء هذه الروايات وأمثالها كتب لامنس عن الحسن عليه السلام قوله :

"ويلوح أن الصفات الجوهرية التي كان يتصف بها الحسن هي الميل إلى الشهوات والإفتقار إلى النشاط والذكاء ... وقد أنفق خير سني شبابه في الزواج والطلاق ، فأحصي له حوالي المائة زوجة عدداً ، والصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلاق ، وأوقعت علياً في

خصومات عنيفة ، وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف فقد
اختصَّ كلاً من زوجاته بمسكن ذي خدم وحشم وهكذا نرى كيف
كان يبعثر المال أيام خلافة علي التي اشتدَّ عليها الفقر ... ولم يكن
الحسن على وفاق مع الحسين" .

ويظهر أن لامنس لم يكن ضحية تلك الروايات الموضوعية في
تشويه صورة الإمام الحسن عليه السلام حسب ما لديه بل صار يرفض
الحقيقة التي روتها كتب التاريخ حول نهايته بالسم على يد زوجته بعد
أن غررَ بها معاوية ، قال لامنس في آخر الترجمة : "وتوفي الحسن في
المدينة بذات الرئة ولعل إفراطه في المذات هو الذي عجلَ منيته ، وقد
بُذلت محاولة لإلقاء تبعه موته على رأس معاوية ، وكان الغرض من هذا
الالتهام وصم الأمويين بهذا العار ولم يجرؤ على القول بهذا الاتهام الشنيع
جهرة سوى المؤلفين من الشيعة أو أولئك الذين كان هواهم مع العلوية
بنوع خاص . وقد أعطى هذا الإتهام في الوقت نفسه فرصة للإيقاع بأسرة
الأشعث بن قيس المبعوضة من الشيعة ، لما كان لها من شأن في الانقلاب
الذي حدث يوم صفين ، وما كان معاوية بالرجل الذي يقترف إثماً لا
مبهرله . كما إن الحسن المستهتر كان قد أصبح مسالماً منذ أمد طويل
وكانت حياته عبثاً على بيت المال الذي أبهضه مطالبه المتكررة ومن
اليسير أن نعلل إرتياح معاوية وتنفسه الصعداء عند ما سمع بمرض
الحسن" .

الروايات الموضوعتة ضد الشيعة

أ . رواية سيف بن عمر توفي في الفترة (١٧٠-١٩٣) :

استفاد خصوم الشيعة من الروايات التي وضعها سيف بن عمر في حوادث الثورة على عثمان لضرب عقيدة الشيعة بالوصية ، حيث يقول في رواياته : أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً من أهل صنعاء من أمة سوداء ، أسلم على زمن عثمان ثم تنقل في بلاد المسلمين يحاول إضلالهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما كان يقول : أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي ، وكان علي عليه السلام وصي محمد صلى الله عليه وآله ، ثم قال : محمد خاتم النبيين ، وعلي خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وآله و آلوهو ثبت على وصي رسول الله صلى الله عليه وآله ثم تناول الأئمة ، ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان قد جمع أموالاً أخذها بغير حقها ، وهذا وصي رسول الله ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكمواظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتستميلوا الناس ، وادعوا إلى هذا الامر . وهذه الرواية ينفرد بها سيف بن عمر ، وقد قال أهل الجرح والتعديل إنّه كذاب وضاع .

ب . رواية عبد الرحمن بن مالك بن مغول تـ ١٩٥ :

وكذلك استفادوا من رواية عبد الرحمن بن مالك بن مغول عن أبيه عن الشعبي أنه قال : قال لي الشعبي : وأحذركم هذه الأهواء المظلة

وشرها الرافضة لم يدخلوا في الإسلام رغبةً ولا رهبةً ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم قد حرّقهم علي عليه السلام بالنار ونفاهم إلى البلدان منهم عبد الله بن سبأ يهودي من صنعاء نفاه إلى ساباط ، وعبد الله بن يسار نفاه إلى خازر ، وآية ذلك محنة الرافضة محنة اليهود قالت اليهود : لا يصلح الملك إلا في آل داود ، وقالت الرافضة : لا تصلح الإمامة إلا في ولد علي ، وقالت : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينادي منادي من السماء ...

وهذه الرواية ينفرد بها عبد الرحمن بن مالك بن مغول وهو كذاب وضاع .

وإلى هذه الروايتين وأمثالها إستند ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ومن كان قبله ومن جاء بعده ممن أخذ عنه ليقول إن التشيع أصله عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم على عهد عثمان .

قال ابن تيمية : "وقد علم أهل العلم أن أول ما ظهرت الشيعة الإمامية المدعية للنص في أواخر أيام الخلفاء الراشدين وأفتري ذلك عبد الله بن سبأ .

وقال الدكتور سليمان العودة من المعاصرين : إن عبد الله بن سبأ هو أصل التشيع

أقول : مما لا شك فيه إن المسلمين على عهد الرسول صلى الله عليه وآله كانوا فئة واحدة فيهم المؤمن والمنافق ثم حصل التفرق والإختلاف والإقتتال بعده ثم وضعت الأحاديث لتكريس التفرق والإختلاف ولا سبيل لإعادة الوحدة إلى الأمة إلا بفرز الأحاديث الموضوعية وتشخيصها

وفق منهج علمي سليم وهو ما ينبغي أن يتحرك نحوه علماء الأمة
ومتخصصوها ثمَّ يعلنوا عن دراساتهم وبحوثهم لتأخذ مجراها وتؤدي
دورها بهدوء وتوؤدة



الفصل الثالث
تاريخ الإسلام

الفصل الثالث

تاريخ الإسلام

فإن دين الأنبياء جميعاً واحد، حيث أرسل الله رسله وأنزل كتبه بدعوة جوهرها واحد، وهي الدعوة إلى توحيده وعبادته والتمسك بطيب الاخلاق وحسن السلوك.

ولما بعث الله محمداً ﷺ أمره بما أمر به إخوانه من الانبياء، وأرسله إلى الناس أجمعين، وارتضى دينه للعالمين ديناً، فكمل به الدين، وتم ببعثته الفضل العميم.

ولأن الإسلام دين الله الخاتم، فقد امتاز بخصائص ذاتية جعلته في الماضي وتجعله اليوم أسرع الأديان انتشاراً على وجه الأرض، فقد غطى الإسلام نصف الأرض بحضارته، وتسابقت الأمم إلى الدخول فيه لما قرأت فيه من توافق مع الفطرة ومواءمة مع العقول، وسماحة في المعاملة، ويسر في المعتقد.

لكن هذا النجاح الذي حققه المسلمون بإسلامهم دفع البعض للإساءة إلى الإسلام، فما من دين ولا نحلة أصيب بما تعرض له الإسلام العظيم من تشويه أسهمت به جيوش من المفكرين الذين تعمدوا أحياناً الإساءة إليه بطمس حقائقه وإصاق النقائص به زوراً وبهتاناً، في حين أخطأوا في أحيان أخرى في فهمه، فأنحرفوا بعيداً عن حقائقه وأصوله.

ولسنا نبرئ أنفسنا نحن المسلمين من الإساءة إلى ديننا بتصرفات بعضنا التي يبرأ منها الإسلام الذي أضحى أسيراً بين مطرقة أعدائه وسندان جهل محيط ببعض أبنائه.

والواجب على العاقل الحصيف إذا ما أراد التعرف على دين ما؛ النظر في أصوله بعيداً عن تصرفات أبنائه واتهامات أعدائه، فما من دين ولا فكر إلا ويوجد خطأ وجنوح في بعض المنتسبين إليه، من غير أن يجنح أحد إلى تعميم الأحكام، فالحكم على الهيئات فضلاً عن الأديان إنما يرجع فيه إلى الأصول، لا إلى السلوك الأرعن أو الخاطئ من بعض الأتباع، لذا كان من الواجب أن نفهم الإسلام كما هو، كما أنزله الله بعيداً عن الأحكام المسبقة المثقلة بأوهام الاستشراق وإفكه.

وإذا أردنا التعرف على الإسلام عن طريق أصوله؛ فإننا لن نجد مدخلاً أفضل من تدبر الحوار الذي جرى بين جبريل عليه السلام أمين الوحي من أهل السماء، والنبى محمد ﷺ أمين الوحي من أهل الأرض، حيث أتى جبريل النبي ﷺ فسأله عن مراتب الدين، ليُسمع الصحابة إجابته، فيفقهوا دينهم، قال جبريل: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: ((الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)). قال: صدقت. قال عمر: فعجبنا له يسأله ويصدقه!.

قال جبريل: فأخبرني عن الإيمان؟ فأجابه ﷺ: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)) قال: صدقت.

قال جبريل: فأخبرني عن الإحسان؟ فقال ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)).^(١)

فهذه أصول الإسلام بإجمال، فأى شيء يعاب منها؟
ولسوف نشرع في التعريف والتفصيل في شرح هذه الأصول، لنقف على الأبعاد الأخلاقية والحكم الإلهية في تأسيس الإسلام والإيمان على هذه القواعد.

كما سنعرض بالشرح والبيان لكشف حقيقة ما يردده البعض عن اتهام الإسلام بالإرهاب والحض على الكراهية، وبأنه ظلم المرأة وعطل طاقتها، فنجيب في هذا الصدد عن بعض ما يثار عن الإسلام، ونهديه لمن أراد التعرف على الإسلام عن طريق أصوله ومبادئه.

ونتقدم بهذه الرسالة التي تبتغي منها التعريف بالحق الذي انشرفت به صدورنا، وارتضته عقولنا، فهي دعوة للتأمل في تعاليم الإسلام ثم اللحاق برهط المؤمنين الفائزين عند الله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه (البينة: ٧ - ٨).

(١) أخرجه البخاري ح (٥٠)، ومسلم ح (٩).

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الإسلام وأركانه

وقبل الشروع في تبيان حقائق الإسلام وأركانه؛ فإن من الواجب أن نتحدث عن اسم (الإسلام).

لفظة الإسلام في اللغة مصدره من أسلم يسلم، ومنه السلامة والسلام.

وحين نتحدث في هذه الدراسة عن الإسلام، فإننا نعني الدين الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، وسماه بذلك لما تضمنه من الدعوة إلى الاستسلام لله وحده والانقياد والخضوع له بالطاعة .

وهذا الاسم لا يستمد اسمه من اسم نبي أو وطن، بل مشتق من خصيسته الأساس التي لم تفارقه في طور من أطواره طوال تاريخ الإنسانية، فهو الاستسلام لله تبارك وتعالى وحده دون سواه.

والإسلام هو دين الله الذي أنزله على جميع الأنبياء، فقد دعوا جميعاً إلى أصول واحدة، تقوم على توحيد الله وتعظيمه وعبادته والاستسلام لأوامره والخضوع لأحكامه والدعوة إلى حراسة فضائل الأخلاق والارتقاء بالسلوك الإنساني.

وأما ما نجده اليوم من تباعد واختلاف بين أتباع الأديان؛ فسببه اندراس الحق وما مرج في رسالات الله السابقة من الباطل.

وقد أطلق الله هذا الاسم الشريف (الإسلام) على المؤمنين في كل حين، كما قال تعالى: (هو سماكم المسلمين من قبل) (الحج: ٧٨)، لأن

المسلم - المؤمن بأي نبي من أنبياء الله - يمثل حقيقة الإسلام،
فيستسلم لله، وينقاد له بالطاعة، ويقف عند حدوده وشرائعه.
فأبو الأنبياء نوح عليه السلام يقول لقومه: (وأمرت أن أكون من
المسلمين) (يونس: ٧٢).

وما فتئ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يدعوان الله أن
يجعلهما من المسلمين: (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة
لك) (البقرة: ١٢٨).

وقبيل وفاة يعقوب عليه السلام جمع أبناءه، وأوصاهم بالاستمسك
بملة إبراهيم الحنيف المسلم (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين
﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين
فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت
إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم
وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) (البقرة: ١٣١ - ١٣٣).

كما طلب موسى عليه السلام من قومه الإذعان لمقتضيات الإسلام
الذي دخلوا فيه، فقال: (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن
كنتم مسلمين) (يونس : ٨٤)، فاستجاب لندائه سحرة فرعون وقالوا:
(ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) (الأعراف: ١٢٦).

وبمثل هذا دعا يوسف عليه السلام ربه حين طلب من الله أن يميته
ويحشره مع المسلمين الصالحين: (توفني مسلماً وألحقني بالصالحين)
(يوسف: ١٠١).

ولما دخلت ملكة سبأ بلاط سليمان، ورأت علامات نبوته؛ نادته
بنداء الإيمان فقالت: (رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب
العالمين) (النمل: ٤٤).

وقد أوضح خاتم النبيين محمد ﷺ وحدة دين الأنبياء فقال: ((أنا أولى
الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم
شيتى، ودينهم واحد)).^(١)

وهكذا فإن دين الأنبياء جميعاً واحد، بني على أساس واحد يدعو
إلى توحيد الله وإفراده وحده بالعبادة، والاستسلام لأوامره، فهو الإسلام
دين الله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام) (آل عمران: ١٩)، وهو
الدين الذي لا يقبل الله من الناس ديناً سواه (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً
فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) (آل عمران: ٨٥).

وقد صدق الله إذ قال لنبيه ﷺ (قل ما كنت بدعاً من الرسل)
(الأحقاف: ٩) فأصول جميع ما أتى به النبي ﷺ قد سبقه إلى الإتيان بها
إخوانه من الأنبياء (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده
وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب
ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً) (النساء: ١٦٣).

(١) أخرجه البخاري ح (٣٤٤٣)، والإخوة لعلات هم الإخوة من أب واحد، وأمهماتهم
مختلفات.

أركان الإسلام

إن الإسلام بنيان كبير يشمل الحياة الإنسانية برمتها، وهو يقوم على أركان خمسة، ويوضحها النبي ﷺ بقوله: ((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)).^(١) وسوف نمضي سراعاً مع هذه الأركان ومقاصدها، ونتجاوز تفصيلاتها وأحكامها التي يمكن للقارئ أن يطلع عليها في مظانها من كتب التوحيد والفقهاء.

الركن الأول: الشهادة لله بالتوحيد، ورسوله محمد ﷺ بالرسالة أولاً: الشهادة لله بالتوحيد

إن أهم مسألة توافق الأنبياء على الدعوة إليها وتعريف الناس بها؛ هي الشهادة لله رب العالمين بالوحدانية، والتعريف بصفات الإله العظيم الذي أبدع الكون وخلقته على هذا النسق المذهل العجيب، ومن ثم التأكيد على استحقاقه وحده للعبادة دون سواه. وبداية: فإن مسألة إثبات وجود الله لم تشغل حيزاً كبيراً في القرآن الكريم، ذلك أنها قضية بديهية وحقيقة يجدها المسلم وغيره في أعماق كيانه، فكل شيء في هذا الكون المحيط بنا يدعونا - ضرورة - للاعتقاد الجازم بوجود خالق حكيم مدبر متصف بصفات الكمال، فكل مخلوق حولنا هو في حقيقته شهادة لله على وجوده، بل على عظمته وكماله.

(١) أخرجه البخاري ح (٨)، ومسلم ح (١٦).

إن البشرية لم تتكرر يوماً وجود هذا الإله - وإن اختلفت في تسميته ووصفه - ، فقد اتفقت معتقداتها على وجود خالق مبدع للكون، سماه البعض بواجب الوجود الذي أوجد هذه الممكنات جميعاً.

وحتى ما يسمى بالمذاهب المادية الإلحادية هي في حقيقتها لا تتكرر وجود هذه القوة الإلهية التي نسجت الكون وفق قوانين محكمة، بيد أنها هربت من الاسم الذي تدعيه الكنيسة لهذه القوة العظيمة (الله)، ونسبتها إلى تسمية مبتدعة تفتقر إلى الوضوح (الطبيعة وقوانينها)، فاسم الطبيعة لا يدل على شيء محدد، إذ لا يمكن أن يفهم منه أن الإنسان الأول خلق نفسه وهو أحد مكونات الطبيعة، ولا أن ما نراه من بحار زاخرة قد أبدعت نفسها في زمن ما، بينما عمدت الطيور والحيوانات إلى إنتاج الأجناس الحيوانية الأولى، بل وحتى المخلوقات الأبسط كالبيكتيريا لا تستطيع أن تهب نفسها وقود الحياة الذي يدبُّ فيها.

إن أحداً لا يخالف في أن هذا الكون من خلق وإبداع خالق عظيم حكيم، هو ربنا (الأعلى) الذي خلق فسوى ﴿١﴾ والذي قدر فهدى (الأعلى: ١- ٣)، ولو صدقوا في تسميته لأسموه خالق الطبيعة ومدبر شؤونها (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴿٢﴾ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴿٣﴾ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون (الطور: ٣٥- ٣٧).

ولما سمع الصحابي جبير بن مطعم هذه الآية قال: (كاد قلبي أن يطير).^(١)

إن الإلحاد المتمثل في إنكار الخالق شذوذ يستبشعه العقل البشري وتآباه الفطرة السوية، فما الإنسان بخالق نفسه، وإذا كان الإنسان الذي يتميز عن كل الموجودات بما يمتاز به من العقل والإرادة والتسخير عاجزاً عن خلق نفسه؛ فغيره من المخلوقات أعجز، لذا فلا مناص من التسليم بوجود الإله العظيم، ففي كل زاوية من زوايا الكون آية تدل على وجوده، لا بل تشهد له بالكمال والجلال والعظمة.

وأهم ما توافق الأنبياء على الدعوة إليه؛ وحدانية الله وإفراده بالعبادة دون سواه، فهو جوهر رسالاتهم جميعاً (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (الأنبياء: ٢٥).

وسجل القرآن الكريم مضمون هذه الدعوة على لسان عدد من الأنبياء، فهاهم رسل الله - نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم - يقولون بلسان واحد: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (المؤمنون: ٢٣)، (هود: ٥٠، ٦٠)، (الأعراف: ٨٥).

وكما دعا الأنبياء إلى توحيد الله الواحد؛ فإنهم حذروا أقوامهم من الشرك - سواء أكان المعبود مع الله بشراً أم حجراً أم حيواناً أم ملاكاً - لأن الله أوحى إليهم جميعاً بذلك (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴿٦٦﴾ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) (الزمر: ٦٥ - ٦٦).

(١) أخرجه البخاري ح (٤٨٥٤).

وكان المسيح عليه السلام من هؤلاء الأنبياء الذين حذروا أقوامهم من الشرك: (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) (المائدة: ٧٢).

ولما كانت معرفة أسماء الله وصفاته تعجز عن التتبؤ بها العقول وتحار في إدراكها الأفهام وتختلف؛ فإن الله تبارك وتعالى - بمنه وفضله - خلص البشرية من حيرتها، فعرّفها بأسمائه وصفاته حين بعث بوحيه أنبياءه وأنزل على العالمين كتبه، فكان أهم ما حملته النبوات إلى الإنسانية تعريفها بخالقها.

وقد ذكر الله في كتابه الأخير، القرآن الكريم، أن له تبارك وتعالى أسماء حسنى، غاية في الحسن والجلال والكمال (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) (طه: ٨)، وهي تدل جميعها على ذات واحدة يدعوها المسلم في صلاته ودعائه (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) (الأعراف: ١٨٠).

ومن أسماء الله الحسنى ما جاء في قوله تعالى: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (الحشر: ٢٢-٢٤).

وهذه الأسماء الإلهية مع دلالتها على الذات الإلهية فإنها تثبت لله تبارك وتعالى غاية ما تدل عليه من أوصاف الكمال والتزويه ، فهو الملك الذي لا يد له في ملكه ، وهو الحكيم الذي لا يُداني في حكمته ، إنه الله العظيم الذي جلَّ عن النظير والمثيل والشبيه (ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير) (الشورى: ١١) ، وهو الله الواحد الأحد (قل هو الله أحدٌ ﴿الله الصمد ﴿لم يلد ولم يولد ﴿ولم يكن له كفواً أحدٌ ﴾ (سورة الإخلاص) ، (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) (النحل: ٧٤).

إن الإيمان بالله الموصوف بصفات العظمة والكمال يهذب السلوك الإنساني ، حين يستحضر معية الرب له ، فيعلم باطلاع الرب عليه ، وهو العليم المحييط القادر على كل شيء ، فيستحي المؤمن به أن يراه ربه ومولاه على حال المعصية؛ وهو القوي ذو البأس والبطش الشديد ، وأولى منه أن نعبد ونسعى في مرضيه ، لنفوز بجنته وعظيم جزاء الرب العفو الغفور الكريم الودود.

وهكذا فالمؤمن يستقيم سلوكه خوفاً من الله وعقابه ، وطمعاً في ثوابه وجزائه ، وهذا هو حال المؤمنين الذين امتدحهم ربهم (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) (الأنبياء: ٩٠).

إن المسلم حين يؤمن بالله الواحد الخالق الرازق الذي بيده مقادير الأمور؛ فإنه يلجأ إليه وحده في السراء والضراء ، في الصغير من أموره والكبير ، ليقينه بمعية الله تعالى للمؤمنين وقربه منهم وإطلاعه على

سرايرهم وأعمالهم ، وأنه تعالى وحده القدير الذي بيده مقاليد الأمور)
إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿١٢﴾ فسبحان الذي بيده
ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) (يس: ٨٢ - ٨٣) ، وهو تبارك وتعالى
الذي (له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه
بكل شيء عليم) (الشورى: ١٢).

فإذا نظر المرء إلى ما أولاه الله من نعمه وآلائه التي لا تحصى؛ فإنه
يفيض قلبه بمحبته (والذين آمنوا أشد حباً لله) (البقرة: ١٦٥) ، وكيف
لا يحبه ، والله العظيم قد سبق فأحب عباده المؤمنين الطائعين (إن الله
يحب المحسنين) (البقرة: ١٩٥) ، (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)
(البقرة: ٢٢٢) (والله يحب الصابرين) (آل عمران: ١٤٦) (إنه هو بيدي
ويعيد ﴿١٣﴾ وهو الغفور الودود) (البروج: ١٣ - ١٤).

وهذه المحبة لله تجعل المسلم معلق القلب بالله ، يرجو رضاه ، ومن
أعظم ما يتطلع إليه المؤمن نوال الجنة دار الخلود التي أعدها الله لمن
أحبه من عباده (فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعينٍ جزاءً بما
كانوا يعملون) (السجدة: ١٧).

ومحبة المسلم لربه تجعله يمتنع عن كل ما يغضب الرب الذي يحبه
، فيكره ما كرهه محبوبه ، والله لا يكره ولا يمقت إلا السيء من
القول والعمل والخلق (إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً) (النساء:
١٠٧) (والله لا يحب المفسدين) (المائدة: ٦٤) (ولا تعتدوا إن الله لا يحب
المعتدين) (المائدة: ٨٧).

ثانياً: الشهادة بأن محمداً رسول الله

حتى تقوم حجة الله على خلقه أرسل الله الرسل، وختمهم بمحمد ﷺ، وجعله رسوله إلى العالمين (وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونديراً) (سبأ: ٢٨)، فهي مزيته ﷺ على سائر إخوانه من الأنبياء ((كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة)).^(١)

والنبي ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي، ولد يتيماً بمكة المكرمة عام ٥٧١م، ونشأ فيها، وحين بلغ الأربعين من العمر آتاه الله النبوة، حين نزل عليه الملاك جبريل بالوحي وهو في غار حراء شرق مكة المكرمة، فدعا قومه إلى الإسلام، فأمن به رهط قليل، وامتنع عن الإيمان به سادة قبيلته (قريش) الذين خافوا من ذهاب زعامتهم وزوال امتيازاتهم، فكذبوه وآذوه، وعذبوا بعضاً من أصحابه بأشد أنواع النكال والعذاب، بل قتلوا بعضهم، رضوان الله على الجميع.

فهاجر النبي ﷺ والمؤمنون معه إلى يثرب (المدينة المنورة)، وأقام فيها المجتمع الإسلامي المتمثل بهدي الله، وكان أول ما صنعه النبي ﷺ فيها أن بنى مسجده فيها وأخى بين المسلمين بأصرة العقيدة على اختلاف أجناسهم وأوطانهم، ثم عقد مع يهود المدينة معاهدة للتعايش المشترك الآمن والتعاقد على حماية المدينة.

وفي المدينة المنورة دعا النبي ﷺ العرب والعجم إلى الإيمان به، فأرسل الرسل إلى ملوك الأرض وحكامها يشرح لهم مبادئ دينهم، فأمن به

(١) أخرجه البخاري ح (٤٣٨)، ومسلم ح (٥٢١).

بعضهم، وناوأه غيرهم، وأرسلوا إليه الجيوش، فقاتل ﷺ من عاداه وأعاق دعوته، حتى نصره الله بنصره، وقبل أن يغادر النبي ﷺ الدنيا عام ٦٣٣م أقر الله عينيه بانتشار الإسلام في سائر الجزيرة العربية.

وقد أيد الله النبي ﷺ بما يشهد على نبوته من دلائل وبراهين، كما أُيد بذلك من سبقه من إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وخصه الله عنهم بدليل ساطع يدوم بدوام رسالته ﷺ، فلا تتقضي دلالته بتقادم الأزمان، ولا تبلى بتصرم الأيام، وهو القرآن العظيم، الكتاب المعجز الذي بهر العالمين، وعجز عن الإتيان بمثله الأولون، ولن يأتي بسورة من مثله الآخرون (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (الإسراء: ٨٨) ، يقول ﷺ: ((ما من الأنبياء من نبي، إلا قد أُعطي من الآيات، ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)).^(١)

فقد حوى القرآن من العلوم ما حير بأسبقيته وعمقه العلماء، كيف لا وقد أنزله الله العليم بكل شيء (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) (النساء: ١٦٦).

فقد سبق القرآن العلم الحديث إلى وصف نشأة الخلق في الماضي السحيق، حين أشار إلى ما يسميه العلماء اليوم بنظرية الانفجار الكبير (Big bang)، فقال تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) (فصلت: ١١)،

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٨١)، ومسلم ح (١٥٢) واللفظ له.

وقال تعالى: (أولم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي أفلا يؤمنون) (الأنبياء: ٣٠).

كما تحدث القرآن عن اتساع الكون وتمدده في قوله تعالى: (والسمااء بنيناها بأبيدٍ وإنا لموسعون) (الذاريات: ٤٧)، وذكر دوران الشمس والقمر والأرض في أفلاك مستديرة (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلكٍ يسبحون) (سورة يس: ٣٨ - ٤٠)، فهذه الأخبار وغيرها علوم دقيقة لم تعرفها البشرية قبله ولا بعده إلا في أواسط القرن المنصرم. ومما يبهر العقول من أخبار القرآن التي سبق فيها العلم الحديث: إخباره بمراحل تطور الجنين في بطن أمه وصور تخلقه: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) (الحج: ٥).

إن هذا الوصف الدقيق لمراحل الجنين أذهل البرفسور مارشال جونسون رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية، فقال: "إنني كعالم أستطيع فقط أن أتعامل مع أشياء أستطيع أن أراها بالتحديد، أستطيع

أن أفهم علم الأجنة وتطور علم الأحياء، أستطيع أن أفهم الكلمات التي تترجم لي من القرآن .. إنني لا أرى شيئاً، لا أرى سبباً، لا أرى دليلاً على حقيقة تفند مفهوم هذا الفرد محمد ﷺ الذي لأبد وأنه يتلقى هذه المعلومات من مكان ما ، ولذلك إنني لا أرى شيئاً يتضارب مع مفهوم: أن التدخل الإلهي كان مشمولاً فيما كان باستطاعته أن يبلغه".

ويضيف البرفسور كيث ل مور مؤلف الكتاب الشهير "أطوار خلق الإنسان" (The Developing Human) الذي يعتبر مرجعاً معتمداً في كليات الطب العالمية: "يتضح لي أن هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله، لأن كل هذه المعلومات لم تكشف إلا حديثاً وبعد قرون عدة، وهذا يثبت لي أن محمداً رسول الله".^(١)

(قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً) (الفرقان: ٦).

وهكذا فإن هذه الأخبار الغيبية العلمية - وغيرها مما يطول الحديث بذكره - دليل الله الساطع على نبوة النبي ﷺ ، فمثل هذه العلوم يستحيل تحصيلها في تلك الأزمنة ، وخاصة من رجل أمي نشأ في بيئة جاهلة (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) (سبأ: ٦).

ومما يشهد له بالنبوة ﷺ ما أوتيته من حسن سيرة وخلق عظيم ، فقد وصفه ربه تبارك وتعالى: (وإنك لعلی خلقٍ عظیم) (القلم: ٤)، وقد غلب

(١) إنه الحق، هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي (ص ٤٩، ٥٢-٥١، ٨١، ١١٦-١٢٠).

لقبه (الصادق الأمين) على اسمه، فصار علماً عليه بين أهل مكة، لذا قال ملك الروم هرقل لأبي سفيان عدو النبي ﷺ حينذاك: "أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.. يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه".^(١)

إن مدعي النبوة إنما ينتحلونها سعياً وراء الكسب الدنيوي الرخيص، سواء أكان هذا الكسب مالياً يسابقون إلى جمعه ليستمتعوا به أو ليورثوه إلى أهليهم من بعدهم، أم كان جاهاً بين الناس يرفع من قدرهم، فيشار لهم بالبنان، ويوسع لهم في المجالس....

فهل كان النبي ﷺ من هذا الصنف أو ذاك؟

إن نظرة سريعة على سمته ﷺ تكشف لنا ما كان عليه النبي محمد ﷺ من تواضع وزهد في الدنيا جمعهما النبي ﷺ، فأوضح خلالهما نبل أخلاقه وطهر سلوكه، بل ودل على نبوته ورسالته.

ومن زهده ﷺ أنه: (ما ترك عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً؛ إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة).^(٢)

(١) أخرجه البخاري ح (٧)، ومسلم ح (١٧٧٣).
(٢) أخرجه البخاري ح (٢٧٣٩).

وهذه الأرض هي أرض فدك التي منعها خليفة النبي ﷺ أبو بكر الصديق من ورثته، وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قال: ((لا نورث، ما تركنا صدقة))، وأضاف الصديق: "لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ".^(١)

إن الذي تركه النبي ﷺ ليس ميراثاً يفتنون به من بعده، بل ديناً يؤدونه من بعده، فقد مات ﷺ، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير.^(٢)

لقد كان ﷺ يحذر أن يغادر الدنيا وقد أخذ منها مغماً، إذ تذكر زوجته عائشة رضي الله عنها أنه كان في بيتها بعض قطع من ذهب، فقال لها رسول الله ﷺ: ((ما فعلت الذهب .. ما ظن محمد بالله لو لقي الله عز وجل وهذه عنده؟ أنفقيها)).^(٣)

وليس تعففه ﷺ عن شهوة الجاه بأقل من تعففه عن شهوة المال، فقد قال له رجل: يا سيدنا وابن سيدنا، ويا خيرنا وابن خيرنا. فقال عليه الصلاة والسلام: ((يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)).^(٤)

(١) أخرجه البخاري ح (٣٠٩٣)، ومسلم ح (١٧٥٧).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٧١٩).

(٣) أخرجه أحمد ح (٢٤٩٦٤).

(٤) أخرجه أحمد ح (١٢١٤١).

وكان ﷺ يمقت كل مظاهر الكِبَر والترفع على الناس، ومنه كراهيته أن يقوم له أصحابه إذا دخل المجلس، يقول صاحبه أنس بن مالك: (ما كان شخصاً أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لِمَا يعلمون من كراهيته لذلك).^(١)

إنه رسول تتلألاً عليه صفات الكمال الإنساني، أتاه رجل فجعلت فرائصه ترعد، فقال له ﷺ: ((هون عليك، فإني لست بملكٍ، إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد)).^(٢)

وتحكي زوجته عائشة رضي الله عنها عن حاله داخل بيته، فتكشفت لنا أن تواضعه ﷺ ليس خلقاً يتزين به أمام الناس، بل خُلة شريفة لم تفارقه، فقد سُئلت: ما كان ﷺ يصنع في بيته؟ فقالت: (كان يكون في مهنة أهله - تعني: خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة)، وفي رواية: (كان بشراً من البشر، يَفْلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدمُ نفسه).^(٣)

وأما صاحبه ابن مسعود، فيحكي عن تناوب النبي ﷺ على الراحلة - وهو منطلق إلى بدر - مع اثنين من أصحابه، وكانا يودان لوبقي النبي على الراحلة، وأنهما يمشيان عنه، لكنه ﷺ كان يقول لهما: ((ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما)).^(٤)

(١) أخرجه أحمد ح (١١٩٣٦)، والترمذي ح (٢٧٥٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه ح (٣٣١٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٢٦٧٧) والقديد هو اللحم المجفف.

(٣) أخرجه البخاري ح (٦٧٦)، وأحمد ح (٢٥٦٦٢)

(٤) أخرجه أحمد ح (٣٧٦٩).

وهنا نسأل: ماذا أفاده دعواه النبوة من متاع الدنيا؟ أفهكذا يصنع

الأدعياء؟!

وإن من دلائل نبوته ﷺ ما آتاه الله من المعجزات الحسية التي خرق الله فيها لئيبه نواميس الكون إظهاراً لنبوته، وقد فاقت هذه المعجزات في عددها الألف، منها أن الله أطعم ببركته يوم الخندق زهاء ألف رجل من بهيمة واحدة وجراب فيه صاعٌ من شعير لا يربو وزنه على ثلاث كيلوات.^(١)

كما تفجر الماء من بين أصابعه، حتى سقى الله من يديه الجموع الكثيرة من أصحابه.^(٢)

وشفى الله على يديه المرضى، ومنهم محمد بن حاطب، فقد انكفأ على ذراعه قدر ماء يغلي، فتنفل النبي ﷺ في فيه، ومسح على رأسه، ودعا له، فقام صحيحاً ما به بأس ولا علة^(٣)، وكذلك مسح على رجل عبد الله بن عتيك الأنصاري لما كُسرت، فقام من بين يديه وقد شفيت.^(٤)

ومما يشهد بالنبوة لمحمد ﷺ بشارة الكتب السابقة به، فهذه الكتب رغم ما تعرضت له من تغيير وتبديل؛ فإنها ما تزال تحمل شهادات صادقة تدل على نبوة النبي محمد ﷺ، ومن ذلك بشارة النبيين موسى وحبقوق به ﷺ، حين بشرنا بنبي قدوس طاهر يخرج من بلاد

(١) انظره في البخاري ح (٤١٠٢)، ومسلم ح (٢٠٣٩).

(٢) انظره البخاري ح (١٦٩)، ومسلم ح (٢٢٧٩).

(٣) انظره في مسند أحمد ح (١٥٠٢٧).

(٤) انظره في البخاري ح (٤٠٣٩).

فاران، ففي سفر التثنية المنسوب إلى موسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل قبيل وفاته: "جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلاًلاً من جبل فاران" (التثنية ٢/٣٣)، فقد أخبرهم عليه السلام بأنه كما جاءت رسالة الله إليه على جبل الطور في سيناء، فإن النبوة ستشرق من جبل سعير في وسط فلسطين، وذلك بنبوّة عيسى عليه السلام، ثم ستتلاًلاً النبوة من فوق جبل فاران بنبي عظيم يخرج فيها.

وأكد سفر النبي حبقوق البشارة بالنبى المبعوث في فاران، فقال: "والقدوس من جبل فاران، جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسيّحه" (حبقوق ٣/٢)، فمن هو هذا العبد الطاهر ذو الهيبة الذي يخرج من فاران، وتمتلئ الأرض من تسيّحه وتسيّح أتباعه؟ وأين هي فاران التي تلاًلات النبوة على جبلها؟

وحتى لا ننتيه بعيداً نذكر أن اسم فاران تستخدمه التوراة في حديثها عن مكة المكرمة، فقد جاء في سفر التكوين أن إسماعيل عليه السلام نشأ وتربى في برية فاران، يقول السُّفّر عن إسماعيل: "كان الله مع الغلام فكبر.. وسكن في برية فاران" (التكوين ٢١/٢١)، ففاران هي الحجاز التي لا تختلف المصادر التاريخية على نشأة إسماعيل في ربوعها.

وبهذا وأمثاله قامت حجة الله على خلقه في نبوة محمد ﷺ.

والإقرار بنبوته ﷺ يستلزم من المسلم الاعتراف باطناً وظاهراً أنه عبد الله ورسوله إلى الناس كافة، والعمل بمقتضى ذلك، بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما

شرع، (وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴿٧٩﴾ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفياً) (النساء: ٧٩-٨٠)، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئٍ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً) (النساء: ٥٩).

ومن مقتضيات الإيمان به ﷺ التأسى بهديه وسلوكه وأخلاقه ﷺ (لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) (الأحزاب: ٢١).

الركن الثاني: إقام الصلاة

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الدين وركنه الركين.

وقد فرضها الله عز وجل على المسلمين، ومنها ما شرع وجوباً، وهو الصلوات الخمس، فهي أول حق الله على عباده، ومنها ما يؤديه المسلم تطوعاً وتحبباً إلى الله الذي خلقه وأنعم عليه بالآله التي لا تحصى.

والصلاة لما لها من الأثر العظيم البالغ في تهذيب النفوس وتقويم السلوك وفي تقوية الإيمان؛ فرضها الله على الأنبياء والأمم السابقة، فلم تخل منها شريعة من الشرائع، وقد حكى القرآن وصاة الله بها لأنبيائه وأقوامهم، فقد دعا إبراهيم أبو الأنبياء ربه فقال: (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) (إبراهيم: ٤٠)، فاستجاب الله دعاءه فكان ابنه إسماعيل من المصلين (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) (مريم: ٥٥).

ومن بعدهما خاطب الله نبيه موسى عليه السلام فقال: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) (طه: ١٤)، وأوصى العذراء البتول بالصلاة فقال: (يا مريم اقنتي لربِّك واسجدي واركعي مع الركعِين) (آل عمران: ٤٢)، وبيَّن المسيح عليه السلام أمر الله تعالى له بالصلاة، فقال وهو في المهد: (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴿٤﴾ وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ ما دمت حياً) (مريم: ٣٠ - ٣١).

وأخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يحافظوا على الصلاة (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذو القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصَّلَاةَ وآتوا الزَّكَاةَ) (البقرة: ٨٣).

ومن بعدهم جاء نبينا ﷺ يدعو إلى ما دعا إليه إخوانه الأنبياء من تعظيم الله وعبادته والصلاة له، وقد أمره الله بها، فقال: (وأمر أهلك بالصَّلَاةَ واصطبر عليها) (طه: ١٣٢)، وامتدح الله في وحيه إليه عباده المصلين فقال: (الَّذِينَ يقيمون الصَّلَاةَ وَيؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥﴾ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) (لقمان: ٤ - ٥)، ووعدهم بالجنة جزاء عليها: (والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلواتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٦﴾ أولئك هم الوارثون ﴿٧﴾ الَّذِينَ يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (المؤمنون: ٩ - ١١).

وما زال النبي ﷺ يوصي بالصلاة لله وعبادته حتى فاضت روحه إلى
باريها، يقول خادمه وصاحبه أنس: كان آخر وصية رسول الله ﷺ وهو
يُغرغر بها في صدره، وما كان يفيض بها لسانه: ((الصلاة الصلاة،
اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم)).^(١)

وحين شرع الله الصلاة وغيرها من العبادات؛ فإنه تبارك وتعالى لم
يكن يستكثر بها من قلة، ولا يستقو بها من ضعف، فهو عز وجل لا
تزيده طاعة الطائعين، ولا تنقصه معصية العاصين، وإنما شرعها لمنفعة
العباد وتركية أنفسهم وتهذيب ضمائرهم وتقويم سلوكهم وصلاح
دنياهم وأخراهم.

وأول ما تحققه الصلاة في المؤمن أنها تنير حياته وتؤنسها بذكر
الله، فقد وصفها النبي ﷺ بأنها نور، فقال: ((من حافظ عليها كانت له
نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة)).^(٢)

وقال: ((والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء)).^(٣)

وقوله ﷺ: ((والصلاة نور)) معناه: أنها تمنع المصلي من المعاصي،
وتتهاه عن الفحشاء والمنكر، وتهديه إلى الصواب كما النور الذي
يستضاء به.

(١) أخرجه أبو داود ح (٥١٥٦)، وابن ماجه ح (٢٦٩٨)، وأحمد ح (٥٨٦)، وصححه
الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٢٦٩٨).

(٢) أخرجه أحمد ح (٦٥٤٠)، وابن حبان في صحيحه ح (١٤٦٧)، ووثق الهيثمي
رجاله في مجمع الزوائد (٢٩٢/١).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٢٣).

فأما اجتناب المسلم للكبائر من الذنوب والفواحش، فسببه أن الصلاة تذكره - فينة بعد فينة - بحق الله عليه وبمراقبته له، فيرعوي وينزجر عن محارمه، قال تعالى: (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) (العنكبوت: ٤٥).

ولما أخبر النبي ﷺ عن رجل يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق؛ قال عليه الصلاة والسلام: ((إنه سينهاه ما يقول)).^(١) أي في صلاته ما سيزجره ويقوم سلوكه.

وكما تبعد الصلاة المؤمن عن الكبائر والفواحش؛ فإنها سبب في مغفرة الله للصغائر من الذنوب التي يلم بها المرء عامداً أو جاهلاً، فيعود بصلاته قريباً من الله العفو الكريم، لأن الصلاة صلة بين العبد وربيه، فقد كان ﷺ يقول: ((الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن؛ إذا اجتنب الكبائر)).^(٢)

وفي حديث آخر سأل النبي ﷺ أصحابه: ((أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟)) فقالوا: لا يبقى من درنه شيء، فقال ﷺ: ((فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)).^(٣)

والصلاة فرصة للمسلم للاستجمام من أتعاب الدنيا، فالمسلم حين يقوم للصلاة يناجي ربه ومولاه؛ يطمئن قلبه بهذه الصلة مع ربه (الذين

(١) أخرجه أحمد ح (٩٤٨٦).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري ح (٥٢٨)، ومسلم ح (٦٦٦).

آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد: ٢٨)، لذلك كان ﷺ يقول لمؤذنه بلال: ((يا بلال أرحنا بالصلاة)).^(١) وكان يفزع إليها كلما حزيه أمر، ويقول: ((جعلت قرة عيني في الصلاة)).^(٢)

وأخيراً؛ فلأهمية هذه العبادة سماها النبي ﷺ عمود الدين، وأخبر أنها أول ما يحاسب الله الناس عليه يوم القيامة، فقال: ((إن أول ما يُحاسبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)).^(٣)

الركن الثالث : إيتاء الزكاة

يتقلب الناس في هذه الدنيا في نعم الله التي آتاهم، ويستمتعون فيها بما منحهم الله من المال والسعة واليسار الذي به تزدان الحياة وتزهو. وحتى يسعد الجميع في أرض الله؛ فإن الله جعل النصيب الأوفر من رزقه لبعض الناس ابتلاء واختباراً، وأوجب لإخوانهم من الفقراء والمساكين وغيرهم حقاً معلوماً في أموال الأغنياء التي آتاهم الله إياها (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (النور: ٣٣)، وهذا الحق المعلوم هو الزكاة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام.

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٩٨٥)، وأحمد في المسند ح (٣٢٥٧٨)، واللفظ له.

(٢) أخرجه النسائي ح (٣٩٣٩)، وأحمد في المسند ح (١١٨٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٤١٣)، والنسائي ح (٤٦٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح (٣٣٧).

وما يدفعه المسلم من ماله فإنما هو طهرة له من ذنوبه وآثامه، وهو سبب في تزكية نفسه وسموها في معارج الطاعة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) (التوبة: ١٠٣).

وأما الامتناع عن أداء الزكاة فهو خيانة لحق الفقير، يتوعد الله فاعله بأليم العذاب: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴿٣٥﴾ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) (التوبة: ٣٤ - ٣٥).

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: ((ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمى عليه في نار جهنم، فيجعل صفائح، فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار)).^(١)

وكما أوجب الله هذا الحق؛ فإنه بيّن أنصبتة ومقاديره والأموال التي يجب فيها، ولم يترك الأمر إلى أذواق الأغنياء وسعة إحسانهم (والذين في أموالهم حق معلوم ﴿٢٤﴾ للسائل والمحروم) (المعارج: ٢٤ - ٢٥).

وقد راعى الإسلام في مقدار الزكاة مصلحة الغني والفقير، فالغني إنما يدفع ٢,٥٪ فقط من أمواله النقدية وتجاراته التي مر عليها عام وهي في حوزة، أي هي مما زاد عن حاجاته ومصروفاته، فهذا هو الحق المعلوم، وأما ما عداه فهو الصدقات غير الواجبة التي يستبق بها المسلمون إلى محبة الله وعظيم رضوانه.

(١) أخرجه مسلم ح (٩٨٧).

وأما الأموال التي أوجب الله فيها الزكاة فهي الذهب والفضة وما يقابلهما من النقود والأسهم والتجاراات، وكذلك ما يعطيه الله للمسلم من زروع وثمار وأنعام (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض) (البقرة: ٢٦٧).

وأما المستحقون لأخذ الزكاة فهم أصناف ثمانية، جمعتهم الآية القرآنية: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليمٌ حكيمٌ) (التوبة: ٦٠).

وأداء الزكاة ينبغي أن يسان بضوابط أخلاقية عالية تجعل من هذا الإنفاق عبادة سامية لله لا يخالطها كبر ولا استعلاء ولا منة على الفقير، فقد وصف الله المؤمنين بقوله: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أدى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴿٢٦٢﴾ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أدى والله غني حليمٌ) (البقرة: ٢٦٢ - ٢٦٣).

والمسلم يقصد بصدقاته وزكاته مرضات الله وجميل ثوابه، وأما المنفق للسمعة والمفاخرة فإن نفقته مردودة عليه، لا بل هو متوعد بالعذاب في الآخرة، ففي الحديث عن النبي ﷺ أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، فذكر منهم رجل تصدق لا ليرضى عنه الله، بل ليقال عنه جواد^(١)، وهو ما يحبط هذه العبادة، ويوجب العقوبة عليها بدلاً من المثوبة (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم

(١) الحديث أخرجه مسلم ح (١٩٠٥).

فيها لا يببخسون ﴿١٦﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (هود: ١٥ - ١٦).

إن هذه الشرعة الربانية صورة من صور التراحم والتلاحم، تحفظ للمجتمع وحدته وتحقق تماسكه، حتى يكون الجميع فيه كالجسد الواحد، قال ﷺ: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)).^(١)

الركن الرابع: صوم رمضان

الصيام هو رابع أركان الإسلام، وهو عبادة فرضها الله في شهر رمضان^(٢)، وفيه يمتنع المسلم عن الطعام والشراب والجماع ومقدماته من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

والصيام فرضه الله على المسلمين وعلى الأمم قبلهم لغاية عظيمة، يجليها قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (البقرة: ١٨٣)، فغاية هذه العبادة تدريب المؤمن على حياة التقوى واجتناب المناهي، وتربيته على السيطرة على إرادته وضبطها، وعدم الانسياق وراء الرغبات الجسدية، وتحريره من أسر الشهوات والعبودية للملذات، فالمسلم الذي يترك في نهار رمضان الحلال من الطعام والشراب والمتع؛ فإنه من باب أولى يمتنع عن الحرام منها في ليل رمضان وفي سائر الأيام والليالي.

(١) أخرجه البخاري ح (٦٠١١) ومسلم ح (٢٥٨٥).
(٢) شهر رمضان هو الشهر التاسع من شهور السنة القمرية.

وقد أخبر النبي ﷺ بأثر الصيام في ضبط الغرائز بقوله: ((من كان منكم ذا طول فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لا فالصوم له وجاء)).^(١)

ويصف النبي ﷺ الصيام بأنه وقاية للمسلم، بما يحتمه عليه من معاني فاضلة وأخلاق سامية: ((والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم)).^(٢) وفي حديث آخر: ((الصوم جنة ما لم يخرقها)).^(٣)

وقد فقه الصحابي جابر بن عبد الله قول النبي ﷺ فقال: (إذا صُمت؛ فليصم سمعك وبصرك، ولسانك عن الكذب والمأثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم فطرك ويوم صيامك سواء).^(٤)

وأما إذا لم يعط الصيام ثمرته السلوكية فقد أضحى عملاً ميتاً لا روح فيه، وقد قال رسول الله ﷺ: ((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)).^(٥)

وهذا العمل الذي لا روح فيه لا يؤجر المسلم عليه ((رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورُبَّ قائم حظه من قيامه السهر)).^(٦)

(١) أخرجه النسائي ح (٣٢٠٦).
(٢) أخرجه البخاري ح (١٩٠٤)، ومسلم ح (١١٥١).
(٣) أخرجه النسائي ح (٢٢٣٥)، وأحمد ح (١٦٩٢).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ح (٤٢٢/٢).
(٥) أخرجه البخاري ح (١٩٠٣).
(٦) أخرجه ابن ماجه ح (١٦٩٠)، وأحمد ح (٨٦٣٩).

ومما يتعلمه المسلم في مدرسة رمضان تحسس مشاعر الفقراء والإحساس بمعاناتهم، وما يستجيشه ذلك من بذل وكرم وإنفاق في سبيل الله، فقد حكى ابن عباس ابن عم النبي ﷺ عنه، فقال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان .. فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة).^(١)

وقد شرع الإسلام لأولئك الذين لا يقدرّون على مشاركة المسلمين صيامهم لمرض ونحوه، شرع لهم إطعام المساكين فدية للصيام الذي عجزوا عنه، فلئن فاتهم مشاركة الفقراء والمحرومين في ألم الجوع، فلن يفوتهم المساهمة في إطعامهم ورفع جوعهم (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خيراً لكم إن كنتم تعلمون) (البقرة: ١٨٤).

ولتعدد حكم هذه العبادة فإن النبي ﷺ ما فتى يوصي بها أصحابه، فقد قال له أبو أمامة: مُرني بأمر آخذه عنك؟ فقال ﷺ: ((عليك بالصيام؛ فإنه لا مثل له)).^(٢)

الركن الخامس : حج بيت الله الحرام

الحج عبادة بدنية فرضها الله على المسلم في العمر مرة واحدة، حيث يفد المسلمون من أصقاع الأرض إلى قبلتهم في مكة المكرمة، ليؤدوا مناسك حجهم في أيام معلومات، يحققون فيها المقاصد التي أرادها الله من تشريع هذه العبادة التي أمر بها أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام حين

(١) أخرجه البخاري ح (٦)، ومسلم ح (٢٣٠٨).

(٢) أخرجه النسائي ح (٢٢٢١)، وأحمد ح (٢١٦٣٦).

قال له: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميقٍ ﴿٢٧﴾ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) (الحج: ٢٧ - ٢٨).

فنادى إبراهيم، ولبي المؤمنون من كل حذب وصوب، وأدوا المناسك كما أداها إبراهيم عليه السلام، وحافظوا على سنة الخليل إبراهيم عليه السلام، كما قال ﷺ للمسلمين في مناسك الحج: ((كونوا على مشاعركم؛ فإنكم اليوم على إرث من إرث إبراهيم)).^(١)

والحج دورة تدريبية للمسلم على ممارسة السلام، فمناسكته تؤدي في البلد الحرام الذي يأمن فيه الطير والشجر والإنسان، قال ﷺ: ((إن هذا البلد حرمة الله، لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها)).^(٢)

والحج أيضاً مظهر من مظاهر المساواة والوحدة بين المسلمين، حيث يجتمع فيه المسلمون من كل حذب وصوب، في لباس واحد، على صعيد واحد، لا يتقدم فيهم غني على فقير، ولا أبيض على أسود، وقد خطب النبي ﷺ أصحابه في أيام الحج، فقال: ((يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)).^(٣)

(١) أخرجه الترمذي ح (٨٣٣)، وأبو داود ح (١٩١٩)، وابن ماجه ح (٣٠١١)،
والحاكم ح (١٦٩٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ح (١٦٧٥).
(٢) أخرجه البخاري ح (١٥٨٧)، ومسلم ح (١٣٥٣).
(٣) أخرجه أحمد ح (٢٢٩٧٨).

ومن مقاصد الحج ذكر الله تعالى وتعظيمه واستغفاره مما سلف من الذنوب والعصيان (فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴿١٩٨﴾ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) (البقرة: ١٩٨ - ١٩٩).

وكما كان المشعر الحرام لذكر الله، فإن أيام منى هي أيضاً كذلك (واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى) (البقرة: ٢٠٣).

فإذا انتهت مناسك الحج؛ فإن المسلم مطالب بلزوم ذكر الله في سائر أيامه (فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) (البقرة: ٢٠٠).

ومن مناسك الحج وشعائره ذبح الهدي قرباناً لله عز وجل، قال تعالى: (والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير) (الحج: ٣٦)، وفي مقدمة هذا الخير تحقيق تقوى الله وتمثلها في حياتنا السلوكية (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) (الحج: ٣٧).

ومن أعظم مقاصد الحج تهذيب سلوك المسلم الحاج، قال تعالى: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب) (البقرة: ١٩٧)، فالحاج ينبغي عليه

اجتتاب المعاصي لِيَتَحَقَّقَ لَهُ الْغُفْرَانُ وَالْخُلُوصُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، قَالَ ﷺ: ((مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرِفْثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)).^(١)

وَالْحَجُّ الَّذِي تَتَوَافَرُ فِيهِ هَذِهِ الشَّرُوطُ وَيَحَقِّقُ تِلْكَ الْمَعَانِي يُسَمِّيهِ الرَّسُولُ ﷺ بِالْحَجِّ الْمَبْرُورِ، فَيَقُولُ: ((الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جِزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ)). قِيلَ: وَمَا بَرَهُ؟ قَالَ: ((إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الْكَلَامِ)).^(٢)

وَهَكَذَا فَإِنَّ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ تَهْدَفُ جَمِيعاً إِلَى تَزْكِيَةِ الْمُسْلِمِ وَتَهْذِيبِ سُلُوكِهِ وَرِبْطِ قَلْبِهِ بِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

لَكِنِ الْإِسْلَامُ لَيْسَ هَذِهِ الْأَرْكَانُ فَحَسْبُ، إِنَّهُ هِبَةُ اللَّهِ لِلْبَشَرِيَّةِ، إِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي يَعَالِجُ مَشْكَالَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، فَيَنْظُمُ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِرَبِّهِ، ثُمَّ بِأَخِيهِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ بِالْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي يَقُومُ عَلَى تَحْقِيقِ التَّوَازُنِ بَيْنَ مَطَالِبِ الْجَسَدِ وَمَطَالِبِ الرُّوحِ، وَيَشْبَعُ الْعَقْلَ وَيُرْوِي الْعَاطِفَةَ.

وَلَسَوْفَ يَتَجَلَّى لَنَا بَهَاءُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ مَفْهُومِ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ.

مفهوم العبادة في الإسلام

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ لِغَايَةِ شَرِيفَةٍ، تَسْمُو بِوُجُودِهِ عَنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ لِلْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْجِنْسِ، هَذِهِ الْغَايَةُ هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ح (١٥٢١).
(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ح (١٤٠٧٣)، وَابْنُ خَزِيمَةَ ح (٢٥١٤).

﴿ ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون ﴾ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (الذاريات: ٥٦ - ٥٨).

لكن مفهوم العبادة في الإسلام ليس محصوراً في صلوات وتمتمات وطقوس تمارس في أوقات محددة، بل هو أوسع من ذلك بكثير، إنه منهج للحياة الإنسانية برُمَّتْها (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣)، فلا يعرف المسلم لحظة يقضيها بعيداً عن عبادة مولاه.

ويرفض مفهوم الإسلام للعبادة وجود وسطاء بين الله وعباده، فليس في الإسلام كهنوت أو رجال دين، فالمسلم يصلي وحده وفي جماعة المسلمين، في المسجد أو في البيت أو في أي مكان طاهر تدركه فيه صلاة؛ من غير حاجة إلى وسيط أو بناء محدد، قال ﷺ: ((وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة؛ فليصل)).^(١)

وإذا ما قصر المسلم في حق الله أو طمع في خير عنده؛ فإنه يطلب من الله بُغيته من غير وسيط يعترف له، ولا شفيع يرجو شفاعته (والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) (آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦).

(١) أخرجه البخاري ح (٣٣٥)، ومسلم ح (٥٢١).

وأيضاً يرفض الإسلام قصر الدين على العلاقة بين العبد وربّه
فحسب، ويعتبر هذا قصوراً يقعد بالدين عن الغاية التي أنزل الله لأجلها
الكتب وبعث لتحقيقها الأنبياء، وهي إصلاح الحياة الإنسانية، والقيام
بواجب الاستخلاف في أرض الله وفق منهجه وشرائعه، فلأجل هذا خلق
الله أبانا آدم (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً)
(البقرة: ٣٠)، وهذا الاستخلاف لآدم يمتد ليشمل ذريته من بعده (هو
الذي جعلكم خلائف في الأرض) (فاطر: ٣٩)، ويسميه الله في آية
أخرى بعمارة الأرض (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)
(هود: ٦١).

وهكذا، فإن الواجب المطلوب من الإنسان هو عمارة الأرض، وهذا
المطلب الكبير لن تحققه أديان لا تتناول في نظرتها وتشريعاتها الحياة
الإنسانية بمناسطها المختلفة.

ومن هنا كان مفهوم الإسلام للعبادة شمولياً، فالعبادة في الإسلام
هي فعل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال الظاهرة
والباطنة، فهي لا تتوقف عند مظاهر الشعائر الظاهرة، بل تتناول أفعال
القلب واللسان والجوارح.

تغطي هذه العبادة دوائر عدة في حياة المسلم، أولها: علاقته مع الله
خالقه، وثانيها: ما يتعلق بالإنسان من آداب خاصة كالنظافة الشخصية
وآداب الممارسات الحياتية، كالطعام والشراب والنوم والجنس وقضاء
الحاجة واللباس، وثالثها: علاقته مع أسرته ومجتمعه، ورابعها: علاقته
مع الأسرة الإنسانية، وأخيراً: علاقته مع بيئته والكون من حوله.

وبموجب المنهج الرياني للعبادة في الإسلام يترابط ببيان الإيمان
ليشمل الأصول ويمتد إلى الفروع والآداب، كما قال ﷺ: ((الإيمان بضع
وسبعون شعبة، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذى عن
الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)).^(١)

وكل ذلك في ترابط فريد، وتمازج متناغم لا يقبل الفصام النكد
الذي يعزل الدين عن مناحي الحياة الإنسانية، ويحبسه داخل المعبد،
فقد قال الله مبكثاً صنيع السابقين: (أفتؤمنون ببعض الكتاب
وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة
الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴿١٠٦﴾
أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم
ينصرون) (البقرة: ٨٥ - ٨٦).

وفي مقابله أمر الله المسلمين بأخذ الدين بكل شرائعه وتفصيلاته،
وحذرهم من تجزئته والإدبار عن شيء منه؛ لأنه فعل ذميم يقوم على
منازعة الله حقه في الهيمنة على كافة شؤون حياتنا الإنسانية، وهو في
حقيقته اتباع للشيطان واستجابة لطريقته في الإضلال، حيث يتدرج
بالمراء، فيغريه بترك البعض، وما يزال به حتى يترك الكل، قال تعالى: (يا
أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه
لكم عدو مبين) (البقرة: ٢٠٨).

إن التمازج في الإسلام بين الدين والدنيا، والروح والجسد، والدنيا
والآخرة، والفرد والمجتمع؛ حقيقة ساطعة عبرت عنها آيات عديدة في

(١) أخرجه مسلم ح (٢٥).

القرآن ، فعلى سبيل المثال تجمع الآيات القرآنية العلاقة مع الله جنباً إلى جنب مع الأخلاق والمعاملة مع الناس من غير تفرقة ، كما في قوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والسائلین وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرین فی البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذین صدقوا وأولئك هم المتقون) (البقرة: ۱۷۷).

ومثله في قوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذی القربى والیتامى والمساكين والمساكين والجار ذی القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبیل وما ملکت أیمانکم إن الله لا یحب من كان مختالاً فخوراً) الذین یبخلون ویأمرون الناس بالبخل ویکتُمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً والذین ینفقون أموالهم رثاء الناس ولا یؤمنون بالله ولا بالیوم الآخر ومن یکن الشیطان له قریناً فساء قریناً) (النساء: ۳۶ - ۳۸).

ويؤكد الإسلام على شموليته بالتبعية على بعض العبادات المتعلقة بحقوق العباد ، فيقول ﷺ: ((تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر

والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة)).^(١)

ويضع النبي ﷺ ميزاناً للخيرية، يقدم العبادة بمفهومها الشمولي، حين يجعل بعض صورها المختصة بالعباد مقدمة على أخرى مما يتعلق برب العباد، وتجعل صاحبها محبوباً عند الله: ((أحب الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً)).^(٢)

إن حرص المسلم على هذه المحبة الإلهية يدفعه لبذل الخير والمسابقة فيه حتى للحيوان الأعجم، فقد قال ﷺ: ((ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرِق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يريزوه أحدٌ لآي يسأله إلا كان له صدقة)).^(٣)

ولكي يعمق النبي شعور المسلم بأهمية جميعوحدة أنواع العبادة - حتى وإن كانت مرتبطة بحق الحيوان - فإنه أخبر أصحابه والمسلمين من بعدهم عن قصة رجل من السابقين رأى كلباً يأكل الثرى من العطش، ((فأخذ الرجل خُفَّهُ، فجعل يغرف له به، حتى أرواه، فشكر

(١) أخرجه الترمذي ح (١٩٥٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، وحسن الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة ح (٩٠٦).

(٣) أخرجه مسلم ح (١٥٥٢).

اللَّهِ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ))، فسأله الصحابة فقالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ((في كل ذي كبد رطبة أجر)).^(١)

وأما ثمرات العبادة التي يؤديها المسلم لربه، فهي كثيرة، منها اطمئنان قلبه واستقامة جوارحه، وهو ما يُكسب المرء سعادة الدنيا، وهي عاجل نصيبه من الخير، الذي ليس آخره ما نشهده من استقرار نفسي واجتماعي في حياة المسلمين الملتزمين بهدي الإسلام، فهو ثمرة من ثمرات الطاعة والإيمان (من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل: ٩٧).

وفي المقابل فإن ما تشهده بعض المجتمعات من جرائم اجتماعية وأمراض نفسية وحالات اكتئاب أدت إلى نسب مرتفعة ومقلقة في الانتحار^(٢)، إنما هو ثمن عادل تدفعه البشرية جزاءً وفاقاً لتكبتها هدي الله وإعراضها عنه (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) (طه: ١٢٣ - ١٢٤).

(١) أخرجه البخاري ح (١٧٤)، و مسلم ح (٢٢٤٤).
(٢) تشير إحصائية منظمة الصحة العالمية - التي صدرت في اليوم العالمي لمنع الانتحار والاهتمام بالصحة العقلية في العاشر من شهر سبتمبر من العام ٢٠٠٦م - إلى أن عشرين مليون شخص يحاولون الانتحار سنوياً، وأن الذين ينجحون ويموتون فعلياً منتحرين يربو على مليون شخص سنوياً.

لكن الجزاء الأكبر الذي يحوزه المؤمن - بعبادته لربه - هو جنة الله ورضوانه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هي دار القرار ﴿٤٠﴾ من عمل سيئةً فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حسابٍ) (غافر: ٣٩- ٤٠).

العبادة والأخلاق

ومن أهم ما بعث الله الأنبياء من أجله: تزكية عباده وتحليتهم بالخلق الحسن والسلوك الأقوم، وقد امتن الله على البشرية بمحمد ﷺ الذي دعا إلى تزكية نفوسهم وخلوصها من عيوبها وآفاتها (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (آل عمران: ١٦٤).

فتزكية النفوس بالأخلاق الفاضلة هدف رئيس في بعثة الأنبياء ، ومنهم محمد ﷺ القائل: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)).^(١)

وقد قدم ﷺ القدوة الحسنة لأصحابه حين تمثل جميل الأخلاق وصفات الكمال، ممتثلاً ما يوحي الله إليه في القرآن ، فكان في خلقه كما وصفه ربه (وإنك لعلى خلق عظيم) (القلم: ٤) ، وصادقت على هذا الوصف زوجه عائشة فقالت: (كان خلقه القرآن)^(٢) ، وأكدته صاحبه

(١) أخرجه أحمد ح (٨٧٢٩) واللفظ له، والبخاري في الأدب المفرد ح (٢٧٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥).
(٢) أخرجه أحمد ح (٢٤٠٨٠).

عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بقوله: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: ((إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً)).^(١)

إن الأهمية البالغة للأخلاق جعلت النبي ﷺ يربط خيرية المسلم عند الله بحسن الخلق الذي يثقل في الميزان حسنات المؤمن ويحبيه إلى الله، فقد قال ﷺ: ((ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء))^(٢)، فحسن الخلق يحسب للعبد في ميزانه بمثابة عبادتي الصوم والقيام لله في الليل، وهما من أفضل العبادات وأرفعها في ميزان المسلم، يقول ﷺ: ((إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)).^(٣)

ووفق هذه الحيثية فإن حسن الخلق أوسع باب يوصل إلى الجنة، ولما سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: ((تقوى الله وحسن الخلق)).^(٤)

إن صاحب الخلق الحسن ليس في الجنة فحسب، بل هو في أعلاها، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أنا زعيمٌ ببیت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببیت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببیت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)).^(٥)

(١) أخرجه البخاري ح (٣٥٥٩)، ومسلم ح (٢٣٢١).
(٢) أخرجه الترمذي ح (٢٠٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ح (٢٦٤١).
(٣) أخرجه أبو داود ح (٤٧٩٨)، وأحمد ح (٢٤٤٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح (٢٦٤٣).
(٤) أخرجه الترمذي ح (٢٠٠٤)، وابن ماجه ح (٤٢٤٦)، وأحمد ح (٩٤٠٣)،
والبخاري في الأدب المفرد ح (٢٨٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب ح (٢٦٤٢).
(٥) أخرجه أبو داود ح (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب ح (٢٦٤٨).

وأعلى الجنة هو جزاء الله للأنبياء، فينعم صاحب الخلق الحسن برفقتهم كما قال ﷺ: ((إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتفيهقون المتشدقون)).^(١)

وهذه الأهمية للأخلاق تتبع من كونها جزءاً من الإيمان، فلا يكمل إيمان المسلم إلا بالتزامه بها، ولا يزهر إيمانه إلا بمقدار ما يتحقق فيه منها، فإذا نقصت أخلاق المرء نقص إيمانه، وإن زادت زاد، يقول أنس بن مالك: ما خطبنا نبي الله ﷺ إلا قال: ((لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))^(٢)، وكان ﷺ يقول: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)).^(٣)

وكان ﷺ يقول: ((خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق)).^(٤)

والأخلاق الفاضلة التي صانها الإسلام وتعبّد المسلمين بتمثلها كثيرة، وليس بأقل منها ما حذر منه من أخلاق مستقبحة مستبشعة، ونكتفي بإيراد بعض النصوص المتحدثة عن الأخلاق، فلعله يغني عن الكثير من الشرح والتطويل:

(١) أخرجه أحمد ح (17278)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٧٩/٢) بشواهده.

(٢) أخرجه أحمد ح (11975).

(٣) أخرجه البخاري ح (١٣)، ومسلم ح (٤٥).

(٤) أخرجه الترمذي ح (١٩٦٢)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: "صحيح لغيره" ح (٢٦٠٨).

قال تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) (النحل: ٩٠).
وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) (الأنفال: ٢٧).
وقال: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمًا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً) (النساء: ٥٨).
وقال: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) (التوبة: ١١٩).

وقال: (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (آل عمران: ١٧).

مراتب الأحكام التكليفية

وتدور تشريعات الإسلام بمناحيها المختلفة في خمس مراتب من جهة إلزاميتها:

أولها الفروض والواجبات، وهي ما طلبه الله ورسوله من الطاعات على جهة الإلزام، فالمطيع فيها مثاب مأجور، والعاصي مأزور، ومن ذلك الصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحسن الخلق والتوبة من الذنوب وكسب المال من الحلال والإنفاق على الزوجة والأولاد وبر الوالدين وصلة الرحم والتعاون مع

الآخرين على أعمال البر والتقوى، وكذلك حجاب المرأة من الرجال الأجنب عنها.

والثانية هي السنن المستحبة، وهي ما طلبه الله ورسوله على جهة الندب والاختيار، لا الأمر والإلزام، فيأجر الله المطيع فيها، ولا يؤاخذ المقصر، لكن الإتيان بالمستحبات برهان على محبة العبد لربه وتشوقه إلى طاعته ومرضاته، فيقابل الله صنيعه بمحبة العبد وتوفيقه، فقد روى النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: ((وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)).^(١)

والسنن المندوب إليها باب واسع من أبواب الخير، ومنه التنفل في العبادات بالصوم في غير رمضان، والصلوات - غير الصلوات الخمس - والإحسان إلى الفقراء والأيتام والمحتاجين في غير الزكاة الواجبة، وزيارة المريض، وكثرة الاستغفار، وذكر الله، والتطوع في المشاركة في الخدمات العامة.

والثالثة هي المباحات التي لا يترتب عليها جزاء أخروي بالثواب أو العقاب، كالطعام والشراب والنوم والبيع والشراء والزواج، ولكن هذه وأمثالها من السلوكيات اليومية تصبح عبادة مأجورة إذا اقترنت بنية صالحة واستحضار قلبي مشروع، فترتفع العادات إلى منزلة العبادات،

(١) أخرجه البخاري ح (٦٠٥٢).

ويوضح ذلك قول النبي ﷺ عن إتيان الرجل أهله بنية الاستعفاف عن الحرام: ((وفي بضع أحدكم صدقة)) قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً)).^(١)

والرابعة هي المكروهات التي لا يليق بالمسلم التلبس فيها، لكنها مما يعفو الله عنه ولا يحاسب عليه، ومن ذلك التشاغل عن ذكر الله بالإغراق في الدنيا، والإكثار من المباحات، والتهاون في الآداب الإسلامية للطعام والشراب والحديث والزيارة.

والخامسة هي المحرمات التي يثيب الله على تركها ويعاقب على فعلها، كالشرك والفواحش والمعاملات القائمة على الربا والغش والاحتيال والاستغلال (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) (الأعراف: ٣٣).

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴿١٧٠﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى

(١) أخرجه مسلم ج (١٠٠٦).

وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون (الأنعام: ١٥١-١٥٢).

خصائص الشريعة الإسلامية ومقاصدها

إن المفهوم الإسلامي للعبادة قد تجسد في الشريعة الإسلامية العظيمة، التي أمر الله المؤمنين بتحقيقها في الأرض وجعلها دستوراً لحياتهم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) (الجاثية: ١٨)، فالشريعة هي ما شرعه الله لعباده من الدين وأحكامه المختلفة التي شرعها لمنفعة المؤمنين جميعاً إلى قيام الساعة.

أولاً: خصائص الشريعة الإسلامية

وتمتاز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع التي قامت وتقوم

إلى قيام الساعة بخصائص، أهمها:

أ. ربانية المصدر والغاية

أول خصيصة للشريعة الإسلامية أنها ربانية المصدر والغاية، فهي من الله، وتهدف إلى بلوغ رضاه، فالمسلم يستمد شرائعه المختلفة من مصدرين أصيلين، هما القرآن الكريم الذي أوحاه الله بحروفه، ثم السنة النبوية، وهي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته التي أمر الله بالتأسي بها بقوله تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (الحشر: ٧)، فالنبي يحمل رسالة الله إلى الناس، وما يقرره بقوله وفعله إنما هو بوحى الله وأمره (وما ينطق عن الهوى  إن هو إلا وحي يوحى) (النجم: ٣-٤).

ومن هذين المصدرين وتأسيساً على قواعدهما اشتق العلماء عدداً من المصادر الفرعية للشريعة كالإجماع والقياس والاستصحاب والاستحسان والعرف وغيرها.

والخروج عن هذه المصادر إلى أحكام البشر إنما هو تحاكم إلى الهوى ومشاركة لغير الله في إحدى خصائصه تبارك وتعالى (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) (الأعراف: ٥٤)، فكما خلق وحده فإنه يشرع وحده.

ومشاركة غيره له في التشريع اعتداء على حق الله بالتشريع، وهو استعباد لخلق الله، لذلك لما دخل عدي بن حاتم على النبي ﷺ سمعه يقرأ قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) (التوبة: ٣١)، فاستغرب عدي، حتى فسّره النبي بقوله: ((أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه))^(١)، فعبادتهم لأحبارهم، ليس سجودهم وركوعهم لهم، بل الإذعان لما أحدثوه في الدين في مجامعهم التي جعلت من رجال الدين مشرعين مع الله.

وتهدف الشريعة إلى تحقيق رضا الله الذي شرّع بحكمته البالغة للإنسانية ما يسعدها في دنياها وأخرها (كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (إبراهيم: ١)، وشريعته خير كلها، لأنها صدرت عن الله العليم بما يصلح أحوالنا وبما يناسب فطرتنا وتكويننا (ألا يعلم من خلق وهو

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٠٩٥).

اللطيف الخبير) (الملك: ١٤)، وهي بهذه المثابة تسمو على غيرها من الشرائع البشرية التي يتلبسها قصور الإنسان وجهله وما يكتنف تشريعه من الهوى الذي يجعل المشرع البشري يميل بتشريعاته إلى حراسة مصالحه الشخصية والفئوية، كما هو الحال في تشريعات النظم العلمانية.

أما حين تكون الشريعة إلهية؛ فإنها لا تحابي في أحكامها جنساً أو عرقاً أو لوناً، فالجميع عبيد لله متساوون أمام أحكامه (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليلبؤكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿٥٠﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴿٥١﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) (المائدة: ٤٨ - ٥٠).

إن كون هذه الشريعة من الله يعطيها هيبة وسلطاناً في النفوس والضمائر لا تجده في قانون ما، فالناس منقادون إليها بسلطة الإيمان الذي يملأ قلوبهم، منقادون إليها ظاهراً وباطناً، سراً وعلانية، يرقبون في ذلك كله جزاء الله الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

وتتميز الشريعة في مسألة الجزاء عن غيرها من القوانين في أنها القانون الوحيد الذي يجازي في الدنيا والآخرة، فالمؤمن يلتزم حدودها، طمعاً في سعادة الدنيا التي يعيشها في جنات الطاعة والفضيلة، ثم هو موعود بحسن الجزاء في الآخرة، بالجنة التي أعدها الله للأتقياء من عباده، فالأجلهما معاً يمثل المؤمن قانون الشريعة ويلتزم به.

وللتعرف على أهمية هذه الخصيصة نذكر أن أمريكا أدركت مضار الخمر الصحية والاجتماعية والاقتصادية، وعزمت على تحريمه، وأصدرت تشريعاً بذلك، ثم بذلت الملايين لتنفيذ هذا القانون، وبعد سنوات من النفير في الأمن والمحاكم، وبعد سجن الألوف من المدمنين عادت أمريكا إلى إباحة الخمر، مع يقينها بما فيه من الفساد، لكنها عجزت وعجز قانونها البشري أن يجد له بين الناس قبولاً.

وفي مقابله فإن الإسلام حين حرم الخمر، لم يستعن بشرطة أو جنود أو محاكم، ولم يجد عنقاً ولا مشقة في جعل المجتمع المسلم أطهر المجتمعات الإنسانية، بابتعاده عن المسكرات بأنواعها، إن طهارة المجتمع من هذه الآفة لم يتطلب سوى آية أنزلها الله في تحريمه، وهي قوله: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (المائدة: ٩٠).

فالتزم أصحاب النبي ﷺ بذلك، بل وتساءلوا عن مصير إخوانهم ممن شرب الخمر ومات قبل تحريمها، يقول أنس بن مالك: كنت ساقياً القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر منادياً فنادى، فقال

أبو طلحة لأنس: اخرج فانظر ما هذا الصوت؟ قال أنس: فخرجتُ، فقلت: هذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت. فقال لي: اذهب فأهرقها.

قال أنس: فجرتُ في سِلك المدينة.

فقال بعض القوم: قُتل قوم وهي في بطونهم؟ فأنزل الله: (ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) (المائدة: ٩٣)^(١)، أي لن يحاسبوا عن شربها قبل التحريم لأنه لا عقوبة إلا بتشريع.

ب. العدل والمساواة

العدل اسم من أسماء الله تعالى، وهو صفة لازمة للرب في أوامره وتشريعاته وجزائه، ومظاهر عدل الله في شرائعه كثيرة، من أولها أنه تعالى لا يحاسب الإنسان على ما لا يقدر عليه، بل لم يكلفه أصلاً بما يعجزه (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) (البقرة: ٢٨٦)، فشرائع الله مبناها على اليسر والسهولة (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (البقرة: ١٨٥) (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم

(١) أخرجه البخاري ح (٤٦٢٠)، ومسلم ح (١٩٨٠).

تشكرون) (المائدة: ٦)، والنبي ﷺ يقول: ((أحب الدين إلى الله الحنيفيةُ
السمحةُ)).^(١)

ومن عدله تبارك وتعالى أنه رفع التكليف بأحكام الشريعة عن
الأطفال الذين لم يحوزوا كمال العقل الذي يجيز محاسبتهم، كما
أسقطه عن حُرْمِ نعمة العقل ابتداءً، يقول ﷺ: ((رفع القلم عن ثلاثة:
عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشبَّ، وعن المعتوه حتى
يعقل))^(٢)، كما يعفو الله عن وقع في الخطأ من غير إرادته لذلك أو من
وقع فيه مكرهاً أو ناسياً تحريمه، فقد قال ﷺ: ((إن الله تجاوز عن
أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)).^(٣)

وإذا كانت الشريعة لا تحاسب من هو دون التكليف على خطئه؛
فإنه يعلم أنها - من باب أولى - لا تحاسبه على ذنب غيره، فالمرء
مسؤول عن عمله الشخصي (قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيءٍ
ولا تكسب كل نفسٍ إلا عليها ولا تزر وازرةٌ وزرٌ أخرى ثم إلى ربكم
مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (الأنعام: ١٦٤).

وعليه فالإسلام لا يقر بالذنب الأصلي المتوارث عن الأبوين لآدم
وحواء، فالأبوان تحملا وزريهما بنفسيهما، واستغفرا الله منه، فتاب
عليهما، ولا علاقة لذريتهما بذنبيهما من قريب أو بعيد، بل كلُّ مسؤول
عن عمله (فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم
﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا

(١) أخرجه البخاري معلقاً باب ((الدين يسر))، وأحمد ح (٢١٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي ح (١٤٢٣)، وابن ماجه ح (٣٠٤٢)، وأحمد ح (٩٤٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه ح (٣٠٤٣).

خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴿٣٧﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (البقرة: ٣٧ - ٣٩).

وأيضاً فإن شرائع الله تبارك وتعالى راعت - لعدالتها - الفروق بين الذكر والأنثى، فلم تكلف المرأة بما لا يلائم طبيعتها كالجهاد والخروج من المنزل للتكسب والإنفاق، وغيرهما مما لا يتناسب وأنوثتها أو يخالف رونق حياتها وصفاء أحاسيسها.

ولم تميز الشريعة العادلة في أحكامها العامة بين ملك وسوقة، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غني وفقير، فالجميع متساوون أمام شرائع الله، فقد خطب النبي ﷺ في ما يربو على مائة ألف من أصحابه، فقال: ((يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر؛ إلا بالتقوى))^(١)، فالخيرية مبناها على العبادة والاستقامة، لا الحسب والجاه، (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ) (الحجرات: ١٣).

وقد طبّق النبي ﷺ بنفسه عدل الإسلام وقيمه حين رفض التمييز في إقامة الشرائع بين شريف ووضيع، فقد حكم ﷺ على سارقة من أشرف قريش بقطع يدها الخؤون، فاستشفع الناس لها، طلبوا من أسامة بن زيد - بما له من مكانة عند النبي ﷺ - أن يشفع لها عنده، فقال له ﷺ: ((أتشفع في حد من حدود الله)).

(١) أخرجه أحمد ح (٢٢٩٧٨).

ثم قام فخطب الناس، فقال: ((إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيمُّ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقتُ [أي ابنته ﷺ]؛ لقطعتُ يدها)).^(١)

وهكذا فالعدل سمة شريعة الله الذي أمر به وشرعه بين خلقه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) (النحل: ٩٠).

ج. الشمول والتوازن

لما كان الإسلام رسالة الله الخاتمة وكلمته الباقية إلى قيام الساعة، فإن الله تطف فيهِ على الإنسانية بكل ما يصلح شؤونها في دار معاشها ثم في دار جزائها، فكملة أنعم الله بكمال تشريعاته (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (المائدة: ٣).

والإسلام بنيان شمولي يغطي مناحي الحياة المختلفة، فهو دين عبادة، وهو أيضاً منظومة من الشرائع الأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية التي تحقق سعادة الفرد والمجتمع في الدنيا ثم الآخرة.

إن الإسلام ينظم علاقات الإنسان المختلفة من لدن ميلاده إلى وفاته، وهو يحرس حقوقه حتى فيما قبل الميلاد وما بعد الوفاة، وأما ما بينهما فإنه يتناول بأحكامه تفاصيل سلوكه الشخصي بما يتضمنه من عادات

(١) أخرجه البخاري ح (٣٤٧٥)، ومسلم ح (١٦٨٨).

وآداب، وهو يرشّد أيضاً علاقة الإنسان مع أسرته ومجتمعه، لا بل يتناول حاله مع الكون كله بما فيه من حيوان وجماد (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء) (الأنعام: ٣٨).

أما على الصعيد الجماعي فإن شرائع الإسلام تنظم المجتمع وتضبط حقوق من فيه وواجباتهم، وتنظم علاقة الدولة والأمة المسلمة مع القريب من الناس والبعيد (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (النحل: ٨٩).

وتلبي هذه الشرائع حاجات الإنسان المختلفة، فهي تعنى بجسده، ولا تهمل روحه، تبتغي الآخرة، ولا تفرط في الدنيا، تربط المجتمع ولا تغفل مصالحه، وهي في نفس الوقت تحقق ذاتية الفرد وتحرس مصالحه وحقوقه، توازن عجيب، لا إفراط فيه ولا تفريط، وأي عجب، فذلك تقدير اللطيف الخبير.

إن هذه الثنائيات عبرت عنها نصوص عدة في القرآن والسنة، منها قوله تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) (القصص: ٧٧) فلئن كانت الآخرة هي الغاية والمرتجى؛ فإن الدنيا هي الوسيلة والمعاش، ومثله قوله تعالى في وصف المؤمنين فهم ينفقون أموالهم من غير إسراف يبدد المال ولا تقتير يمنع النفع: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) (الفرقان: ٦٧)،

وقال الله لنبيه ﷺ: (ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً) (الإسراء: ٢٩).

وقال ﷺ موجهاً عثمان بن مظعون لما رغب في ابتغاء سمو الروح بتعذيب الجسد، فأراد هجر النوم والنساء والدوام على الصيام: ((يا عثمان أرغبتَ عن سنتي؟.. فإنني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم)).^(١)

وفي الجمع بين الدنيا والآخرة يقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴿٩﴾ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (الجمعة: ٩ - ١٠).

ولما أراد أناس من أصحابه الإعراض عن الدنيا وملذاتها وهجر النساء والترهب، قال ﷺ: ((إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فأولئك في الديارات والصوامع، فاعبدوا الله ولا تشركوا به، وحجوا واعتمروا، واستقيموا يستقم بكم))، ونزلت فيهم الآية: (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (المائدة: ٨٧).^(٢)

(١) أخرجه أبو داود ح (١٣٦٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/٤)، وابن المبارك في الزهد ح (١٠٣١).

د. المثالية الواقعية

كثيراً ما تجنح الشرائع التي يشرعها الإنسان نحو المثالية التي لا تتحقق، فجمهورية أفلاطون الفاضلة لم تجاوز عقله وقلمه، وفي مقابله قد يخضع البعض للواقع الجاثم على المجتمع، فيعتمد إلى تكييف نفسه ومبادئه مع الحالة الراهنة اعترافاً بوطأة هذا الواقع وإذعاناً له، فحين عجزت مجتمعات الغرب عن منع الخمر أو الزنا أو الفواحش لم تجد ما يمنعها من الاعتراف بهذا الواقع وتقنينه، ليصبح شرعة مباحة عند الناس؛ تقني الجنس البشري وتهدد وجوده بما تحمله تلك الآثام من أمراض وبلايا اجتماعية، ليتحقق ما أخبر به ﷺ بقوله: ((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)).^(١)

وأما الإسلام فإنه دين واقعي مثالي، فواقعيته مبنية على أنه سلوك إنساني يعيشه الناس يومياً، وأما مثاليته فيحققها أنه يهدف إلى إصلاح المجتمع، ولا يرضى بالتعايش والمهادنة مع الخطأ والردية.

واقعيته يوضحها تلاؤم تشريعاته مع فطرة الإنسان وتحقيقها لحاجاته ورغباته التي علمها الله فشرع ما يناسبها (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (الملك: ١٤)، فلم يأمر الإسلام بالتعفف عن النكاح، ولا منع من استحالت عليهم الحياة الزوجية من الافتراق بالطلاق (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً) (النساء: ١٣٠).

(١) أخرجه ابن ماجه ح (٤٠١٩).

ولم يأمر الإسلام بإعطاء الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، بل شرع ما يرد الإساءة ويردع الجاني ويمنعه من التماذي، ولكنه رغب أيضاً في العفو والمسامحة والصفح، قال تعالى: (وجزاء سيئة سيئةً مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴿٤١﴾) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيلٍ) (الشورى: ٤٠ - ٤١).

وتسطع هذه المزاجية بين الواقع والمثال في تدرج الإسلام في معالجة الأمراض والآثام المستفحلة في المجتمع، فعندما بُعث النبي ﷺ في أمة تشرب الخمر شُرِبها للماء؛ تدرج في تحريم الخمر، فأشار أولاً إلى ما فيها من سوء، ليهجرها أصحاب العزائم والأحلام: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) (البقرة: ٢١٩)، فالخمر فيها منافع محدودة (كالتجارة) لكن ما فيها من الإثم والضرر أعظم.

ثم في مرحلة أخرى منع المسلمين من تناولها سائر النهار، لأنها تشغل عن الصلاة وتفسدها، فتضايق عليهم وقت شربها (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) (النساء: ٤٣).

لما نزلت هذه الآية أحس الصحابة أن الله يشدد عليهم في الخمر، فدعا عمر رضي الله عنه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴿٩١﴾) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر

اللَّهُ وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (المائدة: ٩٠ - ٩١)، فدُعي عمر، فقرأت عليه، فقال: (انتبهينا انتبهينا).^(١)

تقول أم المؤمنين عائشة: (إنما نزل أول ما نزل منه لأي من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام؛ نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً).^(٢)

لهذا ولغيره يدعو المستشرق الشهير جوزيف شاخت المحاضر في الدراسات الإسلامية في جامعتي أكسفورد وليدن في كتابه "تراث الإسلام" إلى دراسة الشريعة الإسلامية، فيقول: "من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضّر قانونه الديني الذي يسمى (بالشريعة)، والشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً واضحاً عن جميع أشكال القانون إلى حدّ أن دراستها أمر لا غنى عنه؛ لكي نقدر المدى الكامل للأمور القانونية تقديراً كافياً.. إن الشريعة الإسلامية شيء فريد في بابه، وهي جملة الأوامر الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهي تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية.."^(٣)

ثانياً : مقاصد الشريعة الإسلامية

وتهدف الشرائع الإسلامية في جملتها إلى تحقيق ما يصلح أحوال الإنسان في الدنيا ويسعده في الآخرة، وفق قاعدة درء المفسد عنه وجلب

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٠٤٩)، والنسائي ح (٥٥٤٠)، وأبو داود ح (٣٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩٩٣).

(٣) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٢٠٣).

المصالح له ، فما تأمر الشريعة بأمر إلا وفيه خير للإنسان ، وما حرم فيها من شيء إلا وفيه ضرر عليه (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (البقرة: ٢٢٢).
والشريعة جاءت تفصيلاتها لحفظ مقاصد خمسة (الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، وهي في حقيقتها أهم حقوق الإنسان ومصالحه في هذه الحياة:

أ. حفظ الدين

لما كان الدين المقوم الأعظم الذي يهيمن على مجالات الحياة الإنسانية كان من الطبيعي أن تسعى شرائع الإسلام إلى حفظه ، باعتباره حقاً للإنسان، بل هو أغلى الحقوق وأهمها ، وذلك بتشريع كل ما يساعد على حفظه والنهي عن كل ما يضر به ويضعفه أو يقضي عليه.

فقد حث القرآن على عبادات كثيرة تثبت الإيمان وتحرسه في صدور المؤمنين، بعضها ذهني فكري كالتفكير والتدبر في خلق الله للاستدلال على عظمة الخالق، وبعضها ذهني بدني كالصلاة، أو بدني الصيام، أو مالي كالزكاة والصدقة، أو ذهني مالي بدني كالحج. ولحراسة الإيمان والدين حرّم الله الشرك اعتقاداً وعملاً ، كما حرّم ما يفضي إليه كالغلو بالأنبياء والصالحين، واعتقاد وجود وسطاء بين الله وعبيده، واعتقاد النفع والضرر لغير الله.

كما أوجب الله على المجتمع والدولة حماية الدين وتسهيل سبل التدين والتشجيع عليه، وكذلك فإن من الواجب عليها الذود عنه ومنع سبل الغواية والإغراء بالفسق والعصيان والكفر، بالأخذ على يد المضلين المفسدين، وتطبيق العقوبات الشرعية على المرتدين.

ب. حفظ النفس الإنسانية

الحياة الإنسانية هبة الله للإنسان، وليس لأحد أن يعتدي على هذا الحق، ولا الإنسان نفسه، فالله خلق الإنسان وكرمه، ليحقق واجب الاستخلاف في الأرض وعمارته، وليبتيه ويظهر مدى تحقيقه العبودية لله رب العالمين.

ولأجل ذلك صان الإسلام الوجود الإنساني بما شرعه من شرائع تكفله وتحفظه، فأوجب على المجتمع رعاية الضعيف وتأمين ضرورياته من سكن وطعام وشراب ولباس، وغيرها من ضروريات الحياة، وشرع في تأمين ذلك الزكوات الواجبة والصدقات المندوبة التي تتدرج ضمن منظومة واسعة من شرائع التعاون على البر والتقوى بين أفراد المجتمع ومؤسساته، بغية تحقيق التكافل الاجتماعي داخل المجتمع.

وكفل الإسلام الحياة الكريمة للإنسان، فحرم إهانته وإيذاءه (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) (الأحزاب: ٥٨).

واعتبر الإسلام الاعتداء على النفس الإنسانية من أقبح الجرائم، وعدّه من الموبقات السبع التي تفسد الدين والدنيا، فقد قال ﷺ محذراً منها: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال:

((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)).^(١)

ولعظم الاعتداء على النفس الإنسانية جعل الله الاعتداء على نفس واحدة بمثابة الاعتداء على الجنس البشري برمته (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) (المائدة: ٣٢).

وتوالت الآيات تصف المؤمنين بأنهم يجتنبون قتل الأبرياء الذين يسميهم القرآن بـ (النفس التي حرم الله): (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) (الفرقان: ٦٨).

تتهدد الآيات من يعتدي على الأبرياء، وتعطي لولي المظلوم حق المطالبة بالقصاص العادل من خصمه (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً) (الإسراء: ٣٣).

وسلطان القصاص العادل هو أحد أهم الضمانات التي تمنع تفشي الجريمة، فيرعوي المجرم عن عتوه؛ ليقينه بأن اعتدائه بالقتل على الآخرين مستوجب إزهاق نفسه، فيأمن الجميع ويستمتع الجميع بحقهم

(١) أخرجه البخاري ح (٢٧٦٧)، ومسلم ح (٨٩).

في الحياة (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) (البقرة: ١٧٩).

وصوناً لهذا المبدأ العظيم (حفظ النفس) شرع القرآن الجهاد في سبيل حماية المستضعفين من الاضطهاد والقتل، فقال تعالى: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴿٧٥﴾ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) (النساء: ٧٥ - ٧٦).

ولن يفوتنا - أن نذكر هنا - أن أول نفس حرم الله الاعتداء عليها نفس الإنسان التي هي وديعة عنده، وتفريطه فيها بالانتحار أو التساهل في صونها يعرضه لأليم العذاب في الآخرة، فقد قال ﷺ: ((من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسّى سُمّاً فقتل نفسه؛ فسمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يديه يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)).^(١)

ج. حفظ العقل

العقل أهم خصائص الإنسان التي بموجبها فضّل الله الجنس الإنساني على سائر المخلوقات (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر

(١) أخرجه البخاري ح (٥٧٧٨)، ومسلم ح (١٠٩).

والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً)
(الإسراء: ٧٠).

ويعتبر الإسلام العقل مناط التكليف في سائر المسؤوليات الدينية والدينية، إذ به يهتدي الإنسان إلى الحقائق الكبرى التي دعا الله إلى الوصول إليها بالبراهين العقلية، لا بمجرد الإيمان الأعمى: (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (الأنبياء: ٢٤)، فالعقل يرشد كل من تدبر في الكون المنظور إلى وجود الله وصفاته (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار) (آل عمران: ١٩٠).

ولا يجوز للمرء تغييب العقل عن أداء واجبه في الدلالة على الحق والخير وتبصير الإنسان فيما يصلح له دنياه وآخرها، ولأجل ذلك حرم الله السحر والشعوذة والكهانة وغيرها مما يتلاعب بالعقل ويزدرية ويعطل طاقاته، ولأجل ذلك أيضاً حرم الإسلام الخمر، واعتبرها دنساً شيطانياً وكيداً منه للإنسان، يريد به إفساد علاقة الإنسان بربه بشغله بالخمر عن الصلاة والعبادة، كما يصبو بواسطتها إلى تدمير العلاقات الاجتماعية (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ﴿٩١﴾ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (المائدة: ٩٠ - ٩١).

د. حفظ النسل

التناسل وسيلة بقاء النوع الإنساني ، ولأجله ركَّب الله الغريزة في

الجنسين، ودعاهما إلى إقامة الأسرة عن طريق الزواج الذي يعتبره الإسلام المحضن الذي يحقق حفظ النسل، ويديم المسيرة الإنسانية السوية.

وقد رغب الإسلام في النكاح، ووضع ضوابطه ومتطلباته عبر نظام اجتماعي محكم ينظم العلاقة بين الزوجين خصوصاً، وأبناء الأسرة عموماً.

ويُلزم الإسلام الأبوين بجملة من الواجبات تجاه أبنائهما، منها حسن تربيتهم وتعهدهم بالحنو والرعاية والإنفاق وغيرها من مقتضيات الأبوة والأمومة السليمة.

وحرّم الإسلام أشد التحريم الاعتداء على الطفل بوأده أو إجهاضه (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) (الإسراء: ٣١).

وصوناً للأسرة ورعاية لأفرادها حرّم الله الزنا والفواحش عموماً (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشاً وساء سبيلاً) (الإسراء: ٣٢)، وحرّم أيضاً ما يؤدي إلى هذه الفواحش من اختلاط الرجال بالنساء، كما ألزم المرأة بالحجاب حال بروزها أمام الأجانب درءاً للفتنة، فالمرأة في الإسلام جوهرة مصونة عن العبث والابتذال (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) (الأحزاب: ٥٩).

هـ حفظ المال

المال قوام الحياة، والإسلام يعتبر ما يتداوله الناس مال الله الذي

استخلف عليه الإنسان، وشرع له تكسبه وحيازته من الطرق المشروعة، كما أمره أن ينفقه ضمن حاجاته وحاجات مجتمعه من غير إسراف ولا تقتير.

وقد حث الإسلام على العمل والإنتاج واكتساب المال بالطرق المشروعة (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) (الملك: ١٥)، ورجب ﷺ بالعمل واعتبره من القربات إلى الله، فقال: ((ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة)).^(١)

ولما مر رجل على النبي ﷺ؛ رأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ((إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)).^(٢)

لكن الكسب نوعان: طيب وخبث، فالطيب هو الرزق الذي يكتسبه المرء بوسائل الكسب المشروعة كالتجارة والصناعة والزراعة والوظائف العامة والخاصة (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) (البقرة: ١٧٢).

(١) أخرجه ابن ماجه ح (٢١٣٨).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (١٥٦١٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح (١٦٩٢).

وأما الخبيث من الكسب فهو حيازة المال بالطرائق الملتوية كالربا والرشوة والغش والغبن والحيلة أو المتاجرة بالسلع الضارة للإنسانية (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) (البقرة: ١٨٨).

وللإسلام قاعدة جامعة في هذا الشأن (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) (الأعراف: ١٥٧)، فكل كسب للمال لا يؤذي صاحبه ولا الآخرين فهو حلال طيب، وكل ما عداه حرام خبيث.

وكذا يوجه الإسلام إلى المصارف الصحيحة للمال، فامتلاك الإنسان للمال لا يسوغ له إنفاقه كيفما اتفق، فالإسراف والتبذير في إنفاق المال، والتقصير في إخراج حقوق الفقراء عمل شيطاني بغيض (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴿٢٦﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً) (الإسراء: ٢٦ -

٢٧)، وقال ﷺ: ((إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووآد البنات، ومنع وهات، وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال))^(١)، فهذا المال عطية الله، وقد استخلفنا عليه لننقله في الأوجه المشروعة، وأعظمها الصدقة على الفقراء والمساكين (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (النور: ٢٣)، (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ) (الحديد: ٧).

وهكذا فهذه الضرورات الخمس التي تمثل أهم حقوق الإنسان في الحياة تدور على حفظها سائر تشريعات الإسلام، فمن التزمها أكرمه

(١) أخرجه البخاري ح (٢٤٠٨)، ومسلم ح (١٧١٥).

اللَّهُ بالسعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، ومن تنكبها شقي في الدنيا بمقدار ما أعرض عن هدي الله وناموسه العادل والكامل (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (طه: ١٢٣ - ١٢٦).

أركان الإيمان

الإيمان هو المرتبة التي يسمو إليها المسلم بعد إسلامه، فيرنو إلى الارتقاء بإسلامه إلى مرتبة الإيمان، فلا يقف في دينه عند عتبة العبادات الظاهرة، بل يترقى في كمالات الإيمان بمقدار ما يتمثل في سلوكه من شُعبه التي تشمل الاعتقاد والعبادة والأخلاق، قال ﷺ: ((الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)).^(١)

وأما أركان الإيمان فهي ستة يوضحها حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فأجاب النبي ﷺ: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)).^(٢) وهكذا فأول الإيمان أن ينعقد قلب المسلم على التصديق بهذه المسائل الست، ثم يبرهن بعمله على صحة إيمانه بها، فالإيمان اعتقاد وقول وعمل، ويزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

(١) أخرجه البخاري ح (٩)، ومسلم ح (٣٥)، واللفظ له
(٢) أخرجه مسلم ح (٨).

ولما كنا قد تحدثنا عن الأولى منها، وهي الإيمان بالله، نشرع
بذكر بقية الأركان.

الإيمان بالملائكة

الملائكة مخلوقات نورانية فريدة، خلقها الله من نور، فقد قال ﷺ:
(«خلقت الملائكة من نور»)^(١)، وهم جند الله الذين لا يعرف عددهم إلا
هو (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر) (المدثر: ٣١).
وبسبب طبيعتهم النورانية اللطيفة فإن الملائكة يقدرون على
التشكل في هيئة أجسام كثيفة، كصورة البشر، فقد ظهرت
الملائكة بصورة بشرية لإبراهيم ثم لوط، وكذا ظهر الملاك جبريل
لمريم عليها السلام على صورة رجل: (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها
بشراً سوياً) قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴿ قال إنما
أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ (مريم: ١٧ - ١٩).

وهذه الصورة البشرية في الظهور الملائكي يأنس لها قلب الإنسان،
لذا كثيراً ما نزل بها جبريل على النبي ﷺ، فقد سأل الحارث بن هشام
رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أحياناً يأتيني
مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما
قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول)).^(٢)

والملائكة عباد لله مكرمون مفظورون على عبادة الله بلا كلل ولا
فتور، فهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (الأنبياء: ٢٠)، وكذلك

(١) أخرجه مسلم ح (٢٩٩٦).
(٢) أخرجه البخاري ح (٢)، ومسلم ح (٢٣٣٣).

فإنهم لا يسأمون من عبادة الله (يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) (فصلت: ٣٨).

لقد استحقوا وصف الله لهم بالكرام البررة (عبس: ١٦)، فهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (التحریم: ٦).

وللملائكة أفعال تختص بالإنسان، منها مرافقة الإنسان في حياته وتسجيل أعماله، والشهادة عليه بما صنعه يوم القيامة (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) (الانفطار: ١٠ -

١٢)، فالملائكة تسجل عليه سائر أقواله وأفعاله: (إذ يتلقى المتقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) (سورة ق: ١٧ - ١٨)، ومعرفة المؤمن بمعية الملائكة له أدعى في الحياء

منهم أن يسجلوا عليه سيئة وهم الأبرار الذين لا يفترون من عبادة الله.

والملائكة جند الله المنفذون لأوامره وحكمه في أعدائه، فينزلون العقوبة بالمجرمين المستحقين لعذاب الله، كما أرسلهم الله لعذاب قوم هود وقوم صالح وقوم لوط.

ومن وظائف الملائكة قبض الأرواح التي ختم الله آجالها (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) (الأنعام: ٦١)، (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم ثم إلى ربكم ترجعون) (السجدة: ١١).

والملائكة يحبون ما أحبه الله، فيحبون المؤمنين والأتقياء من عبادة الله، ويستغفرون لهم، قال الله تعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل

شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم)
(غافر: ٧).

وقال ﷺ: ((إذا صلى لأي المؤمن] لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما دام
في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه)).^(١)

ويتواصل استغفار الملائكة ليشمل جميع المؤمنين كما قال الله: (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم) (الشورى: ٥).

وأما من كفر وعصى فالملائكة تدعو عليه باللعنة (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) (البقرة: ١٦١).

فإذا قامت القيامة استقبلت الملائكة المؤمنين في الجنات، وسأقت المجرمين والكافرين إلى الدركات، فعن استقبالهم للمؤمنين وتهنئتهم إياهم يقول الله تعالى: (والملائكة يدخلون عليهم من كل بابٍ ﴿٢٤﴾ سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (الرعد: ٢٣ - ٢٤)، وأما الكافرون فتعذبهم الملائكة في نار (وقودها الناس والحجارة عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (التحريم: ٦).

(١) أخرجه البخاري ح (٦٤٧)، ومسلم ح (٦٤٩)، واللفظ للبخاري.

الإيمان بالكتب

ولما كانت وظيفة الرسل حمل الهداية الإلهية إلى البشرية فقد أنزل الله عليهم هديه ووحيه، ليستتقذ به البشرية من ضلالها وتيهها (كان الناس أمةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (البقرة: ٢١٣).

وهذه الكتب الإلهية تحمل رسالة الله إلى الإنسان، وتبعاً لذلك فهي تتصف بصفات منزلها، فهي الهدى والنور، وقد وصف الله توراته التي أنزلها على موسى بقوله: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) (المائدة: ٤٤)، ومثله قال في وصف الإنجيل الذي أنزله على عيسى عليه السلام: (وأتيناها الإنجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظةً للمتقين) (المائدة: ٤٦)، وهكذا فالهدى والنور صفة لازمة لكل وحي يوحيه الله إلى نبي من أنبيائه.

والمسلم يؤمن بكل وحي لله امتثالاً لأمر الله وتصديقاً لكلامه: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) (النساء: ١٣٦)، فالكفر بأحد كتب الله هو كفر بها جميعاً.

ويأمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين به، فيقول: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم

ونحن له مسلمون) (البقرة: ١٣٦). (وانظر آل عمران: ٨٤).

وقد أمر الله جل وعلا الأمم السابقة بحفظ ما أنزل الله إليهم من كتاب، كما قال سبحانه: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) (المائدة: ٤٤)، فأضاعها الأولون، ولم يكونوا أمناء عليها، فصارت نهبة للتحريف والتبديل، فتعرضت للزيادة، حين أضيف إليها ما لم ينزله الله (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) (آل عمران: ٧٨).

وقد توعد الله بعذابه الذين فعلوا ذلك: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) (البقرة: ٧٩). كما تعرضت هذه الكتب للنقصان والضياع المتعمد الذي توعد الله أيضاً فاعله بأليم العذاب فقال: (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) (البقرة: ١٧٤). ومما ضاع من الكتب السابقة: الإنجيل^(١) الذي أنزله الله على

(١) ما نجده اليوم بين أيدي النصارى ليس إنجيل الله المنزل على عيسى، بل الأنجيل المنسوبة إلى تلاميذ المسيح وتلاميذهم، وتتضمن تأليفات شخصية لهم سجلوا فيها سيرة المسيح عليه السلام وأخبار دعوته ومعجزاته، ولا تخلو هذه المؤلفات البشرية من بعض وصايا الله لعيسى ووحيه إليه.

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به) (المائدة: ١٤).

ولتبيان الحقيقة الضائعة من الكتب السابقة أو المطموسة بالتحريف والتبديل فيها: أرسل الله محمداً برسائلته الخاتمة، وأعطاه القرآن الذي جعله أيضاً نوراً وهدى ورحمة للناس جميعاً، فدعاهم الله إلى الإيمان به (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (المائدة: ١٥).

وبهذا أصبح القرآن خاتمة وحي الله المصدق لما سبقه والمهيمن عليه بما خصه الله من الحفظ والبيان قال تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً) (المائدة: ٤٨).

وتكاملت نعمة الله على عباده بهذا الكتاب الذي سماه الله القرآن العظيم، وبالرسول الذي يبلغ إلى العالمين، فله في ذلك المنّة البالغة (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (آل عمران: ١٦٤).

وحتى تبقى كلمة الله شاهدة على خلقه جيلاً فجيل: تكفل الله جل وعلا بحفظ كتابه الأخير (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (الحجر: ٩)، وقال لنبيه ﷺ: (إن علينا جمعه وقرآنه ﴿١﴾ فإذا قرأناه فاتبع

قرآنه ﴿﴾ ثم إن علينا بيانه (القيامة: ١٧ - ١٩)، وهكذا أضحى القرآن الكتابَ الإلهي الوحيد المحفوظ بحفظ الله له (وإنه لكتابٌ عزيزٌ ﴿﴾ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ) (فصلت: ٤١ - ٤٢).

وحتى يحفظ الله كتابه يسره للحفظ، وأنزله في أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وإنما تعتمد الحفظ وسيلة للمحافظة على تراثها وتاريخها وأشعارها وأنسابها (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) (القمر: ١٧)، وأنزله منجماً مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة، ليسهل حفظه ومدارسته على النبي ﷺ وأصحابه.

وقد حفظ النبي ﷺ القرآن، وتعهده الله بمدارسته مع جبريل عليه السلام من كل عام في شهر رمضان، يقول ابن عباس: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة).^(١)

ويخبرنا القرآن عن حرص النبي ﷺ على حفظ النص القرآني، فقد كان يردده حال سماعه له من جبريل عليه السلام، خشية أن ينسى بعضاً منه، فطمأن الله روعه، وأعلمه أن القرآن محفوظ بحفظ الله: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك وأهلك وولداً من قبله) (الأنعام: ١١٤)، وقال له: (لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴿﴾ إن علينا جمعه وقرآنه) (القيامة: ١٦ - ١٧).

(١) أخرجه البخاري ح (١٩٠٢)، ومسلم ح (٢٣٠٨).

وقد حرص النبي ﷺ على تعليم أصحابه القرآن، وكانوا يتعاهدون به من أسلم حديثاً، فيبادرون إلى تعليمه ما نزل من القرآن، يقول عبادة بن الصامت: (كان رسول الله يُشغَل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن).^(١)

وكان الصحابة يتابعون باهتمام بالغ يوماً ما ينزل من القرآن، يقول عمر بن الخطاب ؓ: كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعلَ مثل ذلك.^(٢)

وحدث النبي ﷺ أصحابه على تعلم القرآن، فقال مستحثاً لهمهمم: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))^(٣)، وأخبرهم أنه ((يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ، ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه))^(٤)، فقراءة القرآن وحفظه من أفضل العبادات، و((الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق؛ له أجران)).^(٥)

وقد سارع الصحابة إلى حفظ سور القرآن ومدارستها وتعلم ما فيها من معان وأحكام، فكان منهم مئات القراء، وقد أتم بعضهم حفظ

(١) أخرجه أحمد ح (٢٢٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري ح (٨٩)، ومسلم ح (٨٩)، واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري ح (٥٠٢٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه ح (٣٧٨٠).

(٥) أخرجه البخاري ح (٤٩٣٧)، ومسلم ح (٧٩٨)، واللفظ له.

كامل القرآن في عهد النبي ﷺ، فقد سأل قتادة خادم النبي ﷺ أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ فقال أنس: (أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد).^(١)

وممن حفظه من نساء الصحابة أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري، فأمرها النبي ﷺ أن تؤم أهل دارها، وكان لها مؤذن، فكانت تؤم أهل دارها.^(٢)

وقد نقل القرآن الكريم بحفظ الجموع عن الجموع في كل عصر، وكان القرآن كما وصفه الله لرسوله، حين قال له في الحديث القدسي الذي يرويه النبي عن ربه تبارك وتعالى: ((ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان)).^(٣)

يقول ابن الجزري: "الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة.. فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال، كما جاء في صفة أمته: ((أناجيلهم في صدورهم))."^(٤)

وحتى نقف على كثرة هؤلاء القراء من الصحابة يكفي أن نذكر أنه قد قتل منهم في يوم بدر معونة سبعون، يقول أنس: (جاء ناس إلى

(١) أخرجه البخاري ح (٥٠٠٣)، ومسلم ح (٢٤٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود ح (٥٩١)، وأحمد ح (٢٦٧٣٩).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٨٦٥).

(٤) النشر: (٦/١)، والحديث أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (٩٩٠٣)، والبيهقي في دلائل النبوة ح (٣٤٣).

النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة. فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء، يقرؤون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون .. فبعثهم النبي إليهم، فعرضوا لهم، فقتلوهم.^(١)

وبعد وفاة النبي ﷺ قتل في وقعة اليمامة الكثير من القراء، حتى خشي عمر من ضياع شيء من القرآن، فقال لخليفة المسلمين أبي بكر: (إن القتل قد استحر لأي كثر) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن).^(٢) فكان هذا سبباً في مبادرة الصحابة إلى جمع القرآن في مصحف واحد مكتوب في عهد الخليفة أبي بكر الصديق.

وجمع القرآن في عهد الصديق إنما كان جمعاً للمكتوب بين يدي النبي ﷺ الذي حرص على جمع القرآن في عهده ليتكامل حفظ السطور إلى حفظ الصدور.

يقول عثمان بن عفان: إن النبي ﷺ كان إذا نزلت عليه الآيات يدعو بعض من كان يكتب له، ويقول له: ((ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)).^(٣)

وكان الصحابة يكتبون كل ما نزل، بل ويسارعون إليه مهما كثر، ومثاله مسارعتهم إلى كتابة سورة الأنعام، وهي من أطول سور القرآن، نزلت دفعة واحدة في مكة زمن الاضطهاد، يقول ابن عباس رضي الله عنه: ((نزلت جملة واحدة، نزلت ليلاً، وكتبوها من ليلتهم غير ست

(١) أخرجه مسلم ح (٦٧٧).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٧٨٦)، والترمذي ح (٣٠٨٦)، واللفظ لأبي داود.

آيات؛ فإنها نزلت في المدينة)).^(١)

وقد أولى النبي ﷺ المكتوب بين يديه اهتماماً بالغاً، إذ كان يستوثق من دقة المكتوب بين يديه، يقول زيد بن ثابت كاتب الوحي: كنتُ أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي عليّ، فإذا فرغت، قال: ((اقرأه))، فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه.^(٢)

وخوفاً من تداخل المكتوب من القرآن مع غيره من كلام النبي ﷺ أمر أصحابه، فقال: ((لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه)).^(٣)

ثم لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى قبل أن يجمع هذا المكتوب بين يديه في مصحف واحد، يقول كاتب الوحي زيد بن ثابت: (قبض النبي ﷺ، ولم يكن القرآن جمع في شيء).^(٤)

قال الخطابي: "إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته؛ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر".^(٥)

وبعد وفاة النبي ﷺ بدأت حروب المرتدين، وكان أشدها معركة

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/٣)، والقاسمي في محاسن التأويل (٤٤٦/٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ح (١٩٨٥)، قال الهيثمي: "أخرجه الطبراني

بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات". مجمع الزوائد (٢٥٧/٨).

(٣) أخرجه مسلم ح (٣٠٠٤).

(٤) أخرجه الدير عاقولي بإسناده إلى زيد بن حارثة في فوائده، كما نقل السيوطي في

الإتقان في علوم القرآن (١٦٤/١).

(٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (١٦٤/١).

اليمامة التي قتل فيها قرابة الألف من أصحاب النبي ﷺ ، وبينهم كثير من القراء.

فجاء عمر بن الخطاب إلى الخليفة أبي بكر الصديق، يقترح جمع القرآن في مصحف واحد، خشية ضياعه بوفاة المزيد من القراء، ووافق الخليفة على المقترح، وانتدب لجنة لذلك العمل العظيم برئاسة كاتب الوحي وحافظه الشاب زيد بن ثابت، الذي يروي لنا الخبر بتمامه فيقول: (أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال: أبو بكر إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر.

فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله، فتتبع القرآن فاجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر.

فقمتم فاتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما

عنتم حريص عليكم) (التوبة: ١٢٨) إلى آخرهما.

وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر.^(١) وتبين لنا رواية أخرى المنهج الذي اتبعه زيد في جمعه، إذ لم يعتمد على محفوظاته ومحفوظات الصحابة، بل بحث عن المکتوب بين يدي النبي ﷺ، والموثق بشهادة شاهدين يشهدان بكتابته بين يدي النبي ﷺ، يقول يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: (قام عمر بن الخطاب في الناس فقال: من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان).^(٢)

قال أبو شامة المقدسي: (وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كُتب بين يدي النبي، لا من مجرد الحفظ، ولذلك قال في آخر سورة التوبة: (لم أجدها مع غيره) أي لم أجدها مكتوبة مع غيره، لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة).^(٣)

وهكذا أكملت اللجنة عملها بجمع ما كتب بين يدي النبي ﷺ موثقاً بشهادة شاهدين على الأقل، يشهدان أنه كتب بين يدي النبي ﷺ. وفي عهد عثمان رضي الله عنه أمر الخليفة بتكوين لجنة تعيد نسخ المجموع في

(١) أخرجه البخاري ح (٤٦٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي داود في كتابه المصاحف ح (٣٣).

(٣) انظر: الإتيان في علوم القرآن (١/٦٧)، وفتح الباري (٨/٦٣٠).

عهد أبي بكر، كان عمادها أربعة من حفاظ القرآن^(١)، وبدأت اللجنة بنسخ مصحف أبي بكر وكتابته وفق لسان قريش، يقول حذيفة: (فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلني إلينا بالمصحف؛ ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم).^(٢)

وفي رواية الترمذي أن الكتبة اختلفوا في كيفية كتابة كلمة واحدة، يقول حذيفة: (فاختلفوا في "التابوت" و"التابوة"، فقال القرشيون بالأول، وقال زيد بالثاني، فرفعوا اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه بالتابوت، فإنه نزل بلسان قريش).^(٣)

وتكامل الجمع العثماني بكتابة سبع نسخ من المصحف، أرسل كل واحد منها إلى قطر من أقطار المسلمين، ليكون إماماً للناس، يضبطون وفقه مصاحفهم، وأمر عثمان من كان عنده شيء من صحف القرآن أن يحرقها، يقول حذيفة: (حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما

(١) وقد وصلت اللجنة فيما بعد إلى اثني عشر من أصحاب النبي ﷺ، يقول كثير بن أفلق: (لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت) أخرجه ابن أبي داود في كتابه المصاحف ح (٨٩).

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٥٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٣١٠٤).

نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق.^(١)

والسبب الذي دعا الخليفة إلى طلب إحراق الناس لما بين أيديهم من الصحف والمصاحف أن بعضها قد كتب قبل العرضة الأخيرة للوحي في السنة الأخيرة من حياة النبي ﷺ، ففيها ما نسخت تلاوته، كما يمكن أن يقع في مصاحف الصحابة الخاصة نقص آية أو كلمة أو زيادة ناسخ لشرح كلمة وسواها، فيخشى أن يظن من يأتي بعد ناسخها أنه من القرآن، كما كانت مصاحف الصحابة مختلفة في ترتيب سورها، فمصحف علي ﷺ مثلاً كان ترتيبه بحسب النزول، فلهذه الأسباب أمر عثمان بإحراق المصاحف.

وقد فعل الصحابة ذلك وامتثلوا أمر الخليفة، واتفقوا على صحة صنيعه، يقول علي ﷺ: (يا أيها الناس، لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً.. والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل).^(٢) ويقول مصعب بن سعد ﷺ: (أدركت الناس حين شقق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، أو قال: لم يعب ذلك أحد).^(٣)

وامتثال الصحابة وفعلهم؛ إقرار لعثمان على صحة ما فعله، لأن ما فعله عثمان هو إعادة نسخ مصحف أبي بكر وفق حرف قريش

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٨).
(٢) أخرجه أبو بكر بن أبي داود في كتابه المصاحف ح (٧٧).
(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ح (١٦١)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن ح (٤٦٠)، وقال السيوطي: إسناده جيد.

ولسانهم، ولو كان في فعله شائبة لثاروا عليه، كما ثار عليه من ثار
لأمور أقل منها كتوليته بعض أقاربه على بعض مدائن المسلمين.
ومن المعلوم أن عثمان لم يأمر عماله بمتابعة الناس في بيوتهم ومعرفة
من أحرق من المسلمين مصحفه ومن لم يحرق، فقد فعل المسلمون ذلك
بمحض إرادتهم واختيارهم.

وهكذا وثق النص القرآني كتابة، فاجتمع إلى توثيقه بحفظ
الحفاظ من أصحاب النبي ﷺ، وتناقلت الأمة في أجيالها نص القرآن
الكريم، يحفظه في كل عصر الألوف المؤلفة منهم، فوصل إلينا القرآن
الكريم محفوظاً من أي تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقصان.

الإيمان بالأنبياء

ولكي تبلغ رسالة الله إلى العالمين اصطفى الله خيرة من خلقه،
فجعلهم رسلاً له، أولاهم تعريف الناس بدينهم وإبلاغهم ما يريد ربهم
منهم، فمن أطاعهم وآمن بهم بشروه بالسعادة والرضوان، ومن عصاهم
أنذروه غضب الملك الديان (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس
على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) (النساء: ١٦٥).

فبهؤلاء الرسل قامت حجته تبارك وتعالى على خلقه: ((وليس أحد
أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل)).^(١)
والرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله كثر، فما من أمة إلا وأرسل
الله فيها رسولاً يقيم حجته عليها (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (فاطر:
٢٤).

(١) أخرجه مسلم ج (٢٧٦٠).

وقد ذكر القرآن والسنة أسماء بعضهم ، وهم : آدم ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وإدريس وذو الكفل وداود وسليمان وأيوب ويوسف ويونس وموسى وهارون ويوشع وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

لكن ثمة كثيرين غيرهم لم يذكرهم القرآن ، كما قال تعالى :
(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك)
(النساء: ١٦٤).

وجميع الأنبياء من البشر ، وهم لا يتميزون عن غيرهم إلا بما خصهم الله من النبوة وأنوارها وعبقها (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) (الأنبياء: ٧ - ٨) ، فكلهم يجري عليه ما يجري على البشر من عوارض جسدية كالطعام والشراب والمرض ، ومن أقدار علوية كالبلاء والموت.

وهم لا يملكون من القدرة أكثر مما أمكنهم الله منه (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (إبراهيم: ١١).

وقد أيد الله هؤلاء الأنبياء بالدلائل التي برهنت لأقوامهم على صدقهم في دعوى النبوة والرسالة ، قال ﷺ: ((ما من الأنبياء من نبي ، إلا

قد أُعطي من الآيات، ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ
وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة)).^(١)
ولما كان الرسول على قدر مرسله؛ فإن الله اصطفى هؤلاء الأنبياء
من بين سائر خلقه، ليكونوا رسله وسفراءه إلى خلقه، فهم خيرتهم
خُلُقاً، بل وخلقاً.

ومن صفاتهم عليهم السلام تحملهم المشاق والبلاء في سبيل إقامة
دينه (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله
وكفى بالله حسيباً) (الأحزاب: ٣٩)، وهم في بلاغهم لرسالة الله لا
يطلبون الأجر من الناس، فقد قال نوح عليه السلام: (ويا قوم لا
أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله) (هود: ٢٩)، وقد أمر الله نبيه
ﷺ أن يقول للناس ما قاله إخوانه الأنبياء: (قل ما أسألكم عليه من أجر
إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) (الفرقان: ٥٧).

ولما تمثل بهؤلاء الأنبياء من الكمالات؛ فإن الله أمر نبيه محمداً
والمؤمنين من بعده بالتأسي بهم، فقال بعد أن عدّد أسماء ثمانية عشر
رسولاً: (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها
هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) ﷻ أولئك الذين هدى
الله فبهداهم اقتده (الأنعام: ٨٨ - ٨٩)، فتمثل النبي ﷺ هديهم، ومشى
على غرزهم، فرفع الله قدره، وأعلى ذكره، وجعله أسوة حسنة للعالمين
(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيراً) (الأحزاب: ٢١).

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٨١)، ومسلم ح (١٥٢)، واللفظ له.

وقد كانت دعوة هؤلاء جميعاً واحدة في أصولها، وهي الدعوة إلى عبادة الله الواحد دون سواه (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (الأنبياء: ٢٥)، كما أن أصول شرائعهم وجوهرها واحد (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) (الشورى: ١٣).

وعليه فالمسلم يؤمن بجميع الأنبياء بلا تفريق بينهم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) (البقرة: ٢٨٥).

والكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل وبمن أرسلهم وبالرسالة الواحدة التي يحملونها (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴿١﴾ أولئك هم الكافرون حقاً) (النساء: ١٥٠ - ١٥١).

أما طرائق الوحي التي يوحى الله بها إلى هؤلاء الأنبياء، فتتلخص في ثلاثة طرق: الأول: خطاب الله المباشر، كما كلم الله موسى في الوادي المقدس، والثاني: الوحي الذي يقذفه الله في قلب النبي، والثالث: ما يحمله ملاك الله إلى النبي من وحي الله، سواء ظهر له على شكل بشري إيناساً له أو على صورته الحقيقية، قال تعالى: (وما كان لبشر أن

يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء) (الشورى: ٥١).

وجميع هؤلاء الرسل من أهل الفضل والكمال، لكنهم متفاوتون في أقدارهم عند الله (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) (البقرة: ٢٥٣).

وأفضلهم أولو العزم، وهم خمسة ذكرهم الله بقوله: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) (الأحزاب: ٧)، وقد أمر الله نبيه بالصبر على الدعوة ومشاقها اقتداء بمن سبقه من أولي العزم من الرسل (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) (الأحقاف: ٣٥).

وأفضل هؤلاء الأنبياء عند الله خاتمهم الذي ارتضاه الله للبشرية كلها نبياً ورسولاً، محمد بن عبد الله الذي قال مخبراً عن منزلته عند ربه: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة))، وفي رواية: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر)).^(١) أي لا أفخر على أحد بذلك، إنما أبلغ بما خصني الله من الشرف والمنزلة.

ولكي لا توهم المفاضلة بين الأنبياء نقصاً في المفضول؛ فإن النبي ﷺ نهى عنها، فقال لمن قال بأنه خير من موسى: ((لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق،

(١) أخرجه مسلم ح (٢٢٧٨)، والترمذي ح (١٣٤٨)، وابن ماجه ح (٤٣٠٨)، وأحمد ح (٢٥٤٢).

فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)).^(١)

الإيمان بالقضاء والقدر

وسادس أركان الإيمان هو الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن كل ما يجري في هذه الدنيا من خير أو شر إنما يجري بقضاء الله الذي لا راد له ولا مانع منه، فقد كتبه الله قبل أن يخلق الخلق بدهر طويل.

وتتضمن عقيدة المسلم في القضاء والقدر ثلاث مسائل:

الأولى: أن الله عز وجل عليم بكل شيء، وأن كل ما يحصل منا من خير أو شر قد علمه الله أولاً، وهو مصداق قوله تعالى: (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) (الطلاق: ١٢).

الثانية: أن الله كتب ما علمه، قال الله تعالى: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) (الحج: ٧٠)، وقال: (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) (يس: ١٢)، وما كتبه الله إنما كتبه قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، قال ﷺ: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)).^(٢) وقال أيضاً: ((وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض)).^(٣)

(١) أخرجه البخاري ح (٢٤١١)، ومسلم ح (٢٣٧٣)، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه البخاري ح (٣١٩٢).

الثالثة: أن ما كتبه الله في كتابه كائن لا محالة ، ولا يمكن لأحد أن يغيره (وكان أمر الله قادراً مقدوراً) (الأحزاب : ٣٨) ، وما يقع من الناس من شر وخير إنما يجري بعلم الله ومشيتته الأزلية (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) (التكوير : ٢٩).

لكن الفعل الإنساني لا يصدر من الإنسان جبراً وقهراً ، فالإنسان أكرم مخلوقات الله ، كرّمه الله ، فمنحه القدرة على التمييز (ألم نجعل له عينين ﴿﴾ ولساناً وشفتين ﴿﴾ وهديناه النجدين) (البلد : ٨- ١٠) ، ثم دعاه تبارك وتعالى لاختيار الحق وهجر الباطل ، من غير إكراه منه على ذلك.

فإذا ما اختار الإنسان خير النجدين ، فسلك سبيل الهداية؛ زاده الله من أنوار الهدى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (محمد : ١٧) ، وإن تكبها واختار الضلالة والعماية زاده الله ضلالاً ، كما وصف الله تعالى المنافقين : (في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون) (البقرة : ١٠).

وهكذا فالإنسان يختار فعله وفق اختياره وإرادته ، لذلك نسب الله فعله إليه بقوله : (وما تفعلوا من خيرٍ فإن الله به عليمٌ) (البقرة : ٢١٥) ، لكن اختياره وفعله ليس جبراً لله أو قهراً ، بل هو بقدرة الله الخالق الذي أقدره على ذلك (والله خلقكم وما تعملون) (الصافات : ٩٦).

ويشمل الإيمان بالقضاء والقدر ، التصديق بجملة من القضايا التي قدرها الله بسابق علمه.

أولها: ما يصيب الإنسان من خير وشر، يقول النبي ﷺ: ((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه))^(١)، وبذلك يتعلق قلب العبد بربه مسبب الأسباب، لا بالأسباب المنظورة التي جعلها الله طريقاً لتحقيق قدره المكتوب، وهذا يُحل بالمؤمن راحة النفس وطمأنينة القلب عند نزول البلاء، ومحبة المنعم ورجاء المزيد من نواله عند الرخاء (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيراً ﴿١﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختالٍ فخورٍ) (الحديد: ٢٢ - ٢٣).
ومنها أيضاً: تقدير أرزاق الخلق، فكل ذلك مسطور في علم الله أولاً، يقول الله تعالى عما يقدره من أرزاق للناس: (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (الحجر: ٢١).

وبسبب هذا الإيمان فإن المؤمن أشجع الناس بما أوتي من يقين بالله الذي هو وحده يملك أرزاق الناس وآجالهم، (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (التوبة: ٥١).

ولأجل ذلك علم النبي ﷺ ابن عباس والأمة من بعده ((أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك،

(١) أخرجه الترمذي ح (٢١٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي لشواهد تقويه ح (١١٤٣)، وفي السلسلة الصحيحة ح (٢٤٣٩).

ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجُفَّتِ الصُّحُفُ)).^(١)

وبسبب إيمان المسلم بأن الرزق مقسوم من الله بسابق قدره، فإنه لا يطلب الدنيا بنهَمِ عبَادِ المال الذين لا يعرفون في الكسب حلالاً ولا حراماً، إنما يطلبها بوجوهها المشروعة، يقول ﷺ: ((لا تستبطنوا الرزق، فإنه لن يموت العبد حتى يبلغه آخر رزق هو له، فأجملوا في الطلب: أخذ الحلال، وترك الحرام))^(٢)، وفي حديث آخر يقول ﷺ: ((وإن الروح الأمين قد نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)).^(٣)

وكذلك فإن الله قدر آجال الناس وأعمارهم في سابق علمه (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمى) (الزمر: ٤٢).

وإيمان المسلم بذلك يعرف الإنسان بقدره الضعيف، وينبؤه عن ضعفه الكبير، وعن عظيم حاجته إلى ربه، قال ﷺ: ((لو أن الله سبحانه عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحد ذهباً أنفقته في سبيل الله تعالى ما قبله منك؛ حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٥١٦)، وأحمد ح (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ح (٣٣٠٨)، والحاكم في مستدرکه (٢٢٤/٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٢٦٠٧).

(٣) أخرجه الشافعي في كتابه الرسالة ص (٨٧ و٩٣)، والبيهقي في السنن (٧٦/٧)، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على الرسالة.

يكن ليخطئك؛ وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ وأنت إن مت على غير هذا دخلت النار)).^(١) فيستقبل المؤمن بالقضاء والقدر مصائب الدنيا بالبشر، ويراهها منحة حملتها إليه محنة ((عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)).^(٢)

الإيمان باليوم الآخر

خلق الله الإنسان في هذه الدنيا ليعمرها وفق منهج الله ، فإذا وُلّت وانقضت؛ جمع الله الأولين والآخرين في يوم جديد ، هو يوم الحساب والجزاء ، حيث يجازى كل إنسان على عمله ، وهذا هو ما تقتضيه حكمة الله وعدله ، وإلا لاستوى الطائع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، وهذا من العبد الذي يتزده عنه الله الحكيم (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴿١١٥﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) (المؤمنون: ١١٥ - ١١٦).

وقد تولى القرآن إثبات معقولية البعث والنشور، وردّ بالبرهان على مكذبي البعث الذين ضعف تصورهم لقدرة الله العظيمة ، فتساءلوا مستكبرين: (وقالوا أتأذا كنا عظاماً ورفاتاً أتأنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴿١٠١﴾ قل كونوا حجارةً أو حديداً ﴿١٠٢﴾ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) (الإسراء: ٤٩ - ٥١).

(١) أخرجه الترمذي ح (٢١٥٥)، وابن ماجه ح (٧٧)، وأحمد ح (٢١١٠١).
(٢) أخرجه مسلم ح (٢٩٩٩).

وضرب الله لهؤلاء المنكرين الأمثال العقلية التي تقرب فكرة البعث إلى أذهانهم، فقال جل ذكره: (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴿٧٨﴾ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿٧٩﴾ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴿٨٠﴾ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴿٨١﴾ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿٨٢﴾ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) (يس: ٧٨ - ٨٢).

والقيامة تشمل جميع البشر، مؤمنهم وكافرهم (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) (الكهف: ٤٧)، فلا مناص من ذلك اليوم ولا مهرب كما قال تعالى: (أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً) (البقرة: ١٤٨). والقيامة تقوم في زمن لا يعلم موعده إلا الله، قال تعالى: (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) (لقمان: ٣٤).

فإذا أذن الله بانتهاء الدنيا وانصرامها، تتحلُّ - بأمر الله - سنن الكون ويختل نظامه وترابطه وتقوم الساعة (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) (إبراهيم: ٤٨).

ويرافق قيام الساعة أهوال شديدة، منها ما ذكره الله بقوله: (إذا الشمس كورت ﴿١﴾ وإذا النجوم انكدرت ﴿٢﴾ وإذا الجبال سيرت ﴿٣﴾ وإذا العشار عطلت ﴿٤﴾ وإذا الوحوش حشرت ﴿٥﴾ وإذا البحار سجرت ﴿٦﴾ وإذا

النفوس زوجت ﴿٦٧﴾ وإذا الموعودة سئلت ﴿٦٨﴾ بأي ذنب قتلت ﴿٦٩﴾ وإذا الصحف نشرت ﴿٧٠﴾ وإذا السماء كَشِطَّتْ (التكوير: ١ - ١١).

وأول ما يكون من أحداث القيامة نفختا الصور، حيث تصعق الخلائق في الأولى منهما، وتقوم إلى ربها بعد النفخة الثانية (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) (الزمر: ٦٨).

وقال تعالى: (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴿٧١﴾ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴿٧٢﴾ إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون ﴿٧٣﴾ فاليوم لا تظلم نفسٌ شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) (يس: ٥١ - ٥٤).

فإذا ما جمع الله الأولين والآخرين، وأذن ببدء الحساب؛ أمر بإعطاء البشر صحفهم فرأوا فيها أعمالهم، الصالح منها والطالح، فيوم القيامة يوم عدل الله ودينونته.

ويصف القرآن مشهد تطاير الصحف ووقوعها في أيدي أصحابها، فأما المؤمنون منهم فيأخذون صحفهم بأيمانهم، ويهتفون بالبشرى والفرح لما وجدوه فيها من صالح العمل (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴿٧٤﴾ إني ظننت أني ملاقٍ حسابه ﴿٧٥﴾ فهو في عيشة راضية ﴿٧٦﴾ في جنةٍ عاليةٍ ﴿٧٧﴾ قطوفها دانيةٌ ﴿٧٨﴾ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) (الحاقة: ١٩ - ٢٤).

وأما الذين كفروا بالله واليوم الآخر فيأخذون كتبهم بشمائلهم، ويتنادون بالحسرات على المسطور فيها من سيء القول والعمل (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ﴿﴾ ولم أدر ما حسابيه ﴿﴾ يا ليتها كانت القاضية ﴿﴾ ما أغنى عني ماليه ﴿﴾ هلك عني سلطانيه) (الحاقة: ٢٥ - ٢٩).

وهذه الصحف يجد فيها المرء كل ما عمله من عمل (يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴿﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴿﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: ٦ - ٨)، (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) (الكهف: ٤٨).

ويحاسب الله الخلائق على أعمالهم (والله سريع الحساب) (البقرة: ١٠٢)، وينصب لهم في المحشر ميزاناً، لا يزن الناس بأطوالهم ولا أثقالهم، بل ميزان عدل وحق، يزن العبد بمقدار عمله ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، واقروا: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً)))^(١) (الكهف: ١٠٥).

وهذا الميزان الأخروي مظهر من مظاهر عدل الله وعلمه المحيط، فهو يزن الصغير من العمل كما يزن الكبير (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (الأنبياء: ٤٧).

(١) أخرجه البخاري ح (٤٧٢٩)، ومسلم ح (٢٧٨٥).

ثم تكون النتيجة: (فأما من ثقلت موازينه ﴿٦﴾ فهو في عيشة راضية
﴿٧﴾ وأما من خفت موازينه ﴿٨﴾ فأمه هاوية) (القارعة: ٦- ٩).

ومما يثقل ميزان العبد يوم القيامة ما يأتي به من الحسنات والأعمال
الصالحة، ومنها ذكر الله عز وجل ((كلمتان خفيفتان على اللسان،
ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان
الله وبحمده))^(١)، ومثلها الصبر والتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير،
لقوله ﷺ: ((ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا
الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمراء المسلم؛ فيحتسبه))^(٢)،
وأما حسن الخلق فالبشرى لصاحبه، فإنه ((ما من شيء أثقل في الميزان
من حسن الخلق))^(٣).

وينصب الصراط على جهنم ، وهو جسر يرد عليه الجميع ، فيمرون
عليه على قدر أعمالهم، فسعيد ناج إلى الجنة، أو مخدوش، أو شقي
مكردس في النار، قال ﷺ: ((ويضرب الصراط بين ظهري جهنم .. وفي
جهنم كالليب مثل شوك السعدان .. غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا
الله؛ تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، أو الموثق بعمله،
ومنهم المخردل أو المجازي))^(٤).

والمكردسون في النار هم الكافرون، ومن غلبت عليه سيئاته من
عصاة المسلمين، فأما الكافرون فيخلدون فيها ولا يخرجون، وأما

(١) أخرجه البخاري ح (٦٤٠٦)، ومسلم ح (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه أحمد ح (١٥٢٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٢٠٠٢)، وأبو داود ح (٤٧٩٩)، وأحمد ح (٢٦٩٧١).

(٤) أخرجه البخاري ح (٧٤٣٨)، ومسلم ح (١٨٢).

غيرهم من المسلمين، فيخرجون منها إذا طهرتهم النار من سالف أفعالهم
(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)
(البقرة: ٣٩).

ويصف الله بعض حسرات أهل النار وعذابهم فيها: (والذين كفروا
لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك
نجزي كل كفور ﴿٣٦﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً
غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم
الندير فذوقوا فما للظالمين من نصير) (فاطر: ٣٦ - ٣٧).

وحتى لا يتوقف العذاب عن أهل النار فإن الله يهيئ من الأسباب ما
يجعله مستمراً (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما
نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان
عزيراً حكيماً) (النساء: ٥٦).

وتصور آيات القرآن مشاهد من عذاب أهل النار ليهلك من هلك عن
بينة: (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم
الحميم ﴿٣٧﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿٣٨﴾ ولهم مقامع من حديد
﴿٣٩﴾ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) (الحج: ١٩ - ٢٢).

ويخبرنا النبي ﷺ بأهون أهل النار عذاباً ، ففيه غنية ومزدجر لكل
من ألقى السمع وهو شهيد ، يقول ﷺ: ((إن أهون أهل النار عذاباً من له
نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى

أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً)).^(١)

وأما أهل السعادة من أهل الإيمان فهم في الروح والريحان، (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) (البقرة: ٢٥).

إن نعيم الجنة فاق كل وصف، وتعالى عن كل شبه، فليس له في الدنيا مثيل ولا نظير، ولا يشتهه شيء مما في الجنة مع شيء مما في دنيانا إلا في الأسماء، وأما الحقائق فتتباين، فالجنة لا يشبهها شيئاً من الموصوفات والمدركات، وهي كما وصفها الله في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه: ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقروا إن شئتم:) فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)) (السجدة: ١٧).^(٢)

ومن نعيم الجنة ما جعله الله فيها من أنهار طيبة الشراب عذبة المذاق (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) (محمد: ١٥).

ومن نعيمها ما بشر الله به أهل طاعته بقوله: (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴿١﴾ في سدر مخضود ﴿٢﴾ وطلح منضود ﴿٣﴾ وظل ممدود

(١) أخرجه البخاري ح (٦٥٦١)، ومسلم ح (٢١٣)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٢٤٤)، ومسلم ح (٢٨٢٤).

﴿وماء مسكوب﴾ و﴿فاكهة كثيرة﴾ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴿﴾
وفرش مرفوعة (الواقعة: ٢٧ - ٣٤).

ويبشر النبي ﷺ أهل الجنة بمزيد فضل الله لهم، فإن داخلها ((ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه))^(١)، بل يصرف الله عنه كل سوء مما كان يصيبه في الدنيا، فقد قال ﷺ: ((لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان؛ يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا)).^(٢)

ومن أعظم ما ينعم به أهل الجنة دوامه وأبديته، فالجنة دار نعيم لا ينفد ولا ينقطع: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴿ جزأؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ (البينة: ٧ - ٨).

وينقل النبي ﷺ البشارة لأهل الجنة بالخلود فيها حين: ((ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تتعموا فلا

(١) أخرجه مسلم ح (٢٨٣٦).
(٢) أخرجه البخاري ح (٣٢٤٥)، ومسلم ح (٢٨٣٤)، وقوله: ((مجامرهم الألوة)) يعني أنهم يستمتعون بأطيب أنواع العود رائحة، وقوله: ((رشحهم المسك)) أي رائحة عرقهم زكية كالمسك

تَبَأَسُوا أَبْدَاءً ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَنُودُوا أَنْ تَتَّكِمَ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأعراف : ٤٣) .^(١)

وأما النعيم الأعظم الذي لا يدانى والشرف الذي لا يبارى فهو رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى ، فلطالما عبده في الدنيا ولم يروه ، فيتجلى لهم الله يوم القيامة منةً وتفضلاً وإحساناً (وجوه يومئذٍ ناضرة  إلى ربها ناظرة) (القيامة : ٢٢ - ٢٣) .

والإيمان باليوم الآخر له أكبر الأثر في تهذيب وتقويم سلوك المسلم ، الذي يطمع برضوان الله ويخشى عقوبته ، فيمثل أوامر الله ويستكين لها ، وهو موقن بأن ما يصنعه اليوم يلاقيه غداً ، وأن امتثاله لأمر ربه في دنياه سبب في عاجل سعادته ، ويعقبه الفرح والثواب في أخراه (يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم  فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره  ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة : ٦ - ٨) .

وهكذا فإن أركان الإيمان هي صمام أمان للمجتمع الإنساني بما تغرسه في صدور المؤمنين من موجبات الرحمة والسكينة والإخبات ، وما تثمره في دنيا المؤمنين من بذل وإحسان وتراحم ، تسعد به البشرية في دنياها ، وترضي به ربها ومولاها .

ردود على أباطيل

لقد بُلي المسلمون اليوم بتحديات كبيرة ، لعل أهمها تلك الهجمة التي تتنادى إليها دوائر دينية وصحفية وسياسية ، وكلها تنصب في باب الافتراء على الإسلام؛ بغرض إقامة السدود التي تحول دون تعرف العالم

(١) أخرجه مسلم ح (٢٨٣٧) .

على حقيقة الإسلام الذي تصوره هذه الدوائر على أنه دين يجمع بين المهجبة والوثنية ، يظلم المرأة، ويقتل الأبرياء، ويعادي الحضارة، ويبث الكراهية، إلى غيره من الافتراءات التي تفتقد أدنى معايير الموضوعية العلمية والإنصاف.

وهذه الرسالة في أصلها للتعريف بالإسلام، وليست للرد على ادعاءات الآخرين عليه، لكن قد يكون من المناسب أن نعرج فيها سريعاً على بعض ما قيل، ليكون أنموذجاً يقيس فيه القارئ الغائب على الشاهد، فتستبين بعض أطراف الحقيقة التي يرنو إليها كل عاقل وحصيف.

أولاً : الإسلام والمرأة

مما يروجه البعض زوراً عن الإسلام أنه امتهن المرأة وحط من منزلتها، وتقصصها وهضم حقوقها لصالح الرجل ...

إن هذا الزعم ليس من الحقيقة في شيء ، فما عرف العرب ولا غيرهم تكريماً للمرأة يماثل تكريم الإسلام لها، يقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب: (والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً؛ حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم).^(١)

وقبل زمن مديد من اعتراف بعض الأمم بإنسانية المرأة ؛ قرر الإسلام تساوي الذكر بالأنثى في إنسانيتها وكافة الأمور العبادية، ولم يميز بينهما في شيء إلا حال التعارض مع الطبيعة التكوينية والنفسية والوظيفية للذكر أو للأنثى.

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩١٣).

فأما تساويهما في الإنسانية، فقد قرره النبي بقوله: ((إنما النساء شقائق الرجال)).^(١) كيف لا وهما معاً أصل الجنس البشري (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) (الحجرات: ١٣)، ويشملهما جميعاً تكريم الله للجنس البشري (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (الإسراء: ٧٠).

ويقرر القرآن الكريم أهلية المرأة للإيمان والتكليف والعبادة، ومن ثم المحاسبة والجزاء، وهي في كل ذلك مثل الرجل سواء بسواء (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل: ٩٧) ويقول تعالى: (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض) (آل عمران: ١٩٥).

ولم يعتبر الإسلام المرأة مصدر الشرور، ولم يوافق على اعتبارها سبباً في وقوع آدم في غواية الشيطان، فالقرآن الكريم يجعل آدم وزوجته شريكين في اقتراف الخطيئة الأولى، شريكين في جزائها (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) (البقرة: ٣٦)، وكما اشتركا في الخطيئة فقد اشتركا في التوبة منها (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (الأعراف: ٢٣).

(١) أخرجه أحمد (٢٥٦٦٣)، وأبو داود ح (٢٣٦)، والترمذي ح (١١٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ح (٢٣٤).

وهذا التساوي بين الوالدين يسري في المسؤولية الشرعية لذريتهما، حيث إن الله يساوي بين الرجال والنساء في ثواب وعقاب أفعال الإنسان، بلا تمييز لجنس على جنس (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا) (الأحزاب: ٣٥).

وقد حذر القرآن من صنيع الجاهلية التي كانت تنتقص المرأة وتعتبرها عاراً تتخلص منه بوأدها حال الطفولة (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴿٥٨﴾ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) (النحل: ٥٨ - ٥٩).

وفي إزاء هذا الواقع الجاهلي الظالم خص النبي ﷺ البنات والأخوات بالمزيد من وصاته فقال: ((من يلي من هذه البنات شيئاً، فأحسن إليهن؛ كُنْ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ)).^(١)

وبشّر بالجنة من أحسن رعاية الإناث من أخوات وبنات، فقال: ((من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو ابنتان أو أختان؛ فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن؛ فله الجنة)).^(٢)

(١) أخرجه البخاري ح (٥٩٩٥)، ومسلم ح (٢٦٢٩).
(٢) أخرجه الترمذي ح (١٩١٦)، وأبو داود ح (٥١٤٧)، وأحمد ح (١٠٩٩١).

ويرتفع الجزاء في حديث آخر ليبلغ بالمحسن إليهن إلى أعلى الجنة، حيث أنبياء الله والصالحون من عباده، يقول ﷺ: ((من عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القيامة أنا وهو)) وضم أصابعه.^(١) أي أنه يجاور النبي ﷺ في الجنة كما تتجاوز الأصبعان في يد الواحد فينا.

كل هذا الترغيب والحث من الإسلام ليبطل شرعة الجاهلية في انتقاص المؤنسات الغاليات اللاتي يرغب النبي ﷺ بمحبتهن فيقول: ((لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات)).^(٢)

ويبرأ الإسلام من تفضيل الذكر على الأنثى، ويعد بالجنة من أكرم الأنثى وأنصفها، قال رسول الله ﷺ: ((من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها؛ أدخله الله الجنة)).^(٣)

وكما أوصى الإسلام برعاية الابنة؛ فإنه أمر بذلك لكل أنثى، سواء كانت زوجة أم أمماً؛ بل وأكد على رعاية حقوقها حتى في حال العبودية، ففي حديث الثلاثة الذين يؤتيهم الله أجرهم مرتين ذكر ﷺ ((الرجل تكون له الأمة، فيعلمها فيحسن تعليمها، ويؤدبها فيحسن أدبها، ثم يعتقها فيتزوجها، فله أجران)).^(٤)

وأما المرأة حين تكون أمماً فلإسلام معها شأن آخر، فلئن كانت النصوص التي تأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما كثيرة في القرآن والسنة؛ فإن النبي ﷺ قدّم حق الأم على حق الأب، فاعتبرها أحق العالمين

(١) أخرجه مسلم ح (٢٦٣١).
(٢) أخرجه أحمد ح (١٦٩٢٢).
(٣) أخرجه أبو داود ح (٥١٤٦)، وأحمد ح (١٩٥٨).
(٤) أخرجه البخاري ح (٣٠١١).

بحسن صحبة الابن وأولى الناس بیره وإحسانه، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: ((أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((ثم أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((ثم أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((ثم أبوك))^(١).

وأما الزوجة فهي شريكة الرجل في بيته، تشاركه السراء والضراء، وما فتى النبي يوصي بها مرة بعد مرة، حتى إذا اجتمع أمامه مائة ألف من أصحابه في حجة الوداع قام فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه وقال: ((ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم لأي مثل الأسيرات عندكم].. ألا إن لكم على نساءكم حقاً، ولنساءكم عليكم حقاً))^(٢).

وما زال ﷺ يوصي بحق المرأة، ويحذر الرجل من الاغترار بقوته وظلمها والإضرار بها، فيشهد الله على تأكيده على حقها وبرائه ممن آذاها: ((اللهم إني أخرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة))^(٣).

والزوجة درة مصانة، لا يلزمها أن تكدح وتشقى بالعمل لتضمن مكاناً لها في بيت الزوجية، فهذا ليس من واجباتها ولا هو متناسب مع أنوثتها وطبيعة مهمتها السامية في إدارة بيتها وتربية أبنائها وإعطائهم حقهم من الحنو والرعاية ((كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته..

(١) أخرجه البخاري ح (٥٩٧١)، ومسلم ح (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي ح (١١٦٣)، وابن ماجه ح (١٨٥١).

(٣) أخرجه ابن ماجه ح (٣٦٧٨)، وأحمد ح (٩٣٧٤).

والرجل راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته)).^(١)

والأنثى - في الإسلام - مكفولة النفقة، أمّا كانت أو زوجة، أختاً كانت أو ابنة، فمن واجب الرجل الإنفاق على الأسرة عموماً وعلى الزوجة خصوصاً، ولو كانت ذات مال ووظيفة، فقد أمر النبي ﷺ بذلك في خطبة يوم عرفة العظيم وفي أكبر اجتماع لأصحاب النبي ﷺ، فقال: ((ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)).^(٢)

وأوجب الله تعالى للزوجة السكن الكريم المتناسب مع قدرة الزوج المالية: (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم) (الطلاق: ٦)، وكذا أوجب لها العشرة بالمعروف حال الحب وفي حال الكراهية (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (النساء: ١٩).

وهذه العشرة للزوجة بالمعروف تصبح ميزاناً للخيرية عند الله يستبق فيه المسلمون إلى محبة الله ورضاه، فقد قال ﷺ: ((خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))^(٣)، وفي رواية: ((إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله)).^(٤)

(١) أخرجه البخاري ح (٨٩٣)، ومسلم ح (١٨٢٩).

(٢) أخرجه مسلم ح (١٢١٨).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٣٨٩٥)، وابن ماجه ح (١٩٧٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٢٨٥).

(٤) أخرجه الترمذي ح (١١٦٢)، وأبو داود ح (٤٦٨٢)، وأحمد ح (٢٣٦٤٨).

وهكذا فالعلاقة الزوجية سلسلة متبادلة من الحقوق والواجبات، وهي قائمة على مبدأ الأخذ والعطاء (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) (البقرة: ٢٨٨)، وهذه الدرجة هي القوامة. وليس هذا التفضيل بسبب قعود جنس النساء عن جنس الرجال، بل تفضيل متناسب مع ما أودعه الله في الرجل من استعدادات فطرية تلائم مهمته وتتناسب أيضاً مع دوره في إدارة الأسرة والإنفاق عليها، كما قال تعالى: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (النساء: ٣٤).

تقول الصحفية الإنجليزية روز ماري هاو: "إن الإسلام قد كرم المرأة وأعطاه حقوقها كإنسانة، وكامرأة، وعلى عكس ما يظن الناس من أن المرأة الغربية حصلت على حقوقها.. فالمرأة الغربية لا تستطيع مثلاً أن تمارس إنسانيتها الكاملة وحقوقها مثل المرأة المسلمة. فقد أصبح واجباً على المرأة في الغرب أن تعمل خارج بيتها لكسب العيش. أما المرأة المسلمة فلها حق الاختيار، ومن حقها أن يقوم الرجل بكسب القوت لها ولبقية أفراد الأسرة. فحين جعل الله للرجال القوامة على النساء كان المقصود هنا أن على الرجل أن يعمل ليكسب قوته وقوت عائلته. فالمرأة في الإسلام لها دور أهم وأكبر من مجرد الوظيفة، وهو الإنجاب وتربية الأبناء، ومع ذلك فقد أعطى الإسلام للمرأة الحق في العمل إذا رغبت هي في ذلك، وإذا اقتضت ظروفها ذلك".^(١)

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٤٣٦).

ويصر البعض على أن الإسلام ظلم المرأة حين أباح للرجل أن يتزوج عليها، وفي هذا إضرار بمصلحتها.

وقبل التعرف على حكم الإسلام في تعدد الزوجات نجد أن من الواجب التذكير بأن الإسلام لم يكن أول من شرع هذه الشرعة التي عرفتها ومارسها الأمم والملل قبل الإسلام، ويكفي في ذلك أن نذكر بأن العهد القديم - الذي يؤمن به اليهود والنصارى - يذكر بأن سليمان النبي كان له ألف زوجة (انظر الملوك (١) ٤/١١)، فالتعدد وفق العهد القديم أمر مشروع، وهو واقع عاشه الأنبياء وأممهم قبل الإسلام. والإسلام حين يبيح للرجل التعدد؛ فإنما يسيجه بجملة من الضوابط، وهو يشرعه لأمر واقعي ملموس، وهو حاجة بعض الأزواج إلى الزواج بغير زوجته لمرضاها أو لعدم قدرتها على الإنجاب، أو لغير ذلك من الأسباب، فتزوج الزوج بأخرى أولى من طلاق الأولى ليتزوج بغيرها، وأولى أيضاً من العلاقة المحرمة خارج نطاق الزوجية، فالتعدد المشروع يغلُق الباب أمام تعدد العشيقات غير المشروع الذي يجتاح المجتمعات الإنسانية التي تمنع تعدد الزوجات، واستبدلته بتعدد العشيقات.

إن البشرية لا غناء لها عن تعدد الزوجات إذا شاءت أن تحيي حياة العفة والطهر، وهذا ما ستقودنا إليه نظرة عابرة إلى الإحصاءات العالمية التي تشير إلى زيادة مطردة في نسبة النساء، فإذا كان عدد الإناث في الولايات المتحدة الأمريكية يزيد على عدد الذكور بأربعة ملايين امرأة، فإن المجتمع مخير بين القبول بأربعة ملايين بغي أو الرضا بأربعة ملايين أسرة شرعية تتعدد فيها الزوجات.

يقول المؤرخ غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب": "إن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقوم به ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تراها في أوروبا، ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين، بل إنني أبصر بالعكس ما يجعله أسنى منه".

ويقول: "إن تعدد الزوجات المشروع عند الشرقيين أحسن من تعدد الزوجات الريائي عند الأوروبيين، وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين".^(١)

أما حين نسمح بتعدد الزوجات فالأمر مختلف، فالكل يعيش ضمن إطار الأسرة الشرعية الطبيعية، لذا يقول مونتكومري وات في كتابه "محمد في المدينة": "إن الفكرة الرائدة في القرآن، هي أنه إذا تبنى المسلمون تعدد الزوجات، فإن جميع الفتيات اللواتي هن في سن الزواج يمكنهن الزواج بصورة حسنة".^(٢)

وواقعية الإسلام في تشريعه للتعدد؛ لم تخل بمثاليته في التشريع، فقد حدده بأربع زوجات، وفرض على الزوج العدل بينهن: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) (النساء : ٣)، وتوعد النبي ﷺ من ظلم إحدى زوجتيه بعقوبة خاصة يوم القيامة تتناسب وميله إلى واحدة منهن: ((من

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٤٣١).

(٢) المصدر السابق (٤٣٨).

كان له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقطاً)).^(١)

إن تعدد الزوجات الذي يبيحه الإسلام ليس شهوة عابرة، ولا نوعاً من التمييز والتفضيل، بل هو تهذيب لواقع، يقنن لمسألة اجتماعية، يضي فيها الرجل المزيد من المسؤوليات التي يلزمه القيام بها والوفاء بمتطلباتها المالية والاجتماعية والإنسانية.

ونتساءل في خاتمة هذا المبحث: ألا يكفي إزاء المزاعم الكذوبة عن وضع المرأة في الإسلام أن نتأمل الشهادة المنصفة للمفكر الفرنسي مارسيل بوازار في كتابه "إنسانية الإسلام": "أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد أنها حامية حمى حقوق المرأة".^(٢)

ثانياً: الإسلام والإرهاب

أرسل الله نبيه ﷺ إلى العالمين بشيراً ونذيراً، ووصفه بقوله: (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) (الأنبياء: ١٠٧)، كما وصفه الله تعالى بالرفافة والرحمة في قوله: (لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ) (التوبة: ١٢٨)، فمحمد ﷺ هو رحمة الله المسداة إلى خلقه.

وقد امتن الله على البشرية ببعثته ﷺ لما طواه من الأحقاد المريرة؛ التي أنت المجتمعات الإنسانية منها طويلاً: (واذكروا نعمة الله عليكم

(١) أخرجه ابن ماجه ح (١٩٦٩)، وأحمد ح (٨٣٦٣).

(٢) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٤١٠).

إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) (آل عمران: ١٠٣).

كما وصف الله كتابه الأخير - القرآن العظيم - بالرحمة والشفاء بقوله: (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) (يونس: ٥٧)، وأكد عليه بقوله: (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) (الجمعة: ٢٠).

والرحمة كما هي صفة الله ونبيه وكتابه؛ فإنها صفة لازمة للمؤمنين أيضاً ، فالله الرحيم يرحم الرحماء من عباده، و ((من لا يرحم الناس لا يرحمه الله))^(١) ، والمتواصلون بهذا الخلق العظيم هم أهل السعادة يوم القيامة (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ (البلد: ١٧ - ١٨).

وقد أمر ﷺ المسلمين أن يتصفوا بصفة الرحمة، في تعاملهم فيما بينهم ومع غيرهم، بل وحتى مع الحيوان ، فقوله ﷺ : ((من لا يرحم الناس))^(٢) ، لفظ عام يشمل كل أحد ، دون تمييز لجنس أو لون أو دين . ومن صور الرحمة لغير المسلمين التصديق على مسكينهم ، فقد روى أبو عبيد أن بعض المسلمين كان لهم أنسباء وقرابة من قريظة والنضير، وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم، يريدوهم أن يسلموا ، فنزلت : (ليس

(١) أخرجه البخاري ح (٧٣٧٦)، ومسلم ح (٢٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري ح (٧٣٧٦).

عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم
(البقرة: ٢٧٢).^(١)

وتمتد الرحمة لتشمل المحاربين الذين وقعوا في أسر المسلمين، يقول
أبو رزين: كنت مع سفيان بن سلمة، فمر عليه أسارى من المشركين،
فأمرني أن أتصدق عليهم، ثم تلا هذه الآية: (ويطعمون الطعام على حبه
مسكيناً ويتيمماً وأسيراً) (الإنسان: ٨).

يقول أبو عزيز بن عمير: كنت في الأسارى يوم بدر، فقال رسول الله
ﷺ: ((استوصوا بالأسارى خيراً))، وكنت في نفر من الأنصار، وكانوا
إذا قدموا غداهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز، بوصية
رسول الله ﷺ إياهم.^(٢)

وإذا كان الإسلام دين رحمة، فمن أين أتى القول الذي تروج له
بعض الدوائر التي دأبت على وصف الإسلام بالإرهاب والقسوة؛ متذرة
بما جاء في القرآن العظيم من نصوص تأمر المسلمين بإعداد العدة
والتأهب لصد العدوان، بل والقتال والتضحية بالنفس ذوداً عن الدين
والوطن والنفس والإنسان.

إن رحمة الإسلام ليست استكانة ولا خوعاً للباطل على الضيم،
ليست استخذاءً أو مهانة، بل هي رحمة القوي القادر على حماية حقه من
العدوان.

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال ح (١٣٢١)، وابن زنجويه في الأموال ح (١٨٦٢) وصححه الألباني في تمام المنة (٣٨٩/١).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (١٨٤١٠)، قال الهيثمي: "إسناده حسن" مجمع الزوائد (٨٦/٦).

حقاً لقد أمر القرآن بالقتال، لكن شتان بين القتل والقتال، بين الإرهاب والجهاد، فالإرهاب هو استهداف الضعيف العاجز أو البريء الذي لا حول له ولا طول بالقتل والترويع، فقتل الأبرياء إرهاب دنيء وإفساد في الأرض، وهو - في الإسلام - من أعظم الجرائم وأنكرها.

لقد استبشع القرآن إرهاب فرعون واعتداءه على الأطفال والمستضعفين من اليهود، واعتبره من المفسدين في الأرض العاتين فيها: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) (القصص: ٤).

ونقل القرآن أيضاً بغض الله للمفسدين: (ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) (القصص: ٧٧)، وحكى عن حال أهل البغي والفساد محذراً من صنيعهم مستكراً فعالهم: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) (البقرة: ٢٠٥).

إن قتل نفس بريئة واحدة إفساد في الأرض، وهو أمر جليل مستبشع، كيف لا وهو مشبه بالاعتداء على جميع الجنس البشري (من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (المائدة: ٣٢).

وقد حرم الله قتل النفس إلا بحق - كقصاص ونحوه - في آيات كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) (الأنعام: ١٥١، الإسراء: ٣٣)، ووصف عباده المؤمنين بأنهم: (لا

يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق)
(الفرقان: ٦٨).

ومن وقع في قتل نفس بلا حق؛ فقد أدخل الخلل على دينه ، قال ﷺ:
(لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ، ما لم يصب دماً حراماً))^(١)؛ وكما
يقول الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (إن من ورطات الأمور
التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها ، سفك الدم الحرام بغير حله).^(٢)

وحرمة النفس لا تختص بالمسلم دون غيره، بل تشمل كل نفس من
غير أهل الحرب والعدوان، وهذا بين لمن تأمل وعيد النبي ﷺ لمن اجتراً
على دم محرم من غير المسلمين؛ فقد قال ﷺ متوعداً من يفعل ذلك من
المسلمين: ((من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من
مسيرة أربعين عاماً)).^(٣) فهؤلاء المسلمون من غير المسلمين لهم عهد وذمة
الله ورسوله، والوعيد النبوي شديد لمن أخضر هذه الذمة ((ألا من قتل
نفساً معاهدة لها ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخضر ذمة الله، فلا يرح
رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً)).^(٤)

إن الإسلام لم يحرم قتل أمثال هؤلاء فحسب، بل حرم ظلمهم
وانتقاص حقوقهم والإضرار بمصالحهم، والنبي ﷺ - وهو الرحمة
المسداة - يحاج يوم القيامة المسلمين الذين يظلمون هؤلاء، ويجعل نفسه

(١) أخرجه البخاري ح (٦٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري ح (٦٨٦٣).

(٣) أخرجه البخاري ح (٣١٦٦).

(٤) أخرجه الترمذي ح (١٤٠٣)، وابن ماجه ح (٢٦٨٧).

الشريفة خصماً للمعتدي عليهم، فيقول: ((من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة)).^(١) فالظلم - لأي أحد - يغضب الله الذي يقبل شكاة المظلوم على ظالمه - ولو كان المظلوم غير مسلم، فالله يجيب دعوته على ظالمه المسلم، يقول ﷺ: ((اتقوا دعوة المظلوم - وإن كان كافراً - فإنه ليس دونها حجاب))^(٢)، فالله حرم الظلم على ذاته العلية، وكذلك حرّمه على سائر خلقه، ففي الحديث القدسي أن الله تعالى يقول مخاطباً البشر جميعاً: ((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا)).^(٣)

إن ظلم الحيوان يستوجب لصاحبه النار، فما بالناس بظلم الإنسان لأخيه الإنسان، قال ﷺ: ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)).^(٤) وهكذا فالإسلام أبعد الأديان عن الظلم وأكثرها تنديداً به وامتناعاً عنه، لكن ذلك لا علاقة له من قريب أو بعيد بشرعة الجهاد التي يقررها الإسلام، ردعاً للظالم وزجراً للباغي وصوناً للإيمان وحرية العباد في عبادة الله.

(١) أخرجه أبو داود ح (٣٠٥٢)، ونحوه في سنن النسائي ح (٢٧٤٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ح (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه أحمد ح (١٢١٤٠).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٥٧٧).

(٤) أخرجه البخاري ح (٣٣١٨)، ومسلم ح (٢٦١٩).

إذا أردنا الحديث عن الجهاد فإنه يحسن بنا أن نقرأ - ولو سريعاً - بعض الأحداث في فجر الإسلام، حين بعث الله محمداً ﷺ رسولاً للعالمين، فتصدت له قريش، وآزرتها قبائل العرب، فأوقعوا النكال والتعذيب والقتل بالمؤمنين، والمؤمنون صابرون محتسبون ملتزمون بنهي الله لهم عن القتال، لقد أمرهم الله بالصبر: (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (النساء: ٧٧).

لكن الباطل أزيد وأصر على البغي، فأذن الله للمؤمنين المضطهدين بالقتال والذب عن أنفسهم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴿٣٩﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) (الحج: ٣٩ - ٤٠).

وبينت الآية نفسها مبلغ الفساد الذي يلحق البشرية على اختلاف أديانها إذا قصرت في رد المعتدي وزجره بالقوة التي يندفع بها عدوانه وتأمين بها المجتمعات (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) (الحج: ٤٠).

وبينت الآية التي تلتها الصفات التي ينبغي أن يكون عليها أهل الإيمان الذين ينصرهم الله، فهم (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) (الحج: ٤١).

ونهى الله نبيه والصحابة عن الاعتداء والبدء بالقتال (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴿٤٢﴾

واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴿١٩٠﴾ فإن انتهوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ ﴿١٩١﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةً ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿١٩٢﴾ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين (البقرة: ١٩٠ - ١٩٤).

ولو انزجر هؤلاء المعتدون بغير القتال لأراحوا الأرض من عناء الحروب وويلاتها (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) (النساء: ٩٠).

وحين أعلن المشركون الحرب الشاملة على المسلمين؛ قابلهم الإسلام بمثلها، فأمر الله في القرآن بالتوحد لقتالهم: (وقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونكم كافةً واعلموا أن الله مع المتقين) (التوبة: ٣٦).

وهكذا فإن القتال في الإسلام فرض وفق أسباب شرعية ومبررات واقعية.

إن الحرب ليست أمراً محبباً إلى النفوس، لكنها - على كل حال - مبعض الجراح الذي لا غناء عنه إذا أردنا صحة الجسم العليل (كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة: ٢١٦).

والنبي ﷺ يوجه أصحابه إلى دعاء الله والالتجاء إليه لصرف العدو وقطع شره من غير قتال: ((يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا)).^(١) وقد امتن الله تعالى على نبيه ﷺ حين صرف عن المدينة الأحزاب من غير أن يقع بينهم قتل وقتال (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) (الأحزاب: ٢٥).

إن غاية الحرب في الإسلام ليست الاستعلاء في الدنيا والتسلط على الآخرين، فمن كان همه الدنيا وزخارفها خسر الآخرة وكرامتها (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) (القصص: ٨٣).

ولما جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن غايات الجهاد المشروع الذي شرعه الله، ويقول: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، ويقاتل ليُرى مكانه، من في سبيل الله؟ فقال ﷺ مبيناً فساد القتال إذا كان للدنيا ومتاعها وغاياتها الخسيسة: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)).^(٢)

إن المتدبر لما ورد في القرآن والسنة وتاريخ المسلمين لن تخطئ عينه رؤية مقصدين نبيلين شرع الله الجهاد لحفظهما:

أولهما: دفع العدوان الواقع على الدين، ذلك العدوان الذي يحول بين الناس ودعوة الحق سماعاً لها أو إيماناً بها، كما قال تعالى: (وقاتلوهم

(١) أخرجه البخاري ح (٣٠٢٤)، ومسلم ح (١٧٤٢).

(٢) أخرجه البخاري ح (٢٨١٠)، ومسلم ح (١٩٠٤).

حتى لا تكون فتنةً ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) (البقرة: ١٩٣)، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: (قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه: إما يقتلونه وإما يوثقونه حتى كثر الإسلام).^(١)

إن المسلم يمضي قُدماً بجهاده ليحضر الإنسان ، ويضمن له حرية القرار والاختيار ، ويدفع بذلك من يحول بين الناس واختيارهم ، يدفع شر أولئك الذين يبيغون الفتنة والبوار ، فقتال هؤلاء مشروع مبرور (والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (البقرة: ٢١٧).

وقد جلى ربي بن عامر يوم القادسية هذا الهدف النبيل حين قال لرستم قائد جيش الفرس في القادسية ، وقد سأله: ما جاء بكم؟ فأجاب ربي: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه".^(٢)

إن الإيمان أغلى ما يملكه المسلم ، وهو أحق ما بذل له وضحى من أجله ، وقد أنصف الكاتب بيجي رودريك ولم يجاوز الحقيقة حين قال: "

(١) أخرجه البخاري ح (٤٥١٥).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤٠/٧).

الإسلام أذن لرسوله بالجهاد لرفع الظلم والاضطهاد .. وإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة للإسلام، تلك الدعوة التي لا تكره أحداً على الدخول في هذا الدين، وإنما تدعو الناس إليه وتترك لهم الحرية الكاملة للاختيار .. إن الإسلام هو دين السلام، السلام مع الله والسلام مع الناس جميعاً^(١).

الثاني: رد العدوان الذي يستهدف أوطان المسلمين وينتهك حرمتهم، وتحرير الإنسان من الظلم والاضطهاد، فالظلم يمقتة الله، والبغي تستكفه الضمائر، ولا ترى بدأً من نصرة المظلوم وإحقاق الحق وإقامة العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، قال الله تعالى: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) (النساء: ٧٥).

ويقول ﷺ مبشراً ومثبثاً من قُتِل وهو يدفع عن ماله وأهله ودينه: ((من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون أهله أو دون دمه أو دون دينه فهو شهيد)).^(٢)

وحيث يجاهد المسلم فإنه يلتزم في جهاده جملة من الضوابط التي يتميز بها عن الإرهاب، منها:

(١) انظر: قالوا عن الإسلام (٢٤٦).
(٢) أخرجه الترمذي ح (١٤٢١)، وأبو داود ح (٤٧٧٢).

- القبول بالسلم والهدنة إن طلبها العدو المقاتل، قال تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴿٦٢﴾ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) (الأنفال: ٦١ - ٦٢).

- الامتناع عن قتل المدنيين من النساء والشيوخ والأطفال ومن في حكمهم من المدنيين المعصومين كالخدم والأجراء ورجال الدين وغيرهم ممن لا يشارك في القتال، فقد ورد النهي عن قتل النساء والشيوخ والصبيان في حديث النبي ﷺ، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: (وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان).^(١)

وكان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً يقول : ((انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين)).^(٢)

ومما جاء في النهي عن قتل النساء والأجراء والعمال الذين لا يحاربون، حديث الصحابي رباح بن الربيع قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً فقال: ((انظر علام اجتمع هؤلاء؟)) فجاء فقال: على امرأة قتيل. فقال ﷺ: ((ما كانت

(١) أخرجه البخاري ح (٣٠١٥)، ومسلم ح (١٧٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود ح (٢٦١٤).

هذه لتقاتل))، وكان على المقدمة خالد بن الوليد، قال: فبعث رسول الله ﷺ رجلاً، فقال: ((قل لخالد: لا تقتلن امرأة ولا عسيفاً)).^(١) وفي رواية، فقل: إن رسول الله ﷺ يأمرك فيقول: ((لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً)).^(٢)

ولما بعث رسول الله ﷺ سرية يوم حنين قاتلوا المشركين، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاءوا قال رسول الله ﷺ مستنكراً: ((ما حملكم على قتل الذرية؟)) فقالوا: يا رسول الله، إنما كانوا أولاد المشركين. فقال ﷺ معلماً ومصححاً مفهوماً الخاطئ: ((أوهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها)).^(٣)

وهكذا نهى النبي ﷺ عن قتل أبناء المشركين، لا بل أخبر أنهم مولودون على الفطرة المؤمنة، وحكمهم كذلك إلى أن يكبروا، فيختاروا الكفر الذي عليه آباؤهم.

وممن يمنع قتله؛ الرهبان لأنهم لا يشتركون في القتال، وقد أوصى الخليفة أبو بكر قائد جيش المسلمين إلى بلاد الشام بقوله: (إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له).^(٤)

(١) أخرجه أبو داود ح (٢٦٦٩)، وابن ماجه ح (٢٨٤٢)، والعسيف هو الأجير الذي يخدم الجيش ولا يشترك في القتال.
(٢) أخرجه ابن ماجه ح (٢٨٤٢).
(٣) أخرجه أحمد في المسند ح (١٥١٦١).
(٤) أخرجه مالك في الموطأ ح (٩٨٢).

وهكذا فالإسلام بريء من الإرهاب، وكذلك المسلمون الذين التزموا خلال تاريخهم الجهادي بضوابط الإسلام، ولم يكونوا كغيرهم من المحاربين المفسدين في الأرض، وبين أيدينا شهادات عديدة منصفة تؤكد هذا وتجليه:

يقول المؤرخ الشهير رول ديورانت: "إن المسلمين - كما يلوح - كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلماً ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م".^(١) وأما غوستاف لويون فيقول: "فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم".^(٢)

ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: "وكان عرب أسبانيا - خلا تسامحهم العظيم - يتصفون بالفروسية المثالية، فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين، ويقضون عند شروطهم وما إلى ذلك من خلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخراً".^(٣)

وهكذا تبين لنا عظيم الفرق بين الجهاد المشروع في الإسلام والأساليب الإرهابية التي تمارس من بعض المسلمين وغيرهم اليوم، والتي يعتبرها الإسلام إفساداً في الأرض، وتسبب إلى الإسلام جوراً وظلماً!

(١) انظر: قالوا عن الإسلام (٢٤٥).

(٢) انظر: حضارة العرب، غوستاف لويون (٧٢٠).

(٣) حضارة العرب، غوستاف لويون (٣٤٤).

إن اتهام الإسلام بالإرهاب زور وظلم يفتقد الموضوعية ويجايف الحقيقة، والزاعمون له أدعياء تجردوا عن المصداقية والصدق حين كَلَّتْ أقلامهم وبحث حناجرهم من لمز الإسلام بالإرهاب، ولم ينطقوا ببنت شفة عن أديان أخرى ، تسوغ كتبها قتل النساء والأطفال والرضع وغيرهم ممن لا علاقة له بالقتال " هكذا يقول رب الجنود: ... فالآن اذهب، واضرب عماليق، وحرموا كل ما له، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً " (صموئيل (١) ٢٢/١٥ - ٣).

إننا لا نطالب هؤلاء باتهام الآخرين، إنما الذي نطالبهم به أن يفهموا نصوصنا المقدسة بفهمنا لها، لا بخلطهم وجهلهم، وأن يشيخوا بأقلامهم عنا حين تغيب عنهم الفهم الصحيحة، وإلا فالأحرى أن يلتمسوا لنا من الأعدار ما التمسوه للآخرين وكتبهم.

ونختم بشهادة للكاتب الأمريكي آندرو باترسون حيث يقول: " إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء، بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف".^(١)

ثالثاً: الإسلام والتعامل مع الآخر

ما فتئت بعض الدوائر الإعلامية تتعرض للإسلام وتتهمه بالعنصرية في تعامله مع غير المسلمين، وتزعم أن الإسلام أرغم الكثيرين على اعتناقه، وأنه يحث على كراهية الآخرين ويشجع على ظلمهم. وهذه الدوائر جهلت الإسلام وأحكامه أو أنها تعمدت تشويه

(١) لا سكوت بعد اليوم ، بول فندلي (٩١).

حقائقه وتشريعاته، وأياً كان؛ فإن الإسلام بريء من هذه الفرية،
فالتاريخ يشهد أن المسلمين طوال عطائهم الحضاري العظيم لم يعمدوا
إلى إجبار الشعوب أو الأفراد على اعتناق دينهم ، فقد أيقنوا أن اختلاف
البشر في شرائعهم واقع بمشيئة الله تعالى ومرتببط بحكمته، يقول الله:
(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة
ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم
جميعاً) (المائدة: ٤٨)، ولو شاء الله لخلق الناس أو جعلهم مسلمين فطرة،
من غير اختيار منهم ولا اقتدار (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا
يزالون مختلفين ﴿١﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (هود: ١١٨-
١١٩).

ولذلك أدرك المسلمون أن هداية الجميع من المحال، وأن أكثر
الناس لا يؤمنون، وأن واجبهم الدأب في دعوة واستمالة الناس إلى الحق
وطلب أسباب هدايتهم، فقد أخبرهم الله بأن مهمتهم هي البلاغ
فحسب، وأنه تعالى هو من يتولى حساب المعرضين في الآخرة، قال الله
مخاطباً نبيه ﷺ: (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ) (النحل: ٨٢). وقال: (فإن
أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) (آل
عمران: ٢٠)، (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت
تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (يونس: ٩٩).

وقد رفض الإسلام ابتداء فكرة إلغاء الآخر، وأعلنها صريحة: (لا
إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة: ٢٥٦)، (وقل الحق

من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً
أحاط بهم سرادقها) (الكهف: ٢٩).

إن الإسلام يرفض إسلام المكروه لأسباب بسيطة واضحة، منها أن
المكروه ليس بمؤمن حقيقة، ولا تلزمه تشريعاته في أحكام الدنيا، ولا
ينفعه ذلك في الآخرة، ومنها أن ذلك ليس مقتضى الحكمة والمشية
الإلهية.

وقد شهد المؤرخون بالتزام المسلمين بتعاليم دينهم في هذا الصدد،
فيقول المفكر الأسباني بلاسكو أبانيز في كتابه "ظلال الكنيسة"
متحدثاً عن الفتح الإسلامي للأندلس: "لقد أحسنت أسبانيا استقبال
أوثلك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية، وأسلمتهم القرى
أزمتها بغير مقاومة ولا عدا، فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان
العرب من إحدى القرى؛ حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب ..
كانت غزوة تمدين، ولم تكن غزوة فتح وقهر .. ولم يتخل أبناء تلك
الحضارة زمنياً عن فضيلة حرية الضمير، وهي الدعامة التي تقوم عليها
كل عظمة حقبة للشعوب، فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس
النصارى وبيع اليهود، ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته،
فعرف لها حقها، واستقر إلى جانبها، غير حاسد لها، ولا راغب في
السيادة عليها".^(١)

ويقول المؤرخ الإنجليزي السير توماس أرنولد في كتابه "الدعوة إلى
الإسلام": "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم

(١) فن الحكم في الإسلام، مصطفى أبو زيد فهمي (٣٨٧).

منذ القرن الأول للهجرة ، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة ،
ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد
اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة ، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في
وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح " (١)

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: "العرب لم يفرضوا على
الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام ، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود
الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها؛ سمح لهم
جميعاً دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم
بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسه بأدنى أذى،
أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال؟
ومتى؟" (٢)

إن السبب الحقيقي لانتشار الإسلام في الأرض هو تسامحه مع
الآخرين، وليس عنفه المزعوم، لقد قرأت الأمم الحق في تسامح
المسلمين، وعرفته في طيب معشرهم وحسن تعاملهم، خلافاً لما يشيعه
الآخرون ظلماً وزوراً، يقول المؤرخ غوستاف لوبون: "إن القوة لم تكن
عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم ..
فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة
له؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم

(١) الدعوة إلى الإسلام (٥١).
(٢) شمس العرب تسطع على الغرب (٣٦٤) .

يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى".^(١)

ويقول: "وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولغتهم .. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم".^(٢)

ويوافقه المؤرخ وول ديورانت فيقول: "وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون، أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عدداً قليلاً منهم .. واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلدان الممتدة من الصين وأندونيسيا إلى مراكش والأندلس، وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها".^(٣)

إن هذا التسامح الإسلامي هدي قرآني لازم للمؤمن الذي ينصاع لقول الله: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (الممتحنة: ٨).

فالآية تنوّه بفضيلتين، وهما حق لكل من لم يقاتلنا ولم يعتد علينا من غير المسلمين: أولاهما: التخلق بخصلة البر، وهذا البر الذي رغب به

(١) حضارة العرب (١٢٧).

(٢) حضارة العرب (٦٠٥).

(٣) قصة الحضارة (١٣٣/١٣).

القرآن تجلى في كثير من تشريعات الإسلام التي أبدعت الكثير من
المواقف الفياضة بمشاعر الإنسانية والرفق.

فقد أوجب القرآن حسن العشرة وصلة الرحم حتى مع الاختلاف في
الدين ، فقد أمر الله بحسن الصحبة للوالدين وإن جهدا في رد ابنهما عن
التوحيد إلى الشرك، فإن ذلك لا يقطع حقهما في بره وحسن صحبته:
(وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما
وصاحبهما في الدنيا معروفاً) (لقمان: ١٥).

ولما جاءت أسماء بنت الصديق إلى رسول الله ﷺ تقول: يا رسول الله
، قدمت عليّ أمي وهي راغبة ، أفأصليّ أمي؟ فأجابها الرحمة المهداة :
(صليّ أمك)).^(١)

ومن البر والتسامح الذي لا يمنعه اختلاف الدين؛ عيادة المريض ،
فقد عاد النبي ﷺ عمه الكافر أبا طالب في مرضه^(٢) ، وعاد أيضاً جاراً
له من اليهود في مرضه ، فقعده عند رأسه.^(٣)

كما أهدى النبي ﷺ إلى بعض أعدائه ومخالفيه في الدين، لما للهدية
من أثر في كسب القلوب واستلال الشحناء؛ فقد أهدى إلى أبي سفيان
تمر عجوة، وهو بمكة، وكتب إليه يستهديه أدماً^(٤) ، كما قبل النبي
ﷺ هدايا الملوك إليه، فقبل هدية المقوقس، وهدية ملك أيلة أكيدر،

(١) أخرجه البخاري ح (٢٦٢٠)، ومسلم ح (١٠٠٣).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٠٠٩) ، والترمذي ح (٣٢٣٢).

(٣) أخرجه البخاري ح (١٣٥٦).

(٤) أخرجه ابن زنجويه في كتاب الأموال (٥٨٩/٢).

وهدية كسرى.^(١)

وعلى المستوى الاجتماعي قبل ﷺ دعوة زينب بنت الحارث اليهودية، حين دعته إلى شاة مشوية في خيبر^(٢)، كما قبل وأجاب دعوة يهودي دعاه إلى خبز شعير وإهالة سنخة.^(٣)

وأما الفضيلة الثانية التي رغبنا فيها آية سورة الممتحنة فهي: العدل الذي هو أهم مكارم الأخلاق التي جاء الإسلام لحمايتها وتتميمها؛ وهو غاية قريبة ميسورة إذا كان الأمر متعلقاً بإخوة الدين أو النسب، وغيرها مما يتعاطف ويتراحم له البشر.

لكن صدق هذه الخُلة إنما يظهر إذا تباينت الأديان وتعارضت المصالح، لذا فقد أمر القرآن الكريم بالعدل بين البشر عموماً، وخصَّ - بمزيد تأكيد - العدل مع المخالفين الذين قد يظلمهم المرء بسبب الاختلاف والنفرة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (المائدة: ٨).

يقول الدكتور نظمي لوقا: "ما أرى شريعة أدعى للإنصاف، ولا أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (المائدة: ٨)، فأبي إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بدين أقل

(١) انظر البخاري ح (١٤٨٢)، وأحمد ح (٧٤٩).

(٢) أخرجه البخاري ح (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠).

(٣) أخرجه أحمد ح (١٢٧٨٩).

منه تسامياً واستقامة؟^(١).

وشواهد عدل المسلمين مع أهل ذمتهم كثيرة، ومنه خصومة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب عليه السلام مع يهودي في درعه التي فقدوها، ثم وجدها عند يهودي، فاحتكما إلى قاضي المسلمين شريح القاضي، فحكم بها لليهودي، فأسلم اليهودي، وقال: "أما إنني أشهد أن هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه، فيقضي لي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق". فقال علي عليه السلام: (أما إذ أسلمت فهي لك).^(٢)

ومن صور العدل مع المخالفين قصة القبطي مع عمرو بن العاص والي مصر وابنه، وقد اقتص الخليفة عمر بن الخطاب للقبطي في مظلمته من أمير مصر وابنه، وقال مقولته التي أضحت بين الناس مثلاً: "يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟"^(٣)

إن أمثال هذه المواقف الرائعة دفع بطريك بيت المقدس في القرن التاسع للقول عن العرب في كتابه إلى بطريك القسطنطينية: "إنهم يمتازون بالعدل، ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف".^(٤)

(١) محمد الرسالة والرسول (٢٦).

(٢) حلية الأولياء (١٤١/٤)، والبداية والنهاية (٤/٨ - ٥).

(٣) انظر: تاريخ عمر، ابن الجوزي (١٢٩-١٣٠)، وانظر فتوح مصر، لابن الحكم (١٩٥).

(٤) شمس العرب تسطع على الغرب (٣٦٤).

ولو أنصف الزاعمون لرددوا مع جوستاف لوبون قوله: "الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهديداً للنفوس وحمللاً على العدل والإحسان والتسامح."^(١)

وصدق الدكتور لويس يونغ في كتابه "العرب وأوروبا" حين قال: "إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون."^(٢) وهكذا فالإسلام بريء بشهادة النصوص والتاريخ مما يزعمه القائلون بأن الإسلام رعى العنصرية الدينية، بل على العكس من ذلك، لقد قدم المسلمون نموذجاً حضارياً فريداً ما تزال البشرية ترنو إلى مثله، وهي أشد حاجة إليه اليوم في ظل تصاعد حملات الكراهية للمسلمين من أولئك الذي ما فتئوا يبشرون بصدام الحضارات والخطر المزعوم الذي تحمله الحضارة الإسلامية.

رابعاً : المسلمون والتحديات المعاصرة

إن نظرة سريعة في واقع المسلمين اليوم لن تخطئ في رؤية الكثير من التحديات التي تواجهها الأمة المسلمة في مطلع القرن الواحد والعشرين. ولعل أول هذه التحديات قبوع الأمة التي قادت ركب الحضارة الإنسانية ثمانية قرون في ذيل القائمة في سلم الحضارة والعلم. يستغل البعض هذا الواقع المرير للربط بين حال المسلمين ودينهم، متناسين أنه ليس من العدل والنصفة في شيء الحكم على دين بواقع

(١) حضارة العرب (١٢٦).

(٢) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٣٢٦).

أهله في برهة من الزمان، فالإسلام دين العلم والحضارة، وحين تمسك المسلمون بدينهم كانوا أكثر الأمم عطاءً في ركب الحضارة وأعظمها علماً وإبداعاً، لكنهم حين بعدوا عن دينهم واستبدلوه أو خلطوه بالغث الوافد عليهم من هنا وهناك تردوا عن السبق والحظوة التي منحها الله لهم بالعلم والمعرفة.

إن القرآن منذ نزلت أول آياته (اقرأ باسم ربك الذي خلق) (العلق: ١) ما فتئ يدعو المسلمين إلى التعلم، ويثني على العلماء ويمتدح صنيع العقلاء (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (المجادلة: ١١)، (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) (الزمر: ٩).

لقد كرم الإسلام العلم، وأعطى لأهله من الفضل والمنزلة بوناً شاسعاً على سائر الناس، بما فيهم العباد الذين نذروا أنفسهم لعبادة الله تعالى، يقول ﷺ: ((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت؛ ليصلون على معلم الناس الخير)).^(١)

وحين تمسك المسلمون بدينهم والتزموا شرائعه سبقوا أمم الدنيا، وحملوا مشعل العلم والحضارة، وأبدعوا حضارة فريدة، يكفينا عن العرض المسهب لإنجازاتها أن ننقل بعض اعتراف العلماء المنصفين بسبقنا وإبداعنا، فقد سجلت كلماتهم بالإعجاب بعضاً من مآثر حضارتنا، وكانوا شهود عدل على مآثرنا.

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٦٨٥).

ومن ذلك قول الدكتور ستانلي لين بول في كتابه "تاريخ العالم" :
"لم يحدث في تاريخ المدنية حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائي
بالثقافة الذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فكان كل
مسلم، من الخليفة إلى الصانع، يبدو كأنما قد اعتراه فجأة شوق إلى
العلم وظمأ إلى السفر، وكان ذلك خير ما قدّمه الإسلام من جميع
الجهات".^(١)

ويضيف المؤرخ جوليفيه كستلو في كتابه "قانون التاريخ" بأن
"التقدم العربي بعد وفاة الرسول ﷺ كان عظيماً، جرى على أسرع ما
يكون، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام، فنشأت المدنية
الإسلامية نشأة باهرة، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء
غريب ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم. وقبض العرب بأيديهم
- خلال عدة قرون - على مشعل النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف
البشرية .. فأصبحوا سادة الفكر، مبدعين ومخترعين، لا بالمعنى
المعروف، بل بما أحرزوه من أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة
للمغاية، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر، إلا أنها باهرة الأثر، وليس
لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها".^(٢)

وإذا كان حال المسلمين فيما مضى كذلك، فكيف توارت الأمة
المسلمة عن الشهود؟ ولم تقبع في ذيل الركب اليوم؟!

(١) قالوا عن الإسلام (٣٩٦).

(٢) المصدر السابق (٣٨٩).

إن ما نشهده اليوم من ضعف حضاري للأمة المسلمة يرتبط بعاملين اثنين: أولهما هو بُعد المسلمين عن دينهم، فلئن كان تقدم أوربا مرهوناً بتخلصها من دينها المبدل؛ فإن نهضتنا لن تكون إلا بعودتنا إلى ديننا، فالمفارقة بين حالنا وحالهم، تتبع من الاختلاف بين خصائص أدياننا. والعامل الثاني الذي أسهم في تردي أحوال الأمة المسلمة هو الاستعمار الغربي الذي غزا الشرق الإسلامي عقوداً من السنين، ولم يبرحها إلا وقد ترك فيها من العقد المستعصية ما تعجز عن حلها الأجيال، ليضمن بذلك استمرار تفوقه ورواج سلعه في الشعوب التي جعلها أسواقاً استهلاكية لبضائعه، فارتهن مقدراتها ليضمن تفوقه ودوام سيطرته.

وأما المظهر الثاني من المظاهر التي تزري بواقع المسلمين اليوم، فهو اختلافهم وتناحرهم بل واحتراب طوائفهم وتراميمهم بالتكفير والتبديع، وهم في ذلك أيضاً قد خالفوا أمر ربهم وهو يدعوهم إلى الوحدة والاعتصام (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (آل عمران: ١٠٣)، فقد خالفوه وهو يدعوهم إلى التوحد في أمة واحدة (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) (المؤمنون: ٥٢).

إن تشرذم المسلمين وتناحرهم يرجع إلى عوامل كثيرة، لكن أهمها تدخل أياد خفية تكيد لإخوتهم، وتتريص بوحدتهم الدوائر، فالكثير من خلافات المذاهب الإسلامية لم تؤثر في وحدة المسلمين طوال تاريخهم؛ لأنها بقيت في منأى عن الهجمة الاستعمارية المغذية للنعرات المذهبية،

كما هو الحال في العلاقة بين السنة والزيدية ، أو بين أتباع المذاهب
الفقهية الأربعة.

إن المسلمين حين افترقوا لم يفترقوا بسبب اختلافهم حول أصول
دينهم، فهذا ما لم تخالف فيه طائفة من طوائفهم المعتبرة ، فالكل يؤمن
باللّٰه الواحد وصفاته وكتبه وأنبيائه ، وأصول شريعته وأركان دينه ،
وختلافهم بقي بعيداً عن أصول الدين التي لم يختلفوا فيها ، فختلاف
السنة مع الشيعة - وهو الختلاف الأقوى بين المسلمين اليوم - إنما هو
ختلاف حول الشخص الأحق باستحقاق الختلفة بعد النبي ﷺ ، فهو ختلاف
سياسي تاريخي في جذوره ، ولم تمس امتداداته أصول الدين من قريب أو
بعيد.

وافتراق المسلمين أيضاً قدر اللّٰه لكل الأمم ، وفيه مصداق نبوءة
نبوية لنبينا ﷺ حين قال: ((افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ،
فواحدة في الجنة ، وسبعون في النار ، وافترقت النصارى على ثنتين
وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، والذي نفس
محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين ، فرقة واحدة في الجنة ،
وثتان وسبعون في النار)) قيل: يا رسول اللّٰه من هم؟ قال: ((الجماعة)).^(١)
وهكذا فالتفرق ميراتنا من الأمم السابقة ، وتناحر بعضنا واقتتالهم
مذموم لنكوصه عن هدي الإسلام إلى سبل الضلال والكفر ((فإن
دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم

(١) أخرجه ابن ماجه ح (٣٩٩٢).

هذا ، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم .. فلا ترجعوا بعدي كفاراً
يضرب بعضكم رقاب بعض)).^(١)

إن حاضر المسلمين لن يصلح إلا بما أصلح ماضيهم، إن الإسلام هو
الذي جعل من أوزاع العرب وغيرهم أمة واحدة، وأحاله من أمة أمية
جاهلة إلى أمة قادت ركب الحضارة الإنسانية ثمانية قرون.

إن الرصيد الذي يمتلكه الإسلام في مبادئه وتصوراته ما يزال
الأمل الذي يتطلع إليه العقلاء، فكل سؤدد وشرف وحضارة في
الاستمساك بالإسلام، في حين أن مظاهر التخلف والتفرق نتاج قدري
حتمي لبعثنا عن الإسلام، فما أحرانا أن نسارع في العود إليه
والاستمساك بهديه القويم.

خاتمة

وهكذا يتبين الحق لكل منصف، فمن قبل هبة الله التي تبينت
له؛ شرح الله صدره للإسلام (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على
نورٍ من ربه) وأما من قسى قلبه وكبُر عليه الإذعان للحق، فنصيبه تمام
الآية: (فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلالٍ مبينٍ)
(الزمر: ٢٢).

وبعد ، ما الذي يمنع المرء من الولوج في الإسلام، أيثينه أن يعبد الله
وحده، وأن يكون على دينه الذي بشر به الأنبياء وارتضاه الله لعباده
ديناً.

(١) أخرجه البخاري ح (١٧٤١)، ومسلم ح (١٦٧٩).

ما بال بعضنا - في القرن الواحد والعشرين - يفضل ميراث الآباء
وإفنه على الحق الذي آمن بصدقه عقله؟

إن الكثيرين من العقلاء قد سبقوا إلى هذا الحق فاعتنقوه، منهم
النجاشي رحمه الله، ملك الحبشة الذي عرض عليه الصحابة الإسلام
فقال: يا معشر القسيسين والرهبان، ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما
تقولون في ابن مريم ما يزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا
أشهد أنه رسول الله، والذي بشرّ به عيسى ابن مريم، ولولا ما أنا فيه
من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه.^(١)

لكم أشرق الإسلام في صدور أناس؛ فأخرجهم الله به من ضيق
الصدر وضنك الدنيا وقتامة الحياة إلى رحابة الدنيا وسعادتها ونعيم
الآخرة، ولكم تنكب طريق الحقيقة آخرون، فعاشوا في ضيق الدنيا
واستحقوا أيضاً عذاب الآخرة (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره
للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في
السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) (الأنعام: ١٢٥).
إن الإسلام بما أوتي من حق وبصيرة ووضوح يملأ الكون بهديه
القوم، وتشير الدراسات والإحصاءات إلى أنه أكثر الأديان انتشاراً رغم
الضعف الذي ينتاب الأمة الإسلامية عموماً، ورغم الحملات المسمومة
التي ما فتئت تفتري على الإسلام على صفحات الإعلام وشاشات القنوات
وغيرها من وسائل الاتصال، ليتحقق من بعد ذلك كله موعود الله

(١) أخرجه أبو داود ح (٣٢٠٥)، وأحمد ح (٤٨٣٦) وابن أبي شيبة ح (٣٦٦٤٠).

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) (التوبة: ٣٢).

ولو أنصف المرء لردد ما قاله الدكتور نظمي لوقا عن النبي ﷺ:
"أعرض بوجداني عن تلك النظرة الجائرة أو المتجنية التي نظر بها
كثيرون من المستشرقين وغيرهم إلى الرسول العربي، ولكنني حين
أحتكم إلى العقل أرى الخير كل الخير فيما جنحت إليه .. فما كان
كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت إليه آلاء الرسل،
وهمة البطل، فكان حقاً على المنصف أن يكرم فيه المثل ويحيي فيه
الرجل".^(١)

إن البشرية اليوم أحوج ما تكون إلى الإسلام، إذا ما أرادت أن
تتخلص من مشكلات عصرنا المتفاقمة، فالإسلام وحده كفيل
بالقضاء على أمراضنا النفسية والاجتماعية، وهو وحده من يملك العصا
السحرية التي تخفض معدلات الانتحار وتعيد لحياة البائسين المعذبين
جمالها ورونقها في ظلال الإسلام.

يقول دوجلاس آرثر: "لو أحسن عرض الإسلام على الناس لأمكن به
حلّ كافة المشكلات، ولأمكن تلبية الحاجات الاجتماعية والروحية
والسياسية للذين يعيشون في ظل الرأسمالية والشيوعية على السواء. فقد
فشل هذان النظامان في حلّ مشكلات الإنسان. أما الإسلام فسوف
يقدم السلام للأشقياء، والأمل والهدى للحيارى والضالين. وهكذا

(١) محمد الرسالة والرسول (٢٨).

فالإسلام لديه أعظم الإمكانيات لتحديث هذا العالم وتعبئة طاقات الإنسان لتحقيق أعلى مستوى من الإنتاج والكفاية^(١).

وأما الكاتب الهندي كوفهي لال جابا فيقول في كتابه "رسول الصحراء": "الإسلام بوسعه تلبية كافة حاجات الإنسان في العصر الحاضر، فليس هناك أي دين كالإسلام يستطيع أن يقدم أنجح الحلول للمشكلات والقضايا المعاصرة. فمثلاً أشد ما يحتاج إليه العالم اليوم الأخوة والمساواة، وهذه وجميع الفضائل لا تجتمع إلا في الإسلام، لأن الإسلام لا يفاضل بين الناس إلا على أساس العمل والبذل"^(٢).

ولا نجد أخيراً إلا أن نردد مع أديب ألمانيا يوهان غوته هتافه الصادق: "إذا كان هذا هو الإسلام، أفلا نكون جميعنا مسلمين؟"^(٣).

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٤٤٣).

(٢) المصدر السابق (٤٥٠).

(٣) المصدر السابق (١٤٧).

الفصل الرابع
حقائق التاريخ الاسلامي

الفصل الرابع

حقائق التاريخ الاسلامي

كلمة المجمع يعتبر التاريخ الإسلامي مصدرا مهما من مصادر المعرفة الإسلامية باعتبارين. الأول: ان التاريخ - بشكل عام - ترجمة حقيقية وتعبير واقعي عن الأفكار والآراء والمفاهيم التي تبناها الإنسان على مدى التاريخ فجسدها في سلوكه ونشاطه. والثاني: ان التاريخ مجموعة تجارب ودروس وعبر كلفت البشرية ضحايا هائلة وطاقات ضخمة، لذلك كان جديرا بإمعان النظر فيه وبذل الجهود الحثيثة لتحليل أحداثه والاهتداء إلى سننه لكي تتوضح للبشرية الحقائق التي ترسم لها خطي السعادة والشقاء. وتجلت في التاريخ الإسلامي عظمة الإسلام وشموخه وحيويته، فكان مصدرا من مصادر فهم السيرة النبوية فضلا عن قدرته على التعبير عن التجربة الاولى للإسلام القادر على صنع الإنسان الأمثل والمجتمع الأمثل، ولهذا فهو جدير بالدراسة العلمية الموضوعية المعمقة.

وتتمثل المهمة الاولى لكل باحث في التاريخ الإسلامي في البحث عن المادة الأساسية للتحليل التاريخي بعد ان كان التاريخ بشكل عام والتاريخ الإسلامي بشكل خاص عرضة للإهمال والتحريف بدءا بمشكلة المنع من تدوين الأحاديث والسنة النبوية الشريفة التي تشكل البنية الأساسية للتجربة الإسلامية الفريدة وانتهاء بإخضاع المؤرخين

ونتاجاتهم لأهواء الحكام علاوة على المتاجرة بكل ما يمكن نسبته إلى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وصحابه الكرام من قبل الرواة والمحدثين غير الورعين. فكم من حوادث مهمة لم تدون أو دونت مختزلة بحجة الاختصار أو لاستلزامها الطعن ببعض الحكام من صحابة وتابعين، فأدت إلى تزييف الحقائق التاريخية وتشويهها بما لا يتناسب وعظمة تأريخنا الإسلامي الوضاء. ومن هنا كان على الباحث الموضوعي والمؤرخ المحقق أن يقوم قبل كل شئ بنقد موضوعي لكل ما جاء في كتب التأريخ والحديث والتراجم والرجال والتفسير بعد عرضه على العقل السليم ونصوص القرآن الكريم ومحكمات السنة النبوية الشريفة، وهذا ما قام به المحقق المتضلع فضيلة الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي في كتابه هذا موسوعة التأريخ الإسلامي. إذ اعتمد على التتبع اللازم في المصادر الأصلية التي تحتوي على حوادث تاريخية ترتبط بموضوع بحثه، ثم عرضها على القرآن الكريم وأصول السنة الشريفة والعقل السليم، وقد حاول من خلال بحوثه تفنيد ما أورده المستشرقون ومن حذا حذوهم في تشويه معالم الصورة الإسلامية الناصعة، وتقديم الصورة الأقرب إلى الواقع عن الإسلام من خلال تأريخه المجيد. وهذه هي الحلقة الأولى من هذه الموسوعة وتختص بالعهد المكي من العصر النبوي بدءا بحوادث السنة الأولى للهجرة وسوف يستمر البحث في التأريخ قبل الإسلام: لم يكن للناس قبل الإسلام مادة للتأريخ، اللهم إلا ما توارثوه بالرواية، مما كان شائعا بينهم من أخبار آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وشعوبهم وقبائلهم وملوكهم، وما في حياة

اوئلك من قصص فيها البطولة والكرم والوفاء، وما كان من خبر الأسر التي تناوبت الإمرة على الناس وما قاموا به من تجهيز الجيوش وإقامة الحروب وبناء المدن والقصور، إلى أمثال ذلك، مما قامت فيه الذاكرة مقام الكتاب واللسان مقام القلم، يعي الناس منه ويحفظون ثم يؤدونها كما هي أو بإضافة أو نقيصة، وكثيرا ما كان بإضافات وتحريفات. كان هذا عند الفرس المجوس، واليهود الإسرائيليين، والعرب الجاهليين المشركين، واختص هؤلاء بأخبار الجاهلية الأولى وأنسابها، وما فيها من قصص عن البيت وزمزم وجرهم، وما كان من أمرها، ثم ما كان من خبر الأسر التي تناوبت الزعامة والإمرة على قريش، وما جرى قبل

ذلك لسد مأرب في اليمن، وما تبعه من تفرق الناس في البلاد. التاريخ بعد الإسلام: ثم ظهرت الرسالة المحمدية بصفتها أعظم حادث في حياة البشر عامة والعرب خاصة، فكان محور تأريخ البشر عامة والعرب خاصة، فما اجتمع ملاً منهم أو تفرق إلا وحديثهم عنه، ولا تحركت جيوشهم وكتائبهم إلا له أو عليه، حتى تتوجت جهوده بمعنى قوله سبحانه ❖ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ❖ فنبذوا ما كانوا فيه من الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء بهداية القرآن والإسلام. ويومئذ وبظهور النبي صلى الله عليه وآله وظهور دعوته، ظهر مورد جديد للتأريخ، وهي أحاديث الصحابة والتابعين وأهل بيته عليهم السلام عن ولادته وحياته، وما قام به صلى

اللّٰه عليه وآله من جهاد وجهود في سبيل اللّٰه ، واصطدام في ذلك مع المشركين ، ودعوة إلى التوحيد ، وما كان فيها من أثر للسيف والسنان واللسان والبيان ، وأصبحت هذه هي مواد التأريخ الجديد بصورة عامة وسيرة الرسول بصورة خاصة. تدوين السيرة النبوية وتأريخ الإسلام: ولم يدون في تأريخ الإسلام أو في سيرته صلى اللّٰه عليه وآله شئ ، حتى مضت أيام الخلفاء ، لم يدون في هذه المدة شئ سوى القرآن الكريم وتقويم إعرابه بمبادئ وقواعد النحو على يد أبي الأسود الدؤلي بإملاء أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام ، وقد كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله يحفز المسلمين على كتابة القرآن حرصا على حفظه وصيانتة ، كما إن تفشي العجمة على السنة أبناء

العرب على أثر اختلاطهم بغيرهم عند اتساع الرقعة الإسلامية دفعت أبا الأسود الدؤلي إلى عرض ذلك على علي عليه السلام فكان ذلك حافظا على تدوين النحو. وبهذا الاختلاط أيضا تفشت فيهم أخبار الماضين من ملوك الفرس وبني إسرائيل ، فلما كانت أيام معاوية أحب أن يدون في التأريخ القديم كتاب فاستقدم عبيد بن شربة من صنعاء اليمن فكتب له كتاب أخبار الماضين من ملوك اليمن من العرب البائدة وغيرهم ومنهم الفرس والحيشة. وقد كان المسلمون يحبون أن يخلدوا آثار ما يتعلق بسيرة الرسول صلى اللّٰه عليه وآله ، وقد كان هذا يحقق ما في نفوسهم من تعلق به - عليه الصلاة والسلام - ، ولكنهم - ببالغ الأسف - منعوا عن تدوين أحاديثه مخافة أن يختلط الحديث

بالقرآن الكريم - كما زعموا - ، بل منعوا حتى عن التحديث بحديثه، حاشا أمير المؤمنين عليا عليه السلام ، فإنه لم يشارك في هذا المنع ولم يؤيده، بل كما أملى النحو على كاتبه أبي الأسود الدؤلي كتب هو أيضا بعض الكتب في الفقه والحديث، وأمر كاتبه الراتب عبيد الله بن أبي رافع أن يكتب المهم من أقضيته، وأحكامه في فنون الفقه من الوضوء والصلاة وسائر الأبواب . وبهذا الموقف من أمير المؤمنين عليه السلام ، وبفعل حاجة المسلمين إلى أحاديث نبيهم ظهر فيهم غير واحد من حملة الأحاديث العلماء الفقهاء، ولكن حيث استمر هذا المنع رسميا من قبل الخلفاء بعد علي وابنه الحسن عليهما السلام إلى أيام عمر بن عبد العزيز، قام رجال كلهم محدثون، لم يدونوا في الحديث والفقه شيئا، ولكنهم عوضوا عن كتابة أحاديثه بكتابة شئ من سيرته صلى الله عليه وآله . اصول السيرة النبوية وتطورها في القرنين الأول والثاني: لا شك في الأهمية الكبرى التي كانت لأقوال النبي صلى الله عليه وآله وأعماله في حياته، وأكثر منها بعد وفاته. ومن الطبيعي أن تورث هذه الأهمية عناية بتدوين تفاصيل حياته وجمع الأخبار والأحاديث عنه صلى الله عليه وآله . وطبيعي أيضا أن تكون القصص الشعبية عن سيرته موجودة في حياته معتنى بها - كحال الناس في العناية بقصص الأنبياء من قبل - . وطبيعي أيضا أن يكون بعض الصحابة والتابعين قد تفوق على أقرانه في علمه بسيرته ومغازيه. كتاب السيرة الأوائل: إن أول من صنف في السيرة هو عروة بن الزبير بن العوام ت ٩٢ هـ . وذكر ابن سعد في كتابه " الطبقات " ما يفيد: أن أول من

تخصص فيها هو أبان بن عثمان بن عفان ت ١٠٥ هـ ، روى بعضها عنه المغيرة بن عبد الرحمن. ثم تنبه إلى جمع أخبارها والتحديث بها وهب بن منبه اليميني ت ١١٠ هـ . ثم عاصم بن عمر بن قتادة ت ١٢٠ هـ الذي يروي عنه ابن إسحاق بعض أخبار سيرته كخبره عن دعاء النبي للاستسقاء في طريق تبوك ، وكثرة النفاق. ثم شرحبيل بن سعد الشامي ت ١٢٣ هـ . ثم عبد الله بن أبي بكر بن حزم القاضي ت ١٣٥ هـ الذي طلب منه عمر بن عبد العزيز أن يكتب إليه ما عنده من الأحاديث فنشرها بين الناس. ثم موسى بن عقبة ت ١٤١ هـ . ثم معمر بن راشد ت ١٥٠ هـ . ثم محمد بن إسحاق بن يسار المدني وقيل بشار - بن خيار من سبي عين تمر بالعراق ت ١٥٣ هـ . ثم راويته زياد بن عبد الملك البكائي الكوفي العامري ت ١٨٢ هـ . ثم محمد بن عمر بن واقد المعروف بالواقدي صاحب كتاب المغازي ت ٢٠٧ هـ . ثم رواية ابن زياد البكائي عن ابن إسحاق: عبد الملك بن هشام الحميري اليميني البصري ت ٢١٨ هـ . ولم يصلنا من كتب هؤلاء شئ سوى سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام عن البكائي عن ابن إسحاق ، ومغازي الواقدي ، اللهم إلا روايات في طيات امهات المصادر التاريخية فيما بعد. المؤرخون الأوائل: وإلى جانب هؤلاء ظهر من لم يقتصر على أخبار سيرة الرسول صلى الله عليه وآله ، بل جمع إليها أخبار الجاهلية قبل الإسلام ، ثم أخبار الخلفاء بعده ، أو جمع أخبار بعض الخلفاء ، أو الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فقط ، فكانوا مؤرخين بالمعنى العام. منهم: محمد بن السائب الكلبي الكوفي النسابة ت ١٤٦ هـ . وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الكوفي ت ١٥٧ هـ . وهشام

بن محمد الكلبي الكوفي ت ٢٠٦ هـ . ونصر بن مزاحم المنقري الكوفي
ت ٢١٢ هـ . وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٤ هـ . وأحمد بن
يحيى بن جابر البلاذري ت ٢٧٩ هـ . وإبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي
الإصبهاني ت ٢٨٣ هـ . وأبو الفرج علي بن الحسين الأموي الإصبهاني ت
٢٨٤ هـ . وأحمد بن واضح بن يعقوب البغدادي ت ٢٩٢ هـ . ومحمد بن
جرير الطبري ت ٣١٠ هـ . وعلي بن الحسين المسعودي البغدادي ت ٣٤٦ هـ
 . ومحمد بن محمد بن النعمان التلعكبري المفيد ت ٤١٣ هـ . الأثر الباقي
 في السيرة: عرفنا أن الكتابة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله
 كانت قد حصلت في التابعين وتابعي التابعين، كما رأينا قائمة أسمائهم
 وتواريخ وفياتهم، ولكنها لم تكن كثيرة، بل هي مهما أطلنا الحديث
 عنها كانت قليلة جدا، لا تعدو أن تكون صحفا فيها بعض الأخبار عن
 سيرة المختار صلى الله عليه وآله . أما الكتاب الذي كتبت له الموقية
 والنجاح وشهرة الاعتماد والوثوق فهو سيرة محمد بن إسحاق، التي ألفها
 في أوائل أيام العباسيين.

يروون أنه دخل يوما على المنصور وبين يديه ابنه المهدي، فقال له
 المنصور: أتعرف هذا يابن إسحاق؟ قال: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين:
 فقال: اذهب فنصف له كتابا منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يومك
 هذا. فذهب ابن إسحاق فنصف له الكتاب وأتاه به فلما رآه قال: لقد
 طولته يابن إسحاق فاذهب فاخصمه. فاخصمه، والقي الكتاب الكبير
 في خزانة الخليفة. وفي هذا المعنى روي عن ابن عدي الرجالي المعروف أنه

كان يقول في ابن إسحاق: " لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شئ للاشتغال بمغازي رسول الله صلى الله عليه وآله ومبعثه ومبتدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحاق، وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد ما تهیی أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ واتهم في الشئ كما يخطئ غيره. ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة الاثبات، أخرج له مسلم في المبايعات، واستشهد به البخاري في مواضع، وروى له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ". ثم أصبح ابن إسحاق في الحقيقة عمدة المؤلفين في السيرة، فما من كتاب في السيرة إلا وهو مستمد منه وراو عنه، اللهم إلا ما نأتي عليه من مغازي الواقدي ورواية كاتبه ابن سعد عنه، وما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكذلك أصبح كتاب ابن إسحاق عمدة الكتب في السيرة لقراءتها منذ أن كتبه إلى يومنا هذا ولاسيما بعد تهذيبها من قبل ابن هشام - بحيث أنك لاتكاد تجد رجلا يدرس سيرة الرسول الكريم إلا وكتاب ابن إسحاق كتابه الأول والام في ذلك.

عمل ابن هشام في سيرة ابن إسحاق: وقد جاء بعده عبد الملك بن هشام الحميري البصري ت ٢١٨ هـ بنصف قرن تقريبا، فروى سيرة ابن إسحاق برواية زياد بن عبد الملك البكائي العامري الكوفي ت ١٨٣ هـ ولكنه لم يروها كما هي بل تناولها بكثير من التمرير والاختصار والاضافة والنقد أحيانا، والمعارضة بروايات اخر لغيره، عبر عن أعماله هذه بقوله في صدر سيرته: " وانا - إن شاء الله - مبتدئ هذا

الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد رسول الله من ولده، أولادهم لأصلابهم الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله، وما يعرض من حديثهم - وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل للاختصار - إلى حديث سيرة رسول الله. وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله فيه ذكر ولانزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ولاتفسيرا له ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ! وبعض يسوء بعض الناس ذكره ! وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ؟ ومستقص - إن شاء الله تعالى - ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به " . إذن فقد أسقط ابن هشام من عمل ابن إسحاق: تأريخ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم، ومن ولد إسماعيل من ليس في عمود النسب النبوي الشريف، كما حذف من الأخبار ما يسوء بعض الناس ! ومن الشعر ما لم يثبت لديه. ولكنه زاد فيه مما ثبتت لديه من رواية، ولذلك نسبت السيرة إليه وعرفت به، حتى لا يكاد يذكر ابن إسحاق معه، فقد عرفت سيرة ابن إسحاق بين العلماء منذ عهد بعيد باسم سيرة ابن هشام، لما له فيها من رواية وتهذيب. وبهذا الصدد قال ابن خلكان في ترجمة ابن هشام: " وابن هشام هذا هو الذي جمع سيرة رسول الله من المغازي والسير لابن إسحاق وهذبها ولخصها، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس المعروفة بسيرة ابن هشام " . ولم تتقطع العناية بالتأليف في السيرة إلى يومنا هذا، إلا أن الموضوع في ذاته ليس أمرا يقوم على التجارب، أو فكرة يقيمها برهان

وينقضها برهان، شأن النظريات العلمية التي نرى تجديدها وتغييرها على مر السنين، وإنما هو من العلوم النقلية لا العقلية، فكان المشتغلون به أولاً محدثين ناقلين، ثم جاء من بعدهم جامعين مبوبين ثم ناقلين معلقين. ولم يكن قابلاً للتجديد في جوهره، إلا بمقدار قليل حسب النقد الدقيق، وإنما كان التجديد في أشكاله وصوره شرحاً أو اختصاراً، أو شيئاً من النقد قليلاً مشيراً إلى ما فيه من أخطاء. ولعل الذين تناولوا السيرة بالتلخيص والاختصار، إنما خففوا من ثقل الكتاب بعض أخباره التي استبعدوها غير مؤمنين بصحتها، ناقلين من الأخبار ما يرون فيها القرب من الحق، ومستبعدين ما لا يجري في ذلك مع فكرتهم وعقيدتهم مفندين إياه رادين له. ولعل من علل انتشار أخبار ابن إسحاق ثم كتابه في السيرة كثرة رحلاته، فالراجح في تأريخ مولده في المدينة أنه كان سنة ٨٥ هـ ولا يرتاب الرجاليون وأصحاب الطبقات في أنه أمضى شبابه في المدينة فتى جميلاً

"فارسي الخلقه" جذاب الوجه له شعرة حسنة ولذلك حكى ابن النديم بشأنه في فهرسته: أنه اتهم بأنه يجلس في مؤخر المسجد للصلاة فيغازل بعض النساء، فأمر أمير المدينة بإحضاره وضربه أسواطاً ونهاه عن الجلوس في مؤخر المسجد. ولعله لهذا لم يرو عنه من أهل المدينة غير راو واحد هو إبراهيم بن سعد فحسب. ولعله لهذا رحل منها سنة ١١٥ هـ أي في الثلاثين من عمره إلى الاسكندرية في مصر، ويظن أنها أولى رحلاته، فانفرد برواية أحاديث عن عدة من رجال الحديث بها. ثم رحل

إلى الكوفة والحيرة، ولعله بها التقى بالمنصور فصنف لابنه المهدي كتاب السيرة كما سبق، فرواها عنه زياد بن عبد الملك البكائي العامري وغيره، ورحل إلى الجزيرة أي الموصل، والري حتى إذا بنيت بغداد فرجع إليها وفيها ألقى عصا الترحال، وله من كل هذه البلدان رواة كثيرون. وعاش في بغداد حتى توفي بها فدفن في مقابر الخيزران. وقد كان ابن إسحاق يعد في طبقة تلامذة عبد الملك بن شهاب الزهري وأقرانه، وله عنه روايات، ونقل أصحاب الطبقات أن شيخه ابن شهاب الزهري لم يكن يتهمه بشئ بل كان يوثقه، وتبعه في توثيق ابن إسحاق من الفقهاء الأئمة: سفيان الثوري وشعبة، بالإضافة إلى راويته زياد ابن عبد الملك البكائي عنه. وإن كان هشام بن عروة بن الزبير من رواة السيرة، ومالك بن أنس من أئمة الفقهاء يتحاملان عليه بالجرح والتضعيف ويتهما بالكذب والدجل والتدليس، والقول بالقدر، والنقل عن غير الثقات، وأخطاء في الأنساب. ولكن لعله لأن ابن إسحاق كان يطعن في نسب مالك وعلمه ويقول: إيتوني ببعض كتبه حتى ابين لكم عيوبه، فأنا بيطار كتبه ! إذن فالحملة متقابلة من الطرفين، والتضعيف ضعيف لأنه معلوم الوجه والعلة " الشخصية ". مغازي الواقدي: أما الواقدي محمد بن عمر بن واقد مولى بني سهم، فقد ذكر تلميذه ابن سعد في " الطبقات الكبرى " أنه ولد في المدينة سنة ١٣٠ هـ أي بعد خروج ابن إسحاق منها بخمسة عشر عاما، ولذلك لم يرو عنه وإن كان قد روى عن سائر رواة الأخبار عن الزهري، مع تشابه كبير بين فقرات كتاب السيرة لابن إسحاق وكتاب المغازي للواقدي، ولذلك زعم

مستشرقان هما فلهوزن وهورفتس أنه سرق منه ولم يسنده إليه، وفند زعمهما مستشرق آخر هو مارسدن جونس محقق المغازي كما في مقدمته للكتاب ثم احتمل أن يكون الواقدي قد أعرض عن الرواية عن ابن إسحاق نظرا إلى عدم توثيق علماء المدينة له. ثم قال: يبدو واضحا للقارئ الحديث أن من أهم السمات التي تجعل الواقدي في منزلة خاصة بين أصحاب السير والمغازي تطبيقه المنهج التاريخي العلمي الفني، فإننا نلاحظ عند الواقدي - أكثر مما نلاحظ عند غيره من المؤرخين المتقدمين - أنه كان يرتب التفاصيل المختلفة للحوادث بطريقة منطقية لا تتغير، فهو مثلا يبدأ مغازيه بذكر قائمة طويلة من الرجال الذين نقل عنهم تلك الأخبار ثم يذكر المغازي واحدة واحدة مع تأريخ محدد للغزوة بدقة، وغالبا ما يذكر تفاصيل جغرافية عن موقع الغزوة، ثم يذكر المغازي التي غزاها النبي بنفسه، وأسماء الذين استخلفهم على المدينة أثناء غزواته، وأخيرا يذكر شعار المسلمين في القتال، كل ذلك بالإضافة إلى وصفه لكل غزوة بأسلوب موحد: فيذكر أولا اسم الغزوة وتأريخها وأميرها. وكثيرا ما يقدم لنا الواقدي قصة الواقعة بإسناد جامع، أي يجمع الرجال والأسانيد في متن واحد. وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن الكريم، فإن الواقدي يفردنا وحدها مع تفسيرها ويضعها في نهاية أخبار الغزوة، وفي المغازي المهمة يذكر الواقدي أسماء الذين استشهدوا فيها. وإن ما أورده في الكتاب من التفاصيل الجغرافية ليوحي بجهده ومعرفته للدقائق في الأخبار التي جمعها في رحلته إلى شرق الأرض وغربها طلبا للعلم وقد روى الخطيب

البغدادي وابن سيد الناس عن الواقدي أنه قال: ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته: هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فاعاينه، وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع فاعاينه، حتى لقد مضيت إلى " المريسيع " فنظرت إليها.

وروا عن هارون الغروي قال: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة فقلت: أين تريد؟ قال: أريد أن أمضي إلى حنين حتى أرى الموضع والوقعة. ويشهد لنباهة الواقدي بهذا الشأن ما قصه تلميذه وراويته ابن سعد في الطبقات: إن هارون الرشيد ويحيى بن خالد البرمكي حين زارا المدينة في حجتهما، طلبا من يدلهما على المشاهد وقبور الشهداء، فدلوهما على الواقدي، فصحبهما في زيارتهما فلم يدع موضعا من المواضع ولا مشهدا من المشاهد إلا مر بهما عليه. فمنحه هارون الرشيد بعشرة آلاف درهم، فصرفها في قضاء ديون كانت قد تراكمت عليه وزوج بعض ولده وبقي في يسر وسعة . ولكنه يعود فيقول: إنه لحقه دين بعد ذلك فذهب إلى العراق سنة ١٨٠ هـ ويفصل الخطيب عن الواقدي يقول: كانت للناس في يدي مائة الف درهم اضراب بها في الحنطة، وتلفت الدراهم، فشخصت إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد البرمكي ، ويفصل ابن سعد عنه أيضا يقول: ثم إن الدهر أعضنا، فقالت لي ام عبد الله: يا أبا عبد الله ما قعودك وهذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أن تسير إليه حيث استقرت به الدار. فرحلت من المدينة. ولما دخل بغداد وجد الخليفة

والبلاط قد انتقلوا إلى الرقة بالشام فرحل إليهم حتى لحق بهم فيقول:
صار إلي من السلطان ستمائة الف درهم ما وجبت علي فيها الزكاة ثم
رجع معهم إلى بغداد وبقي بها ، حتى قدمها المأمون فجعله قاضيا
لعسكر المهدي وكان العسكر في الجانب الشرقي وكان الواقدي
في الجانب الغربي فلما انتقل حمل كتبه على عشرين ومائة وقر فولي
القضاء مدة أربع سنوات قبل وفاته ، وأوصى إلى المأمون فقبل وصيته
وأرسل إليه بأكفانه وقضى دينه . ذكر ابن سعد - وهو تلميذه
وكاتبه وراويته - يقول: مات ببغداد ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة
خلت من ذي الحجة سنة سبع ومائتين ودفن يوم الثلاثاء في مقابر
الخيزران ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة . مكانة الواقدي في الرواية
والعلم: وتتجلى مكانته في الرواية والعلم في وصف كاتبه وتلميذه ابن
سعد له حيث يقول: كان عالما بالمغازي والسيرة والفتوح واختلاف الناس
في الحديث والأحكام ، واجتماعهم على ما أجمعوا عليه ، وقد فسر ذلك
في كتب استخراجها ووضعها وحدث بها. وقال عنه ابن النديم في
الفهرست: إنه كان عنده غلامان يعملان ليلا ونهارا في نسخ الكتب ،
وقد ترك عند وفاته ستمائة قمطر من الكتب يحتاج كل منها إلى
رجلين لحمله ونقل الخطيب البغدادي عن علي بن المديني: أن ما جمع
الواقدي من الأحاديث بلغ عشرين ألف حديث. ونقل ابن سيد الناس عن
يحيى بن معين أنه قال: أغرب الواقدي على رسول الله في عشرين ألف
حديث. ثم قال ابن سيد الناس: وقد روينا عنه من تتبعه آثار مواضع
الوقائع وسؤاله من أبناء الشهداء والصحابة ومواليهم عن أحوال سلفهم

ما يقتضي انفرادا بالروايات وأخبارا لا تدخل تحت الحصر. ونقل الذهبي عن إبراهيم الحربي أنه كان يقول عنه: إنه كان أعلم الناس بأمر الإسلام، فأما أمر الجاهلية فلم يعلم منها شيئا ثم ذكروا له زهاء ثلاثين كتابا. ونرى في قائمة كتبه كتاب الطبقات، ولنا أن نتمثله في كتاب الطبقات الكبرى لتلميذه وكاتبه محمد بن سعد، فقد نقل عنه كثيرا ولاشك أنه صنفه على غرار كتاب شيخه وروى فيه عن غيره أيضا.

ومن كتبه كتاب الردة، ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، ومحاربة الصحابة لطلحة بن خويلد الأسدي ومسيلمة الكذاب وسجاح في اليمامة والأسود العنسي في اليمن. وقد نقل عنه تلميذه ابن سعد في الطبقات والطبري في تأريخه أخبار الأحداث التي تلت وفاة النبي، وإنما هو من كتابه في الردة. ويمكن القول بأن ما نقله ابن سعد، والطبري عنه عن الواقدي من أخبار الجاهلية فهو من كتاب سموه: "كتاب التأريخ والمبعث"، هكذا بتقديم المغازي على المبعث وتأخير المبعث عن المغازي، الذي عدوه غير كتاب المغازي. والطبري ينقل المغازي عن الواقدي مباشرة ولكنه حين يورد أخبار الجاهلية وما قبل الإسلام فإنه يرويها عن ابن سعد عن الواقدي، مما يدل على أنه اعتمد في المغازي على كتاب المغازي للواقدي، وأما في أخبار الجاهلية فهي من كتاب آخر له لعله هو التأريخ والمبعث. ومن كتبه "فتوح الشام وفتوح العراق"، وقد نقل البلاذري في كتابه "فتوح

البلدان " عن الواقدي كثيرا ، وهو من تلامذة ابن سعد كاتب الواقدي ، فهو قد روى كتاب شيخه له ورواه البلاذري كما نقل ابن كثير في " البداية والنهاية " كثيرا من حوادث سنة ٦٤ هـ والطبري نقل عنه كثيرا من حوادث النصف الثاني من القرن الثاني أي التي عاشها الواقدي. حول تشيع الواقدي وابن إسحاق: قال ابن النديم في فهرسته عن الواقدي: كان يتشيع ، حسن المذهب ، يلزم التقية ، وهو الذي روى ان عليا كان من معجزات النبي صلى الله عليه وآله كالعصا لموسى واحياء الموتى لعيسى بن مريم عليهما السلام ، وغير ذلك من الأخبار ونقل هذا القول عنه السيد الأمين العاملي صاحب " أعيان الشيعة " وترجم له ، وكذلك ذكره آقا بزرك الطهراني في " الذريعة إلى تصانيف الشيعة " عند الحديث عن تأريخ الواقدي. بينما لم يذكره الشيخ الطوسي في فهرسته ولارجاله ولاذكر كتابا من كتبه حتى مقتل الحسين عليه السلام . وابن أبي الحديد حينما ينقل فقرة طويلة عن الواقدي ثم يورد رواية اخرى مختلفة عن الاولى بيدؤها بقوله: " وفي رواية الشيعة " مما يدل على أنه لم يعتبره شيعيا ولاممثلا لهم. ومن الطريف أن يلاحظ أن ابن إسحاق أيضا كان يتهم بالتشيع ولعل السبب في وصفهما بالتشيع لا يرجع إلى عقيدتهما الشخصية ، بل إلى ما ورد في كتابيهما من الأخبار التي يعرضونها مما تقتضيه طبيعة التأليف في مثل هذه الموضوعات لا عن عقيدة صحيحة بها ، وإلى ماأورداه في بعض المواضع من كتابيهما بشأن جماعة من الصحابة منهم بعض الخلفاء فيذكر انهم بعبارات لاتضعهم في الموضوع الموضوع لهما عند كثير من المسلمين.

ولذلك فإن أكثر النقاد من المحدثين الأوائل كانوا يضعفون الواقدي في الحديث. فقد قال البخاري والرازي والنسائي والدارقطني: انه متروك الحديث، ولكنهم لم يجمعوا على ذلك، فقد وصفه الدراوردي بأنه: أمير المؤمنين في الحديث. وقال يزيد بن هارون: الواقدي ثقة. ووثقه مصعب الزبيري، ومجاهد بن موسى، والمسيب وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو بكر الصغائي. وقال إبراهيم الحربي: هو آمن الناس على أهل الإسلام. وقال ابن النديم: كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار ٣. أما بالنسبة لابن إسحاق: فقد عقد الخطيب البغدادي في كتابه "تأريخ بغداد" وكذلك ابن سيد الناس في كتابه "عيون الأثر" فصلين فندا فيهما جميع المطاعن التي وجهت إليه. وبالنسبة لتشييعه وقوله بالقدر قالوا ما ملخصه: أما ما رمي به من التدليس والقدر والتشييع فلا يوجب رد روايته، ولا يوقع فيها كبير وهن، أما التدليس فمنه القادح وغير القادح، ولا يحمل ما وقع هنا من مطلق التدليس على التدليس المقيد بالقادح في العدالة، وكذلك القدر والتشييع لا يقتضيان الرد إلا بضميمة أخرى لم نجدها هنا. والعجيب أنك لاتجد شيئاً من هذا التشكيك في عبد الملك بن هشام مهذب سيرة ابن إسحاق، فلو كان العيب في هذا الباقي من سيرة ابن إسحاق لشمك ابن هشام أيضاً. وعندئذ نطمئن إلى ان العيب ليس في هذا الباقي بل فيما قال عنه ابن هشام: "وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب... أشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا

البكائي بروايته ، ومستقص ما سوى ذلك " . وعندئذ تجد محور اتهام التشيع أيضا . وقد رأينا أنا إذا استثنينا هذين المتهمين بالتشيع لم يبق لعامة المسلمين شئ يذكر في السيرة ولا المغازي . وعندئذ ندرك أيضا أن السابقين الأولين إلى تدوين سيرة الرسول ومغازيه أي الصدر الأول من تأريخ الإسلام هم من شيعة أئمة أهل البيت عليهم السلام أو المقاربين لهم المتهمين بهم . نقد كتب السيرة : لعل النظر إلى تراث السلف الصالح - ولاسيما سيرة الرسول الكريم - بنظرة التقديس ، هو الذي أدى بالمؤلفين في السيرة على اختلاف طبقاتهم أن لا يقفوا موقف الناقد البصير ، فلم نر منهم من يعرض لما تحمله السيرة بين دفتيها من أخبار ضعيفة بعيدة عن الحقيقة لينقدها ويأتي على نقاط الضعف فيها ، فهذا ما حرمه هذا العلم في جميع أدواره السالفة إلى عهدنا هذا الأخير ، حيث أخذ المستشرقون والمتأثرون بهم يتناولون خبرا أو خبرين من السيرة وسيلة للطعن في شخص النبي الكريم صلى الله عليه وآله أو ما يتصل به ، فآمن بعض أصحاب الأقلام الجديدة بأن في السيرة أخبارا لا تمت إلى الحق بصلة في قليل ولا كثير ، ثم تجرؤوا فأقدموا على تهذيب السيرة مما الصق بها وهي ليست منها ، كقصة شق الصدر والغرائق وغرام الرسول صلى الله عليه وآله بزوجة زيد ربيبه ! إن سيرة محمد صلى الله عليه وآله كسائر العظماء اضيف إليها ما ليس منها ، إما عن حب وهوى وحسن نية وطوية ، وإما عن حقد وسوء قصد متعمد ، ولكنها تمتاز عن سير جميع العظماء بأن شيئا كثيرا منها ضمه الوحي الإلهي وضمن حفظه القرآن الكريم ، وكثيرا منها مروى على لسان الحفاظ

الثقات من المحدثين. فعلى هذه الاسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة، وأن تحلل التحليل العلمي النزيه بملاحظة ظروف الوسط وحال البيئة وجوانبها المختلفة من عقائد ونظم وعادات وتقاليد وطقوس، وأن لا يبنى الأساس على المعجزات والكرامات وخوارق العادات إلا ما خرج بالدليل بل يبنى على أساس " إن الله أبى أن يجري الأشياء إلا بأسباب " ٢ اللهم إلا ما خرج بالدليل الثابت المعقول. الخلاف في كتب السيرة وبينها: إن الدارس لكتب السيرة والتأريخ يلاحظ أن ماروته من أنباء الخوارق والمعجزات وغيرها من كثير من الأنباء، ينقص ثم يزيد بزيادة الأزمان التي وضعت فيها هذه الكتب، فقديمتها أقل رواية للخوارق من متأخرها، وما ورد من الخوارق في الكتب القديمة أقل بعدا عن مقتضى العقل مما ورد في كتب المتأخرين. فهذه سيرة ابن هشام أو قل ابن إسحاق أقدم السير المعروفة اليوم تغفل كثيرا عما ذكره أبو الفداء في تأريخه وما ذكره القاضي عياض في " الشفاء " وعن جميع كتب المتأخرين تقريبا. فلا بد للباحث من أن يقبل لنفسه مقياسا يعرض عليه ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، فما صدقه هذا المقياس أقره وأقر به وقربه، وما لم يصدقه فلم يورده بل يرده " . وهناك سبب آخر يوجب تمحيص ما ورد في كتب السلف ونقده نقدا علميا دقيقا، هو أن أقدمها كتب بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشلت في الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث من وسائلها للغلبة على خصومها، فكيف بما كتب متأخرا في أشد أزمان الاضطرابات والفتن؟ وكيف بما ورد في المتأخر من

كتب السيرة ؟ فهل يمكن الأخذ به بدون تمحيص بدقة علمية ؟ وقد أدت المنازعات السياسية وغيرها التي حدثت بعد الصدر الأول من الإسلام، إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييدا لها، هذا والحديث لم يدون إلى أواخر عصر الأمويين. ذلك لأن عمر عزم على ذلك فأصبح يوما يقول: إني كنت أردت أن أكتب السنن، ثم عدلت عن كتابتها، فإني - والله - لا أشوب كتاب الله بشئ أبدا ! ثم كتب إلى الأمصار بذلك يقول: من كان عنده شئ غير القرآن فليمحه ! وظل الأمر كذلك - ما عدا عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه الحسن عليهما السلام - حتى أمر عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث . أما كيف روى مثل البخاري مثل قصة الغرانيق - مثلا - ؟ فقد اعتذر عن مثل ذلك النووي في شرحه لصحيح مسلم قال: " أخذ جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلا بشرطيهما فيها ونزلت عن درجة ما التزمها " وقد التزما بمقياس السند والثقة بالرواية في قبول الحديث ورفضه، ولكنه وحده غير كاف لذلك. بل إن خير مقياس يقاس به الحديث والخبر عن النبي ما روي عنه - عليه الصلاة والسلام - قال: " إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمني وما خالفه فليس مني " فهو مقياس صحيح أخذ به كثير من الثقات، وهو يتفق مع قواعد النقد العلمي، وقال ابن خلدون بشأنه: " إنني لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول صحابي عالم يخالف ظاهر القرآن، وإن وثقوا رجاله، فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سئ الباطن. ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد من

جهة سندها لقصت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض. وقد قالوا: إن من علامة الحديث الموضوع: مخالفته لظاهر القرآن، أو القواعد المقررة في الشريعة، أو لبرهان العقل، أو الحس والعيان وسائر اليقينيات". حقا إن اختلاف المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بلغ حدا دعا الدعاة فيهم إلى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات. لما قتل عثمان وبدأت الحروب الداخلية بين المسلمين بخصومة خصماء علي عليه السلام، وأيد أمير المؤمنين من أيده، ثم استتب الأمر لبني أمية جعل المحدثون المتصلون ببني أمية يضعفون ما يروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام وفضائله، وكما جعل أنصار عائشة يشيعون عنها ما يؤيد دعواها. ومن طريف ما يروى في ذلك: ما رواه الذهبي في ترجمة إسماعيل بن المثني الاسترآبادي: كان يعظ بدمشق، فقام إليه رجل فسأله عن قول النبي: أنا مدينة العلم وعلي بابها؟ فأطرق إسماعيل لحظة ثم رفع رأسه وقال: نعم لا يعرف هذا الحديث عن النبي إلا من كان في صدر الإسلام، إنما قال النبي: أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفها وعلي بابها! فسر الحاضرون بذلك، فسألوه أن يخرج لهم إسناده، فوعدهم به وذكر القصة ابن عساکر فقال: فأنعم ولم يخرج لهم. أجل، هكذا كانت الأحاديث تلفق لأغراض سياسية ولأهواء عاجلة حتى كثرت وشاعت. هذا، وقد تولى كتاب السيرة كتابتها - كما مر خبرها - للخلفاء: فابن إسحاق كتب سيرته للمنصور وابنه المهدي، والواقدي كتب مغازيه للرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، اللهم إلا هشام الكلبي والمدائني فإنهما لم يكتبتا

لأحد منهم، ولكنهم كلهم ماكان لهم أن ينازعوا مع الخليفة في آرائه خوفا منه، ولذلك فإنه لا ينطبق على ما كتبه مقاييس الصحة بدقة. ومن أمثلة الاختلاف في النقل الذي يبدأ بذكر معجزة نراها تزيد بزيادة الزمان إلى معاجز: ما حدث في أثناء مسيرة جيش العسرة إلى تبوك: فقد روى ابن هشام قال: " قال ابن إسحاق: فلما أصبح الناس ولاماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فدعا رسول الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء " أما صحيح مسلم فيروي قصة تبوك بصورة أخرى لا تقتصر على هذه المعجزة بل تزيدها زيادة كثيرة على غير ما ورد في سيرة ابن إسحاق:

فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن معاذ بن جبل: " أن النبي قال لمن سار معه إلى تبوك: إنكم ستأتون - إن شاء الله - غدا عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي. فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشرك تبض بشئ من ماء. فسألها رسول الله: هل مسستما من مائها شيئا؟ قال: نعم، فسبها النبي وقال لهما ما شاء الله أن يقول ! ثم عرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شئ غسل رسول الله فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر - أو قال: غزير - حتى استقى الناس، ثم قال: يا معاذ يوشك - إن طالت بك الحياة - أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا " فهل ارتوى المسلمون في

طريق تبوك بماء العين المنهمر - بعد السباب ! - أم بمطر من سحب
بدعاء مستجاب من نبي مجاب ؟ أليس في القليل الأول غنى عن الثاني
الكثير ؟ ! اللهم إلا أن نبنى على ترجيح الحديث الأكثر إعجازا
ولانقتع بالقليل منه ! هذا وقد روى ابن إسحاق بعد روايته خبر السحابة
خبرا آخر يؤيده قال: " فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: قلت لمحمود
بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم ؟ قال: نعم والله إن كان
الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم
بعضا على ذلك، ولقد أخبرني رجال من قومي قالوا: لما كان من أمر
الماء بالحجر ما كان ودعا رسول الله حين دعا فأرسل الله السحابة
فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا: أقبلنا على رجل من المنافقين معروف
نفاقه كان يسير

مع رسول الله حيث سار، فقلنا له: ويحك ! هل بعد هذا شيء ؟
فقال: " سحابة مارة " اللهم إلا أن يكون ذكر كثرة النفاق في بعض
الصحابة مما يشنع ذكره ويسوء بعض الناس، وإن كان لم يحذفه ابن
هشام، واختار مسلم ما سلم من ذكره، وهذا هو الراجح في الظن.
شرائط دراسة التأريخ: لا شك في أن البحث في التأريخ أمر خطير وعمل
شاق جدا، فالباحث فيه كمن يريد أن يلج بحرا خضما هائجا، وإنما
يمد ببصره إلى قاعه ليغنم منه لآلئه ودراريه. والباحث في التأريخ إن
كان يطمح من بحثه إلى إحقاق الحق وازهاق الباطل، فإنه لا يتسنى له
ذلك إلا إذا كان واسع الإطلاع، بعيد النظر، شديد الحب للحق، موطنا

نفسه على اتباعه، مبتعدا عن التعصب المذهبي المقيت، ورعا في إصدار الأحكام، خيرا بطرق الاستنباط، عارفا بأمراض التأريخ وعلله، ملما بظروفه ومراحله، مؤثرا مصلحة الإسلام والمسلمين على ما سواها، متحرر الفكر، غير مشدود لما ورثه من أهله وقومه. وذلك لمساس التأريخ - ولاسيما سيرة الرسول الكريم - بمختلف نواحي الحياة. فمنه تؤخذ العقيدة الدينية، وأحكام الإسلام، ومعارفه وعلومه، وأدبه وأخلاقه، وعلى أساسه تقول الأجيال كلمتها في كل شئ، وعلى ضوءه تحكم على كل شئ. وقد ابتلي التأريخ والسيرة - ككثير من الامور - بنظرتين مفرطة واخرى مفرطة: فمن مقبل على التأريخ والسيرة مكب على أخذ ما فيه، غشه وسمينه، ينتهل منه ربه في كل جوانب الحياة، ويعتبره من أسلم المسلمات بها، دون حذر عما داخله من الدس والخرافات بعيدا عما نبه إليه الرسول من حتمية ظهور المفتريين عليه، غير معتبر بما اعترف به الزنادقة الملحدون مما رواه المؤرخون: أنهم وضعوا آلاف الأحاديث كذبا على الله ورسوله حللوا بها الحرام وحرموا بها الحلال، وأزالوا بها الحق عن نصابه، وزوروا كثيرا من الأحاديث الصحيحة وافتعلوا الكرامات والمناقب حبا في المال والمناصب. وآخرون فرطوا فيه فغلبوا التشاؤم وتكروا للتأريخ جملة وتفصيلا، اتهموه ببعض ما فيه وتحاملوا عليه، وجعلوا ذلك حجة لاعراضهم عنه وابتعادهم منه. وذلك ظلم قبيح وفصم لعري الأجيال، وحرمان للمتأخرين من دروس الماضي، وهدم لبناء الدين وطعن في تعاليم الأنبياء الذين حثوا على تدارس الماضي والاستماع إليه، مع تمحيص الحق عما علق به من شوائب

الباطل. وبين هاتين النزعتين المفرطة والمفرطة تنجلي النمرقة الوسطى باهتمام مفكري المسلمين وعلمائهم بالدراسات التاريخية، وبذل الوسع لإمالة اللثام عن كثير من جوانبه التي بدت قائمة مشوهة بفعل الدخلاء عليه، ممن جندوا أنفسهم لهدم الدين وطمس معالم الحق والتجني عليه

١ . طمس معالم الحق: قلنا نعرض الروايات - التي يدعى أنها تسجل سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله - على القرآن الحكيم، ذلك لانا لو راجعنا وصف هذا النبي العظيم في القرآن الكريم، لوجدناه يصفه بأنه: ❖ على خلق عظيم و ❖ خاتم النبيين ❖ ينهى الناس عن الإستخفاف به ❖ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ❖ ويلعن الذين يؤذونه ❖ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله ❖ . ولكننا لو راجعنا بعض تلك الروايات التي يدعى أنها تسجل لنا سيرته لوجدناه فيها: طفلا كسائر الأطفال، ورجلا يتكلم كسائر الجهال، بل أضعف عقلا من سائر العقال، فهو بحاجة دائمة إلى من يشرف عليه ويدبر شؤونه، ويأخذ بيده ويرشده، ويحل له مشاكله ويشد قلبه ويطمئنه، ويؤيده ويساعده، وإلا فهو يغضب فيكون غضبه عجزا واضطرابا بل وسبابا ويرضى فيكون رضاه سخفا وميوعة ! وإلا فكيف نفسر: أنه رأى الرأي فنزلت الآيات تصوب رأي غيره وتقند رأيه، فقعد يبكي ؟ ! وأنه كان له شيطان يعتريه ويأتيه في صورة جبرئيل ! ثم أعانه الله عليه فأسلم ! ولعله من فعل شيطانه أنه مر على سباطة قوم فبال قائما ! ثم شرب النبيذ ؟ ! ثم إنه رأى زوجة ابنه بالتبني في حالة مثيرة فعشقتها ! وإنه كان يعشق عائشة حتى أنه حملها على عاتقه

بطلبها لتتظر إلى رقص السودان في مسجده، وخدها على خده ! ثم إنه ترك الجيش لينفرد بزوجته ليسابقها في الصحراء !

والطامة الكبرى التي شملت شيخ الأنبياء إبراهيم: انه كان أولي بالشك من إبراهيم ! إلى ما هنالك مما يزيد في قبحه على ما ذكر أكثر بكثير، كل ذلك مما " قد فاجأتنا به الأنبياء والسير " في المجاميع الحديثة وكتب السيرة ! وفيها عن حياته الزوجية ما نتذمر من ذكره فضلا عن القيام بأمره ! وأدهى ما في الأمر وأمر أنها مدونة في الكتب التي توصف بأنها أصح كتاب بعد الذكر الحكيم، وهي تحاول أن تصور لنا سيدنا ومولانا ونبينا أفضل الأنبياء والمرسلين وأشرف السفراء المقربين ! ! قال محققو سيرة ابن هشام في مقدمتهم: " ولعل النظر إلى تراث السالفين ولاسيما ما يتصل منه بعلم السير نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الذي حال دون هؤلاء وهؤلاء أن يقفوا من هذا العلم موقفا فقدناه في جميع المؤلفين المتقدمين على اختلاف طبقاتهم، فلم نر منهم من عرض لما تحمله السير بين دفتيها من أخبار تتصف بالبعد عن الحقيقة، فنقدها وأتى على مواضع الضعف منها. هذا ما حرمه هذا العلم في جميع أدواره السالفة إلى ما قبل أيامنا هذه بقليل، إذ رأينا الإيمان بأن في السيرة أخبارا لا تتصل بالحق في قليل ولا كثير، تصحبه الجرأة ثم الإقدام، ورأينا فكرة جديدة تجري بها أقلام مجددة، يتناول أصحابها الخبر أو الخبرين من السيرة، مما كان يتخذ مطعنا علينا في شخص النبي - صلى الله عليه وآله - أو ما يتصل به، فخلصوه مما

لصق به مما ليس منه ، وأقاموا حوله سياجا من الحجج والبراهين ، صح بها وأصبح حجة على الطاعنين فيه. ومثل هذا ما فعله الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في قصة النبي - صلى الله عليه وآله - ، وتزويجه زينب بنت جحش من زيد بن حارثة ثم ما كان من تزوج الرسول - صلى الله عليه وآله - إياها بعد تطليق زيد لها مما أرجف فيه الطاعنون ولغوا لغوا كثيرا. ومنهم من عرض للكتاب في قصة أو قصتين منه فصاغها في أسلوب جديد ، ومثل للناس الخبر في قالب قصصي خرج به عن أسانيده وذكر رواته - تلك الطريقة التي هي سر تقديس هذه الأخبار في هذه الكتب - فبدت المعاني في هذا القالب الجديد كما يبدو الجسد في الغلالة الرقيقة لاتكاد تخفي منه شيئا. وهذا الأسلوب الجديد بما يتضمن من التهكم بالفكرة السقيمة والخبر الغث ، يخلق به المؤلف في القارئ روح التحفظ في قبول الأفكار وتسلمها. ومنهم من جرى مع ابن إسحاق في شوطه ، فتناول السيرة كما تناولها ابن إسحاق ، مبتدئا بميلاد الرسول صلى الله عليه وآله وما سبقه أو عاصره من حوادث ، ثم جرى يذكر حياة الرسول إلى أن قبضه الله إلى جواره ، ناقلا من الأخبار ما يرى فيها القرب من الحق ، ومستبعدا ما لا يجري في ذلك مع فكرته وما يعتقد ، مفندا مزاعم الطاعنين رادا على المكذبين. فجاء كتابه سيرة للرسول جديدة في أسلوبها ، نقية من اللغو والهراء .

أجل ، إذا كان المراجع إلى هذه المراجع - الصحاح وغيرها - ملئ النفس بتقديس النص تقديسا عشوائيا ساذجا ، فهو يمتنع ويمنع عن تقويم النصوص تقويما سليما يزنها بميزان الإعتبار. ولا مبرر لهذا

التقديس ما لم يثبت أن هذا الحديث مما صدر عنه أو من شؤونه أو من صفاته، اللهم إلا إذا كان لايعرف شيئاً مما يجب أن يتوفر في شخص رسول الله وخليفته وحجته على عباده، وكان خالي الذهن عن المنطلقات الأساسية والضوابط الحقيقية التي يجب أن يتوفر عليها من يحاول دراسة التأريخ بصورة علمية، وسيرة الرسول الكريم بصورة خاصة . سحاب مركوم على الحق المظلوم: أما كيف حدث كل هذا الحديث الموضوع للنيل من كرامة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ؟ فنحن نرى ذلك من التعتيم الذي اصطنعه بنو امية وبنو مروان على معالم الشخصية النبوية، مستفيدين من سياسة المنع من الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله بل إحراق ما كتبه كبار الصحابة عنه: ابتداء من الخليفة الأول إذ أحرق خمسمائة حديث كان قد جمعها هو من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم اشتد الأمر على عهد الخليفة الثاني فإنه جمع ما كتبه الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأحرقه، ولعل ذلك بعد أن اتصل به كعب الأخبار الحبر اليهودي المسلم. ولقد كان اليهود على فرقتين: فرقة تؤمن بالكتابة والتدوين وهم الفريسيون، وفرقة اخرى تؤمن بوجوب الحفظ وعدم جواز كتابة شئ غير التوراة، ويقال لهؤلاء: القراء وضعف أمر الفريسيين وكثر القراء، ويظهر أن كعب الأخبار كان من القراء، كما يظهر من جوابه لعمر حينما سأله عن الشعر، فكان مما قاله عن العرب: " قوما من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم أي يحفظونها على ظهر القلب ينطقون بالحكمة " وقد كان كعب عند حسن ظن الخليفة به

فكان مقربا عنده، فلعله قبل هذه النظرية من كعب الأحبار. ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد في " الطبقات " والخطيب البغدادي في كتابه " تقييد العلم " ونقله عنهما الشيخ أبو رية في كتابه " أضواء على السنة المحمدية " قالوا: كثرت الأحاديث على عهد عمر بن الخطاب، فأئشده الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال: مشناة كمشناة أهل الكتاب أو قال: ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً فاكبوا عليها وتركوا كتاب الله، واني والله لا أشوب كتاب الله بشئ أبدا! فممنع من الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله إلا بشاهد، ومنع كبار الصحابة عن الخروج من المدينة، واستعمل على الأمصار صغارهم ممن لا اطلاع له في الدين ولا معرفة له بأحكامه. وروى ابن سعد في " الطبقات " والخطيب البغدادي في كتابه الآخر " جامع بيان العلم وفضله " ونقله عنهما الشيخ أبو رية في كتابه " أضواء على السنة المحمدية ": إن الذين جاؤوا بعد عمر ساروا على نهجه في المنع عن الحديث إلا حديثاً كان على عهد عمر فنتج عن سياسة المنع عن الحديث وعن كتابته أن نسي الناس سنن الرسول صلى الله عليه وآله حتى في الصلاة التي هي عمود الدين وركن الإسلام والكتاب الموقوت الذي يؤديه المسلمون في كل يوم خمس مرات، أصبحوا لا يعرفون أحكامها وحدودها، حتى أقرب الناس إلى مهبط الوحي والتزيل الذين يفترض فيهم أن يكونوا أعرف بأحكام الإسلام وشرائع الدين... إذن فكيف بحال غيرهم من عوام الناس؟ وما هو مدى معرفتهم بدينهم وشريعتهم والحال كذلك؟ ولا سيما الناس البعداء عن منابع الثقافة

الإسلامية، وبالأخص فيما يقل الإبتلاء به. فقد روى البلاذري في " أنساب الأشراف " والبيهقي في سننه والمنتقي الهندي في " كنز العمال " عن عبد الرزاق وابن أبي شيبة: أن عمران بن الحصين صلى خلف علي عليه السلام فأخذ بيد مطرف بن عبد الله وقال: لقد صلى صلاة محمد ولقد ذكرني صلاة محمد . ولا شك في أن من سنن الرسول في الصلاة الجهر بالبسملة في الصلاة فكان علي عليه السلام يجهر بها، فبالغ بنو أمية في المنع عن الجهر بها سعياً في إبطال آثار علي عليه السلام حتى روى النسائي والبيهقي في سننهما عن ابن عباس أنه كان يقول: اللهم العنهم فقد تركوا السنة من بغض علي حتى بلغ الحال بالناس على عهد علي بن الحسين عليه السلام أن كانوا لا يعرفون كيف يحجون الجمعة، كما رواه الشافعي في كتابه " الام " عن وهب بن كيسان، ثم قال: كل سنن رسول الله قد غيرت حتى الصلاة . ولذلك نجد الإمام السجاد عليه السلام يقول في دعائه يوم الجمعة ويوم الأضحى: " اللهم إن هذا المقام لخلفائك وأصفيائك، ومواضع امنائك في الدرجة الرفيعة التي اخصصتهم بها قد ابتزوها. حتى عاد صفوتك وخلفائك مغلوبين مقهورين مبتزين، يرون حكمك مبدلاً وكتابك منبوذاً، وفرائضك محرفة عن جهات شرعك، وسنن نبيك متروكة " وروى ابن سعد في " الطبقات " عن الزهري قال: دخلت على أنس ابن مالك بدمشق وهو وحده يبكي، فقلت: ما يبكيك ؟ قال: لا أعرف شيئاً مما أدركت، إلا هذه الصلاة وقد ضيعت وروى الإمام مالك بن أنس بن مالك في كتابه " الموطأ " عن جده مالك قال: ما أعرف شيئاً مما

أدركت الناس إلا النداء بالصلاة . واستثنى الحسن البصري القبلة فقط فقال: لو خرج عليكم أصحاب رسول الله ما عرفوا منكم إلا قبلتكم . ولم يستثن عبد الله بن عمرو بن العاص شيئاً إذ قال: لو أن رجلين من أوائل هذه الامة خلوا بمصحفيهما في بعض هذه الأودية لأتيا الناس اليوم ولا يعرفان شيئاً مما كان عليه . ومع هذه الحال فمن الطبيعي أن يروج سوق الوضاعين الكذابين وأن يصبحوا هم مصدر العلم والمعرفة والثقافة للامة المسلمة. هكذا شاء الحكام، وهكذا استحق المحكومون إذ ابتعدوا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام . أما لماذا حاول بنو امية ورواتهم أن يستفيدوا من هذا الفراغ المفتعل بفضل المنع عن الحديث، للنيل من كرامة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسائر المقدسات الإسلامية ؟ فإن ذلك يعود إلى: أ - أن الحقد والعداء الاموي الموروث من القديم ضد بني هاشم - بما فيهم النبي صلى الله عليه وآله - لم يدعهم يقتنعوا بأنه نبي مرسل حقاً: فقد قال أبو سفيان للعباس لما رأى كثرة زحام الناس على التبرك بماء وضوء النبي يوم فتح مكة: يا عباس ! والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ! فقال: ويحك إنها النبوة ! فقال: نعم ! وقال معاوية لما سمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله: لله أبوك يا بن عبد الله ! لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين . وقال للمغيرة بن شعبة - بعد أن ذكر ملك أبي بكر وعمر وعثمان وأنهم هلكوا فهلك ذكرهم - : وإن أخا هاشم ! يصرخ به في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله، فأبي عمل يبقى مع هذا ؟ ! لا أم لك... لا والله إلا دفنا

دفنا ، ولما سمع المؤمن بالخبر أمر بلعنه . وقال - أو تمثل - ابنه يزيد بقول ابن الزبيرى: لعبت هاشم بالملك فلا ❖ خبر جاء ولا وحي نزل لست من خندق إن لم أنتقم ❖ من بني أحمد ما كان فعل وتبعه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان يقول: تلعب بالخلافة هاشمي ❖ بلا وحي أتاه ولا كتاب فقل لله: يميني طعامي ❖ وقل لله يميني شرابي وقرأ ذات يوم ❖ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ❖ فدعا بالمصحف فنصبه غرضا للشباب وأقبل يرميه وهو يقول: اتوعد كل جبار عنيد ❖ فها أنا ذاك جبار عنيد إذا ماجئت ربك يوم حشر ❖ فقل: يا رب خرقني الوليد وكان الوليد هذا مهملا لأمره قليل العناية بأطرافه، وكان صاحب ملاءه وقيان، وإظهار للقتل والجور، وتشاغل عن أمور الناس بشرب ومجون، فبلغ من مجونه أنه أراد أن يبني على الكعبة بيتا يجلس فيه للهو، ووجه مهندسا لذلك مجوسيا ليبنى له على الكعبة مشربة للخمر، وأراد أن ينصب قبة ديباج على الكعبة ويجلس فيها ومعه الخمر، فخوفه أصحابه من ثورة الناس فامتنع

ب - ولذلك فهم - كما رأينا - كانوا يريدون القضاء على هذا الدين ودفنه نهائيا ، وذلك لأنه كان يقف في وجه شهواتهم ومآربهم ويضرب بمصالحهم. ج - وبالتصوير المشوه للرسول الكريم صلى الله عليه وآله والإسلام العظيم كانوا يحاولون تبرير كل انحرافات وسخافات الجهاز الحاكم، والتقليل من فضاعتها وبشاعتها في أعين

الناس، وذلك برفع الفوارق الكبيرة بين مواقفهم ومواقف النبي الاعظم صلى الله عليه وآله . أما ما يمثل لنا شخصية الرسول الكريم المستهدفة للامويين فلنذكر منه نماذج: - نسمع الكميت بن زيد الأسدي يمدح الرسول الكريم فيقول في قصيدته البائية: إلى السراج المنير أحمد، لا ❖ يعدلني عنه رغبة ولا رهب عنه إلى غيره، ولو رفع لنا ❖ س إلى العيون وارتقبوا وقيل: افرطت. بل قصدت ولو ❖ عنفني القائلون، أو ثلبوا !

اليك ياخير من تضمنت الأر ❖ ض وإن عاب قولي العيب لج بتفضيلك اللسان ولو ❖ اكثر فيك الضجاج واللجب فيا ترى من الذي يحاول أن يعدل به عن مدح النبي صلى الله عليه وآله بالترغيب والترهيب ؟ ومن يرتقبون أن يمدح عوضا عنه - عليه الصلاة والسلام - ؟ وياترى بماذا خاطب الكميت النبي صلى الله عليه وآله غير أن يقال له: ياخير من تضمنت الأرض ! حتى يقال له: افرطت في مدحه ! من الذي يعنفه ويتلبه ويعيبه ؟ ومن الذي يكثر الضجاج واللجب على النبي صلى الله عليه وآله ؟ ! ولعله قد أحس بأمر خطير خلف هذه السياسة الاموية فقال في اخرى: رضوا بخلاف المهتدين، وفيهم ❖ مخبأة اخرى تصان وتحجب فلعله يقصد بالمخبأة الاخرى تخريب دين النبي صلى الله عليه وآله بعد تشويه سمعة شخصه. أو ما ذكره الرجاليون وأصحاب الطبقات في ترجمة خالد بن سلمة المخزومي الشهير بالفأفاء: أنه كان ينشد بني مروان هجو النبي صلى الله عليه وآله . وقد سبق هذا ما ذكروه في ترجمة عمرو بن العاص أنه لم يرض بضرب نصراني سب

النبي صلى الله عليه وآله . ولحق هذا ما رواه المؤرخون في علل خروج زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه : أنه دخل على هشام بن عبد الملك فسمع أن النبي صلى الله عليه وآله يسب عنده فلم يذكره ولم يغير على قائله . أو أنه يقصد بالمخبة ما رواه ابن عبد ربه الأندلسي في " العقد الفريد " : أن الحجاج كتب إلى عبد الملك : أن خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم ، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلة من المرسلين . ولئن كانت هذه مخبة يوما فإن ذلك لم يدم طويلا حتى حج الحجاج ورأى الحجاج يطوفون بقبر الرسول صلى الله عليه وآله ومنبره بالمدينة فقال : تبا لهم إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية ! هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك ؟ ! ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله ؟ ! قال المبرد : إن ذلك مما كفرت به الفقهاء الحجاج . وبهذه النظرة فلا مانع لديه أن يرمي الكعبة بالمنجنيق - بل كما قيل - بالعدرة أيضا . ولا يرى أية حرمة لمقام إبراهيم عليه السلام فيحاول أن يضع رجله على المقام فيزجره عن ذلك محمد بن الحنفية . وعلى هذه النظرة أيضا : " هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك " فلا استبعاد لما احتمله السيد المرتضى العاملي : أن يكون الحجاج حين بنى مدينة واسط في العراق وسطا بين الكوفة والبصرة ، حول قبلتها من جهة الحجاز الكعبة إلى جهة الشام : إما قصر أمير المؤمنين ! أو قبة الصخرة التي بناها وأمر الناس بالحج إليها : فقد ذكر اليعقوبي : أنه لما استولى ابن الزبير على مكة والحجاز كان يأخذ الحجاج بالبيعة له فلما رأى ذلك عبد الملك منعهم من الخروج إلى الحج ، فضج الناس وقالوا :

تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ؟ ! فقال لهم :
هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم : أن رسول الله قال " لاتشد الرحال إلا
إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس "
فهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ! وهذه الصخرة التي يروى : أن
رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء ، تقوم لكم مقام
الكعبة .! فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها
سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة !
وأقام بذلك أيام بني أمية . وإلى هذا أشار الجاحظ في بعض آثاره فقال
في المفاضلة بين بني هاشم وبني أمية : وتفخر هاشم بأنهم لم يهدموا
الكعبة ، ولم يحولوا القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة . ويفصل
هذا أيضا في بعض رسائله فيقول : حتى قام عبد الملك بن مروان وابنه
الوليد بالهدم وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة واستباحوا
الحرمة ، وحولوا قبلة واسط - إلى أن قال - فأحسب أن تحويل القبلة
كان غلطا ، وهدم البيت كان تأويلا ، وأحسب مارووا من كل وجه :
أنهم كانوا يزعمون : أن خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم
... واحتمل السيد المرتضى العاملي : أن يكون هذا هو سر استحباب
التياسر في القبلة لأهل العراق دون غيرهم عند أئمة أهل البيت عليهم
السلام ، ويظهر أن خصوم الشيعة قد التفتوا إلى هذا منهم ، ولذلك
كانوا يتهمون من يتحرى القبلة بالرفض . فقد روى الخطيب البغدادي :
أن قاضي واسط أسد بن عمرو قد رأى قبلة واسط رديئة فتحرف فيها
فاتهم بالرفض . - والمقايسة بين الرسول والخليفة ، والتوهين بالكعبة

لم يكن يقتصر على الحجاج، بل روى أبو الفرج الإصبهاني الاموي: أن خالد بن عبد الله القسري عامل هشام بن عبد الملك على مكة ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال: أيما أكرم: رسول الرجل في حاجته أو خليفته في أهله؟ ! يعرض أن هشاما خير من النبي صلى الله عليه وآله وروى عن أبي عبيدة قال: خطب خالد القسري يوما فقال: إن إبراهيم الخليل استسقى الله ماء فسقاه الله ملحا اجاجا يقصد زمزم وإن أمير المؤمنين استسقى الله ماء فسقاه عذبا نقاخا يقصد العين التي أجراها لسليمان بن عبد الملك بمكة قبل أن يحج إليها وأجراها إلى المسجد الحرام وروى أنه قال لغلامه يوما: ابن امي ! أيما أعظم: ركيتنا أم زمزم؟ ! فقال له: أيها الأمير من يجعل الماء العذب النقاخ مثل الملح الاجاج؟ ! وكان يسمى زمزم: ام الجعلان . وروى عن المدائني: أن خالدا كان يقول: لو أمرني أمير المؤمنين لنقضت الكعبة حجرا حجرا ونقلتها إلى الشام وروى أنه حبس بعض التابعين فأعظم الناس ذلك وأنكروه فبلغه ذلك، فخطب فقال: قد بلغني ما أنكرتم من أخذي عدو أمير المؤمنين ومن حاربه، والله لو أمرني أمير المؤمنين أن أنقض هذه الكعبة حجرا حجرا لنقضتها ! والله لأمير المؤمنين أكرم على الله من أنبيائه - وتحامل ابن الزبير على بني هاشم تحاملا شديدا وأظهر لهم العدو والبغضاء، حتى بلغ ذلك منه أنه ترك الصلاة على محمد صلى الله عليه وآله في خطبته ! فقليل له: لم تركت الصلاة على النبي؟ فقال: إن له أهيل سوء يشربون لذكروه ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به ! وأخذ أربعة وعشرين رجلا من بني هاشم منهم محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس

امتنعوا عن بيعته فحبسهم وهددهم أن يحرقهم بالنار: وقام خطيبا فقال من علي بن أبي طالب عليه السلام ولما عجز عنهم أخرجهم من مكة، فأخرج محمد بن الحنفية إلى رضوى وعبد الله بن عباس إلى الطائف حتى توفى ابن عباس بها سنة ٦٨ هـ . واعتبروا أقوال الصحابة حجة كقول رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الشيخ أبو زهرة في كتابه عن الإمام مالك: ووجدنا مالكا يأخذ بفتواهم - أي الصحابة - على أنها من السنة، ويوازن بينها وبين الأخبار المروية إن تعارض الخبر مع فتوى صحابي! وهذا ينسحب على كل حديث عنه - صلى الله عليه وآله ج وسلم - حتى ولو كان صحيحا . ونقل هذا السيد المرتضى العاملي في مقدمته لسيرته ثم علق عليه يقول: وليس هذا إلا لأن شأن رسول الله لم يكن عند هؤلاء في المستوى الطبيعي اللائق به كما هو ظاهر. ثم نقل عن " الرسائل المنيرية " قوله: والعجب منهم من يستجيز مخالفة الشافعي لنص له آخر في مسألة بخلافه، ثم لا يرون مخالفته لأجل نص رسول الله . هذه هي صورة عن مكانة النبي صلى الله عليه وآله وتعاليمه وقيمة أقواله لديهم، نكتفي منه بهذا. ونقول: إن وجود هذه الخطط التي استهدفت شخصية الرسول الكريم بل كل المقدسات الإسلامية، توجب علينا أن نقوم بنصوص سيرته وروايات تأريخه وتأريخ الإسلام. بماذا نقوم النصوص؟ وإن نحن أردنا ذلك فمن الضروري أن نعتمد فيه قبل كل شيء على: - عرضه على القرآن الكريم - كما مر - فقد روي عنه صلى الله عليه وآله - كما مر أيضا - أنه قال: تكثروا الأحاديث بعدي، فإذا روي لكم عني حديث

فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالف فردوه . وعن علي بن الحسين عليه السلام قال عن القرآن: " وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجات لا يضل من أم قصد سنته ". وروى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ما لم يوافق كتاب الله فهو زخرف . وعن ابن عباس قال: إذا سمعتموني أحدث عن رسول الله فلم تجدوه في كتاب الله أو حسنا عند الناس، فاعلموا أنني كذبت عليه . وعن ابن مسعود قال: فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه . وعن معاذ بن جبل قال: فاعرضوا على الكتاب كل شئ من الكلام ولا تعرضوه على شئ من الكلام وأوصى ابي بن كعب رجلا فقال له: إتخذ كتاب الله إماما وارض به قاضيا وحكما . وعن ابي بكر في خطبة له: فإن كانت للباطل غزوة ولأهل الحق جولة يعفو لها الأثر وتموت السنن، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن . ولن ينقضي العجب من بعض أهل الزيغ حيث نسب هذا القول - وهو عرض الحديث على القرآن - إلى أهل الزيغ فقال: وقد أمر الله عزوجل بطاعته - أي النبي صلى الله عليه وآله - واتباعه أمرا مطلقا لم يقيد بشئ كما أمرنا باتباع كتاب الله، ولم يقل: ما وافق كتاب الله، كما قال بعض أهل الزيغ . وأعجب من ذلك أن بعضهم نسب هذا الحديث إلى الزنادقة والخوارج ! فقال: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث، يعني ماروي عنه أنه قال: ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلتة وإن خالف كتاب الله فلم أقله. و: إنما أنا موافق كتاب

اللَّهُ وبه هداني الله. وهذه الالفاظ لا تصح عنه عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه، وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم وقالوا: نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شئ ونعتمد على ذلك، فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفا لكتاب الله، لأننا لم نجد في كتاب الله: أن لا يقبل شئ من حديث رسول الله، بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسى به والأمر بطاعته، وكذا ينهى عن المخالفة عن أمره، جملة على كل حال وقال أبو بكر البيهقي: والحديث الذي روي في عرض الحديث على القرآن باطل، فإنه ينعكس على نفسه بالبطلان، فليس في القرآن دلالة على: عرض الحديث على القرآن . وقالوا بقول مطلق: السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة . وحاول الخطابي في شرحه لسنن أبي داود أن يجد من الحديث ما ينفي أحاديث العرض على الكتاب، وذلك في شرحه لقوله صلى الله عليه وآله " لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: ما ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه ". قال الخطابي معلقا على هذا الحديث: في الحديث دلالة على أن لا حاجة إلى عرض الحديث على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول الله شئ كان حجة بنفسه فأما ما رواه بعضهم أنه قال: إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه... فإنه حديث باطل لا أصل له. وقد حكى زكريا الساجي عن يحيى بن معين أنه قال: هذا حديث وضعته الزنادقة .

وقد بحث هذا الموضوع العلامة المحقق السيد مهدي الروحاني في كتابه "بحوث مع أهل السنة والسلفية" وخلص إلى القول: بأن هذه الأحاديث - أي أحاديث عرض الحديث على الكتاب - ناظرة إلى قبول الموافق ورد المخالف، أما مالا يوافق ولا يخالف فهو باق تحت حجية الأخبار، فعدم وجود معنى حديث ما في كتاب الله لا يفيد مخالفة هذا الحديث له. - بالإعتماد على القرآن الحكيم علينا أن نحدد معالم شخصية الرسول الكريم التي تمثل أسمى إنسان وجد ويوجد على وجه الأرض، متصفا بصفات الفضل والكمال متخليا عما عداها، حتى جعله الله لنا اسوة وقدوة مطلقا فقال: ❖ ولكم في رسول الله اسوة حسنة ❖ فهو كما وصفه الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة: "عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن، وطهركم من الدنس، وأذهب عنكم الرجس وطهركم تطهيرا" فهو المعصوم عن المعاصي والمبرأ من كل عيب وعاهة وآفة منفرة للناس عنه، فلا يرى في أعماله أي تشئت أو ضعف، ولا في أقواله أي تناقض أو تهافت أو سخف، بل الفضائل الكاملة، والصفات الإنسانية الرفيعة الفاضلة: حكمة وعلم، وشجاعة وحزم، وسكينة ووقار، و... وبكلمة: هو خليفة الله في أرضه وحجته على عباده. فنلاحظ إن كان النص منسجما مع هذه الشخصية العظيمة قبلناه، وإلا رددناه. وإلا فكيف تنسب إلى هذه الشخصية أنه حمل حليلته عائشة على متته لتشهد أغاني السودان ؟ ! أو أنه شرب النبيذ ؟ ! أو أنه بال قائما ؟ ! أو أنه شك في نبوته ؟ ! أو أنه أتى على الأوثان تقريبا للمشركين إلى نفسه

١٤ وما شاكل ذلك - وبالإقتداء بالقرآن الكريم الذي إنما خاطب اولي الألباب والعقول، وجعل العقل - القطعي الإتفاقي - حكما فيما يقول وذم العقلاء على مخالفتهم لحكم عقولهم... فليكن ذلك هو موقفنا في جميع القضايا التاريخية أيضا، فتأكد من إمكان حدوثه تاريخيا. هذا بعد التأكد من سلامة النص من التناقض والمعارض، والنظر في طبقات الرواة وعلاقاتهم السياسية وغيرها، والتأكد من سلامة سند النص من الوضاعين والكذابين وأصحاب الأهواء السياسية وغيرها. بعد كل ذلك وبالأخذ بنظر الإعتبار جميع تلك المقاييس، يكون بإمكاننا أن نقوم النصوص غير القليلة التي تسعى أن تصور الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بمظهر صبي جاهل عاجز مهين! فلا ندع لها فرصة التسلل إلى سيرته صلى الله عليه وآله. وحينئذ يكون بإمكاننا أن نتقدم إلى المسلمين بنص من ثروة التراث يكون مصدر فخر واعتزاز. وهذه ميزة يمتاز بها تأريخ الإسلام، وهي أنه ينطلق عن قواعد بإمكانها أن تهدي الباحث إلى الطرق الامينة والتي بإمكانها أن يصل بها إلى الحقيقة التي يريدها مطمئن النفس راضي الضمير، شريطة التزامه بتلك القواعد والضمانات المشار إليها فيما مر. واستداركا لما فات: واستداركا لما مر نقول: إن المدون من تأريخ الإسلام - بما فيه مما مر ذكره - مع ذلك يعتبر أغنى تأريخ مطلقا، ذلك لإمتيازه بدقته وشموله، فتراه يلمح اللمحات، ويلتفت مع اللفتات، ويتحرك مع الحركات، ويتحدث عن الأحداث، ويتكلم بالكلمات، ويقف في المواقف بدقة وشمول منقطع النظير، ويملك لذلك من النصوص

الشئ الكثير، بحيث لا يشابهه أي تأريخ مطلقا، فإنه ليس بإمكان أي تأريخ آخر أن يثبت الكثير من أحاديثه عن الحوادث الكبرى بصورة قطعية فضلا عن الجزئيات من الامور. لكن لا بد لمن يريد الإفادة من كتب التأريخ الإسلامي من أن يفتح عينه ووعيه لكل كلمة منه، فيطالعها بوعي ويقظة وحذر، يسعى لاستخلاص ما ينسجم منه مع الواقع ويرد ما عداه، مما مال به القائل أو لعبت به الأهواء، ولاسيما ما يتعلق منه بصدر الإسلام، مما يتحكم فيه الهوى المذهبي والتزلف إلى الخلفاء والامراء والحكام فيذكر الأمر منقطعا عن علله وعوامله ومنفصلا عن أسبابه وجذوره، وذلك بفعل التعصب البغيض والظلم الكثير. فالمؤرخ كان لا يكتب ولا يثبت إلا ما ينسجم مع نفسية الحاكم، ويتفق وقوله، مهما كان مخالفا للواقع والحقيقة، ولإتجاه المؤرخ عقيدته أيضا، فهو يشوه امورا صدرت من الحاكم أو غيره ويحيطها بالغموض والإبهام، أو يهمل أحداثا ويتجاهل شخصيات لها أثرها في التأريخ، ويخلق أحداثا أو شخصيات لا وجود لها، أو يسهب الكلام في وصف غرام أو مجلس رقص أو غناء وشراب ويعنى بامور حقيرة تافهة. بينما مهمة المؤرخ أن يعكس حياة الامة وما عرض لها من أزمات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية، وبصورة عامة كل ما مرت به من أوضاع وأحوال، وذلك بدقة وأمانة. وليس بخاف ما في ذلك من الأثر الكثير في حياة الامة ووضعها في الحال الحاضر: عقائديا وعلميا واديبيا واجتماعيا، حسب اختلاف الأحداث عمقا وشمولا. ولا ينفي ترتب هذا الأثر البارز أن يكون الحدث التاريخي قد مر على تأريخه أكثر من ألف عام. قلنا: إن

المسلمين اهتموا بتدوين تأريخهم ما لانراه لغيرهم ، وإنه بالرغم مما ذكر فهو أثرى تأريخ امة مطلقا. ولكن هذا لا يعني أن تدوينه لم يتأثر بالأهواء السياسية ومختلف العصبية المذهبية وغيرها ، مما أدخل فيه الأباطيل والموضوعات. الأمر الذي فرض علينا أن نتخذ من المبادئ القرآنية والإسلامية ، وشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ، مقياسا لتقييم كثير من النصوص والحكم عليها من خلال انسجامها مع كل ذلك ، وهكذا بالنسبة إلى كل شخصية من إمام معصوم وغيره حصلنا منه على علم عام بسيرته وأخلاقه ، مستعينين بالكثير من أدوات البحث الاخرى التي توفرها الممارسة الطويلة في هذا الموضوع ، كتناقض النصوص ، أو التوصل إلى عدم إمكان وقوع ذلك الحدث في تلك الفترة الزمنية أو بالنسبة إلى الشخصية المنسوب إليها. بحث الأسناد : إن هذه الحالة - حالة عدم الأمانة التامة - لا تدعنا نعتمد على الأسانيد لتكون ميزانا نهائيا ومقياسا مطلقا في موضوع التأريخ ، إذ إن ذلك يعني أن نحصر أنفسنا في حصار نصوص يسيرة تكاد لا تفي حتى بالفهرسة الإجمالية لسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ومجمل تأريخ صدر الإسلام ، ويعني أن نفقد الكثير من النصوص الصحيحة التي لم تحتفظ بسند فيه أدنى شرائط القبول ، وسوف يفقد الناقد حرية حركته بين النصوص للإستنتاج. إذن ، فلا يمكن ملاحظة شروط الأسناد إلا بالنسبة لما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، أما في خصوص النصوص التاريخية فإنه لا يتيسر ملاحظة ذلك ، ذلك لأن التأريخ قد دون بأيد قد تكون أمينة ولكن لا على الإطلاق ولاسيما

بالنسبة لأسناد ما دونوا من أخبار، وعلى هذا، فلا بد من ملاحظة أكثر ما يمكن للتأكد من عدم الجعل والتحريف فيها قبل قبولها على أنها من التأريخ المعتمد عليه. وبكثرة الأكاذيب والأباطيل في الأحاديث والأقاويل التأريخية، بسبب تلاعب الأهواء المذهبية والسياسية كما سبق، فإن الاستناد إلى أفراد معينين من المؤرخين أو نوعية معينة من الكتب التأريخية ربما تحرم الباحث من كثير من الحقائق التأريخية المبعثرة هنا وهناك، والتي أمكن لها أن تصل إلينا عبر الموانع المتعددة سليمة من كثير من التحريف، بما أن الساسة لم يروها، أو لم يروا فيها ما يشكل خطراً عليهم، وكذلك المتعصبون من أرياب المذاهب، فبقيت بعيدة عن متناول أيديهم ورماحهم وغوغائهم، وآمنة من تعنت المتعصبين وجبروت الطواغيت كي نتلقفها اليوم بسلام. دراستنا نحن للتأريخ: ونحن هنا نحاول بدورنا أن نستخلص صورة نقية واضحة ما أمكننا من تأريخنا تأريخ الإسلام، وبصورة أساسية نهتم لنبتعد عن ذلك القسم الموضوع المكذوب من النقول التأريخية، والتي لا تعدو في الحقيقة والواقع عن أوهام من خيالات أصحاب الأهواء والأغراض من المحدثين والقصاصين. والبداية الطبيعية لتأريخ الإسلام هي سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، وهذه البداية الطبيعية تفرض علينا أن نلاحظ أولاً شيئاً عن تأريخ ما قبل البعثة النبوية الشريفة، كي نتعرف على المناخ والجو الذي ظهر فيه الإسلام إلى العالم. واعتمدنا فيما كتبناه هنا - حتى الإمكان - على أسبق ما كتبه أورواه السابقون الأولون ولاسيما من مدرسة أهل البيت عليهم السلام دون المتأخرين فضلاً عن

المعاصرين إلا قليلا، إذ هو علم نقلي ليس للمتأخر إلا ما كتبه المتقدم اللهم إلا في كيفية الإخراج والتأليف والتصنيف والترتيب والتنظيم والتنسيق، ثم توجيهه وتحليله كل في حدود إمكانه وطاقته. وقد أمسك أولئك المؤرخون القدامى عن أية دراسة أو تحليل للحوادث والوقائع التاريخية، ولعله صيانة لنصوص أحاديث تلك الحوادث، لا بشأن النبي صلى الله عليه وآله فحسب، بل إن التأريخ الإسلامي بصورة عامة كتب بدون دراسة أو تحليل أو تحقيق. أجل إن أول من فتح هذا الطريق بوجه المؤرخين الإسلاميين هو العالم العربي القاضي عبد الرحمن بن محمد الخضري المالكي المعروف بابن خلدون ت ٨٠٨ هـ، فإنه أسس في "مقدمته" أسس التأريخ التحليلي، وهي بما فيها من اشتباهات كثيرة في تحليل بعض الحوادث تعد أثرا مفيدا جديدا مبتكرا في بابه. وقد كتبت بشأن النبي العظيم من النوعين الأول والثاني، أي التأريخ الوقائعي والتحليلي كتب كثيرة، ولكن يعوز النوع الأول: التحليل، ويعوز النوع الثاني في كثير من الأحيان أنها على جانب كبير من الأخطاء العجيبة، حيث إنها اعتمدت على مصادر غير معتبرة أو على كتب المستشرقين. فبالنظر إلى هذين الإشكالين الأساسيين عمدنا في حدود إمكاننا في دراستنا هذه أن نتجنبهما، وذلك بأن:

١- نسجل الحوادث المهمة التي تتميز بدروس لنا فيها، وأن ننقل ذلك من المصادر الأصلية الأولى المؤلفة في القرون الأولى الإسلامية.

٢ - وأن نقف عند ما أورده المعترضون والمستشكلون من المستشرقين وغيرهم مما انتقدوا به الإسلام ورسوله، فتجيب على كل ذلك بأجوبة صحيحة قطعية واضحة بينة، وأن ندفع أية شبهة أو إشكال قد يورد على التأريخ الإسلامي لدى شيعة أئمة أهل البيت عليهم السلام حسب المصادر والشواهد التاريخية الناطقة. والله الموفق والمعين، وهو الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فهو حسبي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير. محمد هادي اليوسفي الغروي الجاهلية في القرآن الكريم: قلنا: إن البداية الطبيعية لتأريخ الإسلام تفرض علينا أن نتعرف أولاً على حالة العرب قبل الإسلام كي نتعرف على المناخ والجو الذي انطلقت فيه الدعوة إلى الإسلام، وخير كلام في هذا المقام كلام الإمام العلامة الطباطبائي في تفسيره "الميزان" قال: إن القرآن يسمي عهد العرب المتصل بظهور الإسلام بالجاهلية، وليس إلا إشارة منه إلى أن الحاكم فيهم يومئذ الجهل دون العلم، وأن المسيطر عليهم في كل شئ الباطل دون الحق، وكذلك كانوا، على ما يقص القرآن من شؤونهم: قال تعالى: ❖ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية وقال ❖ أفحكم الجاهلية يبغون ❖ . وقال: ❖ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ❖ . وقال: ❖ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ❖ . كانت العرب يومئذ تجاور في جنوبها الحبشة وهي نصرانية، وفي مغربها إمبراطورية الروم وهي نصرانية أيضاً، وفي شمالها الفرس وهم مجوس، وفي غير ذلك مصر والهند وهما وثيتان، وفي أرضهم طوائف من اليهود. وهم وثيون يعيش أكثرهم عيشة القبائل، وهذا كله هو الذي أوجد

لهم اجتماعا همجيا بدويا فيه أخلاط من رسوم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وهم سكارى في جهالتهم. وكانت العشائر البدو على ما لهم من خساسة العيش ودناءته يعيشون بالغزوات وشن الغارات واختطاف ما في أيدي الآخرين من متاع أو عرض، فلا أمن بينهم ولا أمانة، ولا سلم ولا سلامة، والأمر لمن غلب، والملك لمن وضع يده عليه "ومن عزبز". أما الرجال فالفضيلة بينهم سفك الدماء والحمية الجاهلية والكبر والغرور واتباع الظالمين وهضم حقوق المظلومين، والتعادي والتنافس، والقمار وشرب الخمر والزنا، وأكل الميتة وحشف التمر. وأما النساء فقد كن محرومات من مزايا المجتمع الإنساني لا يملكن من أنفسهن إرادة ولا من أعمالهن عملا، ولا يملكن ميراثا، ويتزوج بهن الرجال من غير تحديد بحد، كما عند اليهود وبعض الوثنيين، ومع ذلك فقد كن يتبرجن بالزينة ويدعن من أحبين إلى أنفسهن، وفشا فيهن الزنا والسفاح حتى المحصنات المزوجات منهن، ومن عجيب بروزهن أنهن ربما كن يظفن بالبيت ليلا عاريات من ثيابهن لأنهن لا يجدن إحراما طاهرا. وأما الأولاد فكانوا ينسبون إلى الآباء لكنهم لا يورثون صغارا ويذهب الكبار بالإرث، ومن الإرث زوجة المتوفى، ويحرم الصغار - ذكورا أو إناثا - والنساء. نعم لو ترك المتوفى صغيرا ورثه ولكن الأقوياء يتولون أمر اليتيم ويأكلون ماله، ولو كان اليتيم بنتا تزوجها وأكلوا مالها ثم طلقوها وخلوا سبيلها، فلا مال تقعات به ولا راغب في نكاحها ينفق عليها. والإبتلاء بأمر الأيتام من أكثر الحوادث المبتلى بها بينهم لدوام الحروب والغارات والغزوات فطبعيا كان القتل شائعا بينهم. وكان من

شقاء أولادهم أن بلادهم الخربة وأراضيهم القفرة البائرة كان يسرع إليها الجذب والقحط، فكان الرجل يقتل أولاده خشية الإملاق: ❖ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ❖ وكانوا يئدون البنات: ❖ وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت ❖ وكان من أبغض الأشياء أن يبشر الرجل بالانثى: ❖ وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ❖.

وأما وضع الحكومة بينهم: فأطراف الجزيرة وإن كانت ربما ملك فيها ملوك تحت رعاية أقوى الجيران وأقربها كإيران لنواحي الشمال، والروم لنواحي الغرب، والحبشة لنواحي الجنوب، إلا أن قرى الأوساط كمكة ويثرب والطائف وغيرها كانت تعيش في وضع أشبه بالجمهورية وليس بها، والعشائر في البدو بل حتى في داخل القرى كانت تدار بحكومة رؤسائها وشيوخها، وربما تبدل الوضع بالسلطنة. وهذا هو الهرج الفوضى العجيب الذي كان يبرز في كل عدة معدودة منهم بلون، ويظهر في كل ناحية من أرض شبه الجزيرة بشكل مع الرسوم العجيبة والاعتقادات الخرافية الدائرة بينهم. أضف إلى ذلك بلاء الامية وفقدان التعليم والتعلم في بلادهم فضلا عن العشائر والقبائل. وكل هذا الذي ذكرناه من أحوالهم وأعمالهم والعادات والمراسيم الدائرة بينهم هو مما يستفاد من سياق الآيات القرآنية والخطابات التي تخاطبهم بها، أوضح إفادة، فتدبر في المقاصد التي ترومها الآيات والبيانات التي تلقيها

إليهم بمكة أولا ، ثم بعد ظهور الإسلام وقوته بالمدينة ثانيا ، وفي الأوصاف التي تصفهم بها ، والامور التي تدمها منهم وتلومهم عليها ، والنواهي المتوجهة إليهم في شدتها وضعفها.. إذا تأملت كل ذلك تجد صحة ما ذكرناه. والتأريخ كذلك يذكر كل ذلك ويعرض من تفاصيله ما لم نذكره ، لإجمال الآيات الكريمة وإيجازها القول فيه. وأوجز كلمة وأوقاها لإفادة مجمل هذه المعاني ما سمى القرآن به هذا العهد " الجاهلية " فقد أجمل في معناها كل هذه التفاصيل. هذا حال عالم العرب ذلك اليوم. وأما العالم المحيط بهم ذلك اليوم من الفرس والروم والحبشة والهند وغيرهم ، فالقرآن يجمل القول فيه أيضا.

أما أهل الكتاب منهم أعني اليهود والنصارى ومن يلحق بهم من المجوس والصابئة فقد كانت مجتمعاتهم تدار بالأهواء الاستبدادية والتحكيمات الفردية من الملوك والرؤساء والحكام والعمال ، فكانت مقسمة طبعا إلى طبقتين: طبقة حاكمة فعالة لما تشاء ، تعبت بالنفس والعرض والمال وطبقة محكومة مستعبدة مستذلة لا أمن لها في مال ولا عرض ولا نفس ولا حرية ولا إرادة إلا ما وافق من فوقها. وقد كانت الطبقة الحاكمة استمالت علماء الدين وحملة الشرع واثلت بهم ، وأخذت مجامع قلوب العامة وأفكارهم بأيديهم ، فكانت بالحقيقة هي الحاكمة في دين الناس ودنياهم ، تحكم في دين الناس كيفما أرادت بلسان العلماء وأقلامهم ، وفي دنياهم بالسوط والسيف. هذا وقد انقسمت الطبقة المحكومة أيضا حسب قوتها في السطوة والثروة فيما بينهم ، إلى

طبقتي الأغنياء المترفين والضعفاء والعجزة والعبيد، وإلى رب البيت ومربويه من النساء والأولاد، وكذا إلى الرجال المالكين لحرية الإرادة والعمل في جميع شؤون الحياة وإلى النساء المحرومات من جميع ذلك والتابعات للرجال محضا والخادمات لهم فيما أرادوه منهن من غير استقلال ولو يسيرا. ومجمل هذه الحقيقة يظهر من قوله سبحانه: ❖ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ❖ وكذا قوله سبحانه: ❖ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ❖ وقوله في النساء: ❖ إني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض ❖ وفيما أوصى به في التزويج بالفتيات والإماء: ❖ بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن ❖ . الجاهلية في نهج البلاغة: وبعد استعراض هذه الآيات من القرآن الكريم بشأن الجاهلية يكفيننا أن نتذكر بعض ما جاء عن علي عليه السلام في " نهج البلاغة " في ذلك: " وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار، منيخون بين حجارة خشن وحيات صم، تشربون الكدر وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام فيكم معصوبة " . والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء واستزلتهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل " . والأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة،

والكثرة متفرقة، في بلاء ازل وإطباق جهل: من بنات موؤدة وأصنام
معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة " . معنى الجاهلية: ومن
مصاديق الحمية الجاهلية ما حاوله البعض أن يحرف في معنى الجاهلية
من معنى عدم العلم وفقدان المعرفة لديهم إلى أنها من الجهل بمعنى
الحمية والغضب، كما قد يقال: جهل زيد على عمرو بمعنى غضب
عليه، وأنها ليست من الجهل بمعنى عدم العلم والمعرفة. وهذا التوجيه
ليس - كما قلنا - إلا مصداقا من مصاديق الحمية الجاهلية، فإن
الظاهر من إطلاق الجهل ليس إلا بمعنى ما يقابل العلم والمعرفة، ولا
تحمل على معنى الحمية والغضب إلا مجازا بقرينة ما، كما فيما
يستشهدون به من قولهم جهل عليه، فإن تعديده الجهل إلى المفعول بلفظة "
على" أجلي قرينة لفظية لذلك، وإلا فلا تحمل الكلمة إلا على ما يقابل
العلم فقط. وليت شعري ما يقول أصحاب هذا التوجيه غير الوجيه في
معنى ما جاء في الآيات الكريمة الأربع "ظن الجاهلية" و "حكم
الجاهلية" و "الحمية الجاهلية" و "تبرج الجاهلية" فهل يصح أن تفسر
الجاهلية في هذه الآيات بمعنى الغضب؟ وقد رأينا أمير المؤمنين عليه
السلام وصف الجاهلية بالجهلاء تأكيدا للمعنى المعروف من الجاهلية،
ثم قال: "وبلاء من الجهل" و "إطباق جهل" مما يؤكد ذلك أيضا ويدفع
أي ترديد فيه.

"لقد أوضح لنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته
المتقدمة حالة العرب ومستواهم العلمي والثقافي، وأنهم كانوا يعيشون

في ظلمات الجهل والحيرة والضياع.. وهذا يكذب كل ما يدعيه الآخرون - كالألوسي وغيره - من أن العرب كانوا قد تميزوا ببعض العلوم: كعلم الطب والأنواء والقيافة والعيافة... " . ويقول ابن خلدون بهذا الصدد " إن الملة - العربية - في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة، وذلك لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة.. فالقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دفعوا إليه، ولا دعتهم إليه حاجة.. فالامية يومئذ صفة عامة " . ويقول عن علم الطب عند العرب: " .. طب بينونه - في غالب الأمر - على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره " . ويكفي أن نذكر هنا ما رواه البلاذري في اميتهم: إن الإسلام دخل وفي قریش سبعة عشر رجلا، وفي الأوس والخزرج في المدينة اثنا عشر رجلا يعرفون القراءة والكتابة . ويقول ابن خلدون عن نوعية الخط عندهم " وكانت كتابة العرب بدوية وكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط، ذلك لمكان العرب من البداءة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع - لأجل ذلك - في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه اصحاب الرسول " بل

ربما كانوا يعتبرون القراءة والكتابة عيبا ، فقد قال عيسى بن عمر:
قال لي ذو الرمة: ارفع هذا الحرف. فقلت له: أتكتب ؟ فقال بيده على
فيه اي اكتب علي، فإنه عندنا عيب . وقال ابن خلدون بهذا الصدد: "
مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ ، لأنه من جملة الصنائع ،
والرؤساء - أبدا - يستكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها "
فالذي رواه الرواة والمؤرخون يفيد نفي وجود أي لون من ألوان التعليم ، أو
وجوده ولكن بنسبة صغيرة جدا حيث لا يتجاوز عدد المتعلمين عدد
أصابع اليدين والرجلين في كل بلدان الحجاز وحواضره.

فتوح البلدان ق ٣ : ٥٨٠ . مقدمة ابن خلدون: ٤١٩ . الشعر
والشعراء لابن قتيبة: ٣٣٤ . مقدمة ابن خلدون: ٥٤٤ ، فصل " أن حملة
العلم في الإسلام أكثرهم العجم ."

ذهب بعض المتأخرين من المؤرخين العرب - منهم محمد عزة
دروزة في كتابه: القرآن المجيد - إلى أن هناك في المدن الحجازية فئة
من المتعلمين بنسبة لا يمكن تجاهلها. وكل ما سجله هؤلاء في كتبهم
لتأييد رأيهم هو: - أن البيئة الحجازية - ولا سيما مكة والمدينة -
كانت بيئة تجارية - ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في سورة
قريش، فكانت - بحكم عملها وطبيعتها - على اتصال وثيق
ومستمر مع البلاد المجاورة من الشام واليمن والعراق والتي كانت على
جانب لا بأس به من العلم والثقافة. وكانت البيئة الحجازية تضم فئات
كتابية: يهودية ومسيحية اصيلة ونازحة من البلاد المجاورة، والتي

كانت تتداول ما بينها الكتب الدينية وغيرها قراءة وكتابة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ورد في القرآن العزيز أطول آية في سورة البقرة تطلب من الناس تسجيل كافة المعاملات والتصرفات وكتابتها نقداً أو ديناً صغيرة أو كبيرة فكيف تطلب هذه الآيات من الناس تحقيق كل ذلك دون وجود قسم من المتعلمين في صفوفهم يكتبون ويدونون عن أنفسهم أو الآخرين. هذا بالإضافة إلى أن كتبة الوحي بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله بلغ عددهم أكثر من أربعين رجلاً، وأن كثيراً منهم كانوا مكيين، وهم الذين كتبوا القسم المكي من القرآن قبل هجرته صلى الله عليه وآله إلى المدينة، فهذا دليل على وجود المتعلمين في مكة وإن كانوا قليلين، سواء ممن كتب الوحي من هؤلاء ومن لم يسلم به

كما إن الأسرى الفقراء من قريش الذين وقعوا في قبضة المسلمين في معركة بدر الكبرى في العام الثاني للهجرة، والذين لم يستطيعوا أن يقدموا فدية نقدية لإطلاق سراحهم، كلف كل واحد منهم - ممن يجيد القراءة والكتابة - تعليم عشرة من أطفال المسلمين في المدينة القراءة والكتابة لقاء إطلاق سراحهم، ويحدثنا البلاذري: إن كثيراً منهم قاموا بما كلفوا به من تعليم الأطفال في المدينة وأصبحوا بعدها أحراراً عادوا إلى مكة، كما أسلم بعضهم بعدما لمسوا عدالة الإسلام وسماحته فكيف يعقل هنا أن يجيد قسم من الفقراء ومعدمي القرشيين القراءة والكتابة ولا يتقنها أغنيائهم وتجارهم وأرباب السلطان منهم ! .

وخلاصة القول في جواب هؤلاء هو أن نقول: إن الجهل كان هو الحاكم

المطلق ولا نلاحظ نحن فيهم أي شئ من العلوم قبل الإسلام بل لا نرى إلا جهلا وحيرة وضياعا. أما ما استشهد به هؤلاء فلا يعدو أن يكون مما قام به الإسلام لمحو الامية. أما أولوية أن يكون ذوو الغنى والسلطان منهم يقرأون ويكتبون فقد عرفت فساده مما سبق عن ابن خلدون. وأما عدد كتاب الوحي فقد فند أكثر العدد العلامة السيد أبو الفضل مير محمدي في كتابه القيم "بحوث في تأريخ القرآن وعلومه". ولا يفوتنا هنا أن ننوه إلى: أن اميتهم هذه كانت السبب في قوة حافظتهم التي امتازوا بها، فأصبح الكثير منهم حفظة القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم.

لكن مستواهم الثقافى هذا كان السبب الطبيعى في أن ينظروا إلى أهل الكتاب عموما واليهود خصوصا نظرة التلميذ إلى معلمه فتكون لهم الهيمنة الفكرية عليهم، مما بقيت آثاره في أخبار رواتهم فيقول الطبري: "عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب". غيرة وحمية، أم حمية جاهلية: كما حاولوا أن يوجهوا الجاهلية بتفسيرها بمعنى الغضب لا عدم العلم والمعرفة، كذلك حاولوا تحريف الحمية الجاهلية المذكورة في القرآن الكريم من كونها صفة ذميمة إلى جعلها خصيصة ذات ميزة للعرب قبل الإسلام، وذلك بحذف صفة الجاهلية وإضافة لفظة "الغيرة" إلى "الحمية". والحقيقة هي أن الحمية صفة ذميمة، إذ هي تعني أن يكون النصر للقبيلة وذوي القرابة فقط، وإن العون لا بد وأن يحض لهم ظالمين كانوا أو مظلومين فلا بد من الوقوف إلى جانب ابن القبيلة

سواء كان الحق له أو عليه ، حتى قال شاعرهم يمتدحهم بذلك: لا يسألون أخاهم حين يندبهم ❖ في النائبات على ما قال برهانا وفي المقابل تتحمل القبيلة عنه كل جناية وجريمة يرتكبها ، وتحميه من كل من أراد به سوء. وهذا هو التعصب القبلي الذي لا يرحم ولا يلين. فالتعصب القبلي كان من مميزات الإنسان العربي وخصائصه. ومن الطبيعي أن يكون شعور أفراد كل قبيلة بالنسبة لأبناء قبيلتهم قويا جدا ، وذلك بدافع من شعورهم بالحاجة إلى قبائلهم للدفاع عن أنفسهم. وهذا هو السر في شجاعتهم أيضا ، وذلك أنهم بحكم بيئتهم وحياتهم في الصحراء بلا حواجز وموانع طبيعية أو غيرها ، كانوا يشعرون بحاجتهم إلى حماية أنفسهم والدفاع عنها ، ولا يرد عنه إلا يده وسيفه ثم أهله وعشيرته ، وهو يرى نفسه في كل حين عرضة للغزو والنهب والسلب والغارات والثارات. إن حياة البادية والغزو المفاجئ وعمليات الاغتيال ثارا التي كانت تهددهم دائما ، كل ذلك كان يستدعي سرعة الإقدام ومباشرة العمل فورا ، فإذا اضيف إلى ذلك عدم شعورهم بالمسؤولية عما يفعلون ، فإن الإقدام بلا ترو ولا تريث لا بد وأن يصبح هو الصفة المميزة لهم والطاغية على تصرفاتهم.. ولذا فقد قل أن تجد فيهم حليما. وأخيرا فقد نعى القرآن الكريم على الجاهلية هذه الحمية فعبر عنها بالحمية الجاهلية ، وهذا يعني أنها كانت من دون تثبت في الفكر والرأي بل للجهل ، فكيف تكون ميزة ؟ ! أجل إن الإسلام حاول أن يضع هذه الحمية في خطها الصحيح وأن يجعلها تنطلق من قواعد إنسانية وعواطف حقيقية وفضائل أخلاقية ، وبالأخص من إحساس ديني صحيح ، وأن

يستفيد منها في بناء الامة على اسس صحيحة وسليمة. فقد حاول أن يوجه العصبية القبلية وجهة بناءة ويقضي على كل عناصر الشر والانحراف فيها ، فدعى إلى بر الوالدين وإلى صلة الرحم ، وجعل ذلك من الواجبات وذلك لربط الامة المسلمة بعضها ببعض. وفي الوقت نفسه أدان كل تعصب لغير الحق وندد به وعاقب عليه ، واعتبر ذلك من دعوات الجاهلية المنتنة كما جاء في بعض نصوص الاحاديث. وكذلك حاول أن يوجه غيرتهم وحميتهم وشدتهم إلى حيث قال تعالى: ❖ أشداء على الكفار ❖ . بناء الكعبة المعظمة: يجدر بنا ونحن نحاول دراسة التأريخ الإسلامي أن نتعرف على تأريخ بناء الكعبة في مكة المكرمة ، وذلك يجرنا إلى البدء بتأريخ بانيتها إبراهيم عليه السلام ، فلنبداً به: ومن اجمع ما يتضمن قصة الخليل عليه السلام ما جاء في " روضة الكافي " بسنده عن علي بن إبراهيم القمي ، عن زيد الكرخي قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: إن إبراهيم عليه السلام كان مولده بكوثرانيا وكان أبوه من أهلها ، وكانت ام إبراهيم وام لوط عليهما السلام ، سارة وورقة اختين ، وهما ابنتان للاحج ، وكان لاحج نبيا منذرا ، ولم يكن رسولا. وكان إبراهيم عليه السلام في شببته على الفطرة التي فطر الله عز وجل الخلق عليها حتى هداه الله تبارك وتعالى إلى دينه واجتباها وانه تزوج سارة ابنة لاحج ، وهي ابنة خالته ، وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة ، وكانت قد ملكت إبراهيم عليه السلام جميع ما كانت تملكه ، فقام فيه وأصلحه وكثرت الماشية والزرع حتى لم يكن بأرض كوثرانيا رجل

أحسن حالا منه. وإن إبراهيم لما كسر اصنام نمرود وأمر به نمرود
فاوثق، وعمل له حائرا وجمع له فيه الحطب وألهب فيه النار، ثم قذف
إبراهيم عليه السلام في النار لتحرقه، ثم اعتزلوها حتى خمدت النار.
ثم اشرفوا على الحائير فإذا إبراهيم عليه السلام سليما مطلقا من
وثاقه. فآخبر نمرود خبره، فأمرهم أن ينفوا إبراهيم عليه السلام من
بلادهم، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله فحاجهم إبراهيم عليه
السلام عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي فإن حقي عليكم أن
تردوا علي ما ذهب من عمري في بلادكم ! واختصموا إلى قاضي نمرود
فقضى على اصحاب نمرود أن يردوا على إبراهيم عليه السلام ماله !
وأخبر بذلك نمرود، فأمرهم أن يخلوا سبيله وسبيل ماشيته وماله
ويخرجوه وقال: إنه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم ! وأضر
بآلهتكم. فأخرجوا إبراهيم ولوطا عليهما السلام معه من بلادهم إلى
الشام. فخرج إبراهيم - ومعه لوط لا يفارقه - وسارة، وقال لهم " إنني
ذاهب إلى ربي سيهدين " يعني إلى بيت المقدس. فتحمل إبراهيم بماشيته
وماله، وعمل تابوتا وجعل فيه سارة وشد عليها الاغلاق غيرة منه عليها.
ومضى حتى خرج من سلطان نمرود، وصار إلى سلطان رجل من القبط
يقال له: عزارة، فمر بعاشر له فاعترضه العاشر ليعشر ما معه، فلما
انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لإبراهيم عليه السلام: إفتح
هذا التابوت لنعشر ما فيه، فقال له إبراهيم عليه السلام: قل ما شئت
فيه من ذهب أو فضة حتى نعطي عشره ولا نفتحه. فأبى العاشر إلا
فتحه، وغضب إبراهيم عليه السلام على فتحه. فلما بدت له سارة -

وكانت موصوفة بالحسن والجمال - قال له العاشر: ما هذه المرأة منك ؟ قال إبراهيم عليه السلام : هي حرمتي وابنة خالتي. فقال له العاشر: فما دعاك إلى أن خبيتها في هذا التابوت ؟ فقال إبراهيم عليه السلام : الغيرة عليها أن يراها أحد ! فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى اعلم الملك حالها وحالك. فبعث رسولا إلى الملك فأعلمه ، فبعث الملك رسولا من قبله ليأتوه بالتابوت ، فاتوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم عليه السلام : إنني لست افارق التابوت حتى يفارق روحي جسدي ! فاخبروا الملك بذلك ، فأرسل الملك: أن احملوه والتابوت معه. فحملوا إبراهيم عليه السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتى ادخل على الملك ، فقال له الملك: افتح التابوت ! فقال له إبراهيم عليه السلام : أيها الملك إن فيه حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع ما معي. فغضب الملك إبراهيم عليه السلام على فتحه ، فلما رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مد يده إليها ، فأعرض إبراهيم عليه السلام وجهه عنها وعنه - غيرة منه - وقال: اللهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي ! فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه ! فقال له الملك: إن إلهك هو الذي فعل بي هذا ؟ فقال له: نعم إن إلهي غيور يكره الحرام ، وهو الذي حال بينك وبين ما أردته من الحرام. فقال له الملك: فادع إلهك يرد علي يدي ، فإن أجابك فلن أعرض لها. فقال إبراهيم عليه السلام : إلهي رد إليه يده ليكف عن حرمتي ، قال: فرد الله عز وجل إليه يده. فأقبل الملك نحوه ببصره ثم عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه ، وقال: اللهم احبس يده عنها. قال: فبيست يده ولم تصل إليها. فقال الملك لإبراهيم عليه السلام : إن إلهك

لغيرور، وإنك لغيرور، فادع إلهك يرد إلي يدي، فإنه إن فعل لم أعد ! فقال إبراهيم عليه السلام : أسأله ذلك على أنك إن عدت لم تسألني أن أسأله ! فقال له الملك: نعم، فقال إبراهيم: نعم. فقال إبراهيم عليه السلام : اللهم إن كان صادقا فرد يده عليه. فرجعت إليه يده. فلما رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى، ورأى الآية في يده، عظم إبراهيم عليه السلام وهابه وأكرمه واتقاه، وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها أو لشئ مما معك فانطلق حيث شئت، ولكن لي إليك حاجة ! فقال إبراهيم عليه السلام : ما هي ؟ فقال له: احب أن تأذن لي أن اخدمها قبطية عندي جميلة عاقلة تكون لها خادما، فأذن إبراهيم عليه السلام فدعا بها فوهبها لسارة، وهى هاجرام إسماعيل عليه السلام . فسار إبراهيم عليه السلام بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم عليه السلام إعظاما لإبراهيم وهيبة له، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام : أن قف ولا تمش قدام الجبار المتسلط وهو يمشي خلفك، ولكن اجعله أمامك وامش خلفه وعظمه وهبه فإنه مسلط، ولا بد من إمرة في الأرض برة أو فاجرة ! فوقف إبراهيم عليه السلام وقال للملك: امض، فإن إلهي أوحى إلي الساعة: أن اعظمك وأهابك، وأن اقدمك أمامي وأمشي خلفك إجلالا لك ! فقال له الملك: أوحى إليك بهذا ؟ فقال إبراهيم عليه السلام : نعم. فقال له الملك: أشهد أن إلهك لرفيق حلیم كريم، وانك ترغبني في دينك ! وودعه الملك. فسار إبراهيم عليه السلام حتى نزل بأعلى الشامات وقد خلف لوطا عليه السلام في أدنى الشامات. ثم إن إبراهيم عليه السلام لما أبطأ عليه

الولد قال لسارة: لو شئت لبعثتني هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولدا فيكون لنا خلفا ؟ ! فابتاع إبراهيم عليه السلام هاجر من سارة فتزوج بها، فولدت إسماعيل عليه السلام . وروى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن أبيه عن هشام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إن إبراهيم عليه السلام كان نازلا في بادية الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غما شديدا لأنه لم يكن له منها ولد، فكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكى إبراهيم ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه، إنما مثل المرأة مثل الضلع الأعوج، إن تركتها استمعت بها وإن أقمته كسرتها. ثم أمره أن يخرج إسماعيل وامه، فقال: يا رب إلى أي مكان ؟ قال: إلى حرمي وأمني وأول بقعة خلقتها من الأرض وهي مكة. فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل. وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلا قال: يا جبرئيل إلى ها هنا ؟ إلى ها هنا ؟ فيقول: لا، امض، امض، حتى أتى مكة، فوضعه في موضع البيت. وقد كان إبراهيم عليه السلام عاهد سارة: أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجرة، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلوا تحته، فلما سترهم ووضعهم وأراد الانصراف منهم إلى سارة قالت له هاجر: يا إبراهيم لم تدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع ؟ ! فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم. ثم انصرف عنهم فلما بلغ كداء - وهو جبل بذي طوى - التفت إليهم

إبراهيم فقال: ❖ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ❖ ثم مضى وبقيت هاجر. فلما ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء، فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى ونادت: هل في الوادي من أنيس؟ فغاب عنها إسماعيل، فصعدت على الصفا ولمع لها السراب في الوادي وظنت أنه ماء وسعت، فلما بلغت المسعى غاب عنها، ثم لمع لها السراب في ناحية الصفا فعادت حتى بلغت الصفا، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فلما كان في الشوط السابع وهي على المروة نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه، فعادت حتى جمعت حوله رملا فزمته بما جعلته حوله فلذلك سميت زمزم. وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات، فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء فنظرت جرهم إلى تعكف الطير على ذلك المكان فاتبعوها حتى نظروا إلى امرأة وصبي في ذلك الموضع قد استظلوا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما. فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ فقالت: أنا ام ولد إبراهيم خليل الرحمن وهذا ابنه، أمره الله أن ينزلنا هنا. فقالوا لها: أيتها المباركة أفتأذني لنا أن نكون بالقرب منكما؟ فلما زارهم إبراهيم عليه السلام في اليوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الله إن ها هنا قوما من جرهم يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منا، أفتأذن لهم في ذلك؟ فقال إبراهيم: نعم. فأذنت، فنزلوا بالقرب منهم وضربوا خيامهم، فأنست هاجر ام إسماعيل بهم.

فلما زارهم إبراهيم في المرة الثالثة نظر إلى كثرة الناس حولهم فسر بهم سرورا شديدا. وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كل واحد منهم شاة وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها. فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت، فقال: يا رب في أي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبة فأضاء لها الحرم فلم تزل البقعة التي أنزلتها على آدم قائمة حتى كان طوفان نوح فلما غرقت الدنيا رفعت تلك القبة وغرقت الدنيا إلا موضع البيت. فبعث الله جبرئيل عليه السلام فخط له موضع البيت، وأنزل الله عليه القواعد من الجنة، ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، وبنى إبراهيم البيت فرفعه إلى السماء تسعة إذرع. وكان الحجر الذي أنزله الله على آدم أشد بياضا من الثلج، فاستخرجه إبراهيم عليه السلام ووضعه في موضعه الذي هو فيه. وجعل له بابين: بابا إلى المشرق وبابا إلى المغرب يسمى المستجار، ثم ألقى عليه الشجر والاذخر وعلقت هاجر إلى بابه كساء كان معها فكانوا يكونون تحته. فلما بناه وفرغ منه نزل عليهما جبرئيل عليه السلام يوم التروية لثمان مضين من ذي الحجة فقال: يا إبراهيم قم فارتو من الماء. لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسميت التروية لذلك، ثم أخرجته إلى منى فبات بها، ففعل به ما فعل بآدم عليه السلام. وروى علي بن إبراهيم القمي أيضا عن أبيه عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن إبراهيم عليه السلام أتاه جبرئيل عند زوال الشمس من يوم التروية فقال: يا إبراهيم ارتو من الماء لك ولأهلك - ولم يكن بين مكة وعرفات ماء -

فسميت التروية بذلك. فذهب به حتى انتهى به إلى منى فصلى به الظهر والعصر والعشائين والفجر، حتى إذا بزغت الشمس خرج إلى عرفات فنزل بنمرة، وهي بطن عرفة. فلما زالت الشمس خرج واغتسل فصلى الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، وصلى في موضع المسجد الذي بعرفات - وقد كانت ثمة أحجار بيض فادخلت في المسجد الذي بني - ثم مضى به إلى الموقف فقال: يا إبراهيم اعترف بذنبك، واعرف مناسكك. ولذلك سميت عرفة. فأقام به حتى غربت الشمس، ثم أفاض به فقال: يا إبراهيم اذلف إلى المشعر الحرام - فسميت المزدلفة - وأتى به المشعر الحرام، فصلى به المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين، ثم بات بها فرأى في النوم أنه يذبح ابنه... حتى إذا صلى بها صلاة الصبح أراه الموقف. ثم أفاض إلى منى فأمره فرمى جمرة العقبة عندما ظهر له إبليس لعنه الله، وأمر أهله فسارت إلى البيت، واحتبس الغلام، فانطلق به إلى موضع الجمرة الوسطى، فاستشار ابنه وقال -

كما حكى الله ❖ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ❖ فقال الغلام - كما حكى الله ❖ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ❖ . وأقبل شيخ فقال: يا إبراهيم ما تريد من هذا الغلام ؟ قال: أريد أن أذبحه ! فقال: سبحان الله ! تذبح غلاما لم يعص الله طرفة عين ! فقال له إبراهيم: ويلك إن الذي بلغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به !

فقال: لا والله ما أمرك بهذا إلا الشيطان ! فقال إبراهيم: لا والله لا اكلمك، ثم عزم إبراهيم على الذبح. فقال: يا إبراهيم إنك إمام يقتدى بك، وإنك إن ذبحته ذبح الناس أولادهم ! فلم يكلمه. وأقبل إلى الغلام فاستشاره في الذبح، فقال الغلام كما حكى الله: امض كما أمرك الله به، فلما أسلما جميعا لأمر الله قال الغلام: يا أبت خمر وجهي وشد وثاقي ! فقال إبراهيم: يا بني ! الوثاق مع الذبح ؟ لا والله لا أجمعهما عليك اليوم، فرمى له بقرطان الحمار ثم أضجعه عليه وأخذ المدينة فوضعها على حلقة، ورفع رأسه إلى السماء ثم انتحى عليه بالمدينة فقلب جبرئيل المدينة على قفاها وأثار الغلام من تحته، واجتر الكباش من قبل ثبير الجبل الذي عن يمين مسجد منى وكان أملح أغبر أقرن يمشي في سواد ويأكل في سواد، فوضعه مكان الغلام، ونودي من قبل مسجد الخيف ❖ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين ❖ . ولحق إبليس بام الغلام بحذاء البيت في وسط الوادي فقال لها: رأيت شيئا ومعه وصيف قد أضجعه الشيخ وأخذ المدينة ليذبحه ! فقالت: كذبت، إن إبراهيم أرحم الناس، كيف يذبح ابنه ! قال: فورب السماء والأرض ورب هذا البيت، لقد رأيتته أضجعه وأخذ المدينة !

فقالت: ولم ؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. فوقع في نفسها أنه قد امر في ابنها بأمر، فقالت: فحق له أن يطيع ربه. ولما قضت مناسكها أسرع في الوادي راجعة إلى منى. . وما جاء في خبر علي بن إبراهيم

القمي عن الإمام الصادق عليه السلام : أن الكعبة كانت قبل طوفان نوح قبة ضربها آدم عليه السلام بموضع البيت، يؤيده ما جاء في الخطبة المعروفة بالقاصعة للإمام علي عليه السلام انه قال: " ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم - صلوات الله عليه - وإلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما. ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا وأقل نتائق الدنيا مدرا، وأضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنة ورمال دمثة، وعيون وشلة وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف. ثم امر آدم وولده: أن يثشوا اعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنجع اسفارهم وغاية للتعقير رحالهم، تهوى إليه الأفئدة من مفاوز سحيقة.. ". ولعل هذا هو معنى قوله تعالى ❖ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ❖ فان رفع القواعد يفيد انها كانت قد وضعت قبل ذلك وإن إبراهيم هو الذي رفعها وشيد على أساسها وإن لم تكن بقيت بعد طوفان نوح، حيث قرأنا في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن جبرئيل هو الذي دل إبراهيم عليه السلام على موضع البيت. وحيث لاحظ إبراهيم عليه السلام أن البيت قد وضع في بقعة يصعب فيها الحياة قال: ❖ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ❖ . واستجيبت دعوته فاصبحت الكعبة

قبلة المسلمين ومهوى أفئدة المؤمنين. شبه الجزيرة العربية مهد الحضارة الإسلامية: هي شبه جزيرة كبيرة تقع في جهة الجنوب الغربي من آسيا، تقدر مساحتها بثلاثة ملايين كيلومتر مربع، وهذا يعني أنها أكبر من مساحة إيران مرتين، وأكبر من فرنسا ست مرات، وأكبر من إيطاليا عشر مرات، وأكبر من سويسرا ثمانين مرة. وهي شبه جزيرة مستطيلة غير متوازية الأضلاع تحدها من شمالها الشام وفلسطين، ومن شرقها أرض الرافدين من الكوفة إلى البصرة ثم خليج فارس - كما كان يسمى - ومن جنوبها خليج عدن والمحيط الهندي، ومن غربها البحر الأحمر. فهي محصورة من جنوبها وغربها وقسم من مشرقها بالبحار وفي قسم آخر من مشرقها وشمالها ببادية الشام أو الأردن والعراق.

وقد قسموها قديماً إلى ثلاثة أقسام:

- ١ - القسم الشمالي والغربي وهو الحجاز.
- ٢ - القسم الشرقي والمركزي وهو المسمى بالصحراء العربية.
- ٣ - القسم الجنوبي وهو اليمن. وفي شبه الجزيرة صحاري رملية حارة واسعة غير قابلة للسكنى لكثيرة منها: صحراء النفوذ، والربع الخالي الذي يمتد حتى حواشي الخليج الفارسي. وقديماً كان يسمى قسم منه بصحراء الدهناء والقسم الآخر بالأحقاف. وهذه الصحاري تشكل أكثر من ثلث الجزيرة غير المسكون بلا ماء ولا كلاً إلا ما قد يوجد فيها من آثار الأمطار فيرعى حولها بعض العرب ابلهم لفترة غير طويلة. والجو فيها حار جداً، وجاف كذلك إلا في بعض السواحل، وبعض

النقاط المعتدلة نسبيا. ولذلك لا يتجاوز عدد نفوسها بمجموعها عن عشرين مليوناً تقريبا. وكانت جبال اليمن قديماً تحتوي على الأحجار الكريمة وشئ من الذهب والفضة، وغالبا ما كانوا يكتفون من تربية الحيوانات بالابل والخيول، ومن الطيور كان أكثر ما عندهم النعام والحمام. وفي الجزيرة جبال تمتد من الجنوب إلى الشمال آخر حد لارتفاعها ٢٤٧٠ مترا. ونشرح هذه الأقسام الثلاثة من الجزيرة فيما يلي:

١ - أما الحجاز، وهو القسم الشمالي والغربي للجزيرة، فهو يمتد من الأردن إلى اليمن في سواحل البحر الأحمر، وهي أراضي جبلية صخرية تتخللها صحاري قاحلة. ولهذه المنطقة ذكر في التأريخ أكثر من غيرها وذلك لاشتمالها على الكعبة المعظمة. الكعبة المعظمة ومكة المكرمة: "وقد كانت الكعبة مقدسة معظمة عند الأمم المختلفة: فكان اليهود يعظمونها ويقولون: إن روح سيفا - وهو الاقنوم الثالث عندهم - حلت في الحجر الأسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز. وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعبدونها أحد البيوت السبعة المعظمة، وربما قيل: إنه بيت زحل عندهم لقدم عهده وطول بقائه. وكان سائر الفرس يحرمونها أيضا زاعمين أن روح هرمز قد حل فيها، وربما حجوا إليها زائرين. وكان اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم، وكان بها صور وتمائيل، منها تمثال إبراهيم وإسماعيل وبايديهما الأزام، ومنها صورة المسيح وامه، وهذا يشهد بتعظيم النصارى لها أيضا. وكان العرب يعظمونها أيضا كل التعظيم ويحجون إليها على أنها بيت الله بناها إبراهيم". ومدينة مكة من أشهر مدن العالم، وأكثر مدن الحجاز

نفوسا. وهي ترتفع عن سطح البحر ٣٠٠ مترا تقريبا. عدد نفوسها اليوم ١٥٠ الفا تقريبا. وتربتها غير زراعية. وللحجاز ميناءان على البحر الاحمر: احدهما: جدة ، وهي ميناء مكة والاخرى: ينبع، وهي كانت ميناء أهل المدينة المنورة سابقا، واليوم اصبحت جدة هي الميناء الرئيسي في الحجاز. وفي الحجاز من المدن المهمة بعد مكة: المدينة، والطائف. المدينة المنورة: وهي تقع في شمال مكة على بعد خمسمائة كيلومتر تقريبا. وفي حوالها نخيل وبعض البساتين لصالح تربتها للزراعة نسبيا. وكان اسمها قبل الإسلام يثرب، وبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وآله إليها سميت: مدينة الرسول، وحذف المضاف إليه تخفيفا ف قيل: المدينة. ويقال: إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي على اثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على إثر ضغوط القيصر نينوس عليهم وهدمه لهيكلهم سنة ٧٠ م وكذلك اصطدام القيصر هوريان بهم سنة ١٣٢ م ففي هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز . ونرى أن الحجاز منطقة جرداء تقريبا لا تصلح للزراعة والعمل، فهي لا تصلح للسكنى والحياة... وهذا قد جعل المنطقة في مأمّن من فرض السيطرة عليها من قبل الدولتين العظميين آنذاك: الروم والفرس، ولذلك لا نرى لهم أي أثر فيها، إذ لم يكن لهم أي مغنم في تجهيز الجيوش إليها، فهم ان فعلوا ذلك كان عليهم أن يرجعوا عنها خائبين خاسرين. وقد نقل بعض المؤرخين اليونانيين: أن القائد اليوناني الكبير: دمريوس، عزم على تسخير الجزيرة حتى وصل إلى قرية: پترا

- ولعلها ماء بدر - فقال له أهلها: أيها القائد اليوناني ! لماذا تحاربنا ؟
فنحن نعيش في صحاري ليس فيها أي شئ للعيش، وقد اخترنا هذه
الصحاري القاحلة الجرداء كي لا ندعن لأمر احد، فاقبل هدايانا
وانصرف عنا. والا فنحن نعلمك أنك ستصاب بمصائب عظيمة ومشاكل
كثيرة: واعلم أن أحدنا لا ينفك عما هو عليه من الخلق والعادة، فلو
تقدمت فينا وأسرت منا اناسا تريد أن تذهب بهم فإنك لن ترى نفعا فيهم
فإنهم سوف يقابلونكم بسوء الأعمال والنيات لا يغيرون شيئا مما هم
عليه ! فقبل القائد اليوناني هداياهم وانصرف عن تسخير الجزيرة . -
القسم المركزي والشرقي من الجزيرة يسمى الصحراء العربية وفيها
صحراء النجد، وهي أراضي مرتفعة نسبيا وفيها قرى عامرة كذلك،
منها " الرياض " التي أصبحت في سلطة آل سعود عاصمة لهم، وهي الآن
مدينة كبيرة. ٣ - القسم الجنوبي الغربي للجزيرة يسمى: اليمن،
طولها من الشمال إلى الجنوب يقرب من سبعمائة وخمسين كيلومتر،
ومن الغرب إلى الشرق يقرب من اربعمائة كيلومتر، وتقرب مساحتها من
ستين ألف ميل مربع، في جنوبها مدينة: عدن، وهي اكبر مدن اليمن،
ويحدها من الشمال صحراء نجد ومن المشرق صحراء الربع الخالي، ومن
المغرب البحر الاحمر، وأكبر موانئها ميناء: الحديدية. واليمن هي
اخصب نقاط الجزيرة واكثرها بركة ونعمة، ولها تأريخ حضاري
عظيم، فهي مملكة التبابعة الذين حكموها سنين طويلة. وكانت
المركز التجاري المهم ومفترق الطرق، وبها الاحجار الكريمة والذهب
والفضة. وبها آثار حضارية ما زالت باقية حتى اليوم. وهذا يعني أن عرب

اليمن كانوا قد بنوا هذه الاثار المهمة بهمهمم العالية في عهد لم تتوفر فيه الامكانيات لهذه الاعمال الضخمة. وكانوا قد تقدموا في الزراعة والري إلى حد تقرير البرامج المقررة والمنفذة حكوميا بدقة. فمن آثارهم التاريخية ذلك السد المعروف بسد مأرب، والذي ما زالت آثاره باقية، وهو الذي تهدم بالسيل الذي اطلق عليه القرآن الكريم قوله سبحانه ❖ فأرسلنا عليهم سيل العرم ❖ وذلك حيث قال تعالى ❖ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين .

وفي سورة قريش إشارة إلى تجارتهم في الصيف إلى اليمن ❖ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ❖ يقول جرجي زيدان: " إن الآثار التي ظهرت من الحفريات الاثرية للمستشرقين تدل على الحضارة الراقية في اليمن من سد مارب وفي صنعاء، ومدينة بلقيس. وكانت في مدينة مأرب وهي مدينة سبأ قصور عالية قد زينت ابوابها وسقوفها

بالذهب، ووجد بها أوان من الذهب والفضة، وسرر معدنية كثيرة " ٢ .
وروى الشيخ الطبرسي عن فروة بن مسيك قال: سألت رسول الله صلى
الله عليه وآله عن سبأ أرجل هو أم امرأة ؟ فقال هو رجل من العرب ولد
عشرة، تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة
ومذحج والأشعريون وأنمار وحمير. فقال رجل من القوم: ما أنمار ؟ قال:
الذين منهم خثعم وبجيله، وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم
وغسان . وفي " الكافي " بإسناده عن سدير: قال: سأل رجل أبا عبد الله
عليه السلام عن قول الله عز وجل: ❖ قالوا ربنا باعد بين أسفارنا
وظلموا أنفسهم ❖ الآية، فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر
بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا نعم الله عز
وجل وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله فغير الله ما بهم من نعمة، ❖ إن
الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ❖ فأرسل الله عليهم سيل
العرم، فغرق قراهم وخرب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان
جنانهم ❖ جنتين ذواتي اكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ❖ ثم قال:
❖ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ❖ . وقوم سبأ
من العرب العاربة باليمن، سمو باسم أبيهم سبأ بن يشجب ابن يعرب بن
قحطان، كما نقل رواية التاريخ. العرب قبل الإسلام: أ - العرب
البائدة: لا ريب في أن جزيرة العرب كانت موطن قبائل كثيرة من العرب
منذ القدم، وقد باد بعضهم على اثر حوادث خاصة سماوية وارضية،
وذلك لاعراضهم عن ذكر الله كما قال تعالى في قوم سبأ: ❖
فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم... ذلك جزيناهم بما كفروا وهل

نجازي إلا الكفور... وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق... ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه ❖ ولذلك سمي هؤلاء بالبائدة. ولعل منهم قوم عاد المعاد ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة وقوم ثمود المكرر ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من خمس وعشرين مرة. ب - عاد قوم هود عليه السلام : أما عاد فإنهم قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم، ولا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يطمأن إليها، وليس في التوراة الموجودة ذكر لهم. والذي يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو: أن عادا كانوا يسكنون وادي أو صحراء الأحقاف وهو واد بين عمان وأرض مهرة إلى حضرموت والأحقاف هي الرمال الملتوية. وأنهم من ذرية من حملهم الله مع نوح عليه السلام وكانوا ذوي خلقة قوية عظيمة وطوالا وكان لهم تقدم ورقي في المدنية والحضارة، ولهم بلاد عامرة وأرض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم وبعث الله فيهم أخاهم هودا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إلى أن يعبدوا الله ويرفضوا عبادة الاوثان ويعملوا بالعدل والرحمة ، فبالغ في عظهم وبث النصيحة فيهم وأنار الطريق وأوضح السبيل، وقطع عليهم العذر، فقابلوه بالاباء والامتناع، وواجهوه بالجحد والانكار، ولم يؤمن به إلا شردمة منهم قليلون، وأصر جمهورهم على البغي والعناد، ورموه بالسفه والجنون، والحوأ عليه بان ينزل عليهم العذاب الذي كان ينذرهم ويتوعدهم به، فأرسل الله عليهم العذاب وأرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شئ أتت عليه الا جعلته كالرميم كانت تنزع الناس كأنهم

أعجاز نخل منقعر ، ريحا صرصرا في أيام نحسات سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . فأهلكهم الله جميعا إلا هودا والذين آمنوا معه ولعله لهذا يسمى عادا المهلكة بعاد الاولى، والثانية هي الباقية منهم . ج - ثمود قوم صالح عليه السلام : وأما ثمود فهم قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام، وهم من بشر ما قبل التاريخ أيضا لا يضبط التاريخ إلا شيئا يسيرا من أخبارهم، ولقد عفت الدهور آثارهم، ولا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم. والذي يقصه كتاب الله من أخبارهم هو: أنهم كانوا أمة من العرب يدل عليه اسم نبيهم صالح عليه السلام وهو منهم جاءوا بعد قوم عاد ، وكانت لهم حضارة ومدنية، يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصورا ويتخذون من الجبال بيوتا آمين ، ويفجرون العيون ويحرثون ويفرسون جنات النخيل ، وكان في مدينتهم شعوب وقبائل يتحكم فيهم شيوخهم وسادتهم، وفيهم تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون فلما أسرفوا في أمرهم أرسل الله إليهم صالحا النبي عليه السلام ، وكان من بيت الشرف والفخار معروفا بالعقل والكفاءة فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وأن يتركوا عبادة الأصنام وأن يسيروا في مجتمعهم بالعدل والاحسان وأن لا يظنوا ولا يسرفوا فقام بالدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر على الأذى في جنب الله، فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة من الضعفاء . أما الطغاة والمستكبرون وعامة من تبعهم فقد أصروا على كفرهم واستدلوا الذين

آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر وطلبوا منه البينة على كلامه وسألوه آية معجزة تدل على صدقه في دعوى الرسالة، واقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة، فأتاهم بناقة على ما وصفوها له، وقال لهم: إن الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوما وتكفوا عنها يوما فتشربها الناقة، فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، وأن تذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب وكان الأمر على ذلك حيناً. ثم إنهم مكروا وطغوا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فعقرها. وقالوا لصالح: إئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال صالح عليه السلام: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. ثم مكرت شعوب المدينة وأرهاطها بصالح ❖ تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ❖ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ❖ فأصبحوا في دارهم جاثمين ❖❖ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ❖ . وفي " الكافي " بسنده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ❖ كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ❖ . قال: بعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه وعتوا عليه وكانت صخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها. فقالوا: إن كنت تزعم نبياً رسولا فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء أي ذات حمل في الشهر العاشر فأخرجها الله كما طلبوا منه و أوحى الله تبارك وتعالى إليه: أن يا صالح قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة شرب يوم ولكم شرب يوم. فكانت الناقة إذا كان

يومها شربت الماء ذلك اليوم، فيحبسونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله. ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم. ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب؟ فجاءهم رجل أحمر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب، يقال له: قدار، شقي من الأشقياء مشؤم عليهم فجعلوا له جعلاً. فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف فلم يعمل شيئاً فضربها ضربة أخرى فقتلها، وخرت على الأرض على جنبها وهرب فصيها حتى صعد إلى الجبل، فرغا ثلاث مرات إلى السماء وجاء قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلا شركه في ضربته واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها. فلما رأى صالح أقبل إليهم وقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ أعصيتم أمر ربكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام: أن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم، ولم يكن لهم فيها ضرر، وكان لهم أعظم المنفعة، فقل لهم: إنني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا قبلت توبتهم وصدت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث. فأتاهم صالح وقال: يا قوم إنني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم: إن تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم. فلما قال لهم ذلك كانوا

أعتى وأخبث ❖ وقالوا يا صالح أتنتا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ❖ قال: يا قوم إنكم تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني وجوهكم محمرة، واليوم الثالث وجوهكم مسودة. فلما كان أول يوم أصبحوا ووجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا قد جاءكم ما قال صالح. فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيما. فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، ولم يتوبوا ولم يرجعوا، فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح. فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح. فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم، فماتوا جميعا في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم، ولم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شئ إلا أهلكه الله، وأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى، وأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين - القحطانيون: هم أبناء يعرب بن قحطان الذين كانوا يسكنون اليمن وجنوب جزيرة العرب، ويسمون بالعرب العاربة أيضا. واليمنيون اليوم بصورة عامة والأوس والخزرج هم من نسل قحطان. وقد سبق أن قوم سبأ أيضا كانوا من نسل قحطان، وكانت لهم حكومات ومساع عمرانية وحضارية أثرية ولهم خط يسمى بالخط المسند. وكل ما يقال عن حضارة العرب قبل الإسلام فإنما هو

من هؤلاء في اليمن. - العدنانيون: وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام الذي قد تبين لنا أنه امر بأن يذهب بابنه إسماعيل وامه هاجر إلى أرض مكة، فسار بهم إبراهيم عليه السلام من أرض فلسطين إلى بطن واد منخفض بلا ماء ولا كلاً باسم مكة، فأجرى الله لهم ماء زمزم. وكبر إسماعيل فتزوج من قبيلة جرهم الذين استأذنوا إبراهيم أن يسكنوا مكة فأذن لهم، فكان لإسماعيل نسل كثير، ومن أحفاده عدنان، وقد تفرعت منه فروع عديدة أشهرها قبيلة قريش ومنهم بنو هاشم. أخلاق العرب قبل الإسلام: ونعني بالأخلاق هنا تلك الآداب الإجتماعية التي كانت رائجة بينهم قبل الإسلام. وبصورة عامة نستطيع أن نلخص الخصال المحمودة العامة للعرب في بضعة سطور فنقول: إن عرب الجاهلية - ولا سيما العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام - كانوا بالطبع أسخياء يكرمون من استضافهم، ولا يخونون أماناتهم إلا قليلا، ويرون نقض العهد ذنبا لا يغتفر، وكانوا صريحين في أقوالهم، أقوياء في حفظهم، أقوياء في فنون من الشعر والخطابة، يضرب بهم المثل في شجاعتهم وجرأتهم، مهرة في ركض الخيل والرمي، يرون الفرار من الزحف عارا لا يغتسل. وفي مقابل هذه الصفات كانوا قد تلوثوا من مساوئ الأخلاق بما يذهب بكل كمال من هذه الخصال ولولا أن تداركهم رحمة من ربهم بأن بعث فيهم رسولا من انفسهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، لما كنا نعيش اليوم نسلا من عدنان، بل كانوا قد التحقوا بالعرب البائدة، وكانت تتجدد قصة اخرى عن هؤلاء البائدين. إن شيوع الجهل والخرافات

والفساد فيهم كان قد قرب حياتهم من حياة الحيوانات، بحيث ينقل لنا التاريخ قصصاً متعددة عن حروب امتدت خمسين سنة بل مائة، ولم تبدأ إلا على مواضع حقيرة لا يعبأ بها. إن عدم وجود حكومة متنفذة بينهم تضرب على أيدي الطغاة والبلغاة من ناحية، ومن ناحية أخرى سوء الوضع الجغرافي للجزيرة من حيث الماء والكأ، كانا عاملين جعلاً أكثر العرب من البدو الرحل يجوبون الصحاري برواحلهم كل عام سعياً وراء الماء والكأ، وإذا رأوا أثراً منهما نصبوا خيامهم حولها، وإذا علموا - أو أخبرهم رائدهم - بمكان أنفع مما هم فيه بدأوا الرحلة من جديد. إن الجهل والفقر وفقدان النظام كان قد خيم على بيئة الجزيرة العربية بصورة ظاهرة بحيث أصبحت لهم تلك العادات القبيحة أموراً اعتيادية، فكثرت فيهم الغارات، وأسر بعضهم، وتداول فيهم الربا والخمر والميسر. أنهم كانوا يثنون على المروءة ويمجدون بالشجاعة، لكن مفهوم الشجاعة لديهم كان عبارة عن قتل أكبر عدد ممكن وسفك الدماء أكثر فأكثر. وكذلك الغيرة كانت لديهم بمعنى وأد البنات في القبور وهن أحياء. ويرون الوفاء أن ينصروا عشيرتهم وحلفاءهم في كل شئ سواء كانوا على حق أم باطل. لا يسألون أخاهم حين يندبهم ❖ في النأبات على ما قال برهاننا هل كانت للعرب حضارة قبل الإسلام ؟ لا شك أنه كانت هناك في جزيرة العرب بعض الحضارات، إلا أنها لم تكن في كل الجزيرة بل عدة نقاط منها، كحضارة قوم سبأ أصحاب سد مأرب في اليمن، فإنها حضارة لا تنكر، فضلاً عما ذكر عنها في التوراة الحاضرة وما نقل عن " هرودوت " و " ارتميدور " المؤرخين

اليونانيين قبل الميلاد ، نرى المؤرخ الشهير المسعودي يقول في وصفها: " ذكر أصحاب التاريخ القديم: أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغيطانا وأفسحها مروجا ، مع بنيان حسن وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثمة وأنهار متفرقة. وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحالة ، وفي العرض مثل ذلك ، وإن الراكب والمار كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية. واستيلائها عليها وإحاطتها بها. وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه ، وأهنأ حال وأرغد قرى ، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفق الماء ، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم في الأرض مثالا ، وكانوا على طريقة حسنة من اتباع شريف الأخلاق ، وطلب الأفضال بحسب الإمكان وما توجبه القدرة من الحال ، فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قصموه ، ولا يوافقهم جبار في جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، وأذعن لطاعتهم العباد ، فصاروا تاج الأرض " . إلا أن وجود هذه المستندات لا تدلنا على حضارة تسود كل أقطار الجزيرة العربية ، ولا سيما منطقة الحجاز التي لم تكن تتمتع بهذه الحضارة بل لم تشم شيئا من نسيماها ، وهذا هو الذي جعلها مصونة عن تصرف المتصرفين بالبلاد ، فلم يتوجه إليها نهم الروم والفرس اللذين كانا يقتسمان العالم آنذاك. والمقطوع به هو أنه لم يبق من هذه الحضارة حين ظهور الإسلام شئ يذكر. ونحن هنا نأتي بذكر قصة أسعد بن زرارة الخزرجي ، التي

تبين لنا نقاطا كثيرة من حياة الناس في الحجاز: روى الشيخ الطبرسي في كتابه " إعلام الوري بأعلام الهدى " عن علي بن إبراهيم أنه قال: " كان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهورا طويلة ، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار ، وكان آخر حرب بينهم يوم بغات وكانت للأوس على الخزرج ، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس ، وكان أسعد بن زرارة صديقا لعتبة بن ربيعة ، فنزل عليه فقال له : إنه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم. فقال عتبة: بعدت دارنا عن داركم ولنا شغل لا نتفرغ معه لشئ ! قال : وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم ؟ قال عتبة: خرج فينا رجل يدعي أنه رسول الله ، سفه أحلامنا وسب آلها وأفسد شبابنا وفرق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم ؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفا وأعظمنا بيتا. وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم - النظير وقريظة وقينقاع - : إن هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة بالمدينة ، لنقتلنكم به يا معشر العرب. فلما سمع أسعد ما سمع من عتبة وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود ، وقال: فأين هو ؟ وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب فقال عتبة: إنهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم ، وها هو جالس في الحجر ، فلا تسمع منه ولا تكلمه فإنه ساحر يسحرك بكلامه. فقال أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي

أن أطوف بالبيت ؟ فقال: ضع في اذنيك القطن. فحشا أسعد في اذنيه
 القطن ودخل المسجد ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني
 هاشم، فطاف أسعد بالبيت ونظر إلى رسول الله نظرة وجازه، فلما
 كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل مني ! أيكون مثل
 هذا الحديث بمكة فلا نعرفه حتى أرجع إلى قومي فاخبرهم ؟ ! فأخذ
 القطن من اذنيه ورمى به وقال لرسول الله: أنعم صباحا ! فرفع رسول
 الله رأسه إليه وقال: قد ابدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل
 الجنة: السلام عليكم. فقال أسعد: إن عهدك بهذا لقريب ! إلام تدعو ؟
 يا محمد ! قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأدعوكم
 ❖ أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من
 إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن
 ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم
 تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا
 الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قتلتم فاعدلوا ولو
 كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ❖
 . فلما سمع أسعد هذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
 وأنت رسول الله. كانت هاتان الآيتان من سورة الأنعام تتضمنان الداء
 والدواء لامة متحاربة جاهلة، ولذلك خلفت أثرا عميقا في قلب أسعد
 وذكوان الخزرجين فأسلما فورا " ثم قال: يا رسول الله ! ابعث معنا
 رجلا يعلمنا القرآن ويدعو الناس إلى أمرك. فأمر رسول الله صلى الله
 عليه وآله مصعب بن عمير بالخروج معهما، فخرج هو معهما إلى المدينة

حتى قدموا على قومهم " . إن النظر في مفاد هاتين الآيتين يغنيانا عن أي بحث آخر عن أوضاع العرب قبل الإسلام، فإن هاتين الآيتين تبينان ما كان يسود حياة العرب في الجاهلية من الأمراض الخلقية المزمنة، وإن مضمون هاتين الآيتين شاهد على ابتلاء العرب بجميع هذه الأوصاف الرذيلة، ولهذا تلاهما رسول الله على أسعد في أول لقائه به وبذلك عرفه برسالته.

الدين في جزيرة العرب: إن آيات القرآن الكريم تشير إلى أرباب العرب وآلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم، والقرآن ❖ أحسن القصص ❖ وفيه الكفاية: قال عز وجل: ❖ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ❖ . وإذا كانت إيران قد اتخذت الزرادشتية المجوسية دينا رسميا لها طلبا للإستقلال العقائدي عن الروم المسيحية ، وهما في حرب دؤوب، فطبيعي أن تحاول إيران نشر عقيدتها الثوية بالإلهين: إله الخير وإله الشر بين الشعوب المغلوبة المستعمرة لها من حولها، فتتنشى المجوسية في بعض القبائل العربية من تميم والبحرين وعمان واليمن ونحن نعلم أن المجوس ثنويون يؤمنون بالإلهين يدبران العالم فللخير يزدان وللشر اهريمن ولهما رمزان فليزدان الخير النور، ولاهريمن الشر الظلمة. أما أكثر العرب في الجاهلية فكانوا وثنيين يؤمنون بقوى الهية كثيرة منبثة في

مظاهر الطبيعة، وبقوى خفية كثيرة في بعض الحيوانات والنباتات وحتى الجمادات، فكانوا يتعبدون لأصنام وحتى أوثان كثيرة اتخذوها رمزا لتلك الآلهة ومنها الكواكب والنجوم. فكان عرب الجنوب في اليمن يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس هو: القمر، واسمه عند المعينيين أوائل الألف الأول قبل الميلاد ود، وكان إلههم الأكبر، وهو الزوج الذكر، ولذلك لفظه مذكر. وتليه الشمس، وهي اللات، وفيها تاء الإناث، ولذا اعتبروها زوجة القمر ولذلك لفظها مؤنث ! ومنها ولدت العزى أي الزهرة أو عشتار، أو فينوس بالرومية، أو ناهيد بالفارسية. ولهم الهات أخرى رمز عن بعض النجوم أو بعض مظاهر الطبيعة أو بعض الطيور، وكانوا قد بنوا عليها الهياكل ويقدمون لها القرابين ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير. وقوافل التجارة والهجرة كانت متبادلة بينهم وبين عرب الشمال العدنانيين أو النزاريين الحجازيين فحملوا دينهم معهم إليهم . وأشار القرآن الكريم إلى عبادتهم للشمس في قوله سبحانه حكاية عن الهدد من طيور سليمان بن داود، إذ تفقدها وكان الهدد غائبا فلم يره ❖ فمكث غير بعيد ❖ إذ جاء، ❖ فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم... وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ❖ ٣. ويضيف القمر في آية أخرى تخاطب العرب المشركين: ❖ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ❖ . ومن قبل أضاف إليهما الكوكب فيما حكاه عن خليله إبراهيم عليه السلام قال: ❖ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ❖ ولعله كان عشتار الزهرة ، ولعل الليلة كانت

من أواخر الشهر القمري إذ يظهر القمر متأخرا فبدأ بالكوكب ثم قال: ❖ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ❖ فالليلة كانت من أوائل العشر الأخيرة من الشهر القمري إذ يظهر القمر متأخرا ثم يأفل ولا يبقى حتى الصباح، ولما بزغت الشمس صباحا ❖ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ❖ ولعله بهذا يعترض على تقديمهم للقمر الأصغر على الشمس الأكبر ❖ فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون ❖ . ولعل شرك هؤلاء الصابئة البابليين هو منشأ شرك أهل اليمن ثم الحجاز . أما الهدد فطبيعي أنه إنما اهتدى إليهم نهارا فوجدهم يسجدون للشمس، ولم يذكر القمر والزهرة ولم يفهما. وقد أشار القرآن الكريم إليها بأسمائها المعينية اليمنية لدى النزاريين الحجازيين مع خمسة آلهة أخرى لهم، في آيتين من سورتين هما قوله سبحانه: ❖ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ❖ ثم أشار إلى انوثتهما لديهم فقال: ❖ ألكم الذكر وله الأنثى ❖ . والآية الأخرى من سورة نوح وعن لسانه عليه السلام ❖ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبيرا وقالوا لا تدرن آلهمكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ❖ ثم لم يجعلها إناثا بل ذكرها في الضمير إليها فقال: ❖ وقد أضلوا كثيرا ❖ ثم حكى دعاء نوح عليهم قال: ❖ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ❖ . إذن فلغة ود رجعت إلى أقدم من المعينيين باليمن أوائل الألف الأول - ق م وإلى أقدم من قوم إبراهيم ببابل العراق أوائل الألف الثالث ق م إلى ما

قبل الطوفان أوائل الألف الرابع ق م ومن حيث المكان قرب مكان إبراهيم ببابل العراق في الكوفة ولذلك نقل الطوسي في " التبيان " عن الضحاك وابن زيد وقتادة عن ابن عباس قال: هذه الاصنام المذكورة كان يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب فيما بعد ونقله الطبرسي في " مجمع البيان " وفي تفصيله نقل عن ابن عباس أيضا قال: نحت إبليس خمسة أصنام وحمل الكفار فيما بين آدم ونوح على عبادتها، وهي: ود وسواع ويعوق ويعوث ونسر. فلما كان الطوفان دفن تلك الأصنام وطمها بالتراب فلم تزل مدفونة، حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب: فاتخذت قضاة ودا فعبدوه بدومة الجندل، توارثوه حتى صار إلى كلب. وأخذ بطنان من طي يعوث فذهبوا به إلى مراد فعبدوه زمانا، ثم إن بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم ففروا به إلى بني الحرث بن كعب، فجاء الإسلام وهو عندهم. وأما يعوق فكان لكهلان اليمن ثم توارثوه حتى صار إلى همدان اليمن فجاء الإسلام وهو فيهم. وأما نسر فكان لخنعم اليمن يعبدونه. وسواع كان لآل ذي الكلاع الحميري اليمني يعبدونه. وفي كيفية حمل إبليس لأولئك الأوائل على عبادتها نقل عن محمد بن كعب القرظي قال: هذه أسماء قوم ممن كان بين آدم ونوح صالحين، فلما ماتوا ونشأ نسلهم بعدهم قال لهم إبليس: لو صورتم صورهم، ففعلوا وكانوا يقصدونها، فلما ماتوا ونشأ نسلهم بعدهم قال لهم إبليس: إن الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونها، فعبدوها فكان ذلك مبدأ عبادة الأوثان. أما الآيات فقد أشارت إلى أن عبادتها كانت مكرا مكرا أصحاب الأموال والأولاد، ولعله لاستثمار الضعفاء منهم. ولعل في الفصل

بين الآلهة وهذه الأصنام في قوله: ❖ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا
ولا... ❖ إشارة إلى أنهم جعلوا هذه الأصنام رموزاً للآلهة لا نفسها. ثم نقل
الطبرسي عن قتادة قائمة بنسبة أكثر من هذه الأصنام الخمسة إلى
قبائل العرب قال: إن أوثان قوم نوح صارت إلى العرب، فكان ود بدومة
الجنديل. وسواع برهاط لهذيل. وكان يغوث لمراد اليمن وكان يعوق
لهمدان اليمن وكان نسر لآل ذي الكلاع من حمير اليمن وكان
اللات لثقيف، وأما العزى فلسليم وغطفان وجسم ونضر وسعد، وأما
مناة فكانت لفيدي، وأما أساف ونائلة وهبل فلأهل مكة: كان أساف
حيال الحجر الأسود، وكانت نائلة حيال الركن اليماني وكان هبل في
جوف الكعبة. ونقل عن الواقدي قال: كان ود على صورة رجل، وسواع
على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر
على صورة نسر من الطير. ويقال إن اللات كانت صخرة مربعة بيضاء
بنت عليه ثقيف بيتا، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه وكعبتها
هي كعبة الطائف ولذلك نرى في أسمائهم: وهب اللات وعبد شمس.
وكانت مناة - الهة الموت والآجال والأعمار والأقذار - صخرة
منصوبة على ساحل البحر بين مكة والمدينة في هذيل وخزاعة، وكان
الأوس والخزرج يحجون إلى مكة ويقفون مع الناس المواقف الثلاثة
ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم، ولا يرون تمام حجتهم إلا أن ينصرفوا إلى
مناة فيحلقوا رؤوسهم عندها. وكانت العزى شجرة بوادي نخلة شرقي
مكة إلى الطائف لغطفان، حتى قطعها الإسلام. ومن تشويبتهم في
وتشيتهم ما تدل عليه معاني: يعوق ويغوث وسواع، ففي الأخير ما يدل على

أنه كان إله الهلاك والشر، وبإزائه يعوق أي يكون عائقا عنه، ويغوث أي يغيث منه . ولعلها في أصلها مقتبسة من ثنوية المجوسية، ولا سيما أنهم كانوا يقدمون قرابين النيران، ويوقدون لها لاستمطار السماء والاستسقاء، وعند عقد أيمانهم وأحلافهم . وكان هبل من عقيق أحمر على صورة إنسان، يده اليمنى من ذهب. والقداح أمامه، فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرا أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده فما خرج انتهوا إليه وعملوا به، ومنه، فعل عبد المطلب لذبح ابنه عبد الله. ومنها للزواج، ومنها للمواليد، فإذا شكوا في مولود أهدوا إليه هدية ثم ضربوا بسهام الأرزلام القداح فإن خرج الصريح كان الوليد صريحا في نسبه وأما إذا خرج ملصق دفعوه . ومن الأصنام المشهورة: ذو الخلصة، وهو صنم خثعم وبجيلة وأزد السراة، وكان صخرة بيضاء عند منقوطة مروة منقوش عليها كهية التاج، وكان في تبالة وله بيت يحجون إليه ولا يخفى أن تركيب اسم الصنم ذو الخلصة يمني وكعبتها هي الكعبة اليمانية. وكان في حاضرة إمارة النبط ق ٣ م - ق ٢ م في " سلع " كما جاء في التوراة: أو " بطرا " كما هو اسمها لدى اليونان ولعله ترجمة يونانية لسلع العبرية أو السريانية معبد كبير لصنمهم ذي الشري إله الخصب والخمر !

وقال الكلبي في كتابه " الأصنام " : واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتا، ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر على بناء البيت ولا اتخاذ الصنم اتخذ حجرا من الحرم أو مما استحسنت

ثم طاف به كطوافه بالبيت، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذها ربا وجعل الثلاثة الأخرى أثافي لقدره فإذا ارتحل تركها. وكانوا يذبحون وينحرون عندها ويتقربون بذلك إليها . ومن تقديسهم لدماء ذبائحهم القربان لهماكل الأصنام والأوثان ينصبون لديها أحجارا هي النصب والأنصاب، يصبون عليها دماء ذبائحهم التي يتقربون بها إلى الهتهم، فالأنصاب والأزلام كانت من لوازم الأوثان والأصنام في كلام الله تعالى: ❖ والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ❖ . وكان لها سدة وحجاب. ويجانب سدة البيوت المقدسة كان هناك كهان يدعون أنه سخر لهم طائف من الجن يسرق لهم السمع فيعرفون منهم ما كتب الله للناس في ألواحهم، رجالا ونساء. فممن عرف من رجالهم: سطيح الذئبي، وسلمة الخزاعي، وسواد بن قارب الدوسي، وشق بن مصعب الأغاري، وعزى سلمة، وعوف بن ربيعة الأسدي .

ومن الكاهنات: كاهنة ذي الخصة، والكاهنة السعدية، والكاهنة الشعثاء، والزرقاء بنت زهير وطريفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر وكان قد يلتحق ببعضها بغايا أيضا ، ويسمون الذي يخبر الكاهن: الرئي. ولذلك فهم كانوا يؤمنون بالجن ويخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسبا، وإن كانت هي مظاهر الشر عندهم، وكما كانوا يجعلون الملائكة بنات الله وهي مظاهر الخير والرحمة: ❖ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ❖

ولعلها من ثنوية هؤلاء الوثنيين متسربة إليهم من ثنوية المجوس أيضا. صحيح أن كثيرا من هؤلاء كانوا يعدون الجن والملك والأرواح والأوثان والأصنام من شفعاتهم عند الله كما حكى القرآن الكريم: ❖ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ❖ لكنها لم تكن للنجاة من النار بل ❖ اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا و ❖ اتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ❖ . ذلك أنهم كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور: ❖ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ❖ و ❖ قالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ❖ و ❖ ضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ❖ فلم تكن قرباهم للنجاة من النار. نعم كان حجهم الأعظم إلى الكعبة الإبراهيمية وقد بقي فيهم منه ومن حجه بعض السنن مزيجا بالبدع الجاهلية: منها أشهر الحج المعلومات الحرم: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فكانت فرصة لبعدهم عن الأماكن المقدسة للوصول إليها دون أن تمس نذورهم، فكانوا فيها يتجرون ويميرون وقيمون أسواقهم كسوق عكاظ. ويقول ابن حبيب في " المحبر ": كانوا يلبون، فكانت قريش تقول: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. تخاطب إساف. وكانت تلبيتهم لود: لبيك اللهم لبيك، لبيك معذرة إليك. وكانت تلبيتهم للات: لبيك اللهم لبيك، كفى بيتنا بنيه، ليس بمهجور ولا بليه، لكنه من تربة زكيه، أربابه من صالحى البريه. وكانت تلبيتهم للعزى: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ما أحبنا إليك. وكانت تلبيتهم لذى الخلصة: لبيك اللهم لبيك،

لبيك بما هو أحب إليك . فالحمس من قريش وكنانة وخزاعة يطوفون
بثيابهم، والحلة يطوفون عرايا. ويصور الأزرقى في كتابه " أخبار مكة "
طواف العريان فيقول: يبدأ بإساف فيستلمه ثم يستلم الركن الأسود، ثم
يجعل الكعبة عن يمينه ويطوف سبعا فإذا ختم استلم الحطيم أو ركن
الحجر الأسود ثم استلم نائلة فختم طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه فيلبسها
ويمضي . وقد فصل الكلبي المؤرخ الشهير المتوفى في ٢٠٦ هـ ديانات
العرب قبل الإسلام فقال: " إن حمير كانت تعبد الشمس وكنانة كانت
تعبد القمر وقيس كانت تعبد الشعري، ولخم كانت تعبد المشتري،
وطئ كانت تعبد نجمة السهيل، وأسد كانت تعبد العطار، وتميم
كانت تعبد الدبران، وبنو مليح كانوا يعبدون الجن، وأكثر العرب
الأوثان والأصنام. وإن أول من جاء بها إلى مكة هو: عمرو بن لحي،
وكانوا في أول أمرهم يقولون: ❖ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى
❖ ثم رأوا فيهم قوة دون قدرة الله، فكانوا يتمسحون بها إذا أرادوا
السفر، واتخذوا من أحجار الصحراء أصناما يعبدونها كما يتخذون
عددا آخر منها أثا في لقدورهم. كانوا يرون أنهم بالقربان للأوثان يجلبون
رضاها، فإذا قربوا لها قربانا

تلطخوا بدمائه، وكانوا يتقاسمون بالأزلام عندها، وهي سهام
اصطلحوا على بعضها أنها أمر وعلى بعضها الآخر أنها نهي، فيعملون
كما تخرج لهم، وقد أصبحت الكعبة بيتا مركزيا للأوثان أكثر من
ثلاثمائة وستين، منها اللات والعزى ومناة، اللاتي كانت قريش تزعم

أنها بنات الله تعالى فتعبدنها واللات بدورها ام سائر الآلهة وكان مقرها
 بالطائف، وأما مناة فهي رب الأعمار والآجال، ومقرها بين مكة والمدينة
 " . أزلام العرب: قال تعالى: ❖ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم
 الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما
 أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام
 ذلكم فسق ❖ . قال القمي في تفسيره للنصب: إن قريشا كانوا
 يعبدون الصخور فيذبحون لها. و " الأزلام " كانوا يعمدون إلى الجزور
 فيجزئونه عشرة أجزاء، ثم يجتمعون عليه فيخرجون سهاماً عشرة: سبعة
 لها أنصباء وثلاثة لا أنصباء لها، فالتى لها أنصباء هي: الفذ والتوأم،
 والمسبل، والنافس، والحلس، والرقيب، والمعلى، فالفذ له سهم، والتوأم
 له سهمان، والمسبل له ثلاثة أسهم، والنافس له أربعة أسهم، والحلس له
 خمسة أسهم، والرقيب له ستة أسهم، والمعلى له سبعة أسهم. والتي لا
 أنصباء لها هي: السفح، والمنيح، والوغد. وكان ثمن الجزور على من لم
 يخرج له من الأنصباء شئ. وهذا قمار، حرمه الله عز وجل . وقد عقد
 اليعقوبي في تأريخه فصلاً خاصاً بعنوان " أزلام العرب " قال فيه: "
 وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كل أمورها، وهي القداح، ولا
 يكون لها سفر ولا مقام ولا معرفة حال إلا رجعت إلى القداح. وكانت
 القداح سبعة: فواحد عليه " الله عز وجل " والآخر " لكم " والآخر "
 عليكم " والآخر " نعم " والآخر " منكم " والآخر " من غيركم " والآخر
 " الوعد " . فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلى القداح فضربوا بها ثم عملوا
 بما تخرج القداح، لا يتعدونه ولا يجوزونه. وكان لهم امناء على القداح لا

يثقون بغيرهم. وكانت العرب إذا كان الشتاء ونالهم القحط وقلت ألبان الإبل استعملوا الميسر بالأزلام، فضربوا بالقداح وتقامروا عليها إلا أن قداح الميسر عشرة: سبعة منها لها أنصب، وثلاثة لا أنصب بها. فالسبعة التي لها أنصب يقال لأولها "الفذ" وله جزء واحد، و"التوأم" وله جزءان، و"الرقيب" وله ثلاثة أجزاء، و"الحلس" وله أربعة أجزاء، و"النافس" وله خمسة أجزاء، والثلاثة التي لا أنصب لها يقال لها: المنيح والسفيح والوغد.

فكانت الجزور تشتري بما بلغت ولا ينقد الثمن، ثم يدعى الجزار فيقسمها عشرة أجزاء، فإذا قسمت أجزائها على السواء أخذ الجزار الرأس والأرجل، ثم احضرت القداح العشرة، واجتمع فتيان الحي، فأخذ كل فرقة على قدر حالهم ويسارهم وقدر احتمالهم، فيأخذ الأول الفذ والثاني التوأم وكذلك سائر القداح على ما سميها منها. فإذا عرف كل رجل منهم قدحه دفعوا القداح إلى رجل أخس لا ينظر إليها معروف أنه لم يأكل لحما قط بثمن ويسمى "الحرضة" يؤتى "بالمجعول" وهو ثوب شديد البياض فيجعل على يده، ويعمد إلى "السلفة" وهي قطعة من جراب فيعصب بها على كفه لئلا يجد مس قدح يكون له في صاحبه هوى فيخرجه، ويأتي رجل فيجلس خلف الحرضة يسمى "الرقيب" ثم يفيض الحرضة بالقداح فإذا نشز منها قدح استله "الحرضة" فلم ينظر إليه حتى يدفعه إلى "الرقيب" فإن خرج من الثلاثة الأغفال التي لا نصيب لها رد من ساعته، وإن خرج أولاً "الفذ" أخذ صاحبه نصيبه

وضربوا بباقي القداح على التسعة الأجزاء الاخر، فإن خرج التوأم أخذ صاحبه جزأين وضربوا بباقي الأقداح على الثمانية الأجزاء الاخر، فإن خرج المعلى أخذ صاحبه نصيبه وهو السبعة الأجزاء التي بقيت. ووقع غرم ثمن الجزور على من خاب سهمه وهم أربعة: صاحب " الرقيب " و " الحلس " و " النفاس " و " المسبل " ولهذه الأقداح ثمانية عشر سهما فيجزي الثمن على ثمانية عشر جزءا ويأخذ كل واحد من الغرم مثل الذي كان نصيبه من اللحم لو فاز قدحه. وإن خرج " المعلى " أول القداح أخذ صاحبه سبعة أجزاء الجزور، وكان الغرم على أصحاب القداح التي خابت، واحتاجوا أن ينحروا جزورا

اخرى، لأن في قداحهم المسبل، وله ستة أجزاء ولم يبق من اللحم إلا ثلاثة أجزاء. فإن نحروا الجزور الثانية، وضربوا عليها القداح فخرج " المسبل " أخذ صاحبه ستة أجزاء الثلاثة الباقية من الجزور الاولى وثلاثة أجزاء من الجزور الثانية، ولزمه الغرم في الجزور الاولى ولم يلزمه في الثانية شئ لأن قدحه قد فاز. وبقي من الجزور الثانية سبعة أجزاء فيضرب عليها بقداح من بقي، فإن خرج " النفاس " أخذ صاحبه خمسة أجزاء ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئا، لأن قدحه قد فاز، ولزمه الغرم من الاولى وبقي جزءان من اللحم، وفيما بقي من القداح " الحلس " له أربعة أجزاء، فيحتاجون أن ينحروا جزورا اخرى لتتمة أربعة. وإن نحروا الجزور الثالثة وفاز " الحلس " أخذ صاحبه أربعة أجزاء: جزأين من الجزور الثانية وجزأين من الجزور الثالثة، ولم يغرم من الجزور الثالثة

شيئاً فإن قدحه قد فاز ويبقى ثمانية أجزاء من الجزور الثالثة، فيضرب
بباقي القداح عليها حتى يخرج قداحهم وفقاً لأجزاء الجزور، فهذا
حساب غرمهم الثمن. وربما كانت أجزاء اللحم موافقة لأجزاء القداح
فلا يحتاجون إلى نحر شيء، وإنما تنحر الجزور إذا قصرت أجزاء اللحم
عن بعض القداح، فإن عاد بعض من فاز قدحه ثانية فخاب، غرم من ثمن
الجزور التي خاب قدحه منها على هذا الحساب. فإن فضل من أجزاء
اللحم شيء وقد خرجت القداح كلها، كانت تلك الأجزاء لأهل المسكنة
من العشيرة، فهذا تفسير "الميسر". وكانوا يفتخرون به ويرون أنه من
فعال الكرم والشرف، ولهم في هذا أشعار كثيرة يفتخرون بها. اليهود
في يثرب والنصارى في نجران والشام: استولى القيصر الرومي تيتوس
على الشام وفلسطين والقدس فهدم هيكل اليهود سنة ٧٠ م، ثم
اضطهدهم القيصر هدریان سنة ١٣٢ م، ففر في هذه الأثناء كثير منهم
إلى الحجاز وغير قليل منهم إلى اليمن، أي في أواخر القرن الأول وأوائل
القرن الثاني الميلادي. ويظن أن القياصرة الرومان في صراعهم على
السلطة أرادوا النفوذ إلى اليمن لسيطرت سلطانهم على هذه البلاد بما لها
من قوافل تجارية، فكان ذلك من أهم الأسباب لنفوذ النصرانية هناك
بالبعثات التبشيرية المسيحية التي كان يشجعها القياصرة، ويظن أن
انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي، ولا نصل إلى العصر
الجاهلي الخامس حتى نرى النصرانية منتشرة في نجران وغيرها،
ونجران كانت أهم مواطنها. ويرى نسبة العرب أن الغساسنة في الشام
من أصل يماني، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال معها

قبائل كثيرة اخرى منها جذام وعاملة وقضاة وكلب. ويقال إنهم اصطدموا هناك بعرب من الضجاعة فتغلبوا عليهم وسادوا هناك، ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو فهم آل جفنة، فأقاموا إمارتهم في شرقي الاردن، وكانهم ظلوا بدوا يرحلون بخيامهم وإبلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان في الجابية وجلولاء والجلولان وحتى جلق قرب دمشق، وقربهم الرومان البيزنطيون ومنحوهم ألقابهم واتخذوهم حاجزا بينهم وبين البدو وغاراتهم، ومساعد لهم في حروبهم ضد من يؤيد الفرس من عرب مناذرة الحيرة في العراق. وليس بأيدينا من الوثائق التاريخية ما تبين بدقة تأريخ نشأة هذه الإمارة، إلا أنها ظهرت على صفحة التأريخ إثر قضاء الرومان على مملكة تدمر فدمروها سنة ٢٧٣ م، ولكن تأريخها قبل أواخر القرن الخامس الهجري يحيط به الإبهام والغموض، وأول ملك يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذي غزا فلسطين سنة ٤٩٧ م. وانتشرت النصرانية بين عرب الشام من الغساسنة وعاملة وقضاة وكلب وجذام، وكانوا على مذهب المنوفستيين أو اليعاقبة المنسويين إلى يعقوب البرادعي حوالي الخمسمائة الميلادية، الذي كان يرى للمسيح إقنوما واحدا أي طبيعة بشرية واحدة غير الهية. وبكر بن وائل كانوا في ديار بكر فيما بين الشام إلى العراق ويليهم إلى شمال العراق إيباد وتغلب، فنفذت النصرانية اليعقوبية فيهم أيضا، بل وتغلغت في الحيرة قرب الكوفة فسموا العباديين نسبة إلى عبادة الله، ولكنهم غير يعاقبة بل نساطرة نسبة إلى نسطوريوس المتوفى سنة ٤٥٠ م الذي كان يرى أن للمسيح إقنومين أي

طبيعتين: اللاهوت مع الناسوت، وحتى دخل في النصرانية أواخرهم: النعمان بن المنذر واخته هند بنت المنذر وبنت ديرا. وكان في مكة جوار روميات وعبدان نصرانيان من عين تمر بالعراق ورقيق حبشي نصراني كثير، وفي الطائف عداس النصراني من نينوى في شمال العراق، وتتصر في مكة قوم قبيل الإسلام منهم عتبة بن أبي لهب، وعثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل. وفي أواخر القرن السادس الميلادي استطاع يهود اليمن أن يؤثروا في ذي نؤاس ملك اليمن، وربما كان السبب الحقيقي لاستجابته لليهود أنهم خوفوه من تغلغل النصرانية في بلاده وبذلك تفتح أبواب اليمن لنصارى الحبشة من دون مقاومة، فأدخلوه في دينهم، ثم انتقموا به من النصارى فدفعوه إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم بالنار في ما حضروه لهم من حفر الاخدود في الأرض، وإذا كانت النصرانية يومئذ أحق من اليهودية قال الله تعالى: ❖ قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ❖ وانتقم نصارى الحبشة لإخوانهم فأزالوا دولة ذي نؤاس سنة ٥٢٥ م بقيادة أبرهة، وظلوا هناك خمسين عاما. فدعمت النصرانية واعتنقها كثيرون وبنيت لها كنائس في أكثر من بلد من أشهرها كنيسة نجران أنشأها أبرهة كما أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن، واهتم بزینتها وزخرفتها. ومن أشهرها القليس في صنعاء، والكلمة تعريب لكلمة الكليسة اليونانية، فيقال: إنه نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء

وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر، وكان ينقل إليها آلات البناء
كالرخام

المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب، ونصب فيها صلبانا من الذهب
والفضة ومنابر من الأبنوس والعاج وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا
يزال اليوم قائما . وكانت هذه الفترة سببا في خروج اليهود من اليمن
وتفرقهم في البلاد، وبقي منهم جماعة حتى دخل الإسلام فدخلوا فيه،
منهم كعب الأحبار ووهب بن منبه. وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز،
وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز: يثرب وخيبر
ووادي القرى وتيماء، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها: بنو
النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع وبنو تهديل، وقد نزل بينهم الأوس
والخزرج وثنيين. من سنن الجاهلية في الابل والغنم: البحيرة والسائبة
والوصيلة والحامي... وقد جاء في القرآن الكريم عنها: ❖ ما جعل الله
من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على
الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ❖ . وروى العياشي في تفسيره لها عن
الامام الصادق عليه السلام قال: إن أهل الجاهلية كانوا إذا ولدت
الناقة ولدين في بطن قالوا: وصلت، فلا يستحلون ذبحها ولا أكلها، وإذا
ولدت عشرا جعلوها سائبة فلا يستحلون أكلها ولا ظهرها. والحامي:
فحل الابل، لم يكونوا يستحلون أكله فأنزل الله أنه لم يحرم شيئا
من هذا . ونقل الشيخ الطوسي في " التبيان " عن محمد بن اسحاق قال:
الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت عشر اناث متتابعات في خمسة أبطن، كل

أهل النار ریح قصبه . حماس العرب قبل الإسلام: بإمكاننا ان نقول:
إن العربي قبل الإسلام كان نموذجاً تاماً لشرة البشر وحرصه على
مصالحه ومنافعه، فكان ينظر إلى كل شئ من زاوية منافعه الخاصة،
وكان يدعي لنفسه في كل ذلك أنواعاً من الشرف والكرامة والرفعة
على الآخرين، يحب الحرية غاية الحب، وينفر من أي قيد أو حد. وقد
قال ابن خلدون بهذا الصدد: " إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع
إليها الخراب، وذلك أنهم أمة قد استحكمت فيهم أسباب التوحش
فصار لهم خلقاً وجبلة، وكان عندهم الخروج عن ربة الحكم وعدم
الانقياد للسياسة ملذوذاً. وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له، فان
حالتهم العادية هي الرحلة والتغلب، وهذا مناقض للسكون الذي به
العمران ومناف له. وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن
رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون
إليه، بل كلما امتدت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه " .
أجل، إن العرب قبل الإسلام كانوا قد اعتادوا على الحرب والقتال،
وكان منطقتهم السائد: لا يغسل الدم الا الدم، وكذلك كانوا قد
اعتادوا الإغارة على أموال الآخرين حتى أن أحدهم كان يعد غاراته على
أموال الناس مفخرة له، وحتى أن الشاعر الجاهلي حينما يشاهد عجز
قومه عن الغارة يتمنى ان لو كان له عن قومه هؤلاء قوم آخرون يشنون
الغارات: فليت لي بهم قوما إذا ركبوا ❖ شنوا الإغارة فرسانا وركبانا
والى هذه الحالة يشير الذكر الحكيم إذا يقول لهم: ❖ وكنتم على
شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ❖ . الخرافات عند العرب: إن

القرآن الكريم يبين أن من أهداف بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه

❖ يضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم ❖ . فما هو الإصر وماهي الأغلال التي كانت عليهم ؟ لا شك أنها لم تكن أغلالا من حديد ، بل الغرض منها هي تلك الأوهام والخرافات التي كانت تمنع عقولهم وافكارهم عن الرشد والنمو ، ولا شك أنها لا تقل عن أغلال الحديد ثقلا وضررا ، إذ هذه الأغلال قد لا تتفك عن صاحبها حتى الموت وهي تمنعه عن كل حركة حتى لحلها ، في حين لو كان الإنسان ذا عقل حر سليم كان بإمكانه ان يكسر كل طوق أو قيد. إن من مفاخر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله أنه كافح الخرافات والأوهام ، وغسل العقل البشري منها. إن ساسة العالم الذين لا يهمهم شئ سوى الرئاسة على الناس ، يحاولون الإفادة من كل شئ في سبيل أغراضهم ومقاصدهم ، فإذا كانت العقائد الخرافية والقصص القديمة مما يمكن ان تؤيد حكومتهم ورئاستهم ، فلا مانع لهم من أن يروجوا لها ويفتحوا السبيل أمامها ، وحتى لو كانوا اناسا مفكرين ذوي رأي ومنطق فإنهم سوف يدافعون عن هذه الخرافات باسم احترام آراء الناس وأفكارهم واعتقاداتهم. اما رسول الله فانه لم يمنع عن تلك العقائد الخرافية التي تضر بالمجتمع فحسب ، بل كان يكافح حتى الأفكار التي كانت قد تؤيده وتدعم هدفه ، وكان يسعى الى ان يكون الناس أبناء الدليل والمنطق لا القصص والخرافات. فقد روى البرقي في كتابه "

المحاسن " بسنده عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: لما قبض ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله جرت في موته ثلاث سنن: أما واحدة: فإنه لما قبض انكسفت الشمس فقال الناس: انما انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله، فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " ايها الناس! إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا انكسفا أو أحدهما صلوا ". ثم نزل من المنبر فصلى بالناس الكسوف . إن فكرة كسوف الشمس لموت ابن رسول الله كان مما يرسخ العقيدة برسول الله في نفوس الناس، وهو من ثم يؤدي الى انتشار رسالته ولكنه صلى الله عليه وآله لم يرض أن يتأيد بالخرافة. إن كفاح رسول الله صلى الله عليه وآله ضد الخرافات وعلى رأسها عبادة الأصنام والأوثان واتخاذ بعض المخلوقات أربابا لم يكن دأبه في رسالته فحسب بل إنه كان يكافح الأوهام والخرافات حتى في دور طفولته وصباه. فقد روى المحدث المجلسي في موسوعته " بحار الأنوار "

الفصل الخامس
مقدمة في فقه النظام السياسي
الإسلامي
تعريف النظام السياسي

الفصل الخامس

مقدمة في فقه النظام السياسي الإسلامي

تعريف النظام السياسي

يُعرّف النظام السياسي إما باعتباره لقباً، وإما باعتبار الألفاظ المكوّن منها.

تعريفه باعتبار ألفاظه:

السياسة (لغة) القيام على الشيء بما يصلحه، وسست الرعية سياسة: أمرتها ونهيتها، وسوّس الرجل: إذا مُلِّك أمرهم، والسُّوس: الرياسة، يقال: ساسوهم سوساً، وإذا رأسوه قيل: سوسوه وأساسوه، والسياسة فعل السائس، يقال: هو يسوس الدواب: إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته^(١).

والسياسة بهذا البيان لفظة عربية أصيلة^(٢)، والسياسة لغة لا تنحصر فيما يتعلق بالدولة وأمور الحكم، وإنما هي القيام على الشيء - بما يحمله لفظ الشيء من العموم والشمول - بما يصلحه فيجلب له المنافع أو الأمور الملائمة، ويدفع عنه المضار أو الأمور المنافية، ويتحدد لفظ السياسة بما يضاف إليه، فإذا أضفنا السياسة إلى الرعيّة كان معنى ذلك القيام على شؤون الرعيّة - من قبل ولاتها - بما يصلح تلك الشؤون، ووسيلة ذلك الأمر والنهي والإرشاد، إضافة إلى الترتيبات الإدارية والنظامية التي تؤدي إلى تحقيق مصالح الرعية وجلب المنافع لهم ودفع

^١ - انظر: تاج العروس، لمحمد مرتضى الزبيدي (١٦٩/٤)، لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن منظور، (٦/ ١٠٨).

^٢ - خلافاً لما ذكره بعض المؤلفين من أنها لفظة غير عربية في الأصل، انظر: الخطط، للمقريزي، (٢/ ٢٢٠).

المضار عنهم، يقول ابن تيمية - رحمه الله - عن «العلم بالسياسة»: «علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها»^(١).

والسياسة نوعان: سياسة عقلية؛ يكون تدير مصالح الرعية فيها موكولاً إلى العقل البشري، وتُسمى أيضاً سياسة مدنية. وسياسة شرعية؛ يكون تدير مصالح العباد فيها بمقتضى النصوص الشرعية، وبما دلت عليه أو أرشدت إليه، أو استنبطه العقل البشري مما يحقق مقاصد الشريعة^(٢).

وقد استخدم الفقهاء لفظ «السياسة» في مصنفاتهم وأرادوا منها عدة معان:

- ١ - الأحكام الشرعية المتعلقة بأداء الأمانات في الولايات والأموال، والحكم بالعدل في حدود الله وحقوقه، وفي حقوق الأدميين^(٣).
- ٢ - ما يستتبعه ولاية الأمر مجتهدين فيه - من الأمور التي تكون الرعية معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يرد بذلك نص ما دام أنه يحقق المقاصد الشرعية، ولا يخالف أدلة الشرع التفصيلية^(٤)، وهو ما يعني العمل بالمصالح المرسلة.

١ - مجموع الفتاوى، (٤/٤٩٣).

٢ - انظر: مقدمة ابن خلدون، (ص ١٧٠)، طبعة دار الشعب، بدون تاريخ، مصر.

٣ - انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية، (٢٤/٢٨ - ٢٤٥)، رسالة (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية).

٤ - انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، (٤/٣٧٢)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان.

٣- التعزيز والزجر والتأديب^١).

ونخلص من كل ما تقدم إلى أن السياسة كلمة يدخل تحتها . في اصطلاح علماء الإسلام . مجموعة من الأحكام الشرعية ، سواء منها ما يثبت بدليل خاص أو باجتهاد ، يؤدي العمل بها إلى جلب الخير والصلاح لجماعة المسلمين وإلى دفع الشر والفساد عنهم ، ولم تكن تعني الاقتصار على الأحكام المتعلقة بالدولة الإسلامية؛ من حيث شكل الدولة أو نوعها أو طبيعة السلطة فيها ومصدرها وكيفية ثبوتها وانتقالها ، وشروط القائمين على رأس الدولة والجهة التي لها حق تعيينهم أو عزلهم ، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الحكام والمحكومين ، وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالدولة.

لكنه حدث في العصر الحديث نوع من التخصيص لمدلول لفظ «السياسة» ، ولم يعد يُفهم منه اصطلاحاً ما قدمناه سابقاً ، وإنما صار يُفهم منه ما يتعلق بحكم الدول ، وقد وردت عدة تعريفات للسياسة في الاصطلاح المعاصر؛ منها: «السياسة: معرفة كل ما يتعلق بفرن حكم دولة وإدارة علاقاتها الخارجية»^(٢).

«السياسة: علم الدولة..، وتشمل دراسة نظام الدولة ، وقانونها الأساسي ، ونظام الحكم فيها ، ونظامها التشريعي .. كما تشمل هذه الدراسة النظام الداخلي في الدولة ، والأساليب التي تستخدمها

^١ - انظر: معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام، لعلاء الدين الطرابلسي، (ص ١٦٩)، وما بعدها، وانظر: أيضاً حاشية ابن عابدين، (١٥/٤).

^٢ - علم السياسة: مارسيل بريلو: ترجمة محمد برجوي، من منشورات عويدات، بيروت (ص ١١).

التنظيمات الداخلية - كالأحزاب السياسية - في إدارة شؤون البلاد أو للوصول إلى مقاعد الحكم»^(١).

وهناك اختلاف في تعريف السياسة في الاصطلاح المعاصر، حتى إنه ليصعب صياغة تعريف واحد يوافق عليه الجميع، إلا «أن هناك قدراً متيقناً متفقاً عليه لتحديد مدلول السياسة، ألا وهو أنها تتعلق بالسلطة في الدولة»^(٢).

تعريف النظام:

النظام لغة: الخيط الذي يُنظم به اللؤلؤ، وكل خيط يُنظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام، ونظام كل أمر ملاكته، والنَّظْم: نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد، كذلك هو في كل شيء حتى يقال: ليس لأمره نظام؛ أي لا تستقيم طريقته، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته، والنظام: العقد من الجوهر والخرز ونحوهما، **والنظام:** الهدى والسيرة، وليس لأمرهم نظام؛ أي ليس لهم هدي ولا متعلق ولا استقامة، وما زال على نظام واحد؛ أي عادة^(٣).

يتبين بما تقدم أن لفظ «النظام» يُطلق لغة على الأشياء المضموم بعضها إلى بعض، كما يطلق على الشيء الجامع لتلك الأشياء؛ على أن يراعى في ذلك الضم: الترابط الذي ليس فيه تنافر، والاستقامة التي لا يصحبها عوج، والاطراد الذي لا يعتره خُلف، وبذلك يمكننا القول بأن النظام:

^١ - القاموس السياسي، أحمد عطية الله، (ص ٦٦١)، دار النهضة العربية، ط ٣. ١٩٦٨م - مصر.

^٢ - النظم السياسية، د/ ثروت بدوي، (ص ٤)، دار النهضة العربية القاهرة (١٩٨٩م).

^٣ - انظر: لسان العرب (باب الميم فصل النون)، مادة نظم، (٧٥٨/١٢)، دار صادر، بيروت.

هو مجموع الأشياء المترابطة المتناسقة المتآلفة التي يكون لها ثبات واطراد.

فإذا أردنا تعريف النظام السياسي بالنظر إلى لفظه؛ قلنا: هو مجموعة الخطوات أو الإجراءات المتناسقة التي يتم من خلالها تدبير الأمور وتسييرها بطريقة صالحة. وإذا أردنا تعريفه بالنظر إلى أنه لقب على كيفية حكم الدولة؛ قلنا: هو مجموعة الأحكام وما ينتج عنها من هيئات أو مؤسسات وتنظيمات متعلقة بالدولة الإسلامية من حيث إقامة الدولة وإدارتها والمحافظة عليها وتحقيق غايتها^(١).

فيدخل في إقامة الدولة الأحكام المتعلقة بنصب الخليفة؛ من حيث حكم توليته وشروطه وواجباته وحقوقه وكيفية اختياره، وصفات من يختاره، وكيفية انتقال السلطة وموجبات ذلك، وحدود صلاحياته. كما يدخل في إدارتها: الأحكام المتعلقة بالسلطة؛ من حيث أنواعها، ومصدرها، والقيود التي ترد عليها، وأحكام الوزارة والولايات وتقسيم البلدان، وإنشاء المرافق العامة، وأحكام الشورى، وصفات من يتولون المناصب العامة، ويدخل في ذلك الحديث عن وضع أهل الذمة في النظام السياسي، وكذلك وضع المرأة.

^١ - هناك عدة تعريفات للنظام السياسي في الفكر الإنساني؛ منها: «مجموعة من القواعد والأجهزة المتناسقة المترابطة فيما بينها، تبيّن نظام الحكم ووسائل إسناد السلطة وأهدافها وطبيعتها ومركز الفرد منها، وضماناته قبلها، كما تحدد عناصر القوى المختلفة التي تسيطر على الجماعة وكيفية تفاعلها مع بعضها، والدور الذي تقوم به كل منها»، (النظم السياسية)، د/ثروت بدوي، (ص ١١)، ومنها: «القواعد الأساسية التي يتعارف عليها سكان كل دولة، واختيارهم لشكل الحكم فيها، والسلطات المخولة لأجهزتها الإدارية عند مباشرتها لاختصاصها، وسلطات الحاكم في علاقته بهم، ومدى حقوقهم والتزاماتهم قبل الدولة» (النظم السياسية والحريات العامة)، د/ أبو اليزيد على المتيت، (ص ٥).

كما يدخل في المحافظة عليها وتحقيق غايتها الأحكام المتعلقة بال عمران والتنمية، وحقوق الرعية وواجباتها، كما يدخل في ذلك الأحكام المتعلقة بأمن المجتمع؛ من حيث الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصب القضاة وإقامة الحدود، والرقابة والمتابعة (الحسبة)، كما يدخل في ذلك أحكام العلاقات الخارجية، وكل ذلك يتضافر معاً ليكون وحدة واحدة هي النظام السياسي الإسلامي.

وهذا التقسيم الذي أوردته إنما هو تقسيم اجتهادي، والإفقد يدخل شيء مما ذكرته في موضع ما، تحت موضع آخر، أو يدخل في أكثر من موضع لارتباطه وتشعبه، ويدخل تحت ما تقدم جزئيات وفرعيات كثيرة تمثل في مجموعها أحكام النظام السياسي في الإسلام، وهذه الأحكام وما تعلق بها من تنظيمات أو هيئات مبثوثة في الكتب الشرعية، سواء منها ما يقتصر على الأحكام الخاصة بالنظام السياسي والتي عُرفت باسم «الأحكام السلطانية»^(١)، أو ما يتعرض للأحكام الشرعية كلها؛ مثل كتب الفقه والتفسير وشروح الحديث النبوي الشريف، وهناك طائفة كبيرة من هذه الأحكام في الكتب التي تقدم وصايا خلقية أو إدارية للوزراء والأمراء، وكذلك كتب الخراج.

^١ - انظر: الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي الشافعي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ)، الأحكام السلطانية، لأبي يعلى محمد الفراء الحنبلي (٣٨٠ - ٤٥٨ هـ)، غياث الأمم في التياث الظلم، لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (٤١٩ - ٤٧٨ هـ)، الخراج، لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (١١٣ - ١٨٢ هـ)، وغيرها كثير، هذا غير الكتب المعاصرة، وانظر: مقدمة تحقيق غياث الأمم.

المبحث الثاني

في التنظيمات الإدارية في النظام السياسي الإسلامي

التشريع في الإسلام - تحليلاً وتحريماً، تصحيحاً وإبطالاً، في أفعال الناس وأقوالهم واعتقاداتهم - إنما هو لربّ الناس الذي خلقهم ورزقهم، والذي يبعثهم من بعد موتهم ليحاسبهم عما قدّموا في حياتهم الدنيا، والناس بمعزل عن التشريع، سواء كانوا جماعة أو هيئة أو حتى أمة ودولة، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جداً، وأقوال العلماء في ذلك واضحة جداً^(١).

وهناك أمور ليست من التشريع، وإنما هي من التنظيم والترتيب الذي بها ينتظم العمل ويحقق الأهداف المرجوة منه، فهذه لا حرج فيها ما دام أنها لا تخالف الشريعة في شيء^(٢)، وهذا النوع من الترتيب والتنظيم أو التنظيم الإداري لا تستغني عنه أمة من الأمم، سواء كان ذلك في عصر التقنية المتقدمة، أو في العصر التي سلفت.

لكن هذه التنظيمات والترتيبات الإدارية قد لا يظهر الاحتياج إليها دفعة واحدة، بل قد يظهر في زمن دون زمن؛ ارتباطاً بكثير من العوامل التي تؤثر في ذلك إيجاباً وهدماً، ولذلك فإن النظام السياسي الإسلامي لم يعتن بإيجاد تلك التنظيمات قبل الحاجة إليها، في الوقت الذي يعمل على إيجادها كلما حدث ما يستوجب وجودها، وهذه

^١ - انظر في ذلك: (الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية)، د/عمر الأشقر، (الحكم بما أنزل الله)، د/عبد الرحمن المحمود، (حكم الله وما ينافيه)، د/ عبد العزيز العبد اللطيف، (إن الله هو الحكم)، محمد بن شاعر الشريف.

^٢ - انظر: أضواء البيان، للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، تفسير قوله - تعالى -: {وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}.

التنظيمات الإدارية أو المرافق يدل عليها الشرع؛ إما بالدلالة المباشرة عليها، وإما بالدلالة على أصل ترجع إليه، وإما بالبراءة الأصلية التي تقتضي أن الأصل في المنافع الإباحة إلا ما منع منه الدليل، فمثلاً قد تكون الدولة صغيرة، كدولة المدينة المنورة في أول أمرها، ثم تتسع الدولة وتكبر بالفتح، فتحتاج حينئذ أن تُقسَّم إلى وحدات إدارية ليسهل ضبطها وإدارتها، ويستتبع هذا التقسيم وجود ولاة وقضاة وأئمة وشرطة لكل قسم من الأقسام، ويحتاج ذلك إلى تنظيم وترتيب لم تكن إليه حاجة من قبل التقسيم.

وكذلك أمور الجيش، فالجيش قديماً كان لكل مقاتل فيه سلاحه الخاص به، وكان مقدوراً على إحضار السلاح وصناعته بمجهود يسير، ومع التطور المذهل في أنواع الأسلحة وتقنياتها والاحتياج إلى التدريب عليها قبل استعمالها، إضافة إلى استحالة قدرة الأفراد على صناعتها أو حتى شرائها، ثم الاحتياج إلى صيانتها وتحديثها، يصبح وجود جيش ثابت منظم ومدرب من الأمور التي لا غنى عنها للقيام بفريضة الجهاد طلباً ودفعاً، ومع وجود الجيش الثابت تظهر الحاجة إلى التنظيم؛ كتقسيم الجيش إلى وحدات أو أفرع، كل فرع له سلاح يستخدمه، ثم وجود هيئة مسؤولة عن التدريب وأخرى عن الصيانة، وقس على ذلك أموراً كثيرة.

فهذه أمور لم ينظّم الإسلام الجانب الإداري منها المتعلق بالخبرة البشرية وبتطورات الحياة وتقدم الإنسانية في معارفها؛ لأن هذا الجانب هو بطبيعته متغير متطور بتطور البشرية، وإنما بيّن الشرع ما يتعلق بذلك

من الحلال والحرام والصحيح والباطل، وأطلق في كفايات التحقيق والتنظيم والترتيب وإنشاء المرافق المتخصصة التي تخدم تلك المجالات مع الالتزام بأحكام الشريعة وقواعدها ومقاصدها، وهذا لا شك أنه من طبيعة الدين الصالح لكل زمان ومكان، المصلح لكل زمان ومكان؛ أن لا يلزمهم بكيفيات تنفيذية يرتبط صلاحها أصلاً بالبيئة التي يُطبَّق فيها، وإذا كانت الشريعة قد أطلقت الكيفيات في مثل تلك الأمور؛ فإن وضع كيفية لذلك ومحاولة جعلها كيفية عامة غير مرتبطة بالزمان والمكان؛ هو أمر مخالف للإطلاق الذي جاءت به الشريعة وقامت عليه تلك الكيفية، وذلك أن غالب الكيفيات إنما هي نتيجة اجتهاد قائم على تحقيق المصلحة في زمان محدّد ومكان محدّد، فلا يمكن عدّه اجتهاداً ملزماً لجميع الأعصار والأمصار، ولكن هذا لا يمنع من وضع نظام يكون محققاً للمصلحة؛ على أن يرتبط دوام ذلك النظام بتحقيق المصلحة، فإذا تغيرت الظروف أو الأحوال التي بني عليها ذلك الاجتهاد؛ أمكن تغيير تلك التنظيمات أو الكيفيات إلى أخرى جديدة تحقق المصلحة نفسها، ونؤكد في هذا الخصوص أن هذا تغيير في الكيفيات والتنظيمات المبنية على تحقيق المصلحة، وليس تغييراً في الأحكام الشرعية، فإن الحكم الشرعي ثابت لا يتغير^(١)، وإنما الذي يتغير في هذه الحالة هو الطريق إلى تحقيقه في الواقع، يقول ابن القيم - رحمه الله -: «والله - تعالى - لم يحصر طرق العدل وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره

^١ - انظر: (الثبات والشمول)، د/عابد السفياي، (ص ٤٤٨ وما بعدها)، (تحطيم الصنم العلماني)، محمد بن شاکر الشریف، (ص ٧٩ - ٨٧)، وانظر: مقال (ثبات الأحكام الشرعية وضوابط تغير الفتوى)، لمحمد بن شاکر الشریف، مجلة البيان، عدد ١٩٨.

من الطرق التي هي أقوى منه وأدلُّ وأظهر، بل بيّن بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وقيام الناس بالقسط؛ وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لا تتراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التي هي المقصد»^(١).

ضوابط التنظيم الإداري أو كفاءات التنفيذ:

كفاءات التنفيذ أو تنظيم العمل لا تجري هكذا مطلقاً من القيود، بل نحن هنا أمام أحكام شرعية ثابتة يجب أن تكون حاکمة وحاصرة لكفاءات التنفيذ، وهناك ضوابط شرعية لا بد من مراعاتها في اعتماد الكفاءات أو التنظيمات، وهي:

- ١- أن تكون محققة للمقصود الذي من أجله وُضعت.
- ٢- أن لا تخالف قاعدة من القواعد الشرعية أو مقصداً من مقاصد الشريعة.
- ٣- أن لا تخالف دليلاً من أدلة الشرع التفصيلية.
- ٤- أن لا يترتب عليها مفسدة تريبو على المصلحة التي تحققها^(٢).

١ - إعلام الموقعين، (٤/٣٧٢).

٢ - تحطيم الصنم، (مرجع سابق)، (ص ٥٩).

القسم الأول من أحكام الخلافة وما يتعلق بها المبحث الأول من أحكام الخلافة

١- تعريف الخلافة وأهميتها:

الخلافة هي أهم مؤسسة في النظام السياسي الإسلامي، فكل المؤسسات الأخرى أو الهيئات فيه تابعة لها، وقد بلغ من أهميتها أن النظام السياسي الإسلامي نفسه سُمِّيَ بها، فنقول: النظام السياسي الإسلامي، أو نقول اختصاراً الخلافة، وهذا الاسم قد جاء به النص الشرعي، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً..» الحديث (١). وقال صلى الله عليه وسلم: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه، من يشاء» (٢). فقد سُمِّيَ الرسول صلى الله عليه وسلم النظام السياسي الذي قام بعده باسم «الخلافة».

١ - أخرجه: أحمد في مسنده (٣٠ / ٣٥٥)، رقم (١٨٤٠٦)، وحسن إسناده المحقق، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٥).

٢ - أخرجه: أبو داود، كتاب السنة/ باب الخلفاء، عون المعبود، (٣٩٧/١٢)، واللفظ له، والترمذي، أبواب الفتن/ باب ما جاء في الخلافة، تحفة الأحوذني، (٤٧٦/٦)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن»، وقد خرجه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٤٥) (٨٢٠/٢/١).

والخلافة نظام سياسي تتحقق فيه أحكام كثيرة، أبرزها:

١ - أن يكون القائم عليه (ال خليفة) مستوفياً للشروط الشرعية فيمن يسند إليه.

٢ - أن يُسند إليه ذلك المنصب بطريقة شرعية (كما سنذكر لاحقاً).

٣ - أن يقيم الشريعة بين الرعية، ويحرس الدين من الزيادة فيه أو النقص منه.

٤ - أن يقوم بسياسة دنيا المسلمين وتحقيق مصالحهم ملتزماً في ذلك بأحكام الشريعة.

وقد عرف أهل العلم هذا المنصب الجليل، فقال الماوردي: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»^(١)، وقال إمام الحرمين: «الإمامة: رياسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامّة في مهمات الدين والدنيا»^(٢). «وكلام سائر علماء العقائد والفقهاء من جميع مذاهب أهل السنّة لا يخرج عن هذا المعنى»^(٣). ومن هذه التعاريف يتبين أن الخلافة تجمع بين الدين وسياسة الدنيا، ولا تفصل بينهما كما هو الحال في الأنظمة الديمقراطية المعاصرة، وعقد الخلافة لمن يقوم بها في الأمة ممن استوفى شروطها واجب بالإجماع^(٤).

١ - الأحكام السلطانية، (ص ٧).

٢ - غياث الأمم، (ص ١٥).

٣ - الخلافة، الشيخ محمد رشيد رضا، (ص ١٤).

٤ - وقد حكى الإجماع غير واحد من أهل العلم، منهم الماوردي في الأحكام السلطانية، (ص ٧)، وابن حزم في كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، (٨٧/٤)، وابن خلدون في المقدمة، (ص ٢١٠)، وغيرهم.

وقد ذكر أهل العلم الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الخليفة، وهي - كما ذكرها الماوردي -: «الشروط المعتبرة فيهم سبعة: أحدها: العدالة على شروطها الجامعة، والثانية: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، والثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها، والرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض، والخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتديير المصالح، والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو، والسابع: النسب، وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه»^(١)، وهي شروط متفق عليها في الجملة بين أهل العلم، وإن كان بعضهم يُعبّر بألفاظ مختلفة لكنها تحمل المضمون المتقدم نفسه^(٢)، وهذه الشروط المتقدمة إنما هي شرط استحقاق المنصب، وأما تولي المنصب فيضاف له شرط آخر، وهو الموافقة عليه واختياره من أهل الاختيار^(٣).

٢- ألقاب القائم على رأس النظام ودلالاتها:

يُلقب القائم على رأس النظام السياسي في الإسلام بعدة ألقاب؛ منها «الخليفة»، «الإمام»، «الأمير»، وقد جاءت النصوص

^١ - الأحكام السلطانية، (ص ٨).

^٢ - وهناك خلاف يسير لا يضر في بعض أفراد الشرط الثالث والرابع؛ نظراً لأن الحواس والأعضاء قد تفقد كلياً وقد تفقد جزئياً، والجزء المفقود قد يكون كبيراً وقد يكون صغيراً، انظر في تفصيل ذلك: غياث الأمم، (ص ٦٠ - ٦٩).

^٣ - يقول الماوردي: «وذهب جمهور الفقهاء والمتكلمين إلى أن إمامته لا تتعقد إلا بالرضا والاختيار»، الأحكام السلطانية، (ص ١٠)، ويقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: «ومن استجمع الشروط المتفق عليها لا يصير إماماً له على الناس حق الطاعة إلا إذا بايعه أهل الحل والعقد»، السياسة الشرعية، (ص ٥٧).

الشرعية بكل ذلك^(١).

دلالات الألقاب:

لقد اختار الإسلام لرأس النظام السياسي ألقاباً تعبر عن توجهات النظام، وتكشف عن حقيقته وأهدافه، فلفظ «ال خليفة» يعني أنه ليس ملكاً مطلق المشيئة والإرادة في إدارة الدولة كيف شاء أو أنه يُخلد في منصبه، أو أنه ورثه وراثته، بل هو خليفة خلف من سبقه في قيادة الأمة كما سيخلفه من يأتي بعده، كما يعني أنه يعمل فيما استخلف فيه وفق الغاية والمقصد من نصبه واستخلافه، واللفظ بعد ذلك يشع منه التواضع ولين الجانب وترك التكبر والتعالي على الناس. ولفظ «الإمام» يعني القيادة والقدرة، كما يعني المبادرة، فالإمام قدوة لغيره في العمل بالشرعية والتمسك بها والدعوة إليها، والإمام قائد، فإن الناس تؤمّه وتقصدوه وهي له متابعة، كما أن الإمام يبادر ويتقدم على غيره فيكون أولهم ولا يكون آخرهم؛ لأن حق الإمام التقدم وليس التأخر، والإمامة تعني أن السلطة والقيادة ليست مقسّمة بينه وبين آخرين بحيث يُستقل بها عنه، سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو هيئات، واللفظ يشع منه بعد ذلك معاني الهيبة والجلال والتوقير. ولفظ «الأمير» يُبرز الجانب الوظيفي في العمل، فهو أمير يأمر وينهى ويلزم، وعلى الرعية الطاعة والموافقة في الإطار المشروع.

^١ - انظر إلى الأحاديث الواردة في ذلك: في صحيح البخاري (٧٤/٦)، فتح الباري، (٢٢٤/١٣)، ومسلم (٣٢٣/١٢)، شرح النووي، وأبو داود (٣٦٠/١٢)، عون المعبود، والترمذي (٤٣٩/٧)، تحفة الأحوذى.

وهكذا فإن الألفاظ الثلاثة تتعاون وتتآزر فيما بينها لتعطي الصورة الكاملة لهذا المنصب العالي والمكانة الجليلة للقائم على رأس النظام السياسي. فكلمة الإمام تُبرز وتوضح حصر القيادة العليا للأمة كلها في الإمام، بينما كلمة الخليفة تُبرز بقوة جانب الاتباع للشيعة في إدارة شؤون الأمة، وكلمة الأمير تُبرز الجِد والحزم والهمة في مباشرة الأمور، وهكذا تتعاون هذه الألفاظ لتبين أن منصب رئاسة النظام السياسي في الإسلام منصب كبير، تجتمع فيه القيادة العليا للأمة مع الهيبة والجلال والاحترام والوقار المصحوب بالجِد والحزم، وهي قيادة ليست مطلقة بمقتضى نظر الخليفة المجرّد مما يظهر له أنه يحقق المصلحة، بل هو مقيد في ذلك باتّباع الشرع؛ يدور معه حيث دار، كما أن الهيبة والحزم ليست مع الرعب والفرع ولكن مع التواضع ولين الجانب.

٣- نشأة الخلافة:

الخلافة لم تنشأ في الإسلام نتيجة لعقد اجتماعي بين أفراد الشعب؛ يعبر عن الإرادة الشعبية في إقامة سلطة تحكم المجتمع وتحقق مصالحه^(١)،

^١ - يرى الفكر السياسي الوضعي الحديث أن الدولة إنما نشأت نتيجة للإرادة الشعبية، ونظراً لأنه لا يمكن تصور دولة بدون ممارسة السلطة على الرعية؛ فإن الفكر السياسي الوضعي الحديث يذهب إلى أن صاحب السيادة في هذه الحالة هو الشعب وليس الحكام الذين يمارسون السلطة كما كان الأمر قبل ظهور هذه النظرية (نظرية العقد الاجتماعي)، وتعرّف «السيادة» في ذلك الفكر بما مضمونه: «سلطة عليا مطلقة لا شريك لها ولا ند، متفردة بالتشريع الملزم فيما يتعلق بتنظيم شؤون الدولة أو المجتمع» - (تحطيم الصنم العلماني)، ص ٤٩ -، وصاحبها - كما ذكرنا - هو الشعب، وعلى ذلك فليس القانون شيئاً زائداً عن كونه إرادة الشعب، ولا معنى لصواب القانون إلا أن يكون بإرادة الشعب، فالصواب والعلو صفتان ملازمتان للإرادة الشعبية.

وإنما نشأت الخلافة نشأة شرعية تستمد سلطانها وأحكامها من الشريعة التي أنشأتها، والدليل على ذلك أمور، منها:

الأول: الأدلة الكثيرة التي تتحدث عن الخليفة والخلافة وحقوقه وواجباته، والتي سقنا بعضاً منها في هذا البحث، ما يبين أن الشرع هو الذي أنشأ الخلافة وأعطاهم مصطلحاتها الخاصة بها، وبين حقوقها والتزاماتها.

الثاني: أن المسلمين لم يسبق لهم عهد بهذا النوع من الحكومات، كما أنه لم يكن موجوداً في حواضر المدينيات المعاصرة كفارس والروم حتى يُقال قلدوا غيرهم في ذلك، فإذا لم يكن عند المسلمين سابقة في ذلك لا من داخلهم ولا من خارجهم؛ فما بقي إلا أن يكونوا أخذوا ذلك من دينهم.

الثالث: مبادرة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم، وهم أعلم الأمة بدين ربها وأفقههم فيه، إلى اختيار من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيادة الأمة بعد وفاته، حتى إنهم قاموا بذلك والرسول صلى الله عليه وسلم بعد لم يدفن، وهذا دليل على أن ضرورة إقامة الخلافة كانت أمراً معلوماً سابقاً لم يحتج منهم إلى تفكير ودراسة وتشاور. والحوار في سقيفة بني ساعدة بين الصحابة غداة اجتمعوا هناك لم يكن حول أصل الموضوع، وإنما كان حول: مَنْ أحق الناس بهذا المنصب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولم يُؤثر عن واحد منهم كلمة في مناقشة أصل الموضوع؛ مما يعني أن ذلك كان عندهم معلوماً.

الرابع: أن العباس - رضي الله عنه - عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ طلب من علي بن أبي طالب أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو في مرض الموت بأبي هو وأمي -: فيمن يكون الأمر - الخلافة - بعد وفاته؟^(١) وهذا وأمثاله يبين أن ضرورة قيام الخلافة كان معلوماً فاشياً بين الصحابة، ومن الذي يكون أعلمهم بذلك غير رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!؛

ويتبين مما تقدم أن الخلافة نشأت مباشرة عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون انقطاع، وأن الشرع هو الذي أنشأها بالدلالة عليها والأمر بها، ولم يُقمها الناس من تلقاء أنفسهم لجلب المصالح ودرء المفاسد.

٤- طرق إسناد الخلافة لمن يستحقها:

الشخص الصالح لتولي الخلافة هو من تتوافر فيه شروط الصلاح لذلك - كما أسلفنا -، ولا بد من التأكد من توفر هذه الشروط قبل إسناد الخلافة إليه، فتحقق الشروط مناط استحقاق الخلافة، وعملية التأكد من توفر هذه الشروط في الشخص تُسمى تحقيق المناط، وعلى ذلك فدور أهل الاختيار الذين يختارون الخليفة هو تحقيق المناط في الشخص، وإذا وجد أكثر من شخص تتحقق فيه تلك الشروط فتكون هنا المفاضلة بينهم على أساس مَنْ منهم تتحقق فيه الشروط بصورة أكثر من الآخرين، ويكون في الوقت نفسه أكثر مناسبة من غيره

^١ - القصة أخرجها البخاري، كتاب المغازي، حديث، رقم (٤٠٩٢)، وكتاب الاستئذان، حديث رقم (٥٧٩٥).

لظروف العصر، وبالتالي تُعقد له البيعة ويولى أمر الخلافة، **وعلى ذلك فتحقيق المناط يتطلب فيه أمران:**

الأول: النظر في الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يراد جعله خليفة، وهذه مرجعها إلى الشرع؛ إذ هو الذي يحددها.

الثاني: النظر في وجود هذه الشروط وتحقيقها في آحاد الناس، وهذه تُعلم من المعرفة بالشخص وأحواله، فذلك نوع من الاجتهاد في التحقق من وجود المناط في آحاد الأشخاص^(١). ومن البين أن طرق الكشف عن وجود المناط في آحاد الأشخاص قد تتعدد وتباين وتكون كلها صالحة محققة للمقصود، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه لا يوجد إلا طريق واحد لتحقيق المناط، فإن تحقيق المناط تؤثر فيه عوامل كثيرة، منها طبيعة المناط نفسه من حيث الوضوح أو الخفاء، ومنها طبيعة الباحث نفسه من حيث العلم والخبرة، ومنها طبيعة الظروف المحيطة بالموضوع، لهذا كله فقد يختلف تحقيق المناط من بيئة إلى بيئة ثانية، ومن زمن إلى زمن آخر، بل قد يختلف في الزمن الواحد باختلاف الظروف المحيطة، من غير أن يؤثر ذلك على الحكم الأصلي؛ لأن الذي يتغير هو جهد الإنسان في الكشف عن المناط، أما وجود المناط نفسه فلا بد من تحققه في جميع الحالات، وهذا يفسر تعدد طرق التولية التي حدثت في فترة الخلافة الراشدة.

^١ - انظر في ذلك: مجموع الفتاوى لابن تيمية، (١٦/١٩). الاعتصام، للشاطبي، (١٦١/٢).

وقد عرف التاريخ السياسي للخلافة الراشدة عدة طرق في اختيار الخلفاء الراشدين، وهي:

أ - الاختيار بواسطة أهل الاختيار (الحل والعقد): وهو أن يختار أهل الاختيار رجلاً ممن تتوفر فيه الشروط المطلوبة، وذلك بعد البحث وتقليب الآراء، ثم الاتفاق بعد التشاور فيما بينهم على الشخص المناسب ومن ثم مبايعته، ولا يضر ما يحدث من نقاش واختلاف في هذه الحالة في أول الأمر فذلك شيء لا بد منه، وإنما العبرة بالنهاية حتى يتفق أهل الاختيار، وقد حدث هذا في تولية أبي بكر رضي الله عنه، حيث اجتمع كبار الصحابة منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن عباد، وبعد محاورات تخللتها بعض التباينات في وجهة النظر وقع الاتفاق على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وتمت بيعته، وهو والله حقيق بها، وكذلك كان الأمر في بيعة علي رضي الله عنه^(١).

ب - الاستخلاف: وهو أن يحدد الخليفة العدل إذا حضرته مقدمات الوفاة شخصاً بعده للخلافة ممن تتوافر فيه شروطها، وممن يسرع الناس إلى قبوله وبيعته، وذلك بعد أن يستشير أهل الحل والعقد فيما رأى من ذلك، كما حدث ذلك في تولية عمر رضي الله عنه، حيث اختاره أبو بكر الصديق، وعمر هو عمر.. فضائله معروفة مشهورة، وهو أفضل الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أبي بكر، تتوفر فيه شروط الصلاح لمنصب الخليفة على أعلى درجاتها، ومع ذلك فإن أبا بكر -

^١ - انظر في بيعة أبي بكر: (صحيح البخاري)، كتاب الحدود / باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، فتح الباري (١٤٩/١٢)، وفي بيعة علي: الطبقات، لابن سعد، (٣١/٣)، وتاريخ الطبري، (١٥٢/٥)، والتمهيد، للباقلاني، (ص ٢٢٧).

رضي الله عنه - لم يؤلّه بمجرد ذلك، بل شاور في ذلك كبار الصحابة، واستمع لرأيهم، وقد أقر كل من استشارهم أبو بكر بفضل عمر - رضي الله عنه - وصلاحه لذلك، غير أن بعضهم أشار إلى ما في عمر من غلظة، وقد بين لهم أبو بكر - رضي الله عنه - أن عمر هو أفضل المسلمين الموجودين على الإطلاق، وأن شدته ستخف كثيراً بعد أن يصير الأمر إليه (وقد كان)، وعلى ذلك تمت البيعة لعمر رضي الله عنه (١).

ج - أن يجعل الخليفة الأمر بين جماعة ممن يستحقونها: وهو أن يحدد الخليفة العدل إذا حضرته مقدمات الوفاة عدداً من الأشخاص الذين تتوفر فيهم صفات الخليفة وممن لهم مكانة ومنزلة عند الناس؛ بحيث يسرعون إلى الموافقة على أيٍّ منهم ومبايعته، على أن يختاروا من بينهم واحداً للخلافة، كما فعل عمر - رضي الله عنه - حين حضرته مقدمات الوفاة، حيث جعل الأمر في ستة أشخاص هم: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وهم الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ. وقد كان طلحة إذ ذاك غائباً، وعرض عليهم عبد الرحمن أن يخرج منها ويختار لهم منهم واحداً فرضوا، وقد اجتهد عبد الرحمن في ذلك، وأخذ يستشير في ذلك المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد، حتى يقول عبد الرحمن في ذلك: «إني قد نظرت

^١ - يُنظر في تفاصيل ذلك: سيرة عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، (ص ٤٤)، الطبقات، لابن سعد، (١٢٢/٣)، تاريخ الطبري، (٥١/٤).

في أمر الناس؛ فلم أرهم يعدلون بعثمان»، وحينئذ بايع عبد الرحمن عثمان بالخلافة، وبايعه المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون^(١)، قال النووي - رحمه الله - : «إن المسلمين أجمعوا على أن الخليفة إذا حضرته مقدمات الموت - وقبل ذلك - يجوز له الاستخلاف ويجوز له تركه، فإن تركه فقد اقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فقد اقتدى بأبي بكر، وأجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف، وعلى انعقادها بعقد أهل الحل والعقد لإنسان إذا لم يستخلف الخليفة، وأجمعوا على جواز جعل الخليفة الأمر شورى بين جماعة، كما فعل عمر بالسته، وأجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة»^(٢).

ففيما تقدم من الطرق السابقة نجد قاسما مشتركا بينها جميعا، يتمثل في أمرين:

الأول: توافر شروط استحقاق الخلافة في الشخص المختار لذلك.

الثاني: موافقة أهل الاختيار (الحل والعقد) عليه.

وعلى ذلك فكل طريقة للاختيار يتحقق فيها هذان الأمران - من غير مخالفات شرعية - فهي طريق مقبول شرعاً، وليس يتحتم الأخذ بكل التفاصيل الواردة في الطرق السابقة دون غيرها مما يحقق الأمرين المشار إليهما، فقد كان يكفي في عصر الصحابة - رضي الله عنهم - مثلاً أن يدور عبد الرحمن بن عوف بنفسه على المهاجرين وأصحاب الفضل والسابقة في الإسلام من الأنصار وأمراء الأجناد؛ ليتعرف آراءهم

^١ - انظر في بيعة عثمان: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، والطبقات، لابن سعد، (٦١/٣)، وتاريخ الطبري، (١٣/٥).

^٢ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، (٢٨٣/١٢).

فيمن يختارون ويقدمون، ويرون أنه أحق بالخلافة، لكن هذه الطريقة العملية التي اتبعها عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - وإن كانت محققة للمقصود في زمنه فليست واجبة وجوباً عاماً تشمل عموم الزمان والمكان؛ لأنه لم يأت نص يُلزم بها، وإن كانت اجتهاداً موقفاً ومسداً من الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - في زمنه.

٥- واجبات الخليفة:

على الخليفة واجبات شرعية كثيرة كغيره من المسلمين، ولكن هناك واجبات خاصة به بمقتضى ما تكلفه من قيامه بهذا الأمر، وخلاصتها الحفاظ على الدين وحراسته، وتحقيق مصالح المسلمين الشرعية والدينية ودرء المفسد عنهم، وقد فصل ذلك الماوردي - رحمه الله - فقال: **«والذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء: أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة. الثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة.**

الثالث: حماية البيضة والذب عن الحریم ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار آمنين.

الرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله - تعالى - عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.

والسابع: جباية الفياء والصدقات على ما أوجبها الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقدير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع: استكفاء الأمانء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال.

العاشر: أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعوّل على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح^(١).

وتحت هذه الواجبات العامة تفصيلات كثيرة، كما تحتاج إلى تنظيمات وترتيبات لتحقيق تلك الواجبات على النحو المرضي، ومن مسؤولية ولي الأمر القيام بهذه الواجبات واستحداث ما تحتاج إليه من تنظيمات وترتيبات. على الشروط السابق ذكرها في ضوابط التنظيم^(٢).

٦- حقوق الخليفة على الرعية:

وإزاء هذه المسؤولية المكلف بها الخليفة؛ فإن الشريعة جعلت له على الرعية حقوقاً؛ حتى تكون هذه الحقوق معينة له على تحقيق واجباته ومقاصد الخلافة، قال الماوردي: «وإذا قام الإمام بما ذكرته من

^١ - الأحكام السلطانية، للماوردي، (ص ١٧ - ١٨).

^٢ - انظر: ص ٢٢ من هذا البحث.

حقوق الأمة؛ فقد أدى حق الله - تعالى - فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة؛ ما لم يتغير حاله»^(١).

٧- البيعة:

يتم عقد الولاية للخليفة عن طريق البيعة، وفيها يتم بيان وإعلان العلاقة بين المسلمين والخليفة، حيث يكون من الخليفة العهد على الالتزام بالكتاب والسنة وقيادة الأمة في أمورها كلها بهما، ويكون من المسلمين العهد على السمع والطاعة والنصرة ما دام الخليفة محافظاً على عهده قائماً بالتزاماته، قال ابن حجر - رحمه الله -: «والأصل في مبايعة الإمام أن يبايعه على أن يعمل بالحق، ويقوم بالحدود ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»^(٢)، وكتب عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - في بيعته: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله ما استطعت»^(٣)، وفي بيعة عثمان - رضي الله عنه - يبايعه عبد الرحمن ابن عوف والمسلمون «على سنة الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده»^(٤).

^١ - الأحكام السلطانية، (ص ١٨).

^٢ - فتح الباري، (٢١٦/١٣).

^٣ - أخرجهما البخاري، كتاب الأحكام /باب كيف يبايع الإمام الناس، فتح الباري، (٢٠٤/١٣).

^٤ - أخرجهما البخاري، كتاب الأحكام /باب كيف يبايع الإمام الناس، فتح الباري، (٢٠٤/١٣).

المبحث الثاني: أهل الحل والعقد:

أهل الحل والعقد هم الجماعة من الناس الذين يُنَاط بهم اختيار الخليفة ومبايعته، وهو تدبير سياسي إسلامي غير مسبوق سواء في لفظه أو في وظيفته، قد استتبطله أهل العلم من السوابق التي جرت في خلافة الراشدين، فأبو بكر - رضي الله عنه - قد عقد له البيعة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وعمر لما استخلفه أبو بكر استشار فيه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وعثمان لم يعقد له عبد الرحمن حتى دار على المهاجرين وأفاضل الأنصار وأمراء الجند الذين كانوا بالمدينة وأخذ موافقتهم عليه، وكذلك علي لما جاءه بعض الناس يريدون منه البيعة قال: «إن بيعتي لا تكون خفياً ولا تكون إلا على رضا المسلمين»، فبايعه الصحابة في المسجد، وبايعه طلحة والزبير وهما من العشرة المبشرين بالجنة.

ويطلق بعض أهل العلم على تلك الجماعة لفظ «أهل الاختيار»، كما يُطلق عليها أحياناً لفظ «أهل الشورى»⁽¹⁾، وأحياناً ثالثة «أهل الاختيار والعقد»، وينبغي أن تتوافر في هذه الجماعة شروط تؤهلهم

¹ - وقد نتج عن ذلك الإطلاق أن خلط بعض المعاصرين بين «أهل الشورى» و «أهل الحل والعقد»، وقد اخترت التمييز بينهم على النحو المذكور في هذا البحث؛ لأنه - فيما يظهر لي - الأصوب.

وتعينهم على صواب الاختيار، وقد أجمل الماوردي هذه الشروط بقوله:
«فأما أهل الاختيار؛

فالشروط المعتبرة فيهم ثلاثة:

أحدها: العدالة الجامعة لشروطها، والثاني: العلم الذي يتوصل
به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها، والثالث:
الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح، وبتدبير
المصالح أقوم وأعرف»^(١).

وهذه الشروط هي بالنسبة إلى أهل الحل والعقد أنفسهم، وهناك
شرط آخر منظور إليه من قِبَل المسلمين؛ وهو أن يكونوا ممن يسرع
الناس إلى موافقتهم وقبول اختيارهم^(٢)، وهذا يؤدي بنا إلى التعرف على
مكانة هؤلاء في مجتمع الناس، وذلك أن الناس لا تسرع إلى موافقة
وقبول اختيار إلا من تعلمه وتراه بارزاً مشهوراً مشاركاً في مصالح
الناس، وعلى ذلك فإن أهل الحل والعقد ليسوا مجرد أناس عاكفين
على العلم والمعرفة منقطعين عن الناس وعن واقع الحياة، فإن هؤلاء
أكثرهم مجهول بالنسبة لعموم الناس، فالخامل - وإن كان عالماً - الذي
لا ذكر له ولا جهد في حركة المجتمع أنى ينتبه الناس له؟!

^١ - الأحكام السلطانية، (ص ٨).

^٢ - وهذا الشرط مستفاد من بيعة عمر لأبي بكر - رضي الله عنهما - وتتابع المسلمون
في السقيفة على بيعة أبي بكر بعدها، ويعبر بعض أهل العلم عن هذا الشرط بأن يكون
لأهل الحل والعقد شوكة ظاهرة وقوة قاهرة؛ بحيث لو فرض حدوث خلاف لتمكنوا من
إمضاء بيعتهم وتنفيذها، انظر: غياث الأمم، (ص ٥٥ - ٥٦)، منهاج السنة، (١/ ٥٢٦)،
يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «إنهم زعماء الأمة وأولو المكانة، وموضع الثقة من
سوادها الأعظم؛ بحيث تتبعهم في طاعة من يولونه عليهم... فإذا لم يكن المبايعون بحيث
تتبعهم الأمة، فلا تتعد الإمامة بمبايعتهم» الخلافة، (ص ١٨ - ١٩).

وأما العدد الذي تتعقد به بيعتهم؛ فليس لذلك حد معلوم؛ إذ لم يثبت بذلك نص، والمتيقن منه في ذلك أن حصول الإجماع ليس شرطاً في ذلك، كما أن الواحد والاثنين اللذين يعقدان من غير مشورة المسلمين لا يصلح ذلك منهما، وقد استعرض أبو المعالي الجويني كل الأقوال الواردة في ذلك، وخلص إلى القول: «فالوجه عندي في ذلك أن نعتبر في البيعة حصول مبلغ من الأتباع والأنصار والأشياء يحصل بهم شوكة ظاهرة ومنعة قاهرة»^(١)، وقال ابن تيمية - رحمه الله -: «بعض أهل الكلام يقولون: إن الإمامة تتعقد ببيعة أربعة، كما قال بعضهم: تتعقد ببيعة اثنين، وقال بعضهم: تتعقد ببيعة واحد، فليست هذه أقوال أئمة السنة، بل الإمامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها، ولا يصير الرجل إماماً حتى يوافق أهل الشوكة عليها الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة، فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان، فإذا بُيع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار إماماً، فالإمامة ملك وسلطان، والملك لا يصير ملكاً بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة، إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم، بحيث يصير ملكاً بذلك ... فمن قال إنه يصير إماماً بموافقة واحد أو اثنين أو أربعة وليسوا هم ذوي القدرة والشوكة فقد غلط، كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين أو العشرة يضر فقد غلط»^(٢).

^١ - غياث الأمم، (ص ٥٦).

^٢ - منهاج السنة النبوية، (١/ ٥٢٦ - ٥٣١).

وإذا كانت وظيفة هذه الجماعة على ما هو مسطور في كتب الأحكام السلطانية، هو اختيار الإمام، فإنه من الممكن أن يضاف لها وظيفة أخرى تناسب ذلك أيضاً، لا سيما أن حدود الولايات وصلحاياتها يؤخذ من لفظ التولية والعرف والأحوال^(١)، وهذه الوظيفة المضافة لها تعلق بالإمامة، وقد دلت عليها النصوص الشرعية، وهي وظيفة المتابعة والمراقبة لأعمال الخليفة والجهاز التابع له؛ بغرض الحفاظ على التزام النظام السياسي بالشرع وعدم الخروج عليه، وهذه الوظيفة نجد أسانيداً الشرعية في الكثرة الكاثرة من أدلة القرآن والسنة التي تطلب من المسلمين القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن الحفاظ على شرعية النظام والتزامه من الأمور البالغة الأهمية، ولما كان أهل الاختيار بالوصف الذي ذكرناه عن أهل العلم؛ كان إضافة وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجانب السياسي إليهم من أنسب الأشياء.

ويصير مرادنا بأهل الحل والعقد: هم الجماعة من الناس الذين تتوافر فيهم الشروط المطلوبة، وتكون وظيفتهم اختيار الخليفة، ثم المتابعة والمراقبة لالتزام النظام بالشرعية، واتخاذ الموقف الشرعي المناسب بناء على نتائج المتابعة والمراقبة، فيقوم أهل الحل والعقد في هذه الحالة بمهام «الحسبة» ولكن في الجانب السياسي. ولذلك قال إمام

^١ - انظر: الطرق الحكيمة، لابن القيم، (ص ٢٠١).

الحرمين - عندما تحدّث عن موجبات عزل الخليفة -: «فإن قيل: فمن يخلعه؟ قلنا: الخلع إلى من إليه العقد»^(١).

تنظيم مؤسسة أهل الحل والعقد:

في كثير من الأحيان يظن كثير من الناس أن تحديد الصفات ونحوها ليس كافياً في انضباط الأمور، وإنما لا بد من وجود نظام محدد مرتب بخطوات محددة، ومثل هذا التنظيم والترتيب هو الذي يعوّل عليه في تحقيق الأمور من غير تلاعب بها أو تحايل عليها، وقد يبدو هذا في ظاهره صواباً، ولكن المشكلة الحقيقية ليست في عدم التنظيم، وإنما تكمن في عدم الرغبة في العمل والتقيّد بالصفات أو الضوابط التي تذكر في مثل هذه الأمور، وعند وجود الرغبة في ذلك؛ فإن الأمور ستمضي على النحو المرغوب حتى من غير وجود نظام مكتوب مسطور. وكلما ضعفت الرغبة احتيج إلى التنظيم، وكلما قويت لم يحتج إليه، وهذا يفسر أن أموراً كثيرة كانت تجري في الصدر الأول بدون هذا التنظيم على وجه أحسن وأفضل مما جرى تنظيمه فيما بعد، على أنه ليس هناك ما يمنع شرعاً من تحديد طريق عملي يتم من خلاله التوصل إلى تحديد أهل الحل والعقد، كأن يقال إن الصفات التي ورد ذكرها في حق أهل الحل والعقد ممكن تحقيقها في الواقع؛ بأن نقول إن درجة العلم تتحق بالحصول مثلاً على درجة الأستاذية أو ما يناظرها، وإن أمراء الأجناد حالياً هم ولاة الأقاليم والعواصم وقادة أفرع الجيش، وإن وجوه الناس هم رؤساء القبائل الكبرى، والقضاة، والدعاة المشهورون،

^١ - غياث الأمم، (ص ٩٦).

ورؤساء الجامعات، ومديرو الشركات الكبرى، والمتميزون في تخصصاتهم التجريبية والإنسانية من أساتذة الجامعات ومَن في حكمهم، (والعدالة شرط لا بد من تحقيقه في الجميع) .. وهكذا، ويصير بموجب هذا النظام أمكن تحديد أهل الحل والعقد. ولا شك أن هذا اجتهاد قد يُعارض فيه من يُعارض، لكنه على الأقل قدم تصوراً محدداً لتكوين مؤسسة أهل الحل والعقد انطلاقاً من المنظومة الإسلامية، وليس من منظومة فكرية أخرى مغايرة، إضافة إلى أنه ليس من اللازم أن يحدث إجماع في كل المسائل المجتهد فيها، وأخيراً نقول: والباب مفتوح لمن يأتي باجتهاد أفضل منه يحقق ويحدد أهل الحل والعقد، ولكن بشرط أن يكون ذلك من خلال المنظومة الإسلامية وبوسائلها، وينبغي أن يكون لهذه المؤسسة رئيس أو أمين أو مدير ينظم عملها الداخلي من حيث الاجتماعات وأوقاتها، ومن حيث إعداد وتجهيز الأمور التي تحتاج إلى بحث وتبادل الرأي وهكذا .

طريقة عملية لاختيار الخليفة:

وبعد أن قدمت هذه الدراسة تصوراً في كيفية تحديد أهل الحل والعقد، نقدم طريقة عملية لقيام مؤسسة أهل الحل والعقد باختيار الخليفة.

المرحلة الأولى: تقوم جماعة من هذه الهيئة (وهي العلماء والقضاة والدعاة) بتصفح أحوال الناس واختيار عدد (وليكن اثني عشر رجلاً) ممن يصلحون للخلافة ممن تتوافر فيهم الشروط المطلوبة.

المرحلة الثانية: يعقد اجتماع موسع لمؤسسة أهل الحل والعقد، ويعرض عليهم المرشحون، مع بيان مسوغات ترشيح كل واحد ومؤهلاته التي أهلته (وفق نظام محدد من قبل المؤسسة).

المرحلة الثالثة: تتم المداولات والمشاورات لمدة لا تزيد عن ثلاثة أيام في جو من السرية لاختيار أحد هؤلاء المرشحين، ويبايعه الجميع بالخلافة البيعة الخاصة، ثم يُعلن للناس للبيعة العامة، وإذا حدث خلاف بين الأعضاء ولم يتفقوا على شخص واحد؛ كان الترجيح في ذلك بالأكثرية؛ إذ لا مرجح في هذه الحالة غير ذلك، وهو أمر معتد به شرعاً إذا لم يكن مرجح غيره^(١).

وهذه تمثل خطوطاً عامة، وفيما رُوي من تفاصيل تعيين عمر - رضي الله عنه - للسته وما حدث بعد ذلك حتى تمت البيعة لعثمان؛ ثروة ضخمة في هذا المجال يمكن الاستفادة منها في إيجاد تفاصيل كثيرة متعلقة بهذا الشأن، وهي تمثل تفاصيل مفيدة قابلة للتحقيق في عصرنا الحاضر؛ إضافة إلى أنها من داخل المنظومة الإسلامية.

قال الماوردي: «إذا اجتمع أهل الحل والعقد للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً، ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها

^١ - انظر في وصية عمر - رضي الله عنه - للسته الذين جعل الخلافة شورى بينهم، وقد أشار إلى ذلك الماوردي عند الاختلاف في إمامة الصلاة، ولم يكن مرجح غير ذلك، (الأحكام السلطانية)، (ص ١٠٥).

عليه، فإن أجاز إليها بايعوه عليها وانعقدت ببيعتهم له الإمامة؛ فلزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته»^(١).

طرق معاصرة في الاختيار لا تصلح إسلامياً:

قد يرى بعض الناس أو أكثرهم - بفعل الدعاية الضخمة للنظام الديمقراطي - أننا يمكن أن نأخذ بطريقة الانتخاب في اختيار الصالح للإمامة.

ومجمل هذه الطريقة تقوم على:

١ - أن يتقدم شخص واحد أو أكثر؛ إما بصفته الفردية، وإما عن طريق الأحزاب (حسب الأنظمة المعمول بها في كل بلد) طالباً من الناس اختياره ليكون رئيساً للدولة.

٢ - يقوم الطالب أو الطالبون للرئاسة (عن طريقهم وطريق أعوانهم) بالدعاية، وإظهار محاسنهم، وإبراز أخطاء الآخرين.

٣ - بعد فترة من بداية التقدم لطلب الرئاسة والدعاية لذلك؛ يتم الاختيار من قِبَل الشعب ممن له حق الاختيار، وهو كل مواطن بالغ عاقل (حسب شروط الانتخابات التي ينظمها القانون في كل بلد).

٤ - يفوز برئاسة الدولة وحكم الشعب فترة زمنية محددة من يحصل على أكبر عدد من المؤيدين؛ أي الأغلبية (سواء كانت الأغلبية النسبية أو الأغلبية المطلقة؛ حسب النظام الانتخابي في كل بلد).

^١ - الأحكام السلطانية، (ص ٩).

هذه الطريقة قد تكون في مظهرها الخارجي طريقة منظمة، وقد يُخدع بها كثير من الناس، لكن هذه الطريقة غير مقبولة شرعاً لأنها لا تحقق الشروط التي تحدثنا عنها قبل ذلك؛ أولاً: لمخالفتها للأدلة الشرعية، وثانياً: لحصول مفسد فيها تضييع الهدف منها؛ إذ ليس المطلوب الوحيد أن تكون الطريقة محددة منظمة، بل المطلوب الأكبر أن تكون مؤدية لتحقيق الغاية المرجوة منها من غير ترتب فساد عليها.

أولاً: مخالفة تلك الطريقة للأدلة الشرعية:

فقد وردت النصوص بالمنع من طلب الإمارة، ولو خالف المسلم وطلبها؛ فإن النصوص قد جاءت بعدم موافقته على ذلك، فالمنع جاء من جهتين؛ من جهة طلبها، ومن ناحية الموافقة لمن طلبها^(١). وأما مخالفتها في تحديد من إليهم الاختيار؛ فهي تُدخل في ذلك رعايا الدولة كلهم بما فيهم من المسلمين، والفاسقين، والكفار، والرجال والنساء، وهذا مخالف لإجماع أهل العلم، فإن أهل الذمة (المواطنين الكفار) لا يدخلون في اختيار الخليفة، وكذلك إجماع أهل العلم على عدم دخول النساء في الاختيار^(٢). وهذا التحديد لأهل الاختيار في الطرق المعاصرة ناتج من

^١ - انظر هذه النصوص في: صحيح الإمام مسلم، كتاب الإمارة / باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، (٢٨٥/١٢ - ٢٨٧)، شرح النووي، وصحيح البخاري، كتاب الأحكام/ باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها، باب من سأل الإمارة وكل إليها، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، فتح الباري (١٣٣/١٣٤ - ١٣٤). على أن هناك بعض الحالات الاستثنائية يجوز فيها طلب الإمارة كما في قصة يوسف عليه السلام، وكما في تولي خالد بن الوليد إمارة الجيش في غزوة مؤتة، لكن ذلك ليس الأصل، إنما هي أحوال استثنائية تشرع عند توفر مسوغاتها، والأصل ما قدمناه، انظر: غياث الأمم، ص ٢٣١، وما بعدها.

^٢ - انظر: غياث الأمم في التياث الظلم، (ص ٤٨ - ٤٩)، وقد خالف بعض المعاصرين في ذلك بغير حجة صحيحة.

طغيان الفكر الديمقراطي القائم على أن السيادة للشعب، وأن القانون ما هو إلا مظهر للإرادة الشعبية، وانطلاقاً من هذا الفكر يصبح كل مواطن في الدولة (مسلم أو كافر) له نصيب في السيادة، وبالتالي فإن حقه في اختيار الحاكم حق أصيل، وهذا التصور العلماني الذي تقوم عليه الديمقراطية مباين مباينة تامة لدين الإسلام، حيث التشريع فيه لله الواحد القهار، وعلى ذلك أدلة كثيرة جداً من الكتاب والسنة^(١).

ثانياً: اشتغال هذه الطريقة على المفسدة التي تذهب بالغايتها منها:

ثم إن هذه الطريقة تشتمل على مفسد كثيرة تضيع الفائدة التي تطلب تحقيقها، ومنها:

١ - إمكانية تزوير الانتخابات في هذه الطريقة نظراً لاتساع رقعة الأرض وكثرة أعداد الناس الذين يحق لهم المشاركة في ذلك، وتتنوع الحالات الإيمانية لهذه الأعداد الغفيرة من أقصى درجات قوة الإيمان إلى أضعف الدرجات.

٢ - إمكانية شراء الذمم المتبادلة بين الناخب وبين الطالب للمنصب، حيث تعقد بينهما صفقة بمقتضاها يمنح الناخبون موافقتهم له، وهو يعطيهم عند فوزه بالمنصب الامتيازات التي تم الاتفاق عليها، وقد تكون هذه الصفقة بين الطالب للمنصب وبين أفراد الناخبين، كما تكون بينه وبين دوائر انتخابية بكاملها، وفي هذه الحالة فإن إمكانات

^١ - انظر مثلاً: (الحكم بغير ما أنزل الله)، د/عبدالرحمن المحمود، (حكم الله وما ينافيه) د/عبد العزيز العبد اللطيف، (الحكم والتحاكم في خطاب الوحي)، د/عبد العزيز كامل، (إن الله هو الحكم)، محمد بن شاكر الشريف.

الدولة تسخر لمصالح الأفراد الشخصية . وليس لمصالح الأمة . سواء كانوا طالبين للمنصب أو كانوا ناخبين.

٣ . وجود الدعايات الضخمة الكثيرة، والتي لا تخرج في أغلب الأحيان عن زخرف القول الباطل الذي يقلب الأمور رأساً على عقب فيصور الحق باطلاً والباطل حقاً، فلا يكون الاختيار في هذه الحالة اختياراً حقيقياً، وإنما هو اختيار موجّه بحسب قوة الآلة الإعلامية لطالبي المناصب.

٤ . عزوف كثير من الناخبين عن المشاركة في الاختيار - كما تدل على ذلك الوقائع الكثيرة حتى في البلاد التي يقال عنها إنها مهد هذا النظام - ؛ مما يجعل الاختيار غير معبّر عن حقيقة رأي الجماعة، بل هو يعبّر عن رأي المجموعة النشطة في هذا المجال، وهي التي لها مصلحة مباشرة في هذا الأمر، أو تريد الحصول على مصلحة مباشرة منه.

٥ . نظراً للدور الكبير الذي تقوم به الآلة الإعلانية في هذا المجال، وما يترتب على ما تزينه الدعاية من فوز أشخاص وإخفاق آخرين، فإنه تكون نتيجة لذلك تكلفة مالية ضخمة تفوق في أغلب الأحيان القدرة المالية لطالب المنصب؛ مما يدفعه بعد الحصول على المنصب إلى تعويض ذلك بكل طريق ممكن.

٦ . كل طالب للمنصب له فريق معاون يعمل معه ليل نهار، وفي حالة الفوز فإن طالب المنصب يعمل على مكافأة هذا الفريق بما تتيحه له صلاحياته أو قدرته على التدخل والتأثير في الأمور.

٧ . عزوف كثير من العناصر الجيدة والفاضلة عن المشاركة في مثل ذلك؛ لما ترى من الفساد وضياع الهبة والمروءة في ذلك؛ مما يترتب عليه

حرمان الأمة من العناصر التي هي في حاجة إليها ، بينما يتقدم من ليس فيهم كبير غناء.

والنظام الإسلامي . بحمد الله تعالى . منزه عن كل هذه المخالفات والعيوب ، حيث لا يسمح فيه للناس بطلب المناصب ، وإنما يرشحهم لذلك أهل الحل والعقد ، وهم من أفاضل الناس ومن المشهود لهم بالعلم والصلاح والمكانة الأدبية بين الناس؛ لذا فإنه ينتفي في حقهم ما لا ينتفي في حق الآخرين ، وكل ما يوجد من خطأ في حقهم؛ فهو في غيرهم أضعاف مضاعفة ، وكل ما عند غيرهم من خير؛ فهو فيهم أضعاف مضاعفة.

وكل ما يمكن أن يتصور من قصور في ذلك؛ فهو منغمر في جانب المصالح العظيمة المتحققة من ذلك ، ونحن مطالبون عند التعارض . إن وجد . بتحقيق أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما ، والطريقة الشرعية المتقدمة كفيلة بأن تأتي بأفضل الناس علماً ودينياً وكفاءةً وقدرة على العطاء والتحمل.

مهام أهل الحل والعقد:

مما تقدم يتبين أن لأهل الحل والعقد في النظام السياسي الإسلامي وظيفتين أساسيتين هما:

١ - اختيار الخليفة من بين من يصلح للخلافة.

٢ - القيام بأمور الحسبة في المجال السياسي^(١).

^١ - ولا يمتنع بعد ذلك أن يشير أهل الحل والعقد أو بعضهم على ولي الأمر بما يرونه مناسباً في تنظيم شؤون الرعية وفي النوازل، شأنهم في ذلك شأن بقية الرعية.

والقيام بأمر الحسبة في الجانب السياسي يتناول أمرين مهمين:

الأول: المتابعة والمراقبة لأعمال الخلافة والتصرف الذي يأمر به الشرع في ذلك، وهو مستفاد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني: وهو مترتب على الأول، وهو عزل الخليفة إن فعل ما يتوجب ذلك، وهو مستفاد أيضاً من التسمية نفسها بـ «أهل الحل والعقد»، فالعقد يعني مبايعة الإمام الصالح للإمامة، والحل يعني عزل الإمام متى خرج عن حد الصلاح للإمامة، واللغة المستخدمة تدل على ذلك؛ فالعقد نقيض الحل، والعقد: العهد، والعقد اللزوم والعزم والإبرام، والحلُّ من حلَّ العقدة يَحُلُّها حلاً: فتحها ونقضها فانحلت^(١).

وقد أوماً النص الشرعي بتكوين جماعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذات ولاية لها قدرة ومنعة للقيام بهذه الفريضة؛ من غير أن يتعارض ذلك أو يتداخل مع قيام الفرد المسلم بتلك الفريضة بمقتضى إيمانه، قال الله - تعالى - في بيان أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الصفات اللازمة شرعاً التي تلازم المؤمنين في كل أحيانهم: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة: ٧١]. وأما تكوين الجماعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أرشد إلى ذلك قوله - تعالى -: {وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١٠٤]. قالت طائفة من أهل العلم إن «من» في قوله {مِنْكُمْ} تبعيضية

^١ - انظر: لسان العرب مادة "عقد"، مادة "حل".

فيكون المراد على ذلك «ولتكن جماعة من المسلمين»، وقالت طائفة أخرى إن «من» هنا بيانية فيكون المراد، «ولتكونوا جميعاً أمة».

وهنا ملاحظة مهمة في بيان حقيقة هذه الفريضة كشفت عنها ألفاظ الآية، وهي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مجرد دعوة للحض على فعل الخير وترك الشر؛ بل هو أمر ونهي، والأمر والنهي حقيقة لا يكون إلا ممن يقدر على الإلزام به، وهذا يستدعي أن تكون لهذه الجماعة سلطة تمكنها من ذلك، وهو معنى أنها ولاية ذات قدرة ومنعة، ولذلك فقد فرقت الآية بين هذا العمل وبين الدعوة إلى الخير، ففرقت بينهما في سياق واحد؛ مما يدل على تباينهما وإن كانا يعملان في دائرة واحدة، فقال - تعالى -: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران: ١٠٤، وقد وجدت هذه الجماعة في الدولة الإسلامية باسم «الحسبة»، وقد تحدثت كتب الأحكام السلطانية وغيرها عن صفات والي الحسبة وأعوانه واختصاصاتهم وصلاحياتهم وغير ذلك من الأمور المتعلقة بها. وقد نشأت الحسبة كأي تدبير تنظيمي على حسب الحاجة إليها، ثم مع الاتساع وتطور الحياة وتشابك المصالح حيناً وتعارضها حيناً آخر؛ أخذت الحسبة تتطور في وسائلها تبعاً لذلك، ولكن في إطار محكوم لا تخرج عنه، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والهدف المحافظة على المجتمع في العقائد والعبادات والسلوك والمعاملات.

كما نشأت أيضاً ولاية المظالم والتي كانت من مهامها «النظر في تعدي الولاة على الرعية، فيتصفح عن أحوالهم ليقويهم إن أنصفوا،

ويكفهم إن عسفوا، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا»^(١)، والحسبة في الجانب السياسي كانت موجودة في التاريخ الإسلامي بل لا يكاد يخلو منها عصر من العصور، لكن كما تم تنظيم ذلك في جانب العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات؛ فإنه يكون من الأوفق، خاصة في عصرنا، أن يتم أيضاً تنظيم الحسبة في الجانب السياسي من خلال هيئة تُعنى به وتقوم عليه، وذلك لتحقيقه وليس لتعقيده؛ من غير أن يكون في ذلك قيد على آحاد المسلمين بالقيام بالحسبة في هذا الجانب، وليس في ذلك إحداث أو ابتداء؛ إذ ذلك من قبيل الطرق العملية لتنفيذ الأحكام الشرعية، وقد تقدم الكلام عن ذلك بما أغنى عن إعادته. وقد بين شيخ الإسلام أن ترك فعل شيء لعدم وجود المقتضي لفعله؛ لا يعد فعله بعد ذلك بدعة إذا قام المقتضي لفعله، وذلك مثل جمع المصحف، وتدوين الكتب ونحو ذلك^(٢).

وأهل الحل والعقد - بصفاتهم التي تقدم ذكرها - هم أليق فئة تناط بها مهام الحسبة في الجانب السياسي. ويمكن لأهل الحل والعقد أن يتابعوا ويراقبوا مؤسسة الخلافة وما ارتبط بها من معاونين، كالوزراء وأمراء الأقاليم ونحوهم، لضمان تقيدهم بالشرعية وعدم الخروج عليها، **فمن ذلك مثلاً:**

^١ - الأحكام السلطانية، لأبي يعلى الفراء (ص ٧٦)، ومثله الأحكام السلطانية، للماوردي، (ص ٨٤).

^٢ - انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٧١/٢٦.

١- متابعة التشريعات واللوائح والتنظيمات التي يصدرها الخليفة أو من يعاونه.

٢- متابعة قيام الخليفة وأعوانه بواجباتهم الملقاة على عواتقهم.

٣- متابعة علاقة الدولة بالعالم الخارجي، من حيث حالة الحرب أو العهد أو الذمة، وغير ذلك من الأمور التي يتابع فيها أهل الحل والعقد انتظام الأمور في الدولة الإسلامية والتزامها بأحكام الشريعة.

وليس لأهل الحل والعقد أن يتدخلوا في أعمال الخليفة؛ إنما عليهم المراقبة والمتابعة والتأكد من جريان الأمور على الوجه الشرعي المطلوب، ولهم أن يستعينوا في عملهم بمن يحتاجون إليه من العلماء والفقهاء والقضاة وأصحاب الاختصاصات في المجالات التقنية الدنيوية.

وليس لأهل الحل والعقد ولاية على الخليفة، بل هو له الولاية عليهم، وهم فيمن يبايعه على السمع والطاعة، وعليهم أن يطيعوا الخليفة فيما يأمرهم به؛ مثلهم في ذلك مثل باقي الرعية، إلا أن يأمرهم بعدم المتابعة والمراقبة، فذلك لا يجوز؛ لأنهم يؤدون واجباً شرعياً، والخليفة لا يملك عزل واحد من أهل الحل والعقد ما دام قائماً بواجباته من غير إخلال بها.

اختلاف أهل الحل والعقد مع الخليفة

١- إذا فعل الإمام شيئاً أو أصدر لأئحة أو تنظيمًا، ورأى أهل الحل والعقد أن ذلك ليس بصواب؛ فإن كان هذا في مسائل الاجتهاد ولا يقطعون بصواب اجتهادهم وبطلان اجتهاد الخليفة؛ فإن لهم أن يراجعوه في ذلك ويشيروا عليه بما يرون أنه الأفضل، فإن رجع إلى رأيهم فيها ونعمت، وإن أصر على اجتهاده فله ذلك؛ لأن هذا من حقوق ولايته،

وعليهم أن يطيعوه فيه إن كان في مسائل القضاء أو الحكم أو السياسة، وأما إن كان في مسائل الفتيا؛ فإن مسائل الفتيا لا إلزام فيها من أي طرف، قال صاحب شرح الطحاوية: «وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة؛ يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه»^(١).

٢- إذا رأى أهل الحل والعقد أن ما اختاره الخليفة فيه مخالفة واضحة، وأن ما تمسك به الخليفة إنما هي أقوال ضعيفة عند أهل العلم لا ينبغي التعويل عليها، ولم يمكن تقديم حل يرضى عنه الطرفين؛ فإن الحل في ذلك يكون عن طريق المحكمة، وقرارها ملزم للطرفين، والأصل في ذلك قوله - تعالى - : { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } [النساء: ٥٩]، ويُستشهد لذلك بالمحكمة التي تكونت للفصل بين الخليفة علي - رضي الله عنه - وبين بعض الأمة (معاوية رضي الله عنه) ومن معه.

٣- إذا كان ذلك الفعل أو اللائحة أو النظام مخالفاً لدين الإسلام مخالفة يقينية؛ فإن أهل الحل والعقد يُنبهونه، ويُبينون له مخالفة ذلك لدين الإسلام؛ فإن استجاب فيها ونعمت، وإلا أصدرت محكمة مشكلة

^١ - شرح الطحاوية، (٢/٥٣٤)، ط/دار هجر، وفي (الشورى وأثرها في الديمقراطية) قال د/الأنصاري (ص ١١١): "وهذا رأي جمهور علماء وفقهاء السلف وبعض المعاصرين".

لهذا الغرض حكماً ببطلان ذلك، وفي مثل هذه الحالة يبطل العمل بذلك ويصبح لاغياً كأن لم يكن^(١).

٤- إذا لم يقبل الخليفة بحكم المحكمة في ذلك؛ فإن هذا يعد منه خروجاً على القواعد الدينية، ومخالفة صريحة للغاية التي نُصب من أجلها، وهي حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وفي هذه الحالة فإن أهل الحل والعقد يصدرن حكماً بعزل الخليفة، وبصدور هذا الحكم يفقد الخليفة منصبه وما يترتب عليه من حقوق وصلاحيات، ولا تجب له على أحد طاعة، ويستأنف أهل الحل والعقد عقد الخلافة للصالح لها^(٢)، وينبغي نشر العلم بين الناس بهذه الأمور حتى يعلموا ما عليهم وما لهم.

موجبات خروج الخليفة عن الخلافة:

قال الماوردي: «والذي يتغير حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان: أحدهما جرح في عدالته، والثاني نقص في دينه»^(٣). وفي الأحوال التي تدرج تحت ما تقدم تفصيلات كثيرة، اتفق في بعضها أهل العلم واختلفوا في البعض الآخر، وموضع تفصيل ذلك المطولات، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الأمور المتفق عليها، فمن ذلك: ردة الخليفة وخروجه عن الإسلام، فإنه يخرج بذلك عن الخلافة، ومنه الجنون المطبق، ومنه ظهور الخبل في العقل والعتة في الرأي، واضطراب النظر اضطراباً لا يخفى دركه، ومنه وقوع الخليفة في الأسر وبُعد تَوْقَعُ خلاصه.

^١ - وانظر في رد وإبطال ما خالف الشريعة: فتح الباري، (٣٢٩/١٣)، والفروق، للقرافي، (٤٠/٤)، ومعين الحكام، للطرابلسي، (ص ٣٠).

^٢ - انظر في مسوغات العزل: غياث، (ص ٨٠) وما بعدها، الخلفية توليته وعزله، د/إصلاح ديبوس، (ص ٣٧٥)، الإمامة العظمى، الدكتور عبدالله الدميجي، (ص ٤٧٢).

^٣ - الأحكام السلطانية، (ص ١٨).

والأسر نوعان: أسر الجسد وهو الأسر الحسي، وأسرة الإرادة والتصرف وهو الأسر المعنوي، وهو ما يسميه الماوردي بالحجر، وهناك ما هو أشد فساداً من أسر الإرادة، ألا وهو أن يكون الخليفة منفذاً في المسلمين أوامر الكفار وإرادتهم، فإذا كان الخليفة واقعاً تحت تأثير الكفار منفذاً لأوامرهم؛ فإن هذا يخرجهم عن حد الصلاح للخلافة؛ لأنه لا ينبغي أن يكون للكافرين سبيل على المؤمنين، وهو بهذا قد جعل لهم أعظم السبيل.

وقد يكون الخليفة صاحب دين وأمانة ولكنه ضعيف يتبين ضعفه من عدم قدرته على ضبط الأمور، ومن تأخر أحوال بلاد المسلمين في أثناء خلافته تأخراً بيناً واضحاً، فإذا تبين عدم قدرته على سياسة الدولة وانتشر فيها الخلل، وخيف بسبب ذلك انقراط عقد الدولة؛ فإنه ينبغي والحالة هذه أن يعزل عن الخلافة، ويستأنف أهل الحل والعقد الاختيار - على ما تقدم ذكره - لمن هو أقدر على ذلك، والوجه في ذلك أن تصدر محكمة مشكّلة لذلك حكماً بعزل الخليفة وخروجه عن حد الخلافة أولاً، ثم تبدأ إجراءات عقد الخلافة لمن يستحقها ويصلح لها ثانياً.

وقد يحدث في مثل هذه الحالات أن يستظهر الخليفة بجنده الذين تحت إمرته؛ فما العمل في مثل ذلك؟⁽¹⁾

¹ - والحقيقة أن هذه أمور مفترضة افترضها، أهل العلم لبيان جوابها، وإنما هي من حيث الواقع نادرة جداً، بل تكاد ألا تقع إذا جرت التولية على الوجه الصحيح من=

ولهذا الأمر حل وقائي وآخر علاجي؛ أما الوقائي: فهو نشر العلم بين الناس بهذه المسائل وتعليمها لهم، ووضع النظام الذي يبين خروج الخليفة عن الصلاح لمنصبه، وتفهم الأمة أن صدور الحكم من المحكمة بعزل الخليفة يُفقد جميع صلاحياته ولا ينبغي لأحد طاعته، وإذا فهم الناس ذلك وحرصوا عليه وتمسكوا به أمكن عزل ذلك الخليفة وتعيين بدل له من دون أية مشاكل أو اضطراب. لكن قد يحدث أن يبلغ الخليفة في الظلم والطغيان أن يمنع أهل الحل والعقد من مزاولة أعمالهم، وقد يسجنهم، وقد يمنع المحكمة من الانعقاد، ويستعين على ذلك كله بالجنود الذين يغدق عليهم الأعطيات، وفي هذه الحالة يظهر الحل العلاجي.

وقد افترض إمام الحرمين تلك الحالة وقدّم لها الحل الذي نوجزه فيما يلي، يقول عن الخليفة: «فأما إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وظهر الفساد، وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود، وارتفعت الصيانة، ووضعت الخيانة، واستجراً الظلمة، ولم يجد المظلوم منتصفاً ممن ظلمه، وتداعى الخلل والخطل إلى عظام الأمور، وتعطيل الثغور؛ فلا بد من استدراك هذا الأمر المتفاقم، وذلك أن الإمامة إنما تُعنى لنقيض هذه الحالة، فإذا أفضى الأمر إلى خلاف ما تقتضيه الزعامة والإيالة، فيجب استدراكه لا محالة، وترك الناس سدى ملتطمين متقحمين لا جامع لهم على الحق والباطل؛ أجدى عليهم من

= تحقيق الشروط في المعين للخلافة، وإنما يكون ذلك ويكثر عندما تجري التولية على وجه غير صحيح، حيث يولى الفساق والمجرمون، كما في عصور المسلمين الحاضرة .

تقريرهم اتباع مَنْ هو عون الظالمين، وملاذ الغاشمين، وموئل الهاجمين، ومعتصم المارقين الناجمين.. فأقول: إن عسر القبض على يده الممتدة، لاستظهاره بالشوكة العتيدة، والعدد المعدة، فقد شغل الزمان عن القائم بالحق، ودفع إلى مصابرة المحن طبقات الخلق..فإن تيسر نصب إمام مجتمع للخصال المرضية والخلال المعتبرة في رعاية الرعيّة؛ تعين البدار إلى اختياره، فإذا انعقدت له الإمامة، واتسقت له الطاعة على الاستقامة، فهو إذ ذاك يدرأ من كان، وقد بان الآن أن يُعدَّ درؤه في مهمات أموره؛ فإن أذعن فذاك، وإن تأبى عامله معاملة الطغاة، وقاتله مقاتلة البغاة..وإن علمنا أنه لا يتأتى نصب إمام دون اقتحام داهية دهية، وإراقة دماء، ومصادمة أحوال جمّة الأهوال، وإهلاك أنفوس ونزف أموال؛ فالوجه عندي أن يقاس ما الناس مدفوعون إليه مبتلون به؛ بما يفرض وقوعه في محاولة دفعه، فإن كان الواقع الناجز أكثر مما يُقدَّر وقوعه في روم الدفع؛ فيجب احتمال المتوقَّع له لدفع البلاء الناجز، وإن كان المرتقب المتطلع يزيد في ظاهر الظنون على ما الخلق مدفوعون إليه؛ فلا يسوغ التشاغل بالدفع، بل يتعين الاستمرار على الأمر الواقع..»، إلى أن يقول: «ومما يتصل بإتمام الغرض في ذلك؛ أن المتصدي للإمامة إذا عظمت جنايته، وكثرت عاديته، وفشا احتكامه واهتضامه، وبدت فضاحته، وتتابع عثراته، وخيف بسببه ضياع البيضة وتبدد دعائم الإسلام، ولم نجد من ننصبه للإمامة حتى ينتهز لدفعه حسب ما يدفع البغاة؛ فلا يطلق للآحاد في أطراف البلاد أن يثوروا، فإنهم لو فعلوا ذلك لاصطلموا وأبيدوا، وكان ذلك سبباً في ازدياد المحن وإثارة الفتن،

ولكن إن اتفق رجل مطاع ذو أتباع وأشياع، ويقوم محتسباً آمراً
بالمعروف ناهياً عن المنكر، وانتصب بكفاية المسلمين ما دفعوا إليه؛
فليعض في ذلك قدماً، والله نصيره على الشرط المقدم في رعاية المصالح
والنظر في المناجح، وموازنة ما يندفع ويرتفع بما يتوقع.. فإن قيل: قد
قدمتم أن وجه خلع الإمام نصب إمام ذي عدة؛ فما ترتيب القول في ذلك؟
قلنا: الوجه خلع المتقدم ثم نصب الثاني يدفعه دفعه للبغاة كما سبق
تقريره. فإن قيل: فمن يخلعه؟ قلنا: الخلع إلى من إليه العقد^(١).

^١ - غياث الأمم في التياث الظلم، (ص ٨٠ - ٩٦).

القسم الثاني في إدارة الدولة المبحث الأول فيمن يستنيبهم الخليفة:

الخليفة بحسب المنزلة التي أحلَّه الله بها هو صاحب الولاية العامة في الدولة الإسلامية، والولاية تعني ممارسة السلطة، والخليفة شخص واحد، وحاجات الدولة كثيرة فلا يقدر على القيام بها بنفسه، فيحتاج لذلك أن يستعين على ولايته بمن يصلح لها من المسلمين، فيوليهم الولايات التي بمقتضاها تنظم الأمور وتتحقق الأهداف. والولاية لما كانت تعني ممارسة السلطة على الرعيَّة؛ فإنه لا يتولى أحد هذه الولايات إلا من قبل تولية الخليفة له، وهذه الولايات تكثر وتتشعب بحسب أوضاع الدولة وأحوالها، وبحسب التطور في حياة المجتمعات، وظهور أنماط جديدة من المعاملات لم تكن من قبل، لكن كل هذه الولايات على تعددها تنقسم إلى أربعة أقسام كما ذكرها الماوردي، حيث يذكر أن ما يصدر عن الخليفة من ولايات لخلفائه أربعة أقسام:

القسم الأول: من تكون ولايته عامة في الأعمال العامة، وهم الوزراء؛ لأنهم يُستتابون في جميع الأمور من غير تخصيص.

القسم الثاني: من تكون ولايته عامة في أعمال خاصة، وهم أمراء الأقاليم والبلدان؛ لأن النظر فيما خُصُّوا به من الأعمال عام في جميع الأمور.

القسم الثالث: من تكون ولايته خاصة في الأعمال العامة، وهم كرئيس القضاة، ونقيب الجيوش، وحامي الثغور، ومستوفي الخراج، وجابي الصدقات؛ لأن كل واحد منهم مقصور على نظر خاص في جميع الأعمال.

القسم الرابع: من تكون ولايته خاصة في الأعمال الخاصة، وهم كقاضي بلد أو إقليم أو مستوفي خراجه أو جابي صدقاته، أو حامي ثغره، أو نقيب جنده؛ لأن كل واحد منهم خاص النظر بخصوص العمل، ولكل واحد من هؤلاء الولاية شروط تتعقد بها ولايته ويصح معها نظره»^(١).

والولايات الواقعة في هذه الأقسام التي ذكرها الماوردي وتسمياتها؛ مرتبطة بزمانها وخاضعة لحاجة الدولة إليها، ولذلك فهي تقل وتكثر من زمن لآخر، وقد تظهر ولايات لم تكن موجودة من قبل، كما قد تقسم ولاية كانت موجودة من قبل إلى عدة ولايات؛ نظراً لاتساع هذه الولاية في الوقت الحاضر، وهذه التقسيمات والتنويعات التي كانت والتي تكون فيما بعد؛ إنما تعبر عن حاجات الدولة في العصر التي هي فيه، ولذلك فإننا لا نجد هذه التقسيمات زمن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بينما نجد أن الأمر في خلافة عمر قد اتسع فأضاف بعض التنظيمات لحاجة الدولة إليها، فدوّن الديوان - رضي الله عنه - وهكذا.

^١ - الأحكام السلطانية، للماوردي، (ص ٢٢ - ٢٣).

وينبغي أن يُعلم أن ما يستفيد منه المتولي بالولاية من اختصاصات ليس له حد معلوم في الشرع، وإنما يستفيد ذلك من لفظ التولية ومن الأحوال والعرف^(١).

والشروط التي ينبغي توافرها في أصحاب هذه الولايات نوعان:

أولاً: شروط عامة (لكل ولاية)؛ هي: البلوغ والعقل والعدالة.

ثانياً: شروط خاصة، وهي شروط متعلقة بكل ولاية؛ إذ لكل واحدة شروط تناسبها، فالشروط المطلوبة في ولاية القضاء تختلف عن الشروط المطلوبة في ولاية الجيش أو الخراج مثلاً.

وقد عرف التاريخ السياسي للمسلمين نوعين من الوزارة: وزارة التفويض، ووزارة التنفيذ، وفي الأولى ينيب الخليفة عنه من يفوضه في تدبير الأمور برأيه وإمضائها على اجتهاده فيما فوضه فيه. وفي الثانية: فإن الوزير في تصرفه مقصور على رأي الخليفة وتدييره، والوزير في هذه الحالة وسط بين الخليفة والرعية يؤدي أمره وينفذ عنه ما ذكر. ولكل واحدة شروطها، وشروط وزارة التفويض كشروط الخليفة خلا شرط النسب، بينما الأمر في وزارة التنفيذ أخف^(٢).

^١ - انظر في ذلك: الطرق الحكيمة، لابن القيم، (ص ٢٠١).

^٢ - ينظر في الشروط المطلوبة: الأحكام السلطانية، للماوردي، (ص ٢٧ - ٢٨)، غياث الأمم، (ص ١١٣ - ١١٩).

وإذا أناب الخليفة أو فوض في تدير الأمور؛ فإن هناك أمرين
ينبغي مراعاتهما:

الأول: يختص بالمفوض، وهو إطلاع الخليفة على ما أمضاه من تدير وأنفذه من ولاية وتقليد؛ لئلا يصير بالاستبداد كالخليفة.

الثاني: أن يتصفح الخليفة أفعال المفوض وتديره الأمور؛ ليقر منها ما وافق الصواب، ويستدرك ما خالفه، لأن تدير الأمة إليه موكول، وعلى اجتهاده محمول^(١).

^١ - انظر: الأحكام السلطانية، للماوردي، (ص ٢٧ - ٢٨)، وانظر: غياث الأمم، (ص ١١٧).

المبحث الثاني الشورى:

عندما يُشكّل الأمر في قضية ما، أو عندما تتعدد الحلول لمشكلة ما، أو عندما لا يكون المرء قادراً على اتخاذ القرار السليم في القضايا التي تعرض له، أو يريد التأكد من صواب القرار الذي أداه إليه اجتهاده، أو يريد التوصل إلى الإيسر والأنسب من الحلول الصالحة المتعددة؛ فإنه يلجأ إلى من يعتقد أن لديه المقدرة على القيام بذلك مع الأمانة والصدق فيما يشير به، ويطلب منه أن يعاونه برأيه في ذلك، وقد يطلب المستشار ذلك من فرد أو من مجموعة من الناس مجتمعين أو منفردين. وقد يكرر الاستشارة في الأمر الواحد، وقد يكفي بإشارة أول من يشير عليه. وعرض الآراء وتقليبها ممن يحسنون ذلك في مثل تلك الأحوال، واختبارها لمعرفة كنهها، واستخراج أفضلها وأنفعها وأيسرها؛ هو ما يعرف بالشورى ويراد منها.

والأدلة على مشروعية الشورى كثيرة؛ منها قوله - تعالى -: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: 159]، وقوله: {وَأْمُرْهُمْ شُورَى} [الشورى: 238]، وهي دالة على سلوك المؤمنين الحميد فيما يتعاطونه من أمورهم، وهي أعم من أن تكون قاصرة على ما يتعلق بنظام الحكم أو المسائل السياسية، وقد دلت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية على كثرة مشاورته لأصحابه، فشاورهم في مسائل عامة تتعلق بالجهاد كما في غزوة بدر وأحد وغيرها، كما شاور بعضهم في خاصة نفسه في أمر عائشة - رضي الله عنها - الحصان الرزّان في قصة الإفك، وغير

ذلك من الأمور الكثيرة. وشاور خلفاؤه الراشدون من بعده، وجاءت آثار السلف في الحض على ذلك والترغيب فيه، والناظر في المجتمع الإسلامي في الصدر الأول يجد أن المشاورة كانت أمراً فاشياً وسلوكاً حميداً عند عامة المسلمين، يتبعونه في أمورهم العامة والخاصة، والوقائع بذلك كثيرة جداً^(١).

والشورى في المسائل العامة التي تتعلق بالأمة أو جمهورها أو طائفة كبيرة منها أولى من الشورى في المسائل الخاصة التي تتعلق بأفراد أو مصالح جزئية؛ لأن الأولى خطرهما عظيم ونفعها كبير، ولذلك كانت الشورى في المسائل المتعلقة بالنظام السياسي الإسلامي - الذي يمثل السياج الواقعي للإسلام ودولته - أولى بكثير من غيره، ولا يستغني ولي الأمر عنها في إدارته لشؤون ولايته إدارة حسنة.

مجالات الشورى:

هي الحدود التي تعمل فيها الشورى؛ أي بيان الأمور التي يجب أو يجوز أو لا يجوز أن تكون محلاً للشورى، ومجالها قسمان: قسم عام، وقسم خاص.

فأما القسم الخاص: فهو متعلق بطالب المشورة، فقد يشاور في بيع أو في شراء أو علاج أو سكن أو غير ذلك من الأمور.

^١ - انظر في ذلك: تفسير الآيات السابقة في كتب التفسير، وانظر: فتح الباري (٣٥٢/١٣)، و (الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة)، د/عبد الله بن عمر الدميحي، (ص ٤٢١ - ٤٦٤)، (الشورى وأثرها في الديمقراطية)، د/ عبد الحميد الأنصاري، (الشورى بين الأصالة والمعاصرة)، عز الدين التميمي.

وأما القسم العام: فهناك أكثر من قول لأهل العلم في ذلك، فمن ذلك: أنها في أمور الحرب، ومنها أنها في أمور الدنيا، ومنها أنها في كل أمر ليس فيه نص قاطع، والصواب أن الشورى تغطي تلك المجالات كلها مما لم يأت فيها نص شرعي، وأما الأمور التي وردت فيها نصوص شرعية حتى إن كانت غير قطعية؛ فلا تكون الشورى فيها إلا بمعنى بيان المقصود من تلك النصوص والوصول إلى الفهم الصحيح لها، ولا يمكن بحال في ظل حكم الشرع أن يتم تجاوز النصوص والاعتماد على الشورى المجردة.

حكم الشورى:

تعدد الآراء في الشورى هو من طبيعة الشورى؛ إذ لولا ذلك لم تكن هناك حاجة إليها، ولم يكن لها فائدة ترجى منها؛ إذ فائدتها تظهر من استخراج ما عند المستشارين من آراء وأفكار وتصورات. والمناقشات والمداولات التي تتم في هذا المجال قد تسفر عن عدة احتمالات متباينة، فقد يتفق المستشارون كلهم على قول واحد في المسألة المعروضة وتجتمع كلمتهم عليه، وهذا قليلاً ما يحدث، وكثيراً ما يحدث أن تتعدد الآراء فلا يتفق الناس على قول، وهذا التعدد في الآراء له أكثر من صورة، فقد ينقسم المستشارون على قولين أو ثلاثة أو أكثر، وقد تتساوى أعداد القائلين بكل قول، وقد تختلف بحيث يكون بعضها أكثر من بعض، وقد يحدث أن يكون الفرق في الأعداد بين الأقوال كبيراً، وقد يكون قليلاً، وإزاء كل هذه الاحتمالات

الممكنة يبرز السؤال: ما القاعدة التي يجب من خلالها حسم تلك التباينات وإصدار القرار؟

وهنا أمران: حكم المشاورة نفسها، وحكم العمل بما أدت إليه:

أما حكم المشاورة: فالذي عليه عامة علماء السلف أن الشورى مندوب إليها ليست بواجبة، والذي عليه عامة المعاصرين أن الشورى واجبة^(١). ويفصّل بعض المعاصرين فيرى أن الشورى تجب في بعض المسائل، بينما لا تجب في بعض المسائل الأخرى^(٢).

وأما حكم العمل بما أدت إليه الشورى: أو «ما القاعدة التي يجب أن تُحسم بها مداولات أهل الشورى؟» أو «هل الشورى ملزمة أو معلّمة؟»، والذي عليه جمهور علماء السلف أن ولي الأمر لا يجب عليه ترك رأيه لرأي أهل الشورى أو غيرهم، حتى قال صاحب شرح الطحاوية: «وقد دلّت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة؛ يُطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه»^(٣)، والذي عليه أكثر

^١ - انظر في تفصيل ذلك: فتح الباري، (٣٥٢/١٣)، (الشورى وأثرها في الديمقراطية)، د/عبد الحميد الأنصاري، (ص ٥١)، (الإمامة العظمى)، د/عبد الله بن عمر الدميحي، (ص ٤٤١).

^٢ - انظر في تفصيل تلك المسائل: (فقه الشورى والاستشارة)، د/توفيق الشاوي، (ص ١٠٦ - ١١٥).

^٣ - شرح الطحاوية، (٥٣٤/٢)، ط/دار هجر، وفي (الشورى وأثرها في الديمقراطية)، قال د/الأنصاري (ص ١١١): «وهذا رأي جمهور علماء وفقهاء السلف وبعض المعاصرين».

المعاصرين أن ولي الأمر يجب عليه أن يترك رأيه لرأي أغلبية الشورى^(١)، ويفصلُ فريق ثالث فيرى أن هناك من المسائل ما ينبغي على ولي الأمر أن يترك رأيه فيها لرأي الأمة أو الشعب، بينما هناك نوع آخر لا يجب عليه فيه ذلك^(٢).

ونحن في هذه الدراسة ننظر إلى الشورى من عدة زوايا، ومن خلالها يتضح حكمها:
فمن زاوية وضوح المسألة أو خفائها؛ فإننا نقسم الشورى إلى ثلاث مجموعات:

١- ما تجب فيه المشاورة: وهو كل ما يراد اتخاذ قرار فيه تتعلق به مصالح الأمة، ولم يتضح وجه الصواب فيه لولي الأمر، فهذا تجب المشاورة فيه، حتى يقدم على بصيرة من أمره. ولا يعرض الأمة أو مصالحها للخطر بالإقدام على جهل.

٢- ما تجوز المشاورة فيه أو تستحب: وهو كل ما يراد اتخاذ قرار فيه، ووجه الصواب واضح لولي الأمر، فإنه يجوز لولي الأمر المشاورة فيه - إذا لم يكن من الأمور التي لا تحتتمل التأخير - تشوّفاً لمزيد من العلم والاطلاع حول الموضوع؛ تمشياً مع قول القائل: «رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، و «من جاءنا بأحسن مما قدرنا عليه أخذنا به».

^١ - انظر: (الشورى وأثرها في الديمقراطية)؛ حيث يقول: «وهذا رأي جمهور المعاصرين».

^٢ - انظر: (فقه الشورى والاستشارة)، د/ توفيق الشاوي، (ص ١١٦ - ١٢٠).

٣- ما تحرم المشاورة فيه: وهو ما تبين فيه حكم الشرع بإيجاب أو تحريم أو إباحة فلا يمكن المشاورة فيه، لقضاء الله ورسوله في ذلك: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: ٣٦]. ولا تكون الشورى فيه إلا في كيفية التنفيذ، إذا كان هناك أكثر من طريقة لتنفيذه.

ومن زاوية النظر إلى طبيعة الشورى ووظيفتها: فإن طلب الشورى إنما هو للمعاونة والمساعدة وليس للإلزام، فإن طالب الشورى يريد ممن يشاورهم أن يعينوه لا أن يلزموه برأيهم، وهو الذي يحدد كيف يفعل ذلك، وعلى ذلك فإن ولي الأمر هو الذي يحدد كيف يشاور؟ أيكون ذلك فردياً؛ بمعنى أن يستشير كل فرد على حدة، أم جماعياً بمعنى أن يجمعهم معاً ويعرض عليهم ما يريد، أم يستخدم هذا حيناً، وذاك حيناً آخر، وهذا في مسائل، وذاك في مسائل أخرى؟ وهل لذلك عدد ثابت، أو يستشير فردياً في حالة وأفراداً في حالات أخرى؟ وهل يلزم لذلك تكوين مجلس يُعرف بمجلس الشورى أو لا؟ وهل لهذا المجلس إذا عمل اجتماعات دورية أو أنه ينعقد عند الاستدعاء؟ وإذا كانت له اجتماعات دورية؛ فكم مرة يجتمع في السنة مثلاً، وأين، ومتى؟ والطريقة التي يتم تبادل الرأي فيها بين المجتمعين، وإلى أي مدى يؤثر غياب بعض أهل الشورى في قرارهم؟ وهل لذلك نصاب محدد؟ ونحو ذلك من الأمور، إنما يحددها من يستشير؛ لأنه الطالب للمعاونة والمساعدة.

ومن زاوية دخول الموضوع في صلاحيات الخليفة؛ فإننا نقسم ذلك إلى قسمين:

١- أمور يتولاها بمقتضى ولايته وهي داخلة في صلاحياته، فإنه ينفذها ويقوم بها على الوجه الذي يرى أنه يحقق مقاصد الولاية، ولا يجب عليه أن يستشير في ذلك إلا إذا لم يدر وجه الصواب من الأمور المشككة ولم يترجح له شيء فيها، فأما تسييره لأمر الدولة وإصداره للتعليمات التي تنظم ذلك، وعمل اللوائح والنظم التي يضبط بها أمره، واختياره لمعاونيه، وتوليته للولاية على الأقاليم أو غيرها، وتحديد صلاحياتهم ومحاسبتهم وعزلهم إذا اقتضى الأمر، ونحو ذلك من الأمور التي تدخل في صلاحياته، والتي يشار إليها في الفكر السياسي الوضعي بأنها «السلطة التنفيذية»؛ فإنه يعمل ذلك انطلاقاً من صلاحياته، ولا تجب عليه الاستشارة في ذلك، وإن كنا نقول: الاستشارة في هذه الأمور وما جرى مجراها - إذا لم يترتب عليها تعطيل للأمر - فيها خير كبير، ولن يعدم المستشار أن يستفيد خيراً إذا أحسن اختيار من يستشيره.

٢- أمور لا يملك التصرف فيها بمقتضى ولايته، فهذه لا يملك أن يمضيها إلا بموافقة أهلها على ذلك، ولذلك أمثلة: ففي غزوة بدر الكبرى لما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم ملاقاته المشركين - بعد نجاة قافلة مكة - استشار من معه في القتال، فوافقته على ذلك المهاجرون، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف بذلك وقال: «أشيروا علي أيها الناس!»، وهو يريد بذلك الأنصار، وذلك أن البيعة التي أخذها عليهم في مكة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج المدينة، وإنما

كانت قاصرة على أن يمنعه وهو في ديارهم مما يمنعون منه أنفسهم، ولم يُفرض الجهاد في ذلك الوقت فرضاً عاماً، فكان خروج الأنصار إلى القتال في غزوة بدر خارجاً عن حد البيعة، كما لم يكن هناك إلزام من الشرع بذلك؛ لذلك أصرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم على معرفة رأي الأنصار وموافقتهم على ذلك، فقال له سعد بن معاذ - رضي الله عنه - لما فطن أن رسول صلى الله عليه وسلم يقصدهم بقوله: «أشيروا عليَّ أيها الناس!»: «لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تتصرك إلا في ديارهم! وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم؛ فاطعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت..»، إلى أن قال: «والله! لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك»، فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشَّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(١). وفي غزوة حنين، عندما قسم الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين غنائمهم التي أفاءها الله عليهم؛ جاء وفد هوازن مسلماً تائباً وسألوه أن يمن عليهم بما غنمه المسلمون منهم من السبايا والأموال، ولما كانت هذه قسمة قد وقعت ووصلت أصحابها بمقتضى القسمة الشرعية، ووضع أصحابها أيديهم عليها وصارت ملكاً لهم بذلك؛ لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منهم ما استحقوه بحكم الشرع إلا بموافقتهم؛ لذلك عرض عليهم صلى الله

^١ - الرحيق المختوم، الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، (ص ١٨٦). وانظر: السيرة، لابن هشام، ٦١٦/١.

عليه وسلم ذلك وندبهم إليه، وبين لهم أن من طابت نفسه برد ذلك عليهم فليرده، ومن لم تطب نفسه فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يعوّضه عن ذلك من أول ما يفيء الله على المسلمين، «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هؤلاء القوم جاؤوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسيبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا. فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال: إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»^(١)، فهنا أيضاً شاوور رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب الشأن وعمل على رأيهم؛ لأنهم هم أملك بذلك.

ومن زاوية نطاق الشورى أو مجالها: فإنها تنقسم إلى نوعين:

مسائل دينية، ومسائل دنيوية، فالمسائل الدينية يُعمل فيها بمقتضى الدليل الشرعي، ولا التفات لمن خالف ذلك من كثرة أو قلة، «وإذا استشارهم؛ فإن بين له بعضهم»^(٢) ما يجب اتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو إجماع المسلمين؛ فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك؛ وإن كان عظيماً في الدين و الدنيا»^(٣). وإن كان عدد المخالفين كبيراً.

^١ - المرجع السابق، (ص ٣٨٨). وانظر: السيرة، لابن هشام، ٢/ ٤٩٠ - ٤٩١.

^٢ - وإن كان فرداً واحداً.

^٣ - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، شيخ الإسلام ابن تيمية، (ص ١٣٦).

وأما المسائل الدنيوية التابعة للمصالح؛ فإنه يشاور فيها ويكثر من الاستشارة، ويعمل بما يؤديه إليه اجتهاده بعد مشاورة أهل الاختصاص في ذلك.

ومن زاوية تحمُّله مسؤولية قيادة الدولة والواجبات الملقاة على عاتقه: فإن من حقه أن يستشير من يراهم أهلاً لذلك ولا يُفرض عليه أحد، كما أن من حقه أن يأخذ بالرأي الذي يراه محققاً لما أُنيط به من واجبات، وهذا الحق يقابله من وجه آخر حق أهل الحل والعقد في الاحتساب عليه إذا أساء في هذا الجانب.

صفات أهل الشورى:

ينبغي لولي الأمر أن لا يشاور إلا من تتوافر فيه الصفات التي تؤهله لذلك، سواء كانوا جماعة أو أفراداً، لأن في مشاورة من لا يستحق تشويشاً على الحق والصواب، وقد ذكر أهل العلم صفات أهل شورى الخليفة، فمن ذلك:

١- **التكليف:** أي يكون مسلماً بالغاً عاقلاً، فلا يكون غير المسلم أو الصغير غير البالغ أو المجنون غير العاقل من أهل شورى الأمير ومجلسه.

٢- **العدالة:** وهو أن يكون قائماً بالأركان والواجبات، متجافياً عن الكبائر والآثام العظام، وهي صفة يظهر منها غلبة دين المسلم على الشبهات والشهوات، فالاستجابة للشبهات تجر إلى الوقوع في البدع والضلالات، والاستجابة للشهوات تجر للوقوع في الفسق والمعصية والمجاهرة بهما، والعدالة من سلم من كليهما من البدع المضلة والمعصية المهلكة، فالعدل هو المسلم الذي ملك قلبه وجوارحه فأدى الواجبات،

وترك الكبائر المحرمات، ولم يمل بقلبه إلى بدعة، أو يجاهر بمعصية، يتحكم في هواه؛ فهو مأمون وقت الغضب والرضا، بعيد عن مواضع التهم.

٣- العلم والخبرة: اللذان يُتوصل بهما إلى الصواب، قال ابن خويزمنداد المالكي: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتّاب والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارته»^(١). وقال البخاري: «وكان القرّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً»^(٢)، وكان أبو بكر إذا أعياه أمر «دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم»^(٣).

٤- الرجولة: فهذا النوع من الشورى المتعلق بأمور الدولة يتطلب الخبرة الواسعة والاختلاط بالحياة العامة، والتحدث إلى الرجال وتبادل الآراء معهم، وهذه أمور النساء عنها بمعزل وقد قال الله - تعالى - للنساء: { وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى } [الأحزاب: ٣٣]. كما قال: { الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [النساء: ٣٤]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم

^١ - تفسير القرطبي، (٤/٢٥٠).

^٢ - البخاري كتاب الاعتصام/ باب قول الله - تعالى - : { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ }، فتح الباري، (٣٥١/١٣).

^٣ - قال ابن حجر - رحمه الله - : «وأخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران»، فذكره، فتح الباري، (٣٥٤/١٣).

من إحداهن»^(١). فالأصل قرار المرأة في البيت، والأصل قوامة الرجال عليهن، والأصل أيضاً أن الرجال أكمل عقلاً وديناً من المرأة، وإن كان هذا لا يمنع من وجود نساء عالمات أمينات لهن جودة رأي وفضل من رجاحة العقل، وقد يُشترن بالرأي الفائق الحُسن الذي لا يوجد عند كثير من الرجال، كما فعلت أم سلمة - رضي الله عنها - حينما أشارت على النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية بحلق رأسه أولاً حتى يقتدي به الصحابة ويمثلوا أمره، لكن ليس هذا هو الأصل، وإنما الأصل ما ذكرناه أولاً، ولذلك جاء في الحديث: «كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرًا، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ..»^(٢)، وفرق كبير بين أن تشير المرأة على زوجها أو أبيها أو أخيها أو أحد من محارمها الذين يجوز لها مخاطبتهم والجلوس إليهم والتحدث معهم، وبين مخالطتها للرجال الأجانب والجلوس معهم للتباحث وتبادل الآراء، والتي قد يطول فيها الأخذ والرد حتى تُعقد لذلك جلسات متعددة قد تطول وقد تقصر، تضطر فيها المرأة إلى التخلي عن وظيفتها الحقيقية التي لا يسد مسدها أحد، إضافة إلى المفاصد التي قد تتعرض لها وهي في غنى عنها والمجتمع كذلك.

٥. الأمانة والقوة: صفتان مترابطتان لا بد منهما لمن تُسند إليه الأمور المهمة، وقد وردتا في القرآن في أكثر من موضع لتدل على هذه

^١ - صحيح البخاري، كتاب الحيض/ باب ترك الحيض الصوم، فتح الباري، (٥١٤/٦).

^٢ - أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله: - تعالى: { وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا }، فتح الباري، (٥١٤/٦)، وقد وردت زيادة في هذا الحديث بلفظ: «وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»: انظر تخريجها في فتح الباري، (٥١٤/٦).

الحقيقة، فعندما طلبت ابنة الرجل الصالح من أبيها استئجار موسى - عليه السلام - قالت في حديثها عنه فيما قصه الله علينا: { يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [القصص: ٢٦]، وعندما أراد عفريت من الجن أن يأتي لسليمان - عليه السلام - بعرش ملكة سبأ قال فيما يدعم به طلبه: { وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } [النمل: ٣٩]. وقال الله - تعالى - في حق جبريل - عليه السلام - في تزكيته له: { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ } [٢٠] «مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ» [التكوير: ٢٠ - ٢١]. والقوة هنا ليست قوة الأبدان؛ وإنما قوة القلب ورباطة الجأش والثقة بالله والتوكل عليه في الصدع بالحق من غير تهيب ولا وجل، والإشارة بما يراه حقاً وصواباً، وإن خالفه الأكثرون، فلا يهاب قوة المخالف، ولا كثرة عدده، وقد «كانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأئمة من أهل العلم»^(١). قال ابن حجر - رحمه الله - : «وأما تقييده بالأئمة؛ فهي صفة موضحة؛ لأن غير المؤتمن لا يُستشار ولا يُلتفت لقوله»^(٢).

الأسس التي تبني عليها أحكام الشورى في الجانب السياسي في الإسلام:
تنطلق أحكام الشورى من عدة أسس، أمكن حصرها فيما يلي:

١ - مرجعية الكتاب والسنة.

^١ - صحيح البخاري، كتاب الاعتصام/ باب قول الله - تعالى - : { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } ، فتح الباري، (٣٥١/١٣) من كلام البخاري رحمه الله.
^٢ - فتح الباري، (٣٥٤/١٣).

- ٢ - مسؤولية الخليفة المباشرة عن حراسة الدين وسياسة الدولة به.
- ٣ - الاشتراك في المصلحة المبتغاة من الشورى.
- ٤ - الاشتراك في المسؤولية عن بلوغ الحق ونشره والعمل به.
- ٥ - عدم وجود حكم شرعي ملزم في المسألة موضع الشورى.
- ٦ - عدم انحصار إدراك الحق والصواب في شخص واحد ولو كان أعلم أو أفقه أهل الأرض.
- ٧ - عدم القدرة على الإحاطة التامة بالأمور كلها من قبل الفرد.

تنظيم شورى الخليفة:

ليس هناك ما يمنع في الشرع من أن يقوم الخليفة بتنظيم الشورى الخاصة به في مجلس شورى أو نحو ذلك، فيختار له من يثق فيهم ممن تتوفر فيهم صفات أهل الشورى، ويحدد عددهم، ويضع لهم التعليمات والضوابط التي تضبط العمل، ويستعين المجلس بمجموعات متخصصة في الأمور الفنية نظراً لتشعب التخصصات، واستحالة أن تحيط مجموعة صغيرة بجميع التخصصات، وأن تكون هناك متابعة ومراقبة شرعية من المجلس نفسه للتأكد من عدم مخالفة الاقتراحات للقواعد أو الأحكام الشرعية، ثم تُعرض الاقتراحات المختارة على الخليفة فيتدارسها معهم أو مع وزرائه ومعاونيه، ويعمل بما يرى أنه الأفضل من الاقتراحات المتقدمة، ويبقى بعد هذا كله حق الاحتساب من المتابعة والمراقبة لأهل الحل والعقد، سواء في اختيار أهل الشورى، أو في اختيار الاقتراحات للعمل

بها، وإذا اختلف أهل الحل والعقد مع الخليفة أو أهل شوراها؛ فإن العمل في ذلك على ما تقدم ذكره^(١).

بين الشورى والديمقراطية:

نظراً لطغيان الفكر الديمقراطي وعلو صوته انطلاقاً من مركز القوة الذي تمثله الدول العاملة به؛ فإن كثيراً من المسلمين - وخاصة العصرانيين - يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يثبتوا أن الإسلام دين ديمقراطي، أو أنه دين يدعو إلى الديمقراطية، أو على الأقل دين لا يعارض الديمقراطية بل يقبلها ويعتد بها، ويتسولون الدلالات من هنا ومن هناك، وقد تشبثوا في ذلك بأشياء كثيرة من أهمها «الشورى»، ونحن نعرض هنا - في إيجاز يتناسب مع حجم البحث - للديمقراطية كما يراها أصحابها، ثم نقرر بعد ذلك أين الديمقراطية من الإسلام؟

الديمقراطية كلمة يونانية قديمة تعني حكم الشعب، لما كانت الدولة ناتجة من الوجود الجماعي للأفراد؛ كان الشعب المصدر الطبيعي لنشأة الدولة ودواعي وجودها، واستقر الفكر الديمقراطي على الإقرار بأن الشعب صاحب المرجعية العليا، وأن إرادته هي القانون، وقد عبّروا عن ذلك بقولهم: «السيادة للشعب»، والسيادة: سلطة عليا مطلقة بلا ند ولا شريك، متفردة بإنشاء الإلزام أمراً ونهياً وتصحيحاً وإبطالاً وعقوبة؛ في كل أمور المجتمع، فالشعب هو الذي يشرع القوانين عن طريق السلطة التشريعية، وهو الذي ينفذها عن طريق السلطة التنفيذية، وهو الذي يقضي ويعاقب الخارجين عن تشريعاته عن طريق السلطة القضائية.

^١ - انظر: ص ٣٧ من هذه الدراسة.

وهناك عديد من الآليات التي يتبعها الفكر الديمقراطي لتحقيق هذه التصورات، والشورى مخالفة للديمقراطية في أصلها وفي آلياتها، فالشورى مسألة من مسائل الشريعة، والشريعة كلها مبنية على أساس توحيد الله وعبادته وحده وعدم الإشراف به، وأن الكتاب والسنة هما الأصل والعصام اللذان يُرجع إليهما في الأمر والنهي والإيجاب والتحليل والتحریم والتصحيح والإبطال والجزاء وفي كل شيء، فالدين قائم على رجوع المسلم في كل شيء لكتاب الله - سبحانه وتعالى - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والتي هي أيضاً مما أوحاه الله تعالى.

وبالمقابلة يتبين أن الديمقراطية كفرت بالله رب العالمين أمراً نهائياً في شؤون المجتمع وإن لم تكفر به خالقاً رازقاً، وآمنت بالشعب رباً يُشرع فيأمر وينهى ويضع القوانين والتنظيمات حسب تصوراته الذهنية ومعارفه وخبراته، وهذه مسألة لا تمثل عند الديمقراطيين الحقيقيين سباً ولا هجاء؛ إنما هي الحقيقة التي يقرؤون بها ويعترفون، فالديمقراطية تقيم نظاماً سياسياً علمانياً: «الديمقراطي يمكن أن يكون بروتستانتياً أو يهودياً، ملحداً أو مؤمناً، ففيما يتعلق بالدين يمكن القول إن الديمقراطية مذهب محايد يتمثل في مجموعة من المعتقدات العلمانية الصرفة، فالمفاهيم الديمقراطية لا ترتبط بالبواغث الدينية أو المضادة للدين، وأي نزاع بين الدين والسياسة الديمقراطية يمكن أن يحدث فقط عند إقحام التعاليم الدينية في الشؤون السياسية.. والديمقراطي - نظراً لمعتقداته السياسية - لا يقبل ولا

يرفض أي تعاليم دينية»^(١). وأما من حيث الآليات فقد عمد الفكر الديمقراطي إلى الفصل بين السلطات الثلاث (التشريعية - التنفيذية - القضائية)، وذلك منعاً للفساد السياسي أو الاستبداد، وللحفاظ على حقوق الناس وعدم تعريض حرياتهم للخطر.

وأما الآلية المعتمدة للوصول إلى الحكم؛ فقد اعتمد الفكر الديمقراطي على النظام النيابي القائم على تعدد الأحزاب، حيث يرشح الأفراد أنفسهم أو ترشحهم الأحزاب التي ينتمون إليها، ويتقدمون للشعب عارضين أفكارهم ورؤاهم طالبين من الشعب أن يمنحهم موافقتهم، وتعد الأحزاب الحائزة على أغلبية موافقة الشعب هي الأحزاب المعبرة عن الإرادة الشعبية، وهي المخولة حق ممارسة السيادة لأنها تمثل صاحب السيادة.

وبالنظر إلى الديمقراطية من حيث أصلها ومن حيث آلياتها من المنظور الشرعي؛ نجد أنها باطلة. وبالنظر إليها من داخلها؛ نجد أنها غير مستطية لتحقيق ما أقامت نفسها لأجله، ومن هنا يأتيها البطلان من داخلها أيضاً، فإذا كانت الآليات المطبقة في الفكر الديمقراطي هي لتحقيق العنصر الأساس وهو السيادة للشعب؛ فإننا نقول إن السيادة في الحقيقة إنما هي لطائفة قليلة جداً جداً بالنسبة لمجموع الشعب، وهي تمثل النخبة السياسية، وبيان ذلك من وجوه عدة فمن ذلك: وجود عدة أحزاب يتقاسمون أصوات الناخبين؛ مما يجعل الأصوات موزعة على عدة

^١ - الديمقراطية النظرية المعاصرة، م. ريجاي، (ص ٢٣٧)؛ نقلاً عن (نقض الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية)، د/محمد أحمد مفتي، (ص ٢٤).

اتجاهات، ومنها عزوف كثير من الناس عن المشاركة في الانتخابات، وهو الذي يُعبّر عنه بـ «اللامبالاة السياسية»، وهي ظاهرة واضحة، ومنها أن قوانين الانتخابات تحدد شروطاً لمن يحق له المشاركة فيها، وهي تُخرج عدداً كبيراً من الناس لعدم بلوغهم السن الانتخابي، أو لارتكابهم بعض الجرائم، أو لكونهم لا يتمتعون بحق المواطنة في الدولة التي يقيمون فيها. ومنها أن هناك أصواتاً باطلة.

ومن هنا يتبين أن الحزب الفائز في الانتخابات بالأغلبية هو في حقيقته أقلية بالنسبة لمجموع الشعب، ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندما تكون الأغلبية الفائز بها أغلبية ضئيلة قد تصل أحياناً إلى ٥١٪ أو ٥٢٪^(١)، فكيف يكون هؤلاء معبرين عن الشعب بينما هناك ٤٨٪ يخالفونهم ولا يوافقونهم؟ حتى الحزب الفائز لا يشارك في الحكم جميع أعضائه، وإنما تشارك في السلطة التشريعية منه نخبة لا تزيد في أكثر البلدان عن خمسمائة فرد من الشعب الذي قد يزيد تعداده عن مائة مليون فرد.

وإذا تجاوزنا ذلك فلنا أن نقول:

أ - إن هذا التمثيل أو النيابة عن الشعب في السيادة أمر لا يمكن تحقيقه ولا التحقق من حصوله، فإذا كانت السيادة تعني إمضاء إرادة الشعب؛ فكيف يمكن التنازل عن الإرادة؟ وكيف يمكن معرفة إرادة كل فرد عند كل موضوع أو عند كل تشريع حتى يمكن القول بأنه

^١ - علماً بأن هذه النسبة هي من المشاركين في الانتخابات لا من أصل عدد الشعب.

تتأزل عنها؟ وعلى ذلك فإنه يستحيل القول بأن ما بيديه النواب في المسائل المعروضة في المجلس النيابي إنما هو تعبير عن إرادة الناخبين.

ب- ثم إنه من حيث تعدد الأحزاب الممثلة في المجلس النيابي لا تكون هناك إرادة واحدة، بل عدة إرادات متعارضات، وقد يكون الفارق في العدد بينها قليلاً، فأى تلك الإرادات يُعدُّ معبراً عن الإرادة الشعبية؟! ج- والدستور وهو أعلى وثيقة قانونية في الدولة، وهو الذي يحدد المسؤوليات والاختصاصات، ويقسم السلطات، ويبين النظام السياسي والتوجه الاقتصادي وغير ذلك، المفترض فيه أن وضعه على هذا النحو إنما جاء من قبيل الإرادة الشعبية، وإذا صدق هذا على الدستور عند وضعه أول مرة. وإن كان لا يصدق في الحقيقة. فإن الدساتير تظل تحكم البلاد حتى بعد انقضاء الجيل الذي وضعها انقضاء تاماً، ومعنى هذا أن الأجيال اللاحقة تُحكم بإرادة شعبية لجيلٍ قد صار جيفاً تحت التراب.

د- قد يحدث أن يتم الرجوع إلى الشعب مباشرة لأخذ رأيه في موضوع ما عن طريق الاقتراع أو الاستفتاء، وهذا الرجوع يناهز تفويض الشعب للمجلس النيابي ليكون معبراً عن الإرادة الشعبية، ثم إن هذا الرجوع رجوع صوري لا قيمة له حقيقة؛ إذ إن مشكلات الدولة الحديثة ذات تعقيدات كبيرة تحتاج إلى طابع فني تخصصي بالدرجة الأولى، ولا يتمكن الأفراد العاديون. وهم أغلبية الناخبين. من تقدير هذه الأمور تقديراً حسناً، أو فهمها فهماً جيداً، وعلى ذلك فإن موافقتهم عليها أو معارضتهم لها تُعدُّ مجرد مسايرة للأمر السائد بين الناس، والذي يقوم

الإعلام الموجّه بدور كبير في إيجاده، وبالتالي فليس هناك قدرة حقيقية على الاختيار الحر، وقد يحاولون التغلب على ذلك بأن تتم صياغة الاستفتاء أو الاقتراع على أشياء محددة شديدة العمومية من غير دخول في تفاصيل فنية، لكن لنا أن نقول: وما قيمة الموافقة أو المخالفة لمثل ذلك؟

وبالنسبة لآلية الفصل بين السلطات فالملاحظ عليها عدة أمور:

١ - أن هذه الآلية إنما هي حل ضمن إطار المشكلة التي تعاني منها الأنظمة الوضعية جميعها؛ ألا وهي غياب المرجعية العليا خارج النطاق البشري.

٢ - أن هذه الآلية إنما هي حل وقتي للمشكلة؛ لذا لم تبق على حالتها التي ظهرت عليها أول مرة، بل أخذت تتطور وتنتقل من صورة لأخرى.

٣ - أن التطور الحاصل في الأنظمة السياسية المعاصرة؛ قد جعل هذه الآلية من مخلفات الفكر السياسي ولم يعد لها في الواقع إلا وجود شكلي - وإن كانت تظهر بشكل أوضح في النظام الرئاسي -، وأن كل الأنظمة المعاصرة تتجه الآن إلى جعل السلطة التنفيذية في موقع أعلى من السلطة التشريعية - رغم أنها المعبرة عن الإرادة الشعبية -، وهذا هو الواقع فـ «إذا كان مبدأ فصل السلطات يقضي لأول وهلة بأن يعمل البرلمان مستقلاً عن الحكومة؛ فإن حقائق الأشياء تبدو عند الفحص الدقيق في صورة مغايرة، فالحقيقة أن الحكومة (السلطة التنفيذية) تتحكم في

عمل البرلمان (السلطة التشريعية) إلى حد كبير^(١)، «وفي جميع أنحاء العالم تلعب الحكومة دوراً هاماً في تشكيل المجالس النيابية، سواء شكّلت هذه المجالس عن طريق الانتخاب الخالص أو عن طريق الجمع بين الانتخاب وبين التعيين»^(٢)، ولم تستطع الأنظمة الديمقراطية التي تبنت هذه الآلية بصورة قوية (النظام الرئاسي) أن تستمر على ذلك، واضطرت في نهاية الأمر إلى إيجاد نوع من الاتصال والتعاون بين السلطتين^(٣).

وبالنظر إلى النظام الانتخابي القائم على أن الفائز بالأغلبية في الانتخابات هو الذي يُشكّل الحكومة (السلطة التنفيذية)؛ فإننا نجد - والحالة هذه - أن أغلبية المجلس النيابي (السلطة التشريعية) والحكومة (السلطة التنفيذية) ينتميان إلى حزب واحد، وهنا لا يكون الفصل بين السلطات أكثر من مجرد حبر على ورق، فيكون أكثرهم نواب حزب الأغلبية الدفاع عن الحكومة وتصرفاتها، كما أن النواب في تشريعاتهم إنما يراعون توصيات الحكومة في ذلك، والتي يتم الاتفاق عليها في الاجتماعات في مقار الأحزاب، فالفصل هنا صوري إلى حد بعيد، وقد تعارض أحزاب المعارضة أو الأفراد المستقلون في المجلس، وقد تسأل وتستفسر لكن الأمور تُقضى في هذه المجالس بالأغلبية، وعند أخذ الأصوات؛ فإن الأغلبية ستعطي رأيها لحزبها انطلاقاً من مبدأ الالتزام الحزبي، وعلى ذلك فالمراقبة هنا شكلية إلى حدود بعيدة، والهدف

١ - السلطات الثلاث، د/سليمان الطحاوي، (ص ٥٨٥).

٢ - المرجع السابق، (ص ٥٨٠).

٣ - المرجع السابق، (ص ٥٢٤ - ٥٢٨).

المتوخى من الفصل بين السلطتين - وهو الحفاظ على حقوق وحرىات المواطنين - يضيع باندماج السلطتين كما هو الواقع.

والسلطة يناظرها في الشرع لفظ «الولاية»، فالسلطة القضائية يناظرها: ولاية القضاء، والسلطة التنفيذية يناظرها: الخلافة وما يتفرع عنها من ولايات، وليس في الإسلام سلطة تشريعية أي ولاية تشريعية، وبإخراج التشريع من البشر يُحافظ فعلاً على حقوق الشعوب وحرىاتها، فمهما كان التشريع محققاً للإرادة الشعبية؛ فهو لم يخرج عن أن جعل الناس عبيداً لمن وضع هذا التشريع، وأما التشريع في الإسلام فهو لله رب العالمين، يحكم في خلقه بما يشاء، فهو خالقهم ورازقهم، وهو يحييهم ويميتهم ويحاسبهم، ولذلك فهو الذي يُشرّع لهم.

والإسلام فيه الاجتهاد المنضبط المعتمد على الأدلة الشرعية - تحقيقاً لعبودية الناس لرب العالمين دون ما سواه - والقدرة على الاجتهاد فضيلة من الفضائل؛ من اكتسبها بشروطها فهو من أهلها لا يُحجز عنها ولا يُمنع منها حاكماً كان أو محكوماً، ومن لم يكن لذلك أهلاً حيل بينه وبين الاجتهاد، يستوي في ذلك المسلمون جميعهم.

والقضاء في الإسلام ولاية داخلية في صلاحيات الخليفة، فيجوز له أن يقضي - إذا كانت تتوفر فيه شروط القضاء وهو الأصل -، كما يجوز له أن يفوض أو ينيب غيره في ذلك ممن تتوفر فيهم شروطه، ومع أن القضاء ولاية تابعة للخليفة؛ لكنه لا يجوز له أن يقضي برأيه بل بما في الشريعة من أحكام، كما لا يجوز له التدخل في عمل القاضي الذي ينيبه في القضاء، فلا يحق له أن يلزمه بالقضاء بمذهب معين، ولا يحق

له أن ينقض حكمه ولو خالف اجتهاد الخليفة ما دام أنه لم يخالف كتاباً أو سنةً أو إجماعاً، ولا يحق له أن يعزله عن القضاء إلا بسبب يستوجب العزل، ولذلك اتفق أهل العلم على أن الإمام لو ولى قاضياً القضاء بشرط أن يقضي بمذهب معين؛ فإن هذا الشرط باطل لا يجب **الوفاء به، وفي فساد تلك التولية وجهان:**

وجه يقول: الشرط باطل والولاية غير صحيحة.

والثاني يقول: الشرط باطل والولاية صحيحة، ويقضي القاضي بما يؤديه إليه اجتهاده^(١)، وبهذا يظهر الاستقلال التام للقضاء الإسلامي.

وأما بالنسبة لآلية الأحزاب فقد أخفقت في تحقيق المبدأ الأساس في الديمقراطية وهو تحقيق السيادة الشعبية، ذلك أن الحزب الفائز ولو كان يتمتع بأغلبية مطلقة في المجلس النيابي، ولا تكاد توجد أحزاب أخرى تشاركه. وهذا من النادر بل المستحيل في ظل الانتخابات الحرة.؛ فإن الذي يدير الحزب هو الهيئات الرئاسية للجان الحزب بجانب رئاسة الحزب العامة، «فهي التي تحدد موقفه من مشاكل الدولة، ثم تحدد لممثلي الحزب في البرلمان خطة يسيرون عليها؛ بحيث لا يحيد عنها إلا من التزم الاستقالة من حزبه، وهكذا يصبح النائب ممثلاً لحزبه لا للشعب أجمعه»^(٢). وفي حالة عدم تمكن الأحزاب من الأغلبية المطلوبة التي تمكنهم من تشكيل الحكومة؛ فإن الأحزاب تلجأ إلى إقامة ائتلاف بين عدة أحزاب لتحقيق الأغلبية المطلوبة لتشكيل الحكومة، ويحدث

^١ - انظر: الأحكام السلطانية، (ص ٧٢).

^٢ - السلطات الثلاث، (ص ٦٣١).

في هذه الحالة تنازلات من الأحزاب لتكوين ذلك الائتلاف؛ بحيث لا تكون الرؤية النهائية للائتلاف معبرة عن رؤية حزب على الانفراد، وفي هذه الحالة فإن الائتلاف يكون ضعيفاً هشاً، ويتعرض للابتزاز السياسي من بعض أحزاب الأقلية، فيوافق الائتلاف على طلبات أو تصورات أحزاب الأقلية. وإن لم يكن مقتنعاً بها لتفادي سقوطه. ، وعليه فإن الحكومات تصبح أسيرة لدى أحزاب الأقلية؛ إذ تملك هذه الأحزاب أن تمنح الحكومة ثقتها فتبقيها في الحكم، أو ترجح كفة المعارضة فتسقط الحكومة؛ مما يعني أن بضعة نواب هم المتحكمون حقيقة في السلطة، وهذا أيضاً فشل في تحقيق سيادة الشعب، وقد حاول الفكر الديمقراطي أن يتغلب على هذه الصعوبة باللجوء إلى نظام الحزبين، حيث تتبلور القوى السياسية في المجتمع حول حزبين كبيرين؛ مما يمكن أحدهما باستمرار من الحصول على الأغلبية اللازمة لتشكيل الحكومة، لكن هذا الحل يؤدي إلى أن يكون كل حزب وكأنه مكوّن من مجموعة من الأحزاب الصغيرة فيما يعرف بالأجنحة، وقد تحدثم الخلافات بين تلك الأجنحة عند بعض القضايا المهمة فتؤدي إلى تفتيت الحزب، وقد يحدث أن يسيطر قادة الحزب على تلك الخلافات بتغليب بعض الأجنحة على بعض، فيسقط بذلك شعار حرية النائب في التعبير عما يراه صواباً.

من خلال ما تقدم يظهر الفرق بين الشورى وبين الديمقراطية، ويتبين أن دعوى بعض الناس بأن الإسلام دين ديمقراطي أو أن الديمقراطية هي تطبيق عصري للشورى؛ دعوى باطلة عارية عن الصواب.

كان ما تقدم بعض الأحكام والمؤسسات والمعالم الرئيسية المتعلقة بنظامنا السياسي، ويحق لنا أن نتساءل بعد الغياب الطويل له: ما مستقبل نظامنا السياسي في تلك الأوضاع المعاصرة؟ نستطيع أن نرصد هنا العديد من التحديات والمعوقات التي تواجه عودة النظام السياسي الإسلامي مرة أخرى إلى الواقع، ويمكن تقسيمها إلى تحديات خارجية ومعوقات داخلية.

فمن التحديات الخارجية:

١- تميل كفة ميزان القوى في العالم إلى المعسكر المعادي للإسلام ميلاً كبيراً، وهذه القوى ترفض بشدة عودة النظام السياسي الإسلامي مرة أخرى، بل هي التي سعت بكل قوة حتى تمكنت من إسقاط الخلافة العثمانية وفتيتها إلى دول متفرقة.

٢- رياح العولمة التي بدأت تهب بكل قواها على بلاد المسلمين، والتي تحاول أن تصهر المسلمين مع غير المسلمين في نسق ثقافي وفكري واجتماعي واحد، وتذويب الخصوصيات والقضاء على الهويات.

٣- حرص المعسكر المناوئ للإسلام على نشر أفكاره وثقافته المتعلقة بالنظام السياسي، وتصدير نسقه الديمقراطي من حيث التصورات والآليات، ومحاولة فرض ذلك بالقوة سواءً بالتهديد أو باستخدامها.

ومن المعوقات الداخلية:

١- سيطرة الأنظمة العلمانية على كثير من بلاد المسلمين، وموالاتهم للمعسكر المعادي للإسلام لاشتراكهما في الهدف.

٢- جهل الكثير من أبناء الأمة بأحكام النظام السياسي في الإسلام.

- ٣- انهزامية كثير من أبناء الأمة واغترارهم بالنظم المعاصرة.
- ٤- قلة بل ندرة المؤلفات المعاصرة ذات الأصالة في النظام السياسي الإسلامي؛ إذ جل - إن لم نقل جميع - ما هو مكتوب في ذلك إنما هو متأثر - على درجات متفاوتة فيما بينها - بالفكر الديمقراطي وما يقدمه من حلول ومؤسسات في إدارة الدولة وحل الإشكالات بين الحكومات والمعارضة.
- ٥- قلة الكتب المنشورة مما دونه الفقهاء القدامى، إضافة إلى أن الحلول التنظيمية التي تقدمها تلك الكتب إنما تعالج أوضاع العصر الذي كتبت فيه.
- ٦- ضعف عناية الدعاة بمسائل هذا الباب.
- ومستقبل النظام السياسي متوقف على قدرة المسلمين على التغلب على التحديات والمعوقات، وليس من الواضح أن يتم في المنظور القريب التغلب على تلك التحديات والمعوقات إلا أن يحدث شيء غير عادي، ولكن هذا لا يمنع من البداية والثبات على العمل حتى يؤولي ثماره، والخطوة الأولى في هذا المجال هي نشر العلم بذلك وإيصاله لفئات الشعب المختلفة؛ كل بالطريقة التي تناسبه، وهذا يعني أنه لا بد من الاستثمار في هذا الجانب، **وقد يكون ذلك عبر الوسائل التالية:**
- ١- بناء المواقع على الشبكة العالمية المتخصصة في هذه المسائل.
- ٢- طباعة الكتب التي تبين تلك القضايا من المنظور الشرعي الصحيح.
- ٣- العناية بذلك الجانب في المحاضرات وخطب الجمعة والدروس.

٤- توزيع الأشرطة التي تخدم ذلك المجال.

٥- إقامة الندوات والحوارات في المسائل المتعلقة بذلك النظام.

وعندما ينتشر العلم بتلك المسائل ويقوى بين الناس؛ فإنه ستظهر

خطوات أخرى تلي تلك الخطوة، والله الموفق لكل خير.

الفصل السادس
كتابة التاريخ الإسلامي
بين المؤرخين المسلمين
والمستشرقين

الفصل السادس

كتابة التاريخ الإسلامي بين المؤرخين المسلمين والمستشرقين

تحكمت النظرة الاستعمارية التي اتخذها الغرب منهجاً في تعامله مع الشرق، في تعامل المستشرقين مع الإسلام والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وسيرته العطرة والتاريخ الإسلامي، فانقسموا إلى فرقتين مختلفتين في الظاهر متفقتين في الباطن، الأولى مجاهرة متعصبة، والثانية متوارية متحاملة. فما لبثوا أن انبرى لهم علماء المسلمين بمنهج قويم مصدره كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة، توثيقاً وثبتاً وتثبيتاً، فكشفوا نوايا المستشرقين وأظهروهم على حقيقتهم بالحجة والمنطق والبرهان، معترفين بما لهم فضل وبما بذلوه من جهد في خدمة التراث العلمي الإسلامي، منبهين إلى بعد معظم المستشرقين عن العلمية والمنهجية رغم ما ادعوه من موضوعية كان القصد منها ستر ما انكشف من تحريف وتزييف ودس على الإسلام وتشويه لوجهه المشرق الوضاء.

مناهج المسلمين في كتابة التاريخ:-

يرتبط الحديث عن مناهج المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي بالحديث عن تدوين التاريخ والهدف منه، فمن المعلوم أن تقصى الرواة الحديثين أدى الى نشؤ أحد فروع التاريخ عند العرب، وهو تراجم الأشخاص وطبقاتهم، كما مهدت العلوم الحديثة لنشأة علم التاريخ نفسه على نحو إجمالي مبتدئاً بتدوين السير والمغازي النبوية بحسب إتباع منهج الإسناد القائم على منهج الجرح والتعديل ولذا فإنه يمكننا القول

بأن علم التاريخ قد نشأ وترعرع في أحضان علوم الحديث ، حيث استعار علم التاريخ من علم الحديث أداه نقدية عملية استخدمت في تنقية وغرلة الأخبار التاريخية منذ أن اهتم العرب بتدوين هذه الأخبار عند منتصف القرن الثاني للهجرة. وكان الهدف من تدوين التاريخ عند المسلمين، في البداية ، يرتبط قبل كل شيء بمقتضيات ومتطلبات دينية صرفة^١. وفي ارتباط التاريخ الإسلامي بالحديث النبوي الشريف كما نرى حصانة له ووقاية من عبث العابثين وضلال المضللين على مر الدهور والسنين ، وقدرة على الاستمرار رغم ما يحاك ضده من مكائد ويهدده من أخطار ، فُسِّتَ الله في كونه ماضية وُسِّتَ المصطفى (صلى الله عليه وسلم) واقية وحامية لما حواه سجل تاريخ الإسلام حاضراً وفي العصور الخالية.

صور الكتابة التاريخية :-

أكثر المؤرخون المسلمون من صور الكتابة التاريخية نذكر منها على سبيل المثال تواريخ العالم الثلاثة التي سبقها كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (مطلع القرن الثالث الهجري) وأولها تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب بن جعفر (٢٨٤هـ) الذي وضع منهجه على أساس التعاقب الزمني للشخصيات ، وجمع أحياناً عدة أحداث في سنة واحدة. وثانيها :تاريخ الأمم والملوك - للطبري وهو عند كثير من المؤرخين أعظم أهمية من كتاب اليعقوبي. وقد أسبغ الطبري على

^١ - محمد عبد الكريم الوافي: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب. بنغازي. جامعة قار يونس، ط١، ١٩٩٠م، ص١

كتابه تدقيق المتكلمين وعطاءهم ومناهجهم واتبع في تنظيمه الترتيب الزمني، وسار على منهج الحوليات وثالثها وأعظمها تاريخية من مؤلف المسعودي: "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وهو كتاب أدبي يبحث في تاريخ الخليفة. والكتب الثلاثة تعتبر نماذج للتاريخ الإسلامي العالمي في ذلك الحين (نهاية القرن الرابع الهجري).

وقد شهد أوائل القرن الخامس الهجري توقفاً نسبياً لفترة التجربة التاريخية التي تم سد فراغها بتاريخ عالمي في اللغة العربية وهو كتاب "المنتظم" لابن الجوزي الذي أدخل فيه تقسيماً فاصلاً بين الحوادث والوفيات، وهو يشتمل على جميع الأخبار المطلوبة لمن يفتقدون الوقت أو الصبر على دراسة المصادر الأولى منها كتاب "شُرور العقود" الذي لخص فيه كتابه "المنتظم".

ولم يلبث المؤرخ المسلم بعد انتشار التدوين في القرن الثاني الهجري أن تحرر تدريجياً من طريقة الإسناد التي كانت تلزم المؤرخ بأن يكون مجرد إخباري، أي ناقل للخبر إلى الكتابة. والمتأمل في هذا يدرك لأول وهلة دوافع المستشرقين الرامية إلى التقليل من شأن الشرق والشرقيين، وأعظمها دافعاً الحسد الذي أيقظ المستشرقين من سباتهم العميق على ضوء علوم الشرق وأنوار علمائه الذين أضاءوا دياجير ظلمات جهل الغرب بشتى صنوف العلوم والمعارف المرسله التي تعنى بالخبر في ذاته ومناقشته. وكانت النتيجة هي مدرسة الإمام الطبري ومن سبقه من المؤرخين الذين

^١ - عبد العليم عبد الرحمن خضر: خضر المسلمون وكتابة التاريخ، العهد العالمي للفكر الإسلامي - سلسلة المنهجية الإسلامية (٦)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص ٧٤.

كانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بالإسناد وتسلسل الرواة إلى الاكتفاء بإيراد الأخبار غير المسندة إلى أصحابها.^١ أي ظهور مؤرخين ابتعدوا بالرواية التاريخية عن رواية الحديث النبوي الشريف؛ منهم اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) والمسعودي علي بن الحسين بن علب (٣٦٤هـ) اللذان اكتفيا بذكر المادة التاريخية في مقدمات الكتب، دراسة نقدية في بعض الأحيان كما فعل المسعودي في مقدمة كتابه مروج الذهب. ولم يكن ما حدث تطوراً في طريقة الكتابة فقط بل كان تطوراً في أسلوب الكتابة الذي أصبح بسيطاً مرسلأً وواضحاً في آن واحد يكاد معظمه يخلو من الشعر مع استخدام السجع بدلاً من أسلوب الجمل القصيرة الجافة التي لا ترتبط فيما بينها بصلة^٢.

وهنا أيضاً كما نلاحظ ابتعاد عن الالتزام بالأسلوب التاريخي البحت إلى الأسلوب الأدبي باستخدام أسلوب بسيط سهل تتجنب فيه الزخرفة اللفظية والألفاظ الدارجة والاهتمام بإبراز المادة التاريخية في عبارات قصيرة توضح المعنى المقصود في براعة تغني القارئ عن التفريق بين المؤرخ والأديب وبين التاريخ واللغة العربية وهو ما يفرض على المؤرخ أن يكون لغوياً عارفاً بالأدب الذي يضي سهولة وسلاسة على أسلوب الكتابة التاريخية الذي لم يعد هضمه متيسراً بسبب ما فيه من مادة جافة.

^١ - محمد عبد الغنى حسن. علم التاريخ عند العرب، القاهرة: ١٩٦٢م، ص ١٦٧ - نقلا عن السيد

عبد العزيز: سالم مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية، ص ٧٧

^٢ - السيد عبد العزيز سالم. مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية، ص ٧٧.

وبجانب هذا الأسلوب وجد من المؤرخين من سلك طريقاً آخر في الكتابة التاريخية وذلك باستخدام أسلوب بسيط سهل يهتم بإبراز المادة التاريخية بعبارات قصيرة توضح المعنى المقصود في براعة يستسيغها القارئ، من هؤلاء ابن الأثير وابن طباطبا وابن حيان، وينفرد ابن الأثير عن غيره من المؤرخين بأسلوب بسيط واضح لا يجاريه فيه أحد ممن كتب قبله أو بعده. وكثيراً ما يدخل في كتاباته عبارات أقرب إلى الأمثال^١.

وفي أسلوب ابن الأثير نقلة أخرى في طريق تطور الكتابة التاريخية فاستخدام المثل يختصر المطول ويمنع الخلل ويكشف عن الأدواء والعلل ويبعد عن السأم والملل. أما ابن طباطبا فتجده يلتزم أسلوباً خاصاً به لم يتقيد فيه بروايات الأخباريين السابقين عليه، فهو يعرض مادته التاريخية في وضوح وبساطة وإيجاز^٢. ويظهر ذلك في تناوله لحادثة مقتل الحسين وحادثة واقعة الحرة في عهد خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فهو يقول عن مقتل الحسين: "هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظماً لها واستفظاعاً، فإنها قضية لم يجر في الإسلام أعظم فحشاً منها، ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسيئ والتمثيل ما تشقعر له الجلود^٣."

^١ - انظر: المرجع نفسه، ص ٧٩، نقلاً عن: عبد القادر طليمات، المؤرخ ابن الأثير

^٢ - السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ٨٠

^٣ - محمد بن علي بن طباطبا. كتاب الفخري في الاداب السلطانية، بيروت: ١٩٦٠م، ص ١٣-

١٤- نقلاً عن السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ١٨

ورغم الجهود التي بذلها المؤرخون المسلمون في القرون الأولى للهجرة من أجل أسلوب متميز للكتابة التاريخية يمتاز بالرصانة والمتانة والمرونة والسلاسة، غير أن كتابات المؤرخين المتأخرين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين شهدت شيوع أساليب عامية، مثل: ابن إياس في كتابه: "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" وابن الفرات (٩٠٧هـ) في كتابه "تاريخ الدول والملوك".^١

مناهج المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي

التزم المؤرخون العرب (المسلمون) بالرغم من تعدد صور الكتابة التاريخية بينهم، منهجين في كتاباتهم التاريخية. الأول: منهج التاريخ الحولي أو التاريخ حسب السنين، والثاني: المنهج الموضوعي أو منهج التاريخ حسب الموضوعات. أما منهج التاريخ الحولي فهو منهج يقوم على تجميع ما اختلف من الحوادث في كل سنة والربط بينها بكلمة "وفيها" أي في السنة من أول حدث وقع فيها إلى آخر يوم منها، حتى إذا انتهت حوادثها، انتقل المؤرخ إلى حوادث السنة التالية، وذلك باستخدام جملة بدلاً عن كلمة "ثم دخلت سنة كذا" أو "جاء في سنة كذا".^٢

وما يجب التنبيه له في هذا المنهج هو أن السنة هي التي تتحكم في الحوادث وليس الحوادث هي التي تتحكم في السنة كما يجب، ولذلك فإن السنة تشمل الحوادث المنتهية وليس كل الحوادث الممتدة، فالمؤرخ

^١ - راجع: ابن إياس. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، ج ٤، القاهرة: ١٩٦٠، ص ٣٥٩.

^٢ - السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ٨٢.

الحوالي لا يذكر من سياق الحادثة التاريخية إلا ما يخص حوادث السنة التي يجمع كل أحداثها، وفي هذا عيب لا يخفى يتمثل في تمزيق سياق الحادثة التاريخية الطويلة. وقد قوبل هذا المنهج بالنقد من قبل مؤرخين مسلمين أشهرهم ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠هـ) الذي حاول بقدر المستطاع تجنب الوقوع فيما وقع فيه المؤرخون الحوليون فقام بجمع عناصر الحالة التي تتصل إلى عدد من السنين واصلاً بين أجزائها في سنة معينة وفي موضع واحد حتى تبرز القيمة الخيرية للحادثة، لكنه مع ذلك لم يستطع في جميع الأحوال أن يطبق هذه الطريقة دائماً، إلا أنه وفق في تيسير مهمة القارئ وذلك لوضعه للأحداث في عناوين تعلن عن مضمونها،^١ أيضاً قام بنقد المنهج الحولي الكاتب الكبير النويري (٧٣٢هـ) باتخاذ المنهج الموضوعي كاتباً في تاريخ الدول دولة فدولة، فلا ينتقل من الحديث عن تاريخ دولة إلا إذا انتهى من عرض تاريخ الدولة السابقة، متبعاً في نفس الوقت المنهج الحولي في ذكر أحداثها مقسماً التاريخ الإسلامي إلى دول مبتدئاً بالسيرة النبوية.^٢

إلا أن أول مؤرخ وصل تاريخه مرتباً على السنين هو عمدة مؤرخي العرب الإمام الطبري الذي ذاعت شهرته بتفسيره للقرآن الكريم المعروف

^١ - عبد القادر طليمات. المؤرخ ابن الأثير، ص ٣، نقلاً عن: عبد العليم خضر، مرجع سابق، ص ٨٤

^٢ - عبد العليم خضر، مرجع سابق، ص ٨٤

^٣ - المرجع نفسه.

^٤ - السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ٨٥

بتاريخ الطبري، وبكتابه التاريخي العظيم "تاريخ الرسل والملوك" أقدم مصدر كامل للتاريخ العربي رتبت حوادثه وفقاً للمنهج الحولي من الهجرة إلى سنة ٣٠٢هـ واتبعت في روايته طريقة الإسناد بإسناد الرواية إلى سلسلة من الرواة توثيقاً للأخبار التي يرويها لا يفضل رواية على رواية مكتفياً بعرض الروايات فيقف بذلك موقفاً حيادياً وهو في هذا يشبه من المؤرخين السابقين: عبدالرحمن بن عبدالحكم (ت ٢٥٧) وأحمد بن جابر البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) الذي تأثر بما دونه الواقدي والمدائني وغيرهما في الفتوح.^١ وقد اعتمد على الطبري من المؤرخين ممن جاء بعده مكسويه، وابن الأثير والذهبي وغيرهم.^٢

ولأن منهج المستشرقين قام على التشكيك في كل ما هو إسلامي وفيما سبقهم فقد بادر "روزنثال" إلى الشك في أن الطبري هو أول من طبّق الصور الحولية على الكتابة التاريخية وذلك لكبر حجم كتابه من جهة، ولوصول أخبار تشير إلى استعمال المؤرخين الأوائل لصورة الحوليات قبل الطبري، إذ إن الكتابة التاريخية على المنهج الحولي كانت معروفة في العراق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري^٣، كما أن فكرة الكتابة التاريخية على المنهج الحولي أو وفق السنين في رأيه ليست ابتكاراً لمؤرخي العرب، فقد كانت معروفة في الكتب

^١ - راجع: السيد عبدالعزيز سالم، ص ٨٦، الدوري، ص ٥٦ والسيد عبد العزيز سالم. المغرب الكبير، ج ٢، الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ٩٣-٩٦.

^٢ - السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق ص ٨٧.

^٣ - فرانز روزنثال، المسلمون وعلم التاريخ، ص ١٠٢ وما يليها نقلاً عن السيد عبد العزيز سالم

الإغريقية وأنها انتقلت إلى مؤرخي العرب الأولين عن طريق اتصالهم بأولي العلم من السريان المسيحيين أولاً ثم عن طريق رجوعهم إلى المصادر الإغريقية الأصلية مباشرة.¹

ولكنه رغم اعتقاده بأن مؤرخي العرب قد استلهموا طريقة التاريخ الحولي من مؤرخي الإغريق والسريان، فهو يعترف بأن الكتابة الإغريقية لم يكن لها تأثير على مؤرخي العرب، وإنما اقتصر على علوم الفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافية والكيمياء والطب والحشائش والعقاقير، وأن العرب أبدعوا في هذه الطريقة وطوروها، فهذا هو ذا روزنثال يتناقض مع نفسه ويرد عليها بنفسه مرسخاً النظرة الاستعمارية من جانب الغرب إلى الشرق من خلال اعترافه الصريح بأن المنهج الإغريقي السرياني الحولي لم يكن له تأثير على مؤرخي العرب، وبالتالي ينفي ما ذكره من أخذ العرب للمنهج الحولي من الإغريق والسريان ويثبت للإمام للطبري حق السبق في هذا المنهج عن طريق نفي الاستلهام والاقْتباس في غياب المؤثر، ووصف العرب بالإبداع والتطور الذي يقابله التخلف في الغرب، ومع الإقرار بأن التاريخ العربي لم يأخذ منهجه الحولي عن الغرب، فهذا يعكس مدى الأزمة الأخلاقية التي يعيشها المستشرقون الغربيون تجاه كل ما هو إسلامي، فعندما لا يجدون من يهتم بأمرهم يقومون بالرد على أنفسهم فيفتضح أمرهم وتتكشف أباظيلهم.

¹ - أوليري - مسالك الثقافة الإغريقية إلى الغرب، ترجمة الدكتور ثمام حسان، القاهرة: ١٩٧٥، ص ٣؛ السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق ص ٨٨.

فروزنتان هاله أن يصدر عمل ضخمة من مؤرخ عربي فلم يجد بدأ من الشك ولكنه في ذكره من سبق الطبري لهذا المنهج كان يبحث عن مؤرخ عربي ينسبه له فلما لم يجد من هو في مقام الطبري نسبة إلى منهج الإغريق والسريان، وليس إلى مؤرخ إغريقي أو سرياني وفي هذا إثبات سبق الطبري وعلو كعبه في هذا المنهج ..

ولأن "روزنتال" يشك فان الأستاذ عبدالحميد العبادي لا يشك في أن توقيت الأحداث بالسنين والشهور والأيام ضابط إنفرد به مؤرخو المسلمين من اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى.^١ وفي مقابل شك "روزنتال" تؤكد الدكتورة سيده كاشف أن الكتابة التاريخية السريانية لم يكن لها قط تأثير على المؤرخين المسلمين على الرغم من قيام مدارسهم في "الرها" و"نصيبين" و"جنديسابور" بممارسة نشاطها العلمي في الترجمة عن طريق الإغريق، وأن التأثير الذي نلمسه عند بعض المؤرخين المسلمين القدماء إنما كان في كتب التاريخ الفارسية فيما يختص بالتاريخ الإيراني القديم.^٢

وفي العصور الإسلامية المتأخرة طرأ تطور على كتابة التاريخ الحولي بإحساس المؤرخين المسلمين بالحاجة إلى ترتيب إضافي للمادة التاريخية في وحدات زمنية أوسع، بإدخال التقسيم الفرعي للحوادث بتتبع نظام العقود من السنة الأولى إلى السنة العاشرة كما فعل المؤرخ الإسلامي الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ)

^١ - هر نشو، علم التاريخ.

^٢ - سيلة كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٥٠

في كتابه الكبير "تاريخ الإسلام" غير أنه استمد نظام العقود في تاريخه من تاريخ السيرة رابطاً بذلك بين أدب الطبقات والتراجم،^١ الذي ترجع إليه أصول التقسيم حسب القرون ككتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني ومثله من الكتب. وهي إما مرتبة حسب السنين أو حسب حروف الهجاء. وقد تفنن علماء المسلمين في الكتابة التاريخية فتعددت مناهجهم وتوعدت لتاريخهم الإسلامي الذي كانت معرفته عند المسلمين تنساب من أعلى طبقات المجتمع إلى جميع طبقات الموظفين والعلماء ومن كانوا يريدون لأنفسهم من الثقافة نصيباً. وكان المنهج العلمي في تدوين التاريخ الذي بدأه السخاوي بتأليفه لكتاب "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" وقد كتب للدفاع عن التاريخ كموضوع ثقافي يساعد في مناهج الدراسة الدينية. وقد رأى روزنثال أن الكتاب يمثل منهج رجل مفعم بالحماس لجمع التفاصيل. وهو يمثل نهاية حقبة عظيمة من البحث عن معضلات كتابة التاريخ الإسلامي. وهو يمثل أيضاً عرضاً شاملاً ورائعاً لعلم التاريخ الإسلامي.^٢

ويجئ منهج المعاينة والمشاهدة ليؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المؤرخين المسلمين قد سلكوا جادة الطريق والتزموا التثبت والتيقن في تتبعهم الحوادث وذكرها مهما كلفهم ذلك، فمحمد بن عمر الواقدي المؤرخ الذي سارت لذكره الركبان، لم يمنعه ما بلغه من مكانة وحازه من شهرة من البحث المضني عن أصح المصادر وأصدقها وأوثقها لما

^١ - فرانز روزنثال، مرجع سابق ص ١٢١

^٢ - عبد العليم عبد الرحمن. مرجع سابق، ص ٢٠٨-٢٠٩.

يكتب حتى كان يقول (ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء، ولا مولى لهم إلا سألتهم، هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده..؟ وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعابته ..") (فالمعانيه تدل على منهج سليم من مناهج كتابة التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأولين، تمتزج فيه المعانيه بالمعرفة وتتكون من ذلك الحقيقة التاريخية التي ينشدها.^١

ولأن المؤرخين المسلمين كانوا يظهرن تقديرأً خاصاً للوثائق ذات القيمة التاريخية فقد أفردوا لها منهجاً وهو منهج استخدام الوثائق والنقوش والنقود، ق تضمنت كتب التاريخ الكثير من الوثائق التي وردت في شكل آداب السلطان خاصة ما كان من نوع الخطابات الدينية الزهديه. وتجدر الاشارة إلى أن المؤرخين المسلمين استخدموا نقوشاً تاريخية دقيقة، وخاصة مما كتب بالعربية، وقد أورد بعضاً منها بعض مؤلفي التواريخ العامة. كما عرف المؤرخون المسلمون النقود كمصدر من المصادر التاريخية ورووا أخبار الكشفي عنها.^٢

منهج النظره الكلية للتاريخ

ولعل طريقة المنهج الحولي التي سار عليها أوائل المؤرخين المسلمين هي التي حالت بينهم وبين الربط الكلي لوقائع التاريخ، فغابت عنهم النظره الكلية لجوهر التاريخ، حتى جاء ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ - ٨٠٨) فكشفي في مقدمته الرائعة عن نظره

^١ - عبد العليم عبد الرحمن، المسلمون وكتابة التاريخ. المرجع السابق. ص ٢١١-٢١٢.

^٢ - نفسه، ص ٢١٦-٢١٨.

كلية للتاريخ، وإدراك عميق لجوهره حتى عدّه مؤرخو أوروبا في العصر الحديث "شيخ مؤرخي المسلمين"، وهي نظرة إن غفل عنها مؤرخو المسلمين قبل ابن خلدون فإن التاريخ الأوروبي غفل عنها حتى عصر الاستتارة أو ما يعرف بالنهضة. وكانت مآثر ابن خلدون على علم التاريخ إنه حمل الواقعة من اطارها الجزئي إلى إطارها الكلي، ومن غمار الواقعة إلى إطار المكان والزمان.^١

مناهج المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي

والنزعة العنصرية تبدو واضحة في تعريف الاستشراق بكل أنواعه، سواء الشرق الاكاديمي في الأعمال والمؤلفات (الأدبية والشعرية) التي تكتب عن الشرق أو في المؤسسات السياسية والاستعمارية التي يتعامل الغرب من خلالها مع الشرق.^٢ وفي حديثه عن المستشرقين وكتابة التاريخ الإسلامي يذكر د. جلال العطية أن الاستشراق كفكر يقع بين فكرتين أساسيتين كونهما الغرب عن الشرق؛ الأولى هي الملامح التي رسمها الأوروبيون عن الشرق من خلال الأحقاد الدينية الإقليمية، وقد لعبت الاحتكاكات العسكرية دوراً في رسم هذه الملامح، والثانية الصور التي رسمتها أقلام مجموعة من المفكرين والأدباء الغربيين، فضلاً عن مساهمة الإعلام الغربي في هذه الصور.^٣

^١ - نفسه، ص ٢١٦ - ٢١٧

^٢ - صبحي ناصر حسين. موقف المشاركة من المستشرقين: سلسلة كتب الثقافة المقارنه. الاستشراق. العدد الاول كانون الثاني ١٩٨٧، دار الشؤون الثقافية العامة، الاعظمية، بغداد، ٤٧

^٣ - جلال العطية. المستشرقون ودراسة التاريخ الإسلامي "منشور على الانترنت"

ومما ذكر فليس من الحكمة حصر الاستشراق في الإطار الأكاديمي فقط هو أمر لا يخلو من خطر داهم إذا ما أحسن المستشرقون استغلاله ووظفوه خدمة لاغراضهم الدنيئة وعلاجاً لنفوسهم المريضة بحقن المزيد من سمومهم في جسد الأمة الذي لم يسلم جزءاً منه من الإصابة بأمراض الاستشراق. فليس شرطاً أن يكون الاستشراق دراسات أكاديمية وإن بدت في ظاهرها كذلك، وفي باطنها دراسات سياسية استعمارية. فظاهرة الاستشرق ترتبط ارتباطاً عضوياً بظاهرة الاستعمار فحيث يكون الاستعمار يكون الاستشراق، وحين يتوسع الاستعمار يتوسع الاستشراق، فالاستعمار يصاحب دائماً الاستشراق، والتوسع الاستشراقي يصحبه دائماً التوسع الاستعماري.^{٤١}

ومن هذا نري أن أصل الاستشراق استعمار وعليه فإن أول مولود شرعي للاستعمار هو الاستشراق، لذا فمن الغريب حقاً أن رحيل الأب (الاستعمار)، لم يصاحبه رحيل الابن (الاستشراق) الذي ظل ينمو ويتعرع ويقوى عوده تحت مسمى الدراسات الأكاديمية من أجل رفاهية الشعوب المستعمرة وتطورها ورفيها، فيجد القبول والرضا، من فريق من المسلمين صرفهم الإعجاب بنشاط المستشرقين العلمي في بلادهم عن حقيقة الاستشراق وأهميته، فيتناول من أمور المسلمين ما لا يتناولونه هم أنفسهم، وينشر من تراثهم ما كان ينبغي أن يقوموا هم بنشره

^{٤١} - أحمد غراب مرجع سابق، ص ٨

وتحقيقه، ومن ثم يكبر فيهم جلدهم وصبرهم ودقتهم في البحث، فيروح يتلمذ عليهم، فينقل عنهم ويأخذ عنهم مفاهيم دينه.^١

ويتحقق بهذا هدفاً رئيساً للاستشراق وهو صرف المسلمين عن دينهم كما يقول زويمر: (لا ينبغي أن يغضب المبشرون حين يرون نتيجة جهودهم ضعيفة. إن مهمتنا الأولى ليست هي تنصير المسلمين.. وإنما هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفي هذا نجحنا نجاحاً باهراً بكل تأكيد..)^٢.

ومبلغ النجاح هو ما لخصه الشيخ محمد قطب بقوله: (إن حركة الاستشراق أخطر بكثير مما تبدو "للطبيين" الذين يرون ألا خطر منها على نفوس المسلمين، ما دام أن أحداً لم يهدم أو ينتصب حين يقرأ ما يكتبه المستشرقون).^٣ والحقيقة الجلية التي لا تخطئها العين هي أن تحامل المستشرقين على الإسلام غريزة موروثية، وخاصة طبيعية على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول في عقول الأوربيين.^٤

^١ - م حمد قطب. مرجع سابق، ص ٧

^٢ - المرجع نفسه، ص ١٠

^٣ - نفسه، نفس الصفحة .

^٤ - الإسلام على مفترق الطرق. ترجمة الدكتور عمر فروخ، ط ١، ص ٥٨ - نقلا عن محمد قطب.

الإسلام والمستشرقون، ص ١٠

فالأمر الواضح أن الاستشراق تعبير انفعالي كتابي عن روح الهزيمة التي لحقت بأوروبا في الحروب الصليبية التي أفرزت حقدا دفيناً على دين الإسلام ونبِيِّه والمسلمين.

والأكثر وضوحاً أن دراسة مناهج المستشرقين تحتاج إلى بحث مستقل لا يمكن لمادة تكتب في موسوعة علمية أن تتناوله، ولكننا نشير إلى أن الاستشراق نال حظاً جيداً من الدراسة في الجامعات العربية والإسلامية ومن قبل بعض الباحثين المسلمين. ونذكر إن من أهم هذه الكتابات بدأ به الدكتور مصطفى السباعي كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) حيث ناقش منهج المستشرقين في دراسة السنة النبوية الشريفة. وتلت ذلك دراسات أبرزها ما كتبه الدكتور محمود حمدي زقزوق. وكذلك ما أصدره مكتب التربية العربي بالتعاون مع مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي ١٤٠٥ (مجلدين) بعنوان (مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية)، وهناك دراسات كثيرة لمناهج المستشرقين في بحوث الاستشراق في كلية الدعوة بالمدينة المنورة. وقد تنوعت مناهج المستشرقين بتنوع مدارسهم والعصر الذي كتبوا فيه، ففي بدايات الاستشراق كان المنهج السائد هو المنهج القائم على الجدل والتعصب والحقد. ولعل هذه الروح العصبية الحاقدة استمرت مع عدد من المستشرقين حتى الوقت الحاضر. وهناك من المستشرقين من تظاهر بالموضوعية في دراسة الدين الإسلامي، ولكنه كان يخفي ذلك تحت ستار الموضوعية واستخدام منهج الإسقاط في دراسة الدين

الإسلامي. فمن أهم شروط الموضوعية احترام مسلمات الدين الإسلامي وثوابته.

المستشرقون وكتابة التاريخ الإسلامي

التاريخ الإسلامي فرع أساسي من فروع الدراسات الإسلامية وله صلة وثيقة بالعلوم الدينية كالحديث والفقه وغيرهما^١ فالقرآن هو المصدر الأول لدراسة علم التاريخ عند العرب، ويليه الحديث والسنة، وكانت بداية التأليف العلمي وثيقة الصلة بهذين المصدرين، وعلى هذا الأساس كان علم التاريخ العربي الإسلامي عند نشأته يقوم بادئ ذي بدء على دراسة (السيرة النبوية) وأخبار الغزوات ومن أسهم فيها، وكان مركز نشاط هذه الحركة التاريخية يتمثل في مكة والمدينة^٢.

وفي مجال اهتمام المستشرقين بدراسة التاريخ العربي الإسلامي سنجد عدداً كبيراً جداً من دراسات المستشرقين موجهة على كتب التاريخ، ونشرها وأصولها ومصادرها، وأحداثها، وكتب تاريخ السير والمؤرخين، منذ عهد الرواية إلى التدوين، إلى المؤرخين الكبار (الطبري وابن الأثير، مثلاً) وصولاً إلى ابن خلدون. ودراساتهم التاريخية تقوم على تقسيمات جغرافية وإقليمية وعنصرية ومذهبية وطائفية، القصد منها التفكيك والتفتيت والتمزيق^٣.

^١ جمال العطية. مرجع سابق ٣٢

^٢ - عبد العليم عبد الرحمن مرجع سابق، ٨٣

^٣ عبد الامير الاعسم. مرجع سابق

والمتتبع لكتابة المستشرقين عن تاريخ الإسلام يلاحظ أنهم ركزوا أول ما ركزوا على هدم الأساس الذي قام عليه التاريخ الإسلامي وهو النبي (صلى الله عليه وسلم) وسيرته الطيبة العطرة، فوصفه رواد الاستشراق من الكتاب المسيحيين الغربيين في القرون الوسطى وعصر النهضة بعدة أوصاف مفتراة، تدور كلها حول اتهامه بالكذب، وادعاء الوحي وأنه مبتدع للإسلام، مؤلف القرآن ومن ثم ينسبون إليه الإسلام فيقولون: المحمدية، كما ينسبون المسيحية إلى المسيح، وكذلك وصفه (صلى الله عليه وسلم) بالسحر والشهوانية، والدعوة إلى الإباحية الجنسية، والغدر، والعنف، ونشر الإسلام بالسيف، وأن الإسلام نفسه نوع من الهرطقة.^١

ولعل المتتبع لواقع الممارسات الاستشراقية في العالم الإسلامي يرى بوضوح ضلوع الاستشراق في خدمة المخططات الاستعمارية وإحياء الصراعات العصبية، وإثارة الخلافات المذهبية والفقهية وتضخيمها، لأجل إثارة الفتن بين المسلمين، ولهذا ركز المستشرقون على دراسة التاريخ العام للأمة الإسلامية وخاصة الجوانب القائمة فيه فأولوا اهتماماً خاصاً لتاريخ الحركات الباطنية.^٢ وعموماً نلاحظ أن دراسات الإسلام والتاريخ الإسلامي لدى المستشرقين تبدأ كثيراً بالافتراض التقليدي بأن

^١ - أحمد عبد الحميد غراب. رؤية إسلامية للاستشراق، كتاب المنتدى - سلسلة تصدر عن

المنتدى الإسلامي ٢١-٢٩

^٢ - محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، ص ٢٠٧-٢٠٨.

الإسلام يتكون من ألوان مختلفة من التأثيرات الأجنبية التي لو دقت فسوف تفسر لنا أسباب تشويه صورة الإسلام في الغرب.^١

ولكن ولله الحمد والمنة فإن الإسلام لم ينتشر بحد السيف كما يزعم المستشرقون مصداقاً لقوله تعالى: "لا إكراه في الدين" {البقرة: ٢٥٦} وما كان للرسول (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه المؤمنين أن يخالفوا تعاليم القرآن الصريحة التي لا تحتمل اللبس ولا التأويل. فالمسلمون لم يستخدموا السيف قط لإكراه الناس على اعتناق الإسلام، يؤكد على ذلك أنهم حكموا الأندلس ثمانية قرون ومثلها الهند فلم يجبروا فرداً واحداً على التخلي عما كان يعبد للدخول في الإسلام.^٢ ولأن الإسلام لم ينتشر بحد السيف فإن تاريخنا الإسلامي لم يكتب بحد السيف أيضاً، بل بالمجادلة والتي هي أحسن أسوة واقتداءً بدعوة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) الناس، من خلال حضارة المسلمين التي جاءت لتبني الإنسان وتعمّر المكان.

ولأن تاريخ العرب هو تاريخ الإسلام لم يغمض للمستشرقين الغربيين جفن منذ أن بدأ علم التاريخ العربي الإسلامي نشأته بالقيام على دراسة (سيرة النبي) وأخبار الغزوات ومن أسهم فيها.^٣

^١ - جمال عطية مرجع سابق

^٢ - الشيخ محمد قطب. المستشرقون والإسلام، القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ

١٩٩٩م، ص ٨٠-٨١

^٣ - عبد العليم عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٨٣

ولذلك كان من الطبيعي أن يترك المستشرقون العرب جانباً ويصوّبوا سهامهم المسمومة صوب الرسول محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) النبي العربي المبعوث للناس كافة ولهذا لم يكن من المستغرب البتة أن يركّز الاستشراق جهده على الحط من شأن العرب من خلال دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من الدول الاستعمارية للشرق بثتى جوانبه: تاريخه وثقافته، وأديانه ولغاته، ونظمه الاجتماعية والسياسية، وثوراته، وإمكاناته من منطلق النفوذ العنصري والثقافي على الشرق، بهدف السيطرة عليه لمصلحة الغرب، وتبرير هذه السيطرة بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعلمية والموضوعية.^١

مكمن الخطر في هؤلاء ليس في أشخاصهم وإنما في تأثيرهم من خلال وجودهم في المناطق ذات التأثير المباشر على المجتمع مثل المؤسسات التعليمية والتربوية، فقد كان من أخطر ما واجه التاريخ الإسلامي هذه المجموعة من أتباع المستشرقين وحملة ألوية الفكر الغربي ودعاة التغريب الذين سيطروا على مجال التربية والتعليم، والذين ما زالوا منبثين في عديد من الجامعات والمعاهد الخاصة بالإرساليات حيث نجد الشباب المسلم يعرف عن نابليون أكثر مما يعرف عن خالد بن الوليد وطارق بن زياد.^٢

^١ - أحمد غراب. مرجع سابق ص ٦

^٢ - عبد العليم عبد الرحمن. مرجع سابق، ص ٧١

وأتباع المستشرقين للأسف هم الذين ينفذون سياسة أساتذتهم على الأرض عبر واجهة أكاديمية مكتوب عليها مسمى تعليمي أو تربوي، ولا مندوحة إذا ما رأينا كثرة المتخصصين في تاريخ أوروبا بإشكاله وأنواعه وقلّة المتخصصين في التاريخ الإسلامي الذي يستمد حياته وحيويته وطاقته على البقاء والاستمرار، من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي فيه تبيان لكل شيء لم يستبينه المستشرقون وتلامذتهم الذين عميت أبصارهم عن رؤية الحق وضاح أبلج. وكذلك يستمد شبابه وعنفوانه من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم والتي جاءت مفصلة لما أجمل وأشكل في كتاب الله حيث ظل فهم الاستشراق والمستشرقين قاصراً عن فهم محتواه.

إن مسألة المنهجية التي طبّقها المستشرقون في دراساتهم للتاريخ الإسلامي منذ منتصف القرن التاسع عشر مسألة تتسم بأسباب نادرة **لأسباب عدة منها:**

أولاً: أنها تستحوذ على اهتمام الدارس الغربي والشرقي كليهما والمهتمين بدراسة الاستشراق.

ثانياً: إن مسألة المنهجية الغربية في التاريخ الإسلامي أمر مشوق إزاء دخول المنهجية العلوم الاجتماعية بصفة عامة وفي مجال التاريخ بصفة خاصة .

ثالثاً: إن منهجية المستشرقين مهمة بالنسبة للتاريخ الإسلامي إذ إنها تمس موضوعاً دقيقاً هو طبيعة التاريخ الإسلامي وجوهره، ومن ثم أثرت على الطريقة التي كوّن المسلمون بها صورة لأنفسهم في سياق تاريخهم.^١

فليس من العدل أن نجمع المستشرقين كلهم في دائرة واحدة ونحكم عليهم حكماً مشتركاً فنزعم أن منهجهم كان واحداً في كل الأزمان وفي كل الموضوعات التي تناولوها، ونثمن هذا بما ذكره الدكتور عبد الأمير الأعسم وهو يتحدث عن مواجهة الاستشراق المعاصر بقوله: "بعد كل هذا نلاحظ أن هناك من الباحثين من يبخسون حقوق "الاستشراق" جملة وتفصيلاً وهذا غلط نقترفه بحق عدد كبير من حسني النية من المعنيين بتراثنا وثقافتنا وعلومنا. ولا يمكن في هذا الصدد أن يقال أن جميع المستشرقين كانوا محرفين أو مشبوهين، كما لا يمكن القول أن كل ما كتبه المستشرق (فلان) هو تحريف وتصد لموضوعات تراثنا وثقافتنا ففي هذه الأقوال يكمن نوع من التعسف."^٢

وعلى هذا المنوال شككت فئة من الشرقيين بالمستشرقين وأعمالهم ونظروا إليهم من زاوية متشائمة، وأخذوا كل ما صدر عنهم بالحيطه والحذر، وحاولوا إبراز سلبياتهم، وأصدروا على أعمالهم

^١ - محمد بن عبود "منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي" مكتب التربية العربي لدولة الخليج. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الجزء الأول، ص ٣٤٣- ٣٤٤.

^٢ - عبد الأمير الأعسم "الاستشراق من منظور فلسفي عربي معاصر" سلسلة كتب الثقافة المقارنة - الاستشراق، العدد الأول كانون الثاني ١٩٨٧م، ص ٢٤

الطعن، وهذه بلا شك نظرة سلبية خالصة تعددت فيها الأسباب بين التعصب الديني والسياسي وغيرها، فكما كان للمستشرقين أهدافهم الدينية والسياسية، كان لهم أسبابهم للوقوف والتصدي لكل ما يسئ إلى دينهم وأمتهم ويحاول تفويض الدولة العربية الإسلامية.^١

وحفظاً لوقت القارئ وجهده في التعرف على المناهج التي اختطها عدد كبير من المستشرقين لكتابة التاريخ الإسلامي خاصة والعلوم الإسلامية عامة، **نجم ذلك في الآتي:**

أولاً:- محاولة رد معطيات الدين الإسلامي إلى أصول يهودية ونصرانية ويتمثل هذا الأمر في كثير من الكتابات حول الوحي وحول القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ونستشهد على هذا بأن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من الخريجين من كليات اللاهوت، وهم عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني.^٢ وقد ذكر طيباوي أن عدداً من المستشرقين الناطقين باللغة الإنجليزية يعتقدون بذلك ومنهم على سبيل المثال مونتجمري وات وبرنادر لويس وغيرهم.^٣

^١ - صبحي ناصر حسين " مرجع سابق.

^٢ عماد الدين خليل. دراسات تاريخية ص ١٥٩.

^٣ عبد اللطيف طيباوي. المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية. ترجمة قاسم السامرائي. ص ١٠-١٣ وانظر أيضاً البحث الذي كتبه التهامي نقرة بعنوان "القرآن والمستشرقون" في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ج ١، ص ٢١-٥٧.

ثانياً:- التشكيك في صحة الحديث النبوي الشريف؛ فقد دأب المستشرقون عموماً على التشكيك في صحة الحديث النبوي الشريف من خلال الزعم بأن "الحديث لم يُدوّن وقد نقل شفاهةً مما يستوجب في نظرهم عدم صحة الأحاديث".^١ والأمر الثاني في نظرهم كثرة الوضع في الحديث، والأمر الثالث اتهام المستشرقين للفقهاء بوضع الأحاديث وتلفيقها " لترويج آرائهم واختلاف الأدلة التي تسند تلك الآراء".^٢

ثالثاً:- البحث على الضعيف والشاذ من الروايات: يقول جواد علي "لقد أخذ المستشرقون بالخبر الضعيف في بعض الأحيان وحكموا بموجبه، واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً، أو كان من النوع الذي استغرية النقدة وأشاروا إلى نشوزه، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك".^٣

وهذا الأمر مشهور إلى حد كبير فهم يذهبون إلى الكتب التي تجمع الأحاديث وبخاصة مثل "كنز العمال" وغيرها من الكتب التي لا يرد فيها تصحيح أو تخريج الأحاديث، وقد كتب باحث بريطاني عن فتح المسلمين قسطنطينية بأنه وردت أحاديث عن أن الذي سيفتحها سيكون اسمه اسم نبي ثم لما لم تفتح أوعي أن الأحاديث لا تصح لأن تكون

^١ - عبد القهار دواد العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية عمان: دار الفرقان، ١٤٢١هـ ص ١٢١.

^٢ - المرجع نفسه، ص ١٢٢.

^٣ - جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨.

مصدراً، أما أنه لم يعرف صحة الحديث من عدمة فأمر لا يهمله وهو الذي يدعي العلمية والنزاهة.

رابعاً:- الاهتمام بالفرق والأقليات وأخبار الصراعات والبحث عن الوثائق والتاريخ السابق لبعثه الرسول صلى الله عليه وسلم. حيث كثرت كتابات المستشرقين عن الفرق كالشيعة والإسماعيلية والزنج وغيرهم من الفرق التي ظهرت في التاريخ الإسلامي وأعطوها من المكانة والاهتمام أكثر مما يستحق، بل إن هناك من أطلق عليهم لقب المعارضة لإعطاء ما قاموا به من عداوة لله ولرسوله شرعية، كما حصل بعضهم على درجة الدكتوراه في بحوث حول هذه الفرق.

خامساً:- الخضوع للهوى والبعد عن التجرد العلمي: يقول الدكتور عبد العظيم الديب " فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، ونتيجة وصل إليها مقدماً، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك، ومن هناك يكون دأبه واستقصاؤه الذي يأخذ بأبصار بعضهم..."^١ وتلك هي أعلى مراتب الفهم للمستشرقين ومقاصدهم الحقيقية وأهدافهم الواضحة الجليلة التي ينبغي فهمها كما هي بالكلية العقلية .

سادساً:- التفسير بالإسقاط: يشرح الدكتور الديب هذا الخطأ المنهجي بأنه " إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في

^١ - عبد العظيم الديب. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي. قطر : كتاب الأمة، عدد ٢٧ ص ٥٢.

أعماق التاريخ فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم".^١

فمثلاً واقع الغربيين يدل على تنازعهم على السلطة وإن كان الأمر يبدو في الحاضر انتخابات وحرية اختيار، لكن الحقيقة أن من يملك المال يستطيع أن يصل إلى الأصوات حتى صدر في أمريكا كتاب بعنوان "بيع الرئيس" وكتاب آخر عن "صناعة الرئيس". فجاء المستشرقون إلى بيعة الصديق "رضي الله عنه" فصوروها على أنها اغتصاب للسلطة أو تأمر بين ثلاثة من كبار الصحابة هم والله أنقي البشر بعد الانبياء والرسل وهم أبوبكر وعمر وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين. فزعموا أن هؤلاء الثلاثة تأمروا على أن يتولوا الخلافة الواحد تلو الآخر، وذكروا كذلك أنهم سموا المنافقين بالمعارضة وغير ذلك من الإسقاطات التي تدل على سوء طوية وخبث وبعد عن المنهج العلمي.^٢

سابعاً:- المنهج الانتقائي وإثارة الشكوك في معطيات السُّنة والتاريخ فقد عرف عن كثير من المستشرقين في كتابيهم حول السيرة النبوية الشريفة وحول التاريخ الإسلامي أنهم ينتقون بعض الأحداث والقضايا ويكتبون عنها ويهملون غيرها، كما أنهم يشككون في أمور من المسلمات لديننا في التاريخ الإسلامي فمن ذلك أنهم كما قال د. محمد فتحي عثمان "لقد قالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك

^١ - المرجع نفسه ص ٩-١٠.

^٢ - عماد الدين خليل، مرجع سابق ص ١٧

وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجوده.."^١

ثامناً: التحريف والتزييف والادعاء : فقد قام بعض المستشرقين بتحريف كثير من الحقائق التي تخص الإسلام وتاريخه فمن ذلك مثلاً أن بعضهم أنكروا عالمية الإسلام وبخاصة فيما يتعلق برسائل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الملوك والأمراء خارج جزيرة العرب كرسائله إلى هرقل والمقوقس وكسرى، وإنكار عالمية الرسالة الإسلامية يظهر فيما كتبه جوستاف لوبون في كتابه "تاريخ العرب" حيث زعم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) رأى أنه كان لليهود أنبياء وكذلك للنصارى فأراد أن يكون للعرب كتاب ونبي، وكأن الرسالة والنبوة أمر يقرره الإنسان بنفسه. أما التزييف فانتقل ما أورده الدكتور الديق من رواية عن أموال الزبير بن العوام "رضي الله عنه" فقد أورد "ديورانت" هذا الخبر " وكان للزبير بيوت في عدة مدن، وكان يمتلك ألف جواد وعشرة آلاف عبد .." والخبر كما أورده المصادر الإسلامية الموثقة هو كالاتي " كان للزبير ألف من ذلك يؤدون إليه خراجهم كل يوم، فما يدخل إلى بيته منها درهماً واحداً، يتصدق بذلك جميعه " وفي مناقشته الخبر أوضح الديق أن المستشرق أضاف ألف جواد أقحمها في الخبر وليس لها أساس. ثم إن في الخبر أن

^١ - محمد فتحي عثمان، اضاء على التاريخ الإسلامي ص ٦٩

الزبير رضي الله عنه يتصدق بكل دخلهم لا يدخل بيته منها شيء فلم يورده فهل هذا من الأمانة العلمية؟^١

تاسعاً: اعتماد مصادر غير موثوقة لدى المسلمين: من العيوب المنهجية في الدراسات الاستشرافية أنهم يعتمدون على المصادر غير الموثوقة عند المسلمين فيجعلونها هي المصدر الأساسي لدراساتهم وبحوثهم، ومن ذلك أنهم يرجعون إلى كتاب مثل كتاب "الأغاني" للأصفهاني فيجعلونه مرجعاً أساسياً في دراساتهم للتاريخ الإسلامي وللمجتمع الإسلامي، كما يعتمدون إلى المراجع التي ضعفها العلماء المسلمون أو طعنوا في أمانة أصحابها فيجعلونها أساساً لبحوثهم، أو كان أصحاب تلك المراجع منحازين إلى فئة معينة أو متعصبين .

موضوعية المستشرقين وجهودهم العلمية :

يقول الدكتور أحمد السيد في كتابه السيرة النبوية "المنشور على الانترنت": في البداية يجب الاعتراف بكل وضوح وصراحة بجهود المستشرقين في خدمة التراث العلمي الإسلامي. لقد كرسوا طاقتهم لدراسة العلوم الإسلامية، وشغفوا بالبحث في كنوزها، وبذلوا في تحقيقها وتحليلها جهوداً ضخمة. ويكون من المكابرة والجحود إنكار فضلهم وجهودهم. فبفضل تلك الجهود برز كثير من كنوز التراث العلمي الإسلامي إلى الوجود، بعد قرون من الانزواء في المكتبات، وعرفت طريقها إلى نشر ومعاينة النور، فكم من مصادر علمية ووثائق

^١ - عبد العظيم الديب، مرجع سابق، ص ١١٥-١١٦.

تاريخية صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وطاقاتهم، ومع الاعتراف بفضلهم يجب التأكيد بأن عدداً كبيراً منهم كان هدفه البحث عن مواضع الضعف في الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي واستغلالها لغايات سياسية أو دينية.^١

وفي حديثه عن المستشرقين وكتابة التاريخ الإسلامي يذكر الدكتور جمال العطية: أن الاستشراق كفكر يقع بين فكرتين أساسيتين كونهما الغرب عن الشرق؛ الفكرة الأولى هي الملامح التي رسمها الأوروبيون عن الشرق من الأحقاد الدينية والأقليمية، وقد لعبت الاحتكاكات العسكرية دوراً في رسم هذه الملامح، أما الثانية فهي الصور التي رسمتها أقلام مجموعة من المفكرين والأدباء الغربيين فضلاً عن مساهمة الإعلام الغربي في هذه الصورة.^٢

ومن ناحية التزامهم المنهج العلمي في الكتابة التاريخية فبينما يرى الدكتور العطية أنه لا بد من الإقرار بأن معظم المستشرقين يستخدمون طرقاً علمية في البحث والتحليل التاريخي إلا أنه يرى أن هذا لا يمنع من إساءة استخدام هذه الطرق أحياناً.^٣ فهو بهذا يثبت الاستخدام ولا ينفي إساءته ولو أحياناً.

وفي هذا السياق ذهب الدكتور أحمد أبوريد إلى أن المستشرقين يجافون المنهج العلمي وذلك بإهمالهم المبادئ الأولية لهذا المنهج والانطلاق

^١ - أحمد أبوريد مرجع سابق - على الانترنت

^٢ - جمال العطية. مرجع سابق. منشور على الانترنت

^٣ - المرجع نفسه.

من مزاعم باطلة في دراسة الإسلام مثل بشرية القرآن وعدم صدق النبي وذلك باعتمادهم في جمع المعلومات على مصادر غير علمية، وتجاهل المصادر الحديثة، والاستدلال بالروايات الواهية الساقطة، وإغفال الروايات القوية الصحيحة^١.

وعليه فلا يصح أن نأخذ تاريخنا من كتابات جورجي زيدان أو فيليب حتي أو ساطع الحصري، أو بأسلوب المبشرين المتعصبين والمستشرقين، فلا بد من تدريس التاريخ وتدوينه من وجهة النظر الإسلامية من منطلق إسلامي وبقلم من يقف في المركز الإسلامي يطل على الحياة الإسلامية ويعيش الباحث بكل كيانه في جو الإسلام^٢. ولهذا لا يختلف اثنان على أن تاريخنا الإسلامي قد نال بعض أحداثه نصيباً من التشويه والشبهات التي حاكها بعض المستشرقين ومن سار على دربهم، مثل شبهة أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن هدف الجهاد الإسلامي مادي، وتشويه الفتوحات الإسلامية بأن السبب فيها هو المرأة وغيرها من الشبهات^٣.

وفي ذات السياق يقول الدكتور محمد بن عبود الملاحظات العامة عن بعض الجوانب الموضوعية للاستشراق لا تعني أن جميع المستشرقين

^١ - أحمد ابو زيد. مرجع سابق

^٢ - أحمد بهاء الدين " إعادة كتابة التاريخ " متي وأين ولماذا " مجلة العربي. العدد ٢٥٦، ربيع الثاني، ١٤٠٤هـ مارس ١٩٨٠م

^٣ - عبد الله ناصر. " هل كانت المرأة سببا في الفتوحات الإسلامية " مجلة العربي لعدد ١٩٥، ربيع الآخر سبتمبر، أكتوبر ١٩٩٣م

لا يتسمون بالموضوعية، بل على العكس من ذلك نجد أن بعض المستشرقين البارزين قد ضربوا بسهم كبير في الدراسات الإسلامية وأقاموا علامات على الطريق في مجال البحث العلمي بما في ذلك الدراسات في سائر العلوم الاجتماعية ووجهوا الأجيال اللاحقة من المستشرقين.^١

ومسألة موضوعية المستشرقين وإنصافهم للإسلام والمسلمين ليست إلا ضلال وتضليل للمسلمين وليس كما يزعم بعض المسلمين أنها من أجل خدمة العلم وحده إذ العلم في الإسلام إنما هو وسيلة، وليس غاية^٢. يقوي من ذلك سبب موضوعي واضح يحول بين المستشرقين وبين الموضوعية والأمانة العلمية، وهو عداوة وكره معظمهم للإسلام، وحقدهم الصليبي عليه وهو الحقد الذي يتغلغل في كل دراساتهم لهذا الدين. ففيما يتعلق بالإسلام لا تجد موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب، كما هو الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات، بل هو كره عميق الجذور، يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية. وإن اعتبرنا الأعمال العلمية التي أنجزها المستشرقون في شتى فروع الدراسات الإسلامية بحر لا ساحل له، فأكثرها انتشاراً

^١ محمد بن عبود. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. مكتب التربية العربي لدول الخليج. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ج ١ "منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ

الإسلامي " ٣٦٥

^٢ - أحمد غراب. مرجع سابق ص ٧٩

وتداولاً بين الباحثين من جميع المستويات، هي دائرة المعارف الإسلامية التي أصدرها وأشرف على تحريرها نخبة من المستشرقين، برعاية الاتحاد الدولي للمجامع العلمية. وجل موادها متعلقة بالإسلام والمسلمين، فيها كثير من الآراء والمعلومات التي تحتاج إلى المراجعة والتصحيح .

فالاعتراف بالحق فضيلة والنظر في فحوى اتباعه واجب، فلا أحد ينكر فضل المستشرقين في هذا، ولا عين تخطئ فضل الإسلام والحضارة الإسلامية على الغرب، ولكن أي الفضلين أفضل، فضل من بخل واستغنى وآثر واستعلى، أم فضل من آمن واتقى وبذل وأعطى بلا من أو أذى؟ نحمد لهم تسليطهم الضوء على ما كان مهجوراً من تراثنا الإسلامي فرأى النور فلولا لما كانت لهم علوم ومعارف، فلأجل أنفسهم بذلوا الجهد حتى يكون لهم فيه غاية المجد، وقد أصابوا فلا يزالون يجدون من يشيد بما عملوا .

وحتى تتم مواجهة خطر مناهج الاستشراق في كتابة التاريخ الإسلامي وما ترتب عليها من أضرار فقد تعالت أصوات بالدعوة إلى ضرورة التفكير في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي من جديد وعرضه عرضاً سليماً للأجيال وتخصيصه بأسلوب علمي هادف، من وضع منهجية سوية وقواعد موضوعية بهدف تقديم الحقيقة في قالب يجمع

الصواب الذي يعرض، والأسلوب الذي لا يعود على الأمة في مختلف عصورها بالإحباط ويقودها إلى مزيد من الفرقة والتمزق والضياع.^١

النتائج:

١- مناهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين المسلمين مصدرها الأساس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بينما مناهج المستشرقين مصدرها كل ما من شأنه طمس معالم المنهج الإسلامي في التوثيق والتحري والضبط والدقة.

٢- الموضوعية العلمية التي ادعاها ويدعيها المستشرقون بدعوى الأمانة العلمية والإنصاف ما هي إلا محاولة جادة لإيجاد أرضية يشكها بعض علماء المسلمين يشيد عليه المستشرقون صرحاً لا أساس له إلا الأباطيل والأكاذيب، وقد أفلحوا في ذلك، وبفضل أولئك تمكنوا من الوصول إلى غاية تبت لها علماء مسلمون تولوا الرد عليهم بالدليل الساطع والبرهان القاطع والحجة البينة.

معالجة الآثار التي نجمت عن مناهج المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي ينبغي أن تتم بموضوعية وحكمة وبمنهجية علمية إسلامية نزيهة، أمينة، ومنصفة.

^١ عبد الله ناصر "كيف نعيد الأنظار إلى التاريخ الإسلام" مجلة العربي، العدد ٢٩٩ السنة ٢٦ ذي الحجة ١٤٢٢هـ

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٧	الفصل الأول تاريخ العرب قبل الاسلام
٩	العرب والجيش
٣٦	حكم السميعة أشوع
٩٠	طرد الحبشة
١٠١	همدان وصنعاء ومأرب
١٠٨	أثر الجيش فى أهل اليمن
١٠٩	مكة المكرمة
١٦٩	الفصل الثانى مصطلح التاريخ الإسلامى
١٧١	مصطلح التاريخ
١٧٣	مصطلح التاريخ الإسلامى
١٧٥	مصطلح السيره
١٧٦	الوقائع التاريخية من السيره النبوية
١٧٧	الوقائع السلوكية من السيره
١٧٧	كتب السيرة والسنة النبوية
١٧٧	أهداف دراسة السيرة النبوية
١٧٨	الزاوية العقائدية
١٨٢	الآية التاريخية أعظم عبرة
١٨٤	الزاوية التربوية
١٨٥	أهداف السيرة النبوية فى القرآن

الصفحة	الموضوع
١٨٦	قدرة الأنسان على تحريف أخبار السيرة
٢٥٢	الرويات الموضوعية ضد الشيعة
٢٥٥	الفصل الثالث
	تاريخ الإسلام
٢٦٠	الاسلام وأركانها
٢٦٣	أركان الإسلام
٢٦٣	أولا الشهادة لله بالتوحيد
٢٦٩	ثانيا : الشهادة بأن محمدا رسول الله
٢٩٠	مفهوم العبادة فى الاسلام
٢٩٧	العبادة والأخلاق
٣٠٠	مراتب الأحكام التكليفية
٣٠٣	خصائص الشريعة الإسلامية ومقاصدها
٣٠٣	أولا: خصائص الشريعة الإسلامية
٣١٥	ثانيا: مقاصد الشريعة الإسلامية
٣٢٤	أركان الايمان
٣٩٤	خاتمة
٣٩٩	الفصل الرابع
	حقائق التاريخ الاسلامى
٥٠٢	الفصل الخامس
	مقدمة فى فقه النظام السياسى الاسلامى
٥٠٤	تعريف النظام السياسى
٥٠٤	تعريفه باعتبار أفضاه
٥٠٦	التعزيز والزجر والديب

الصفحة	الموضوع
٥٠٧	تعريف النظام
	المبحث الثانى : فى التنظيمات الإدارية فى النظام
٥١٠	السياسى الاسلامى
٥١٤	القسم الأول: من احكام الخلافة ومايتعلق بها
٥١٤	المبحث الأول: من أحكام الخلافة
٥٢٨	المبحث الثانى: أهل الحل والعقد
٥٣٢	تنظيم مؤسسة أهل الحل والعقد
٥٣٣	طريقة عملية لاختيار الخليفة
٥٤٥	موجبات خروج الخليفة عن الخلافة
٥٥٠	القسم الثانى: فى إدارة الدولة
٥٥٠	المبحث الاول: فيمن سشتتبيهم الخليفة
٥٥٤	المبحث الثانى : الشورى
٥٥٥	مجالات الشورى
٥٥٦	حكم الشورى
٥٨٢	الفصل السادس: كتابة التاريخ الاسلامى بين المؤرخين المسلمين والمستشرقين
٥٨٤	مناهج المسلمين فى كتابة التاريخ
٥٨٥	صور الكتابة التاريخية
٥٨٩	مناهج المسلمين فى كتابة التاريخ الإسلامى
٥٩٦	مناهج المستشرقين فى كتابة التاريخ الاسلامى
٦٠٠	المستشرقون وكتابة التاريخ الاسلامى
٦١١	موضوعية المستشرقين وجهودهم العلمية